أسطورة الآلة

لويس ممفورد

ترجمة: إحسان الحصني

لـويس ممفـورد

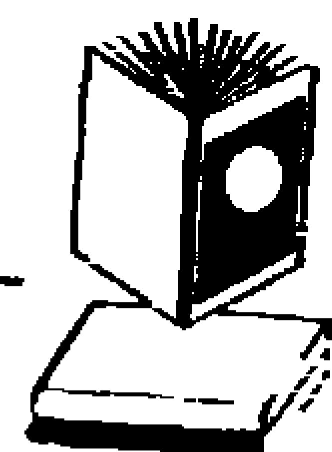
أسطورة الآلة

بنتاغون القوة

الجزء الثاني

« ٢ »

ترجمة: إحسان الحصني



منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق - ١٩٨٢

العنوان الأصلي للكتاب :

LE MYTHE DE LA MACHINE

Le Pentagone de la puissance

TOME II

LEWIS MUMFORD

تنوية القوة

١ ـ « رسالة الى اساتذة التاريخ

وبمقدار مايمكن ربط التقدم البشري بوقائع التغيير التكنولوجي الحاصل منذ الفترة الوسيطية فان تفسير هنري أدامز الذي ميز أثر هذا التغيير قبل أن يكون هنالك تاريخ تام في هذا الميدان أو ذاك بزمن طويل يبقى أفضل تفسير . فقد أدرك أدامز منذ أكثر من نصف قرن أنه قد حدث في ميدان الطاقة بدءاً من القرن الثالث عشر تزايد مستمر واستخدام متسارع وأن الأمر قد شكل في تغيير الحضارة الغربية عاملاً أساسياً .

وتبين لأدامز منذ عام ١٩٠٥ أن ذلك لايشكل حسنة لا شائبة فيها بالنظر إلى أنه يخشى أن يدمر تسارع الإيقاع تدميراً كاملاً البنية الإجتماعية التي تكشفت له طبيعتها المهتزة في شعوب متقدمة كانكلترا وفرنسا . وبقدر مايمكن لأي إنسان أن يتصدى لهذه المهمة بكثير من الجرأة ألزم أدامز نفسه بتهيئة معاصريه لفهم مثل هذا الموقف وللاستعداد لأحداث تغييرات مناسبة في عاداتهم الفكرية وفي مؤسساتهم . ومع أن فشل أدامز في إيقاظ ولو شرارة من ردود الفعل يجب أن ينقص من آمال من يريد أن يحذو حذوه فان هذه الواقعة نفسها تدل على جزء من موضوع الفصل الحاضر : وجود عادات ودوافع قديمة مرتبطة بأوهام بدائية تجعل ضحايا أسطورة الآلة عاجزين عن اتخاذ تدابير الدفاع الضرورية لإبطاء الأتمتة والسيطرة على القوى التي تهدد وجود الإنسان نفسه .

وليس أقل مايؤهل هنري أدامز لاحترامنا هو أنه توصل إلى فهم التغييرات الجذرية التي اختص بها القرن العشرون بحل رموز الماضي بطريقة استرجاعية انطلاقاً من تطبيقات الكهرباء العصرية وحل رموز المستقبل انطلاقاً من نتائج الراديوم المحتملة . ومما يدهش قوله هو أن أدامز كان الوحيد تقريباً الذي وعى أهمية هذه المسلمة الأخيرة ؛والواقع أن التغيير الجذري لكل فهمنا للعالم المادي الذي انبثق عن اكتشاف خواص العناصر المشعة بقي زمناً طويلاً مهملاً من قبل أغلبية معاصريه العلميين . لقد بقي فيزيائيون رفيعو الكفاءة غير مكترثين سواء بالطاقات التقنيه أو بالنتائج الإجتماعية لاستغلال الطاقةالذرية ومنهم وليس أقلهم اللورد ريتفورد شخصياً الذي شاطر آل كوري الاكبار الرفيع سواء كمجرب أو كفيزيائي نظري .

حتى قبل أن يجمع فريق من مؤرخي التكنولوجيا الأدلة عن الإستخدام المتزايد للطاقة بعد القرن الثاني عشر كان أدامز بتلخيصه هذا التغيير قد ترك بهدوء فكرة « الثورة الصناعية » الخداعة التي ظهرت في القرن الثامن عشر . وبحصافة توصل مباشرة إلى النقاط الحساسة في الخط البياني لتزايد الطاقة في أوربا الغربية . وقد عوض حدسه الخارق عن معارفه غير الصحيحة ورياضياته غير الناهضة وزاد عنها . وأكثر من ذلك أنه زاوج بين معدل زيادة الطاقة وقصر الحقبة الزمنية لكل مرحلة ، والنتيجة أنه تنبأ حتى بالإنتقال السريع الحالي من المرحلة الكهربائية إلى مرحلة أخرى قائمة على الطاقة النووية . وإذا استدعت التواريخ التي حددها تصحيحاً قليلاً فان ذلك لايقلل من تماسك جدوله العام . لقد كان في ذلك الجدول بالإستناد إلى الطاقة فقط خط بياني صحيح للتقدم واضح إلى درجة أنه

يمكن أن يترجم بتعابير رياضية على رسم كارتيزي . وكان الخط لدى بلوغه المرحلة النووية يصبح خطاً مقارباً ويجاوز الورقة

وعلى الرغم من أن هنري أدامز قد سعى إلى تأمين المساعدة العلمية لتفسيره فقد عجز عن استخدامها ؛ وقد ربط أيضاً ملاحظاته . وهو ينشد نوعاً من البنى النظرية ، بمبدأ فيزيائي غير ملائم أبداً لسوء الحظ ، إنه قانون الوهلات لفيلارد جبس الذي لم يوفر له في أفضل الأحوال سوى مجاز مبهم الإيحاء .وما حققه قانون الوهلات هو لفت الإنتباه إلى أن كل مرحلة قابلة للتحديد في توسع الطاقة تولد تغييراً في المواصفات غير متوقع شبيها بالإنتقال من حالة الجماد في الجليد إلى الماء ومن الماء إلى البخار . وقد يسمون الآن منذ تحليل لويد مورغان النافذ في كتاب (التطور البارز) كل وهلة لاحقة« بروزاً » .

كان الشبه خشنا وخداعاً كما عرضه هنري أدامز ومما يزيد هذا الشبه أنه يعطي هذا الإنتاج المتسارع للطاقة نظاماً مستقلاً كأحد نواميس الطبيعة كما يبدو . بينما أن القضية هنا هي بدلاً من ذلك قضية واقعة ملحوظة في حركة خاصة من التاريخ البشري . إنه النتاج المركب للمخترعات الإنسانيه كطاحونة الماء وطاحونة الهواء وبارود المدفع واستخراج الفحم وللنشاطات الإنسانيه في التجارة والإستكشاف والحرب وللاهتمامات العلمية وللمطامع السياسية الإنسانية التي ساعدت مباشرة وبطريقة غير مباشرة ، على توسيع ميدان الآلة ، وبايجاز أنه مجمع القوة الجديد .

فتزايد الطاقة لم يكن إذن التعبير عن القوى الطبيعية وحدها كقصف

الرعد . ولكن كالفينية أدامز غير المصححة قد جعلته يعتبر التغييرات التاريخية كما لو كانت قدراً مقدراً أصلها خارج تماماً عن الإنسان ومتجاوز سلطته وهلاكه أو نجاته على السواء كما في اللاهوت الكالفيني ، وقد قوى هذا اللاهوت المترسب نزعة العلم المعاصر بحتميته العقائدية . ولم يكن أدامز ليأتلف ذهنياً مع عالم يحسب فيه للنوايا الإنسانية حسابها ويمكن أن تكون فيه الأعمال البشرية ، بالرغم من تفاهتها على الصعيد الكمي . حاسمة بعض الأحيان كما كان يعتقد ج . كليرك ماكسويل .

وإذا كان أدامز لم يتوصل إلى تقديم شرح واف لديناميكية المنظمات الإجتماعية والرهبانية والملكية والرأسمالية التي شجعت هذه الزيادة الهائلة والمستمرة التسارع للطاقة من القرن الثاني عشر إلى القرن العشرين فقد سبق معاصريه كثيراً فيما يتعلق برسم النتائج الوشيكه . لقد أدرك أدامز منذ عام ١٩٠٤ الضيق النفسي الذي رافق الزيادات في القوة التي تحققت حتى ذلك الحين . وقد أعلن في رسالة إلى صديق : « إن الإزدهار الذي لم يتصور من قبل والقوة التي لم يمارس الإنسان مثلها أبداً والسرعة التي لم يبلغها شيء سوى الشهب قد جعلت العالم عصابياً كئيباً أخرق مذعوراً » . وتنبأ أدامزأيضاً في كتاب مؤثر أكثر لزميله المؤرخ هنري أو سبرن تايلور كتبه قبل سنة فقط تنبؤا أعجب هذا هو :

« إن مسلمة الوحدة التي كانت سمة الفكر الإنساني في العصر الوسيط قد سقطت في امتحانات التعقيد . وانذهال العلم أمام الراديو دليل على ذلك . ومن المؤكد تماماً مع ذلك وحسب رسومي وخطوطي البيانية العشرين أن الأمر لايتطلب قرناً أو نصف قرن بهذا المعدل المتسارع

للتقدم منذ عام ١٦٠٠ لقلب الفكر رأساً على عقب . وسيزول الحق في هذه الحال كنظرية أو مبدأ مسبق ويخلي محله للقوة . وتصبح الأخلاقية شرطة، وتبلغ المتفجرات العنف الكوني . ويتغلب الإنحلال على التكامل ».

إن الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا قد تتبعوا كتاباتي منذ عام ١٩٤٠ قد قرءوا هذا الكلام النذير الذي طبع فيما بعد في مجموعة رسائل أدامز . وإنني لاستميحكم العذر لذكرها أكثر من مرة مع أني آمل أن تكون هذه هي الأخيرة .

ماستشرفه أدامز في هذا المقطع هو النتائج الإجتماعية لازدياد القوة المادية دون ازدياد معادل للحدس العقلي والإنضباط الأخلاقي والوعي الإجتماعي وللقيادة السياسية المسئولة : إنها حاجة لم يعترف بها إلا حديثاً جداً من قبل حفنة من العلماء النوويين في اللحظة التي تم فيها اختراع « قنابل ذات قوة كونية » . ولم يكن توسع الطاقة بالذات هو الذي يجعل هذا التغيير المقبل خطراً إجتماعياً بل التراخي المرافق للمحارم الأخلاقية وللتابوات التي تصون الحياة ، إنها ممارسات تبين أنها أساسية من أجل البقاء الإنساني منذ أقدم المراحل .

لقد أتى الدليل على فهم أدامز العميق حتى قبل اختراع القنبلة الذرية ؛ والواقع أنه خلال تطور السلطة السياسية المحتكرة بكل أشكالها المتنوعة الإستبدادية أعيد الإرهاب والتعذيب والإبادة بالجملة كوسائل طبيعية للحكم . وتخلت الديمقراطيات الدستورية عن الأسس الأخلاقية وقوانين الحرب التي كانت الأمم المتحضرة تحترمها حتى ذلك الحين في صك مقاومة الفاشية بواسطة الحرب عام ١٩٤٠ وقلدوا العرق الفاشي المشين القائم على إبادة السكان المدنيين بدون تمييز . وهذا الإنهيار المحزن

للاخلاق قد سبق وبرر بتسجيل هذه السابقة استخدام القنبلة الذرية كوسيلة ارخص للحصول على النتيجة نفسها .

لقد كان الإسم الآخر لهذا التزايد الإنفجاري للطاقة إذن هو انحطاط الأخلاق الشمولي : إنها العقلية نفسها التي دفعت منذ عام ١٩٤٥ الدول– الحاميات لصنع القنابل النووية بكميات تكفي لازالة كل حياة على الكرة الأرضية . إن القوة بالقياس الذي تنبأ به أدامز قد جعلت (الذهان) أهلاً للاحترام بتوفيره الدعم العلمي والتكنولوجي لمطامع صبيانية ولأوهام نفاسية .

وفي السنة التي تلت وفاة أدامز ثبتت تعميماته الجريئة بالنظر إلى أنه قد حدث أن توصلت أعمال روتفورد عام ١٩١٩ إلى المدى الكافي لافتراض امكانية شطر الذرة نظرياً مدشنا بذلك الوهلة النهائية التي حدد أدامز عام ١٩١٧ موعداً لها . ولاحظ المساعد الرئيسي لروتفورد فريدريك سودي في تلك الفترة في النشرة الرابعة من كتابه ذي الجزأين عن الإشعاع الذاتي :

« إن قضية تحول وتحرير الطاقة الذرية لتضطلع بعبء الكدح في العالم لم يعد محاطاً بالسرية والجهل بل أصبح يرى مرتداً من يوم إلى يوم إلى شكل قابل للمحاكمة الكمية الرياضية ، ويجوز أن تبقى هذه القضية إلى الأبد بدون حل . غير أننا ماضون في التقدم على الطريق الوحيدة الكفيلة بأن تجلب لنا النجاح وبوتيرة تجعل من المحتمل أن نشهد يوماً الحصول على هذا النجاح . وإذا ماحان هذا اليوم فيجب ألا يتعامى أحد عن سعة الرهان وألا يتخيل أن مثل هذا الكسب لموارد البشرية المادية يمكن أن

يعهد به بكل اطمئنان إلى أولئك الذين حولوا في الماضي البركات التي جاء بها العلم إلى لعنات » .

إن الحس الحاد الخاص بالمسئولية الإجتماعية الذي كان يتمتع به سودي قد جعله ينتقل من أبحاث الفيزياء إلى قضية التعبير عن الطاقات التي أصبحت متاحة بتعابير اقتصادية ملائمة ؛ ولكن تكوينه كعالم أو بالحري نقص تكوينه في ميادين أخرى قد جعله يركز تفكيره على المراقبة الوطنية للمال وللاعتمادات وكذلك على توزيع الدخول مضيعاً بهذه الطريقة هدفه الواسع بتمسكه بهذا التحليل غير الكافي لعامل واحد . ولا يقلل ذلك من بقاء حدسه السباق موضع اعتبار رفيع .

لقد ابتعد هنري أدامز اذن قبل سودي عن تقاليد التاريخ العلمي الكلاسيكي باتخاذه تدبيرين جذريين . فقد ضرب عرض الحائط أولاً بقواعد البحث التاريخي بنقله معطياته عن انتاج الطاقة المتسارع في الماضي إلى المستقبل . وكان أدامز يرى كحتمي أن الأفكار والقوى المتحركة منذ عهد طويل ستواصل تحركها طوال المنحني الذي رسمه بالرغم من أن هذا المنحني قد صعد بطريقة حادة إلى درجة إنها تشير إما إلى نهاية مفاجئة أو إلى الدخول في وهلة جديدة مع افتراض عوامل جديدة لم تر في أي تطور تاريخي سابق .

ولكن التدبير الثاني الذي اتخذه أدامز كان أكثر أهمية بالنظر إلى أنه كان يناقض ايمانه الحتمي : إنه اقترح مبادأة متعمدة داخل الفكر تؤدي إلى سلسلة من التدابير المعتادة تتناسب والوضع المهدد الذي وصفه . ففي عام ١٩١٠ وفي رسالة موجهة إلى أساتذة التاريخ كان مقدراً لها أن تهز العقول إن لم نقل العالم لفت أدامز انتباه زملائه إلى التغييرات الجارية

آنذاك ونصحهم بأن يجهدوا ليفهموا القوى التي تعمل ولتوحيد ذكائهم كذلك في جهد واحد لتصور التغييرات المؤسسية الضرورية لتحويل هذه القوى الهائلة لصالح الإنسان بالنظر إلى أنه يخشى إن لم يسيطر عليها أن تقود القنابل ذات القوة الكونية الحضارة نفسها إلى منتهاها .

وقد سجلت في الفكر الغربي سابقاً استباقات كابوسية لاحتمالات مشابهة تماماً ، من الأحلام التي سجلها ليورنارد دوفانسي إلى تخيلات مدام بلافاتسكي التي لاتقل عنها شؤماً والتي طبعت أيضاً في القرن الثامن عشر. إن أدمون دي غونكور نفسه ، حسبما جاء في احدى رسائل اوسكار وايلد ، قد أعرب عن امكانية استخراج الهيدروجين من الهواء بغية « صنع آلة تدمير رهيبة » ولاريب أنه أخذ هذه الفكرة عن أحد أصدقائه العلماء (رسائل أوسكار وايلد ١٧ كانون الأول ١٨٩١) .

لقد عجز هنري أدامز وهو يتلمس طريقه إلى هذه الإستنتاجات عن الحصول على أية مساعدة ناجعة من الفيزيائيين الذين كان أكثرهم لايزالون متشبثين بقوة كبيرة في الإستقرار الظاهر لعالم التجريدات المشتق من ميكانيك القرن السابع عشر

ولذا فلا سبيل أبداً إلى التعجب من أن لايتأثر أقرب زملائه الأكاديميين في التاريخ والفلسفة كلهم بتنبؤاته المشئومة وأن يعتبروا أن نذره الصارخة لاتسوغها البتة الحقائق التي يعتبرونها أو التي هم مؤهلون مهنياً لمعالجتها . وعطالتهم لم تكن بالتأكيد تختلف عن عطالة العديد من الفيزيائيين البارزين بمن فيهم ميلمليكان الذين كانوا متأكدين ، رغم الأضواء الجديدة المتعلقة ببنية الذرة، أن الشطر النووي لايمكن احداثه إلا بطريقة مصطنعة . والذين صمموا بالفعل القنبلة الذرية كانوا هم أنفسهم يبدون

تحفظات حول حظوظ نجاحهم . بيد أن فشل أدامز في اثارة انتباه العالم العلمي لاينطوي على أي نقص في قوة حججه التاريخية . إن الإمكانات التي كشف عنها كانت ببساطة أكره بكثير من أن يتصدى لها معاصروه .

وليس من شأن هذه المقاومة إلا أن تزيد من فضل أدامز ، لقد جمع كباحث عام كفوء كل عناصر المعرفة التقنية والعلمية المتاحة في نموذج جديد عظيم الدلالة .

ولكن لم يكن هنالك أي اختصاصي في أي ميدان ، ولو كان على علم بمقترح أدامز ، مستعداً ان يميز مجمل الحلول أو أن يعترف أنه إذا كان لهذا المخطط العام الوليد من دلالة فلن يستطيع هو نفسه أن يتشبث بأيديولوجيته الثنائيه التي تعود إلى القرن السابع عشر ولا أن يمارس بدون مراجعة الأجراءات الكمية والموضوعية المحضة التي اعتبرت حتى الآن جليلة النفع . أن يكون قد قدر لهذا الكون أن يتفتت فجأة بفعل صدمة الإنفجارات النووية ويحدث تشوش القرن العشرين هذا ما كان يبدو غير معقول حتى يحمل محمل الجد .

ولو كان أدامز على صواب لاستدعى الوضع التاريخي وجهة نظر جديدة وأساليب جديدة ومبدأ أساسياً مقرراً لواجبات جدية جديدة ! تغيير في العقلية ملح أكثر من التغيير الذي حدث في العلم بعد كوبرنيك . لقد كانت هذه وياللأسف ضرورات كان هو نفسه عاجزاً عن الإستجابة لها ولو في الإطار البيكوني .

وإذا كان العلماء زملاء أدامز قد قابلوا دعوته بصمت مرتبك (حتى أن وليم جيمس هذا العقل الحر المنفتح نفسه قد أصم أذنيه)

فذلك لأن فكرة هنري أدامز الموجهة كانت جذرية أكثر مما بدا له ، وبناء على التركيز الذي أولاه لامكانات المستقبل انتقل من عالم الزمن والسببية المتسلسلين، وهو العالم الذي كان تكوينه كانسان من القرن التاسع عشر يحمله على أن يقرنه بالحقيقة،إلى النظام العضوي للديمومة الزمنية وتاريخ النشوء والتراث الإجتماعي (الذاكرة والتاريخ) حيث يتلاقى في الحاضر الماضي والمستقبل على السواء . يتراكب في هذا العالم العضوي الهدف مع المسار ويحوله جزئياً ؛ ويتحدد هنا تتابع الأحداث لابفعل قوى خارجية تعمل بشكل منعزل على أشياء معزولة بل بفعل انعكاسات في ميدان أكثر تعقيداً قد غير من طبيعة الجسد الوراثيه وتراكمات حياة كاملة من التجربة في بيئة تزخر بأجسام حية أخرى ؛ وهنا أخيراً تبتلع الإستمرارية العضوية الجدة وتحدد فيما إذا كانت متلائمة مع طبيعة الجسم الحي المستمرة الخاصة ومع تلمساتها واسقاطاتها الإختبارية باتجاه المستقبل .

لقد كان أدامز ويالالأسف موغلاً في التورط في نظرية الجوهر الفرد الحتمية وهي نظرية العلم الكلاسيكي بعد القرن السابع عشر التي تعنى بالتجريدات والعناصر المعزولة حتى أنه لم ير أن القضية التي يطرحها لايمكن أن تحل على أساس مقدماته الأيديولوجية . وقد تهرب من المسألة بلجوئه إلى ذراعي العذراء مريم المفتوحتين .

وبالرغم من أن أدامز قد نسب التسارع المستمر للطاقات إلى الوسائل المادية التي قامت بهذا التغيير وحدها فقد تعثر بالفعل بعامل جديد لم يدرك حتى الآن إدراكاً تاماً مدلوله الهائل والمشئوم ، إنه واقعة أن التفكك التدريجي لكل نظام المحرمات الإجتماعية والقيود الدينية وعادات

الجماعات الذي ساد في المجتمعات البدائيه قد ضخم الجهود البشرية بتحريره وفرة ضخمة من الطاقة غير البشرية ؛ إنها عمليه لم تكن تعرف أي حد لتوسعها الخاص الأوتوماتيكي المتزايد . وقد بدأ المجتمع الذي اثر به نجاحه غير المنازع في ميدان المكننه أن يخضع لنظامه الأوتوماتيكي الخاص ونظم كل نوع من أنواع الفعاليات على أساس تسارع في التوسع الكمي، توسع في الأرض ، توسع في السكان ، توسع في المسهلات الميكانيكية ، توسع في معدل الإنتاج وتزايدات في رأس المال والدخول والأرباح وسلع الإستهلاك ، ووراء كل هذه الظواهر الفرعية كان توسع المعرفة بوصفه مصدر طاقة لكل هذا المسار . وكانت أتمتة الأتمتة قد بدأت .

وكان هذا التصعيد للاتمتات وهذه الطرائق المتعمدة للابتعاد عن مقاييس الجماعات السابقة الإجتماعية الضيقة ، في نظر معظم معاصري أدامز ، امارات تقدم قاطعة . وقد توفرت لأدامز وحده الشجاعة لتتبع هذا التطور الخير ظاهراً حتى خاتمته السلبية المهددة : القوة على نطاق لايمكن التحكم فيه إلا باعادة ترشيد عادات وجهود وأهداف الإنسان . وبدون مثل هذا التغيير كان أدامز يتنبأ بهزيمة انسانيه رهيبة . ومع أنه كان عاجزاً عن اقتراح أي علاج للداء المهدد فان تنبؤه قد تبين على درجة عظيمة من الصواب . وبعد وفاة أدامز بأقل من جيل حدث التقدم العلمي والتقهقر البشري على نطاق كان هو وحده قادراً أن يتخيله .

الآلة العملاقة القديمة والجديدة :

لقد كان يعرقل نبوءة هنري أدامز رغم كل كشفها الهام للمستقبل اقتصارها على عامل وحيد هو الطاقة . وقبل أن تتحقق الأحداث التي

تنبأ بها أدامز كانت عناصر الألة العملاقة الجديدة قد اكتشفت واخترعت، جربت ونظمت ثم جمعت أخيراً في منظومة واحدة موحدة . وكما حدث في الآلة العملاقة الأصلية في عصر الأهرامات فان هذه التجميع لم يكن بالإمكان أن يحدث إلا تحت تأثير حرارة الحرب الصاهرة . لقد استشرف أدامز جزءاً عظيماً من التغيير الجذري الذي كان يوشك أن يحدث ، ولكنه لم يكن بمقدوره أن يتنبأ بأن دمجاً أضخم لهذه القوى يخشى أن يحدث بطريقة تؤسس نظام تسلط أشد هولاً .

ومع ذلك فانه حتى اللحظة التي حدث فيها فعلاً الإنفجار الداخلي لهذه القوى كان كثير من العناصر الضرورية ناقصاً أو كان ضئيلاً كما وكان كثير من المؤسسات الباقية صامدة ضد التغيير الجذري إلى درجة انه كان من الممكن أن ننظر باستخفاف إلى نبوءة أدامز كضلالة عقل طاعن. وقد كان لايزال من الممكن أن نعتبر استمرار وتسارع التكنولوجيا الحديثة بوجه الإجمال مفيدين للتطور الإنساني ؛ وقد ترسخت هذه القناعة بقوة واستأثرت أسطورة الألة بشكل كامل بالفكر الحديث إلى درجة أن هذه الإعتقادات البدائيه لاتزال معتبرة على نطاق واسع ؛ ناهضة وموثوقة علمياً وتقدمية مؤكدة وباختصار منيعة عملياً .

وليس سبب ذلك انه مامن أحد كان يمكن أن يجهل في بدء القرن العشرين أن تغييرات عميقة في كل وجوه الحياة اليومية هي في طريقها إلى التحقق ولم يقو ويشجع هذه التغييرات الوفرة الكبيرة من الطاقة فقط بل قواها وشجعها أيضاً شبكة من تجهيزات النقل والمواصلة لم تكن موجودة من قبل على أي مستوى مشابه لمستواها انذاك . وتطور النظام الرأسمالي مهما كانت مقادير التفاوت في توزيعه للارباح كان يظهر رغم ذلك

كثير من المراقبين كالتمهيد الضروري لنظام اجتماعي أكثر عدالة . وكان يفترض أن يؤمن الإنتشار المقدر ظاهراً للديمقراطية السياسية بفضل حكومة حزبية مسئولة في البلدان المتقدمة على الأقل انتقالاً بدون هزات بواسطة زيادة التدابير المتعلقه بالضمان الإجتماعي والرفاهة الإجتماعية ، وعلى الرغم من أن عناصر الآلة العملاقة قد وجدت والهيئات المهنية الكبرى والكرتلات العظمى كانت تشكل نماذج فعالة منها فان النظام بمجمله لم يكن إلا في بدء تجمعه .

والرأي بأن التقدم الميكانيكي كان يؤثر بذاته تأثيراً تحريرياً قد بقي مسلماً به بوجه الإجمال طوال القرن التاسع عشر إلا من بعض الرومانتيكيين أمثال ديلاكروا وريسكان وموريس أو من مفكرين متجهين أكثر إلى الماضي . ومن المؤكد أن العديد من أفعال التحرير المتفرقة قد رافقت التجديدات التقنيه وبررتها جزئياً ولو خلال الحقب التي شهدت التردي القاسي الذي اصاب العامل الصناعي في الصناعات الجديدة على التوالي. لقد حدثت هجرات واسعة من اوربا الى اميركا كما حدثت من روسيا الى سيبيريا تحت ضغوط قاهرة اكثر من عقوبة ونفي سياسي. وكان السفر ممكنا في كل مكان وكذلك كانت الهجرة الدائمة في كثير من البلدان دون اي ترخيص او تضييق حكوميين ولم يكن يطلب من المسافرين الذين تجاوزوا سن الخدمة العسكرية اي جواز حتى عام ١٩١٤ الا في الدولتين الاستبداديتين الرئيسيتين الباقيتين روسيا وتركيا

وسادت حرية البحار في كل مكان (الحرية والامن) لاول مرة في التاريخ كما لاحظ ذلك المؤرخ الايطالي كيكليلمو فيريرو . والامبريالية نفسها مهما كانت قسوتها في اسلوب التعامل مع السكان المغلوبين قد

اسهمت في اقامة هذه القاعدة من الحقوق والنظام والامن الشخصي التي هي اساس كل حرية حقيقية .

وازداد بشكل ملحوظ في غضون ذلك وخلال القرن التاسع عشر عدد الجمعيات والمنظمات والشركات والهيئات والجماعات التي تحكم نفسها بنفسها . وبدأت الكيانات الاقليمية التي الغتها فيما مضى الدولة القومية او الامبراطورية المستبدة تثبت من جديد هويتها الثقافية واستقلالها السياسي. وما يثير الدهشة ان احداً لم يتصور بان آلة عملاقة جديدة كانت في سبيلها الى التشكل وان تقدمات تقنية جديدة ستبدعها وتكبرها بكل ابعادها .

لقد تغيرت هذه اللوحة كلها خلال النصف الأخير من القرن :أكثر بكثير مما يمكن أن يتبينه من ولد بعد عام ١٩١٠ بواسطة انطباعاته وذكرياته الشخصية . وماكان يشبه في البدء سلسلة من الميول المجردة من أية علاقة فيما بينها والمتناقضة في الغالب قد تجلى لا كظاهرة جديدة تماماً بل كظاهرة حدثت للمرة الأولى في بدء بداية الحضارة كنتيجة، في معظمها، لمنظومة متوازية من القوى العاملة في ظل مقدمات ايديولوجية وبواعث نفسيه متشابهة وموجهة نحو أهداف متشابهة : السيطرة على الطبيعة واخضاع الإنسان .

لقد جمعت في الجزء الأول من أسطورة الآلة مابين هذا الإنفجار الداخلي وولادة ديانة جديدة ، ديانة الآلهة السماوية مع ماواكبها من تقدم في علم الفلك وفي الرصد المنظم والقياس الصحيح ولايزال ذلك كله بارزاً للعيان في الصروح الحجرية الباقية . وقد بقيت دائماً متنبهاً

لمقاربة هذا الهدف أثناء معالجة الإنتقال العلمي والتقني بعد القرن الخامس عشر ولابد أن يكون القارىء قد شعر بذلك . عندما نجمع عناصر النظامين المتفرقة والمجردة ظاهراً من أية علاقة فيما بينها فان الشبه بين العهدين يصبح صارخاً : ومما يزيد من قدر هذا الشبه إن ماكان بالأمس امنيات مستحيلة وآمالاً باطلة وتبجحات جوفاء في فم الآلهة والملوك القدماء قد أصبح الآن حقيقة وهو يبشر بتوسع أشد جنوناً أيضاً للقوة العاتية واللاعقلانية بدون رادع ؛ في آن واحد لتجمع هذه العناصر الضرورية وفق ترتيب ظهورها .

لقد كان هنالك أولاً التهيئة الدينية الكونية التي سبق أن وصفتها كبعث الاله الشمسي أو بتعبير دارج أكثر نظام المركزية الشمسيه لكوبرنيك .

وقد سلك دعاة هذه الديانة المسمون بالأمس فلاسفة الطبيعة والمسمون فيما بعد العلماء مدة طويلة سلوكاً فيه من التواضع ومن نكران الذات وأتوا بمعارف نافعة يمكن استخدامها في المنجم وفي علم خصائص المياه وفي الملاحة وفي الحرب وأخيراً في الطب والزراعة والصحة العامة وكانت غزيرة إلى درجة أن أحداً لم يداخله الشك بأن أسلوبهم يحتمل أيضاً أن يصبح أداة رئيسة لسلطة مجردة من الإنسانية .

ومع ديانة الإله الشمسي الشاملة الجديدة وفي الفترة نفسها أتت لا مركزية السلطة السياسية بزي مستقل كاذب وتمثلت بالعنصر الوليد عنصر الطغاة والمستبدين والملوك الذين هدموا في الوقت نفسه الإلتزامات الإقطاعية والحريات البلدية ليمارسوا هيمنة لاحد لها على الثروة الخاصة

بواسطة فرض الضرائب على الشعوب الأضعف ونزع الملكيه والفتح والسرقة المحضة . وقد انبثقت عن سيادة ملك الحق الإلهي الشخصية هذه والمعلنة على هذا الأساس سيادة الدولة اللاشخصية . لقد طالب هذا الحاكم الجماعي في ظل حكم النخبة أو الحكم الجمهوري بكل الإمتيازات وكل السلطات التي كان قد طالب بها أصلاً الملك شخصياً بل بطريقة أكثر جذرية مما لم يجرؤ أي عاهل أن يفعله . وكما جرى في مصر فان أوامر هذا السيد الأعلى لم يكن من الممكن تنفيذها بدون تدريب وتنظيم جديدين لفئتين قديمتين : البيروقراطية والجيش ، عاشت الأتمتة ! وليسقط الإستقلال الذاتي ! .

والحقيقة أن أياً من هاتين المؤسستين لم تزل تماماً خلال فترة خمسة آلاف سنة : لقد استفادتا من بعض النواحي بين فترة وأخرى من الإصلاحات التقنية المستجدة في الأساليب المستعملة لمسك السجل الدائم في الأسلحة والتكتيك وفي التنظيم التراتبي الوظفي . وقد حوفظ على بقاء هذه وتلك على قيد الحياة مع تغذيتهما بعناية بالتقاليد القديمة في الجيش وفي المنظمة الأكليريكيه لكنيسة رومانها آلة عملاقة أثرية دامت حوالي ألف وخمسمائة سنة .

لقد كان الحكام المطلقون الجدد كبطرس الأكبر في روسيا وفريدريك غليوم في بروسيا ولويس الرابع عشر في فرنسا قادة لجيوش دائمة متمركزة في ثكنات دائمة وكانوا يحكمون بواسطة بيروقراطية دائمة وكانوا جميعاً قادرين ، حتى قبل الإتصال الهاتفي ، على ممارسة رقابة عن بعد فعالة إلى حد ما على أعداء بعيدين وسكان متفرقين . وقد كان هذا النمط من التنظيم الحديث المركزي أقوى بما لايقاس من

نمط الجماعات الوسيطية المبعثرة بجيوشها المتأرجحة الإقطاعية أو البلدية المدربة بلون عناية والمجمعة بشكل مؤقت وبحكمها البلدي الذي يمارسه موظفون هواة مزودون بسلطات محدودة لسنة واحدة من الوظيفة .

وليس من شأن هذه التغييرات إلا أن تدل على أنهما من عنصر من الآلة العملاقة الحديثة لم يكن موجوداً بالفعل أو بالرؤيا في النموذج الأصلي . إن ماهو حديث بشكل بارز انما هو التجسيد الناجع للاحلام القديمة التي لم تكن حتى الآن ممكنة . وقد عاد مع تحالف الإستبداد السياسي والتعبئة العسكرية والإختراع الميكانيكي ادخال مؤسسة قديمة سقطت من الإستعمال منذ عهد بعيد ؛ العمل الإجباري والخدمة الوطنية الإجبارية بهدف الحرب . واتخذ الأول شكل الرق والكدح المأجور تحت تهديد الجوع والسجن ؛ إنه نظام كان مثل الرق في الولايات المتحدة ينتقص بطريقة صارخة من الجهر الورع بالايمان في الأيديولوجيا المتحررة المعمول بها . غير أن الخدمة الوطنيه الإجبارية التي أدخلت في ظل علم الديمقراطية قد ذهبت أيضاً إلى أبعد من ذلك ، لقد تدخلت كأداة للبقاء الوطني في احتدام حروب الثورة الفرنسية وحافظ عليها الإمبراطور الجرىء الذي توج نفسه وصفى الثورة . وهكذا فان التجديد العسكري الرئيس الذي جعل الآلة العملاقة العصرية ممكنة التحقيق قد أخذ به جديد لأول مرة منذ ذلك الحين كمساعد دائم للحكومة على نطاق واسع . حتى في أوج الإمبراطورية الرومانيه لم يكن من الممكن تحقيق أي تنظيم شامل للسكان بهدف الشغل أو التدمير .

ان مدلول الدعوة للخدمة الوطنية (المسماة تأدباً « الخدمة الشاملة ») إبوصفها أداة أساسية للسيطرة على الجماهير قد أهمله الباحثون السياسيون

والتاريخيون الحديثون باستهتار يصعب تصديقه أو بعمه ليس تصديقه بأقل صعوبة . وعلى الرغم من ان أي عامل أخر لم يفعل أكثر منه في زيادة طبيعة الحرب الهدامة أو في تهيئة سكان عديدين لطقوس المذبحة البشرية فان أدبيات البحث في هذه القضية غير ذات بال . « الدعوة للخدمة » لا تشغل إلا صفحتين من الطبعة الأولى من تاريخ كمبردج الحديث في المجلدات التي تعالج حصراً الثورة الفرنسية ونابليون . والاستثناء الوحيد الهام هو مقال للكولونيل ف . ن . مود في الطبعة الحادية عشرة من الموسوعة البريطانية (١٩١٠) : لأنه اشار الى « انه قد لا يكون هنالك أي قانون في تشريع أمة قد أثر أو أعد لممارسة أثر على مستقبل الانسانية لمدى أطول من هذا الصلك الفرنسي غير المشهور الصادر في عام ١٧٩٨ » . ولا يزال هذا الحكم بحاجة الى ان ينفذ الى وعينا السياسي .

لقد كان العمل الاجباري كالعمل لبناء الطرق والحصون والخدمة العسكرية الاجبارية عامين حتى ذلك الحين ولكنهما محليان وعارضان ؟ أما الآن فقد أصبحا منظمين منتظمين وشاملين . لقد أصبح الجيش الوطني بالفعل مؤسسة تربوية معدة لتهيئه وحداته البشرية بهدف التنفيذ الاوتوماتيكي بدون تفكير وبخضوع للأوامر . وحتى اذا أخذنا بالحسبان انه قد اثار فيما مضى السخط وادى الى تظاهرات مناهضة فما من شك في ان هذه التعبئه المنظمة للسكان جميعا قد كان لها أثرها في المكتب والمصنع وفرضت بالفعل خضوعاً آلياً على نطاق لم يتصور من قبل . ومما زاد في ذلك ان المذاهب الايديولوجية والانعكاسات العاطفية كانت تكمل التدريب المادي .

لقد أصبح تأثير هذا النظام جليا . وما تعلمه كبار المصلحين

الاجتماعيين كسان سيمون واوغست كونت من عهد نابليون انما كان النجاعة التي تتوفر من تطبيق التقنية العسكرية على السلوك الاجتماعي لقد كان هؤلاء الأنبياء يتطلعون الى « ثورة حاسمة وكاملة الى درجة ان تجعل كل المؤسسات الشرعية والسياسية مطلقة » . ان هذا الهدف يحقق هوية الآلة العملاقة وهذه الثورة هي الآن قائمة .

اسمحوا لي أن أوضح في هذا السياق نقطة خلاف بين الدولة باعتبارها مجرد وحدة ادارة سياسية والآلة العملاقة المنشطة . والتغييرات التي طرأت على تعريف كلمة القوة بالانكليزية تظهر هذا الخلاف . يرد القاموس الانكليزي الجديد تعريف القوة « بامتلاك السلطة أو الهيمنة على الغير » الى عام ١٢٩٧ ثم يتحول هذا التعريف في عام ١٤٨٦ الى « القدرة أو الاستطاعة أو سلطة التصرف الشرعية » . إلا ان القوة تقوم في عام ١٧٢٧ بدور تكنولوجي بوصفها « كل شكل من أشكال الطاقة أو القوة المهيأة للاستخدام في العمل » . وأخيراً ومع بناء الآلة العملاقة أصبحت كل أنماط القوة مهيأة للعمل البناء والمدمر معاً على نطاق ضخم لا يمكن بلوغه عن غير هذا الطريق . فالآلة العملاقة ليست بالنتيجه مجرد منظمة ادارية ؛ انها آلة بالمعنى التقني الكلاسيكي بوصفها « تركيب أجسام متينة » منظمة بشكل ان تؤدي حركات موحدة وعملاً تكراريا . ولكن انتبهوا الى ان « كل أشكال القوة هذه متساندة قد أصبحت أساسية بالنسبة لبنتاغون القوة الجديد .

وعلى خلاف الآلات التي تقوم بعمليات جزئية لأهداف متخصصة فان الآلة العملاقة بحكم طبيعتها نفسها لا يمكن ان تستخدم إلا لعمليات

جماعية على نطاق واسع وهذه العمليات نفسها هي عناصر من منظومة ميكانيكية أوسع . وبزيادة أثر وعدد مثل هذه العمليات من أعمال فتح الترع القديمة وبناء الطرق والتهديم الحضري الى مجمل التطور الصناعي ومن هناك الى تنظيم التعليم والاستهلاك أخذت الآلة العملاقة تمارس سلطة فعالة على أعداد واسعة من السكان أكثر مما تباهي به أية وحدة سياسية فقط . لقد وصف نيتشه يوما الحرب بأنها « صحة الدولة » ولكنها أكثر من ذلك فهي جسد وروح الآلة العملاقة . ويمكن الحكم على اتساع نشاطات الآلة العملاقة من واقعة انه عندما تبلغ احدى الحروب الكبرى نهايتها فقد تمر ثلاث أو خمس سنوات قبل ان تستطيع المنظمات والصناعات التي ابتلعتها الآلة العملاقه ان تسترد حتى بمساعدة السلطة المركزية القدرة على استئناف السير كوحدات شبه مستقلة .

وتزداد كل خصائص الآلات الخاصة من الاستخدام القوي للطاقة الى المكننه والأتمته والمردود الكمي بفضل اندماجها في الآلة العملاقة ؛ وهذا ما يحدث كذلك بالنسبة لنقائص هذه الآلات : أي تصلبها وانعدام التفسير للأوضاع الجديدة وانفصالها عن الأهداف الانسانية إلا ما تجسد منها في تصميم الآلة . والاساسي من هذه الأهداف هو ممارسة القوة .

لقد كانت الأوتوماتيكية والاستبداد مقترنين معاً اقتراناً وثيقاً في تشكيل كل منظمة عسكرية حتى قبل اختراع الاسلحة الشاملة . ويستنتج من ذلك أن الحرب هي الوضع الأمثل لتصعيد تجميع الآلة العملاقة وإن قضية ابقاء التهديد بالحرب قائماً باستمرار هي اضمن طريقة لابقاء تجمع العناصر بوصفها وحدة عمل مجدية؛ تلك العناصر التي تكون في غير هذه

الحال مستقلة أو شبه مستقلة . عندما يتم أحداث الآلة العملاقة فان كل نقد لبرنامجها وكل ابتعاد عن مبادئها وكل انعتاق من نسقها المطرد وكل تغيير في بنيتها استجابة لمتطلبات آتية من تحت ؛ كل ذلك يشكل تهديداً للنظام بكامله .

٣ : التحالف الجديد

لقد احتفظت للنهاية بالحاجة الضرورية الوحيدة المسبقة النظامية للآلة العملاقة تلك الحاجة التي لم تكن موجودة في النموذج القديم للآلة العملاقة في بدئها ، وهي نوع خاص من الديناميكية الاقتصادية قائم على تراكم سريع للرأسمال وتحرك متواصل وارباح واسعة يعمل في سبيل التسارع المستمر للتكنولوجيا ذاتها ، وبايجاز اقتصاد المال .

وقد كان تحالف قوة المال مع القوة السياسية احدى السمات الحاسمة للحكم المطلق الملكي أو الاستبدادي : وكلما ازدادت تبعية الآلة العسكرية للاختراعات التقنية ولانتاج الأسلحة بالجملة كانت تتعاظم ارباح النظام الاقتصادي الوطني المباشرة ولو انه كان لا بد من ان تكتشف الأجيال القادمة في النهاية ان هذه الأرباح الموهومة كانت تطفئها اكلاف الاصلاحات والتجديدات والابدالات ان لم تتعرض للنكبة الانسانية . وبالرغم من ان المسئولية الأخلاقية عن تصعيد الحرب قد حولت صانعي الاعتدة الحربية الى أكباش محرقة فالواقع ان أرباح الحرب الورقية تغني أيضا كل ميادين الاقتصاد الوطني الاخرى حتى الزراعة ؛ فالحرب باستهلاكه الذي لا يجارى للسلع وتبذيره الذي لا مثيل له يقضي موقتا على النقيصة المزمنة للتكنولوجيا السائرة نحو التوسع :

« فائض الانتاج » . الحرب باعادتها لندرة السلع ضرورية لتأمين الربح حسب رأي الرأسمالية الكلاسيكية .

وتتوقف هذه الدنياميكية الاقتصادية بدورها على نقل واسع للاعتمادات الى الحكومة بسبب التدمير بواسطة الحرب أو بناء القدرات العسكرية بهدف هذه المهمة الأخيرة ؛ والحاجة سواء الى عائد للرأسمال أو الى دخل عادي لتغطية نفقات الأمة العسكرية تكرس ما هو من وجهة نظر الاقتصاد الحر التقليدي فريضة بغيضة : ضريبة الدخل . والمقصود بذلك تدبير لم يأخذ به الملوك المستبدون أنفسهم إلا بعد ترددات جسيمة . ولم يجرؤ لويس الرابع عشر ان يفرضها دون ان يحصل من لاهوتيي باريس على الفتوى المطمئنة بانه يمكن تبرير مثل هذه الفريضه لانه بوصفه ملك الحق الأهلي يمتلك كل أراضي وأملاك البلد التي يمكن توزيعها وفق مشيئته . ولم تحدث ضريبة الدخل في ملكية دستورية حرة نسبيا كانكلترا إلا خلال حروب نابليون على الرغم من ان الخدمة الاجبارية بشكلها الجائر والاستبدادي اي الانخراط الاجباري في البحرية قد سبقت تلك الضريبة . ولولا ادخال التعديل الدستوري الذي أقر شرعية ضريبة الدخل في الولايات المتحدة عام ١٩١٣ لما توفرت المبالغ الطائلة الضرورية لاقامة الآلة العملاقة الجديدة بعد عام ١٩٤٠ .

يجب ان يكون واضحا منذ الآن ان التوزيعات الخارقة المأخوذة من الضرائب الوطنية قد أصبحت بديلاً لدافع الربح في تصعيد الدنياميكية الاقتصادية للاقتصاد الحديث . فعمليات الآلة العملاقة لا يمكن ان ترد بالفعل الى محاسبة أرباح وخسائر ولا الى محاسبة سعر الكلفه والربح ، فالواقع ان أسعار الكلفة تتحول بطريقة سحرية إلى أرباح والخسائر

المقبلة المتأتية عن الاهتلاك العسكري والتدمير المباشر هي مصادر الأرباح .

وسعت الآلة العملاقة بفضل الحرب الحالية والمقبلة مجالها ووسعت قوتها وقضت عرضا على الشكل الوحيد لرد الفعل الذي نماه النظام الرأسمالي لينظم ويعقلن عملياته وهو الحساب الدقيق للأرباح والخسائر مع الأفلاس في النهاية كعقوبة للحسابات الخاطئة . لم تتحقق النهضة الاقتصادية باجراء تغييرات كبرى داخل الاقتصاد الرأسمالي الذي بقي في حالة عامة من شبه الشلل خلال الثلاثينات بل تحققت بفضل اعادة التسلح والحرب . فبالحرب وحدها يمكن انقاذ النظام من ضعفه الجذري : عجزه عن تحقيق العدالة في التوزيع .وهكذا فان اقتصاد المال لا يصعد فقط تحريض كل عنصر من تكنولوجيا القوة الماضية في التوسع بل يجعل الامتداد المتواصل للآلة العملاقة الى كل الميادين الزاميا لتأمين الفائض الضروري لمشاريع الحرب السلبية من الأبادة المنظمة الى السيطرة على الجماهير . زد على ذلك انه بالنظر الى ان الدولة تنشر الأمن الاجتماعي والخدمات التقنية في البلد كله فان جزءاً متزايداً من السكان له مصلحة في نمط الانتاج المدار مركزياً والتوزيع والتدمير الجماعي بالرغم من ان ضريبة الدخل هي في الأغلب مزيفة بطريقة تخدم مصلحة الأغنياء . وليس في هذا التركيب من الدناميكيه التكنولوجية والمالية والسياسية والعسكرية من عامل وحيد أساسي أكثر من الاخر . انها كانت كلها ضرورية قبل ان يعاد بناء الآلة العملاقة وفق نموذج مجدد من احدث طراز صححت فيه معظم المعايب التاريخية وازيلت التحديدات التقليدية .

لقد كانت عناصر الآلة العملاقة الجديدة موجودة منذ بدء القرن العشرين وان كان بعضها لم يتم تشكله بعد .

شيئان فقط كانا ينقصان : التمثيل الرمزي للسلطة المطلقة المتجسدة في حاكم حي أو هيئة مهنيه أو آلة خارقة ؛ انها أزمة مهددة بالحاح في حدوث انفجار داخلي في كل العناصر الضرورية . ونشبت الأزمة وحدث الانفجار الداخلي . ولكن قبل ان يحدث ذلك ظهرت نماذج من الآلة العملاقة أقدم واسمح يحركها تجهيز ميكانيكي جديد فاتحة السبيل أمام الانفجار النهائي للقوة « المطلقة » .

٤ : الاستبداد (الشمولية) الانتقالي

لم تكن إعادة اختراع الآلة العملاقة وتوسيعها مجالاً من مجالات النتاج الحتمي للقوى التاريخية : حتى إنه بدا للعديد من المفكرين الأكفياء حتى أواخر القرن التاسع عشر ان التغييرات العظمى التي طرأت على المدنية الغربية حتى في التكنولوجيا كانت مفيدة للحرية . في سنوات ١٨٩٠ لاحظ مفكر متزه كارنست رينان مردداً بذلك عبارات سابقة لكونت ان القومية العدوانية تغرب وان روح معارضة الحرب قد اتسع انتشارها الى درجة ان الخدمات المسلحة لم يعد بالامكان الحفاظ عليها إلا بفضل الخدمة الاجبارية .

وفي بدء القرن التاسع عشر ومع ترك القنانة والغاء الرق أخذت قوى معارضة قوية تتصاعد سائرة بالعالم الى سيادة القانون الشاملة والحكم الذاتي والتعاون على نطاق عالمي أكثر فأكثر . حتى في الأمم ذات

التنظيم العسكري كالمانيا وفي زمن متأخر كقضية زايرن عام ١٩١١ كان من الممكن ان تلام الحكومة في الريخستاغ بسبب التصرف القاسي للازم بروسي وحيد قذف بغطرسة اسكافيا أعرج الى الساقية وضربه . فالاضطهاد السياسي والاستغلال الاقتصادي الوحشي والمرض والجوع كل هذه الادواء التي يمكن اتقاؤها كانت تبدو في مرحلة الغروب .

وكانت هذه الآمال الجميلة تتوقف من فترة الى اخرى بسبب انفجارات بربرية جماعية مستنكرة مثل المذابح الأرمنية والمقدونية وحرب الافيون البريطانية في الصين وحرب البوير في افريقيا الجنوبية مع معتقلاته ان لم نأت على ذكر السلوك المشين للجيوش الغربية التي قمعت تمرد البوكسر في الصين . ومع ذلك فانه كان يبدو ان العقل والتعاطف كانت لهما اليد العليا وكذلك التفاهم والتعاون الديمقراطيين . لكن التوازن لمصلحة مثل هذه التطورات البناءة قد تزعزع بسبب الحرب العالمية الأولى والأيمان الذي قرن التقدم التكنولوجي بالتقدم الانساني نسف بل تهدم بشكل خطير بسبب تكشف واقعة ان كل قوى الشر قد تزايدت بواسطة الطاقات نفسها التي حررتها التكنولوجيا .

ولم يظهر المؤشر الأول عن ان آلة عملاقة جديدة كانت في سبيل التجمع إلا بعد الحرب العالمية الأولى ومع ولادة الدول الاستبدادية بدءاً بروسيا السوفييتية وايطاليا . وقد قلب ذلك التيار الذي شكل النغم السائد حتى في روسيا القرن السابق . وكان الشكل الجديد للديكتاتوريات الفاشية والشيوعية هو شكل تنظيم ذي حزب وحيد قائم على طغمة ثورية تعين نفسها بنفسها يقودها تجسيد بلحمه وعظمه للملك الحق الالهي في العهود القديمة ، انه شخص لم يتلق بركة الاله بل توج نفسه بيده

مثل نابليون : انه ديكتاتور لا يرحم (لينين) أو فوهرر شيطاني (هتلر) أو طاغيه سفاك (ستالين) ينادي بالطبيعة الشرعية لسلطة لا تعرف حدودا استولى عليها بطريقة غير شرعية . لقد كان هذا المذهب قديما قدم اعلان تراسيماك في جمهورية افلاطون إلا ان النموذج نفسه كان من المؤكد أقدم بآلاف السنين .

ولكن الآلة العملاقة لم تكبر بين يوم وآخر ؟ ولم يكن إلا من قبيل الوهم الليبرالي المتفائل في القرن التاسع عشر ان يُجَهِلَ في الحياة المعاصرة ما لم يكن جهله أو الاستهانة به أقل في تفسير التاريخ : وهو قبول الوجود المستمر للرق منذ أوائل الحضارة الى الربع الأخير من القرن التاسع والقبول بالحرب والفتح واستغلال الانسان في الوقت نفسه كامتيازات طبيعية للدولة السيدة . وعلى الرغم من ان هربرت سبنسر قد ارتكب خطئية فاضحة في رسمه البياني الوحيد الطرف في تفاؤله بأن قرن التصنيع بالسلام فانه يستحق التقدير الارجاعي لأنه كان أول من استنتج العودة الحتمية الى البربرية بسبب انبعاث الامبريالية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر : « الرق المقبل » . وقد سبق سبنسر بالربط ما بين هذا الرق والدولة — الاله هيلير بيلوك وفريدريك حايك معاً . وكانت الصدمة هي الاكتشاف بان البربرية الجديدة كانت تدعمها وتفرضها تقريباً التكنولوجيا الجديدة .

لقد تمت اعادة تجميع الآلة غير المنظورة على ثلاث مراحل رئيسة خلال فترات طويلة . وكانت المرحلة الأولى هي المرحلة التي سجلتها الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ . فعلى الرغم من ان هذه الثورة قد خلعت وأعدمت الملك التقليدي فهي قد نصبت من جديد مقابله المجرد مزوداً

بسلطة أكبر بكثير ، وهو الدولة الوطنيه التي أعطيت ، بموجب نظرية روسو الديمقراطية الزائفة عن الارادة العامة ، سلطات مطلقة مثل سلطات السوق للخدمة الاجبارية وهي سلطات ربما يتمناها الملوك التاريخيون .

لقد كشف النقاب عن هذا النظام السير هنري مين احد احصف المراقبين السياسيين في العهد الفيكتوري : واشار الى ان « حاكم العقد الاجتماعي المستبد ، الجماعة الكلية القدرة ، ليس إلا نسخة مقلوبة عن ملك فرنسا ، تزوده حاشيته بالسلطة التي يطالب بها » .

وحانت المرحلة الثانية عام ١٩١٤ مع الحرب العالمية الأولى على الرغم من ان كثيراً من التدابير التمهيدية كان قد اتخذها نابليون ودفعتها الى الأمام أكثر السلطة العسكرية البروسية في عهد بسمارك بعد الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠ . وقد تضمنت هذه التدابير تجنيد الباحثين والعلماء بوصفهم من أسلحة الدولة وتهدئة الطبقة الكادحة بواسطة التصويت العام وتشريعات الرفاهة الاجتماعية والتعليم الابتدائي الوطني وتأمين العمل وراتب الشيخوخة وهي تدابير لم يذهب بها نابليون الى هذا المدى رغم تقديره العالي للقانون والعلم وتوحيد التعليم . ولو نجح نابليون في فتح أوربا ولو تنفس به الوقت ليدعم نظامه العسكري والبيروقراطية لأمكن ان تولد الآلة العملاقة في منتصف الطريق الى شكلها الحديث على الأقل منذ منتصف القرن التاسع عشر : الى درجة ان التسلسلات الايديولوجية النابليونية المهلهلة قد ولدت في فكر ارنست رينان الشاب صورة مستقبل لا يخلو من الشبه بما هو قائم الآن أمامنا : ديكتاتورية نخبة علمية .

لقد أدخلت الخواص الرئيسية للآلة العملاقة الجديدة قبل نهاية الحرب العالمية الأولى بالعنف . فقد أدخلت حتى الأمم التي بلغت مستوى رفيعاً من الحرية السياسية كانكلترا والولايات المتحدة الخدمة العسكرية الالزامية ؛ وأقامت انكلترا فوق ذلك الخدمة الالزامية الصناعية لتواجه احتياجاتها المفرطة من الاعتدة الحربية ولكن بشروط تختلف قليلا عن الشروط التي تصورها بيلامي . زد على ذلك ان الحكومة الانكليزية قد فرضت ضريبة على الدخل اثقل مما كانت تجرؤ ان تفعله فيما سبق بغية متابعة الحرب بدون التعرض للافلاس وهي النتيجة التي ظن اقتصاديو السوق التقليديون فيما سبق انها ستجعل كل حرب طويلة متعذرة بينما عبئت فئات العلماء في كل البلاد لاختراع أسلحة أشد تدميراً مثل القذائف الشديدة الانفجار والغازات السامة بغية تسريع النصر . وهكذا زادت القوة الجماعية على نطاق لم يعرف من قبل مسيرة التغيير التقني في كل الميادين ؛ .

وولدت السيطرة على الاعلام من قبل الحكومة وتجريع الشعب اخباراً منتقاة رسميا وملونة باللون الملائم، بوصفها وسيلة للحفاظ على المعنويات (أي لتهدئة الخيبة والمعارضة) لدى الحكومات الحديثة (الديمقراطية)، شهية السيطرة على الرأي العام على أساس ايجابي اجدى مما استعملته منظمات بالية كالاوتوقراطية الروسية . وقد وفر ذلك للآلة العملاقة متمما ثمينا للقهر الجسدي والانضباط العسكري .

والأمر الغريب ان المحاولة الأولى لتحديث الآلة العملاقة الجائرة قد قامت في روسيا بواسطة الثورة البلشفية . فعلى الرغم من ان لينين ومعاونيه قد هيأتهم مقدماتهم الماركسية لتشجيع العلم ونزعة التصنيع

الغربيين فقد حدث انهم عندما استولوا على الدولة القيصرية ورثوا عن طريق البيروقراطية أكمل مثال حي للآلة العملاقة القديمة، مثال لم يتأثر بالتنافس الاقتصادي والنجع الصناعي . ومع ان هذا النظام قد أصبح الآن في حالة من الفساد والانحلال الكامنين فقد فرض على الجماهير عادات وانعكاسات يسرت الى حد ما التنظيم المركزي الذي تلاه . لقد أصبح قسم كبير من السكان مهيأ شرطيا للخضوع العبودي ولعبادة زعيم وحيد كلي القدرة . كما يقال .

وعلى الرغم من ان الأهداف الديمقراطية للثورة الاجتماعية لم تلبث ان قمعت بوحشية، ان لم تهمل، فقد استمرت الدكتاتورية بفضل استخدام الجهاز الاجتماعي البيروقراطي والأعداد السيكولوجي المشروط للآلة العملاقة البالية . لقد تبنت الدولة من جديد أو قح مسلمات حكومة الحق الأ لهي : « لا سبيل الى ان يسيء الملك فعلاً » وتوصلت أيضاً الى ترجمتها الى شكل ايجابي أشد خرقا : « الحزب على حق دائماً » .ومن يعارضون خط الحزب، مهما كانت التواءاته وتناقضاته الذاتية مجنونة ومهما بلغ فقدان الوازع مما يقوم به الحكام الجدد وجهاز الحكم للحفاظ على وضعهم الخاص الممتاز، يجب ان يحكم عليهم كهراطقة داعرين ومناهضين للثورة. وعندما تسلمت هذه الاوتوقراطية الجديدة الحكم اضطهدت وقمعت أو دمرت المؤسسات المنافسة من سوفييتات محلية أو كومونات زراعية وتعاونيات ونقابات وجماعات قومية أو دينية غير نمطية مثل المسيحيين الارثوذكس واليهود والنور أنفسهم . الآلة العملاقة فيل يخاف حتى اصغر درص .

ان نظام القهر هذا الذي كان لا يرحم في عهد لينين وتروتسكي وأصبح مطلقا في عهد جوزيف ستالين الذي كانت مخاوفه وهواجسه وسوء ظنه الذهاني المميت في جزء منها امارات الى ان الآلة العملاقة الجديدة لا تزال تنقصها خاصة أساسية كانت تمتلكها الآلة القديمة : ديانة توحي بالخوف وطقس عبادة الهية يحظى من الجماهير عن طريق الايحاء برضوخ أكمل وطاعة أكثر عبودية مما يستطيع الارهاب أن يحققه . وكما جرى فيما بعد بالنسبة لهتلر فان جنون ستالين المنهج كان من أثره الذبح المدروس بالجملة للجماعات والطبقات الحسنة الاطلاع وللتقنيين النابهين وللعقول المبدعة ممن يتوقف عليهم وجود نسيج معقد مثل الآلة العملاقة حتى في حالتها البدائية .

ومن المؤكد ان ستالين توصل تقريبا خلال بعض الوقت وبواسطة الارهاب فقط ان يتحول الى ملك الهي على صورة ايفان الرهيب وبطرس الأكبر . وقد اشار روسيون الى انه لم يكن من الممكن مخاطبته إلا بالشكل الذي اتبع في الماضي لمخاطبة القيصر حصراً . وكانت تصريحات ستالين العظيمة عن كل الموضوعات من آلية الوراثة التناسلية الى أصول اللغة يهلل لها بغباء كأنها صوت العلم الكلي وقد أصبحت لذلك المرشد الأعظم للباحثين والعلماء الذين كرسوا حياتهم لنشدان مثل هذه الحقائق النهائية الدامغة دون بلوغها . وقد ازدادت النزعة نفسها فيما بعد الى درجة انها بلغت شكل سخرية سمجة في تصريحات ماوتسي تونغ ؛ ان كان هنالك مجال للسخرية .

لقد كانت الآلة العملاقة الروسية بالشكل الستاليني المتطرف تكشف ، حتى قبل هتلر عن اشأم نقائص الآلة العملاقة القديمة : اتكالها على القهر

المادي والارهاب ، التحويل المنظم لكل السكان الكادحين الى الرق بمن فيهم أعضاء من الحزب الديكتاتوري ، الغاء حرية الاتصالات الشخصية والسفر والنفاذ الى رأسمال المعارف المتوفر والتجمع وأخيراً فرض التضحية البشرية لتهدئة غضب وضمان حياة الهها الرهيب المتعطش الى الدم ، ستالين شخصيا . وكانت نتيجة هذا النظام هي تحول البلاد بكاملها الى سجن ، قسم منه معسكر للاعتقال والقسم الآخر مخبر للابادة ، أمل الخلاص الوحيد فيه هو الموت . وتغيرت كلمات الثورة الفرنسية « حرية مساواة أخوة » الى استلاب وتفاوت ورق بواسطة ثورة اضافية تدور حول المحور نفسه .

من المؤسف ان الاعتياد الطويل على الآلةالعملاقةالقيصرية قد روض الروسيين على أشكال من النمطية الخانعة التي لم يكن من الممكن تمييزها عن التعاون الطوعي . وكانت احدى الاقليات تكتشف هنا وهناك ملاجىء صغيرة أو مخابىء صغيرة يمكن فيها بصمت ان يبقوا شطراً من حياتهم بدون تضييق . ولكن تعساً للنفوس الأكثر كبرياء التي تجرؤ على التحدي علناً ! فالكاتب اسحق بابل الذي طالب بامتياز الكتابة الرديئة أي بالا يكتب وفقا لخط الحزب والذي أعلن ان الضمت يمكن ان يكون أيضا نمطاً فعالاً من أنماط التعبير لم يلبث ان اعلم كمخرب . حتى الصمت يمكن ان يكون استفزازاً . وبما ان هذه الثورة كسابقتها الدموية كانت تلتهم ابناءها في مواسم عنف منظمة فقد مضى وقت طويل قبل ان تستطيع الآلة العملاقة ان تنتج النخبة الجديدة باعداد كافية تلك النخبة التي تتوافق أفكارها وطرق عيشها مع متطلبات الآلة : اعني التقنيين والبيروقراطيين والعلماء . ولحسن الحظ فان العلماء

الضروريين قد استمروا في ان يوفروا للنظام اسهامات المعارف الجديدة الضرورية لتسريع عمليات الآلة العملاقة وتحقيق الانتقال عن طريق الطاقة النووية من الشكل القديم الى الشكل الحديث يساعدهم في ذلك الطلاق المنظم ما بين العلم الكلاسيكي والشئون الأخلاقية والاجتماعية .

وعندما توفي ستالين كان قد رد الى أكره خصائص الآلة العملاقة القديمة كلها اعتبارها ونماها بينما كان قد بدأ معاونوه العلميون والتقنيون المتطوعون والمكرهون على السواء يبنون العناصر الأساسية من الآلة العملاقة الحديثة . ولا يزال الشكل القديم هو السائد في النظام السوفييتي بسبب أصله بالرغم من ان العوامل الجديدة قد دعمته بقوة . وواقعة ان ستالين عند موته وكذلك لينين قد طبقت عليهما طريقة التحنيط المصرية القديمة وعرضا للعبادة العامة تجعل الموازاة واضحة جداً تقريبا حتى لا تبدو مقحمة أقحاماً كما لو كنت اخترعتها لدعم احد موضوعات هذا الكتاب الأساسية . فالأمور قد جرت فعلا على هذا المنوال .

٥ : الاسهام النازي

لقد تكشف ان ادولف هتلر كان مهيأ ليصبح بشكل أكثر جدوى من جوزيف ستالين العامل الرئيس في تحديث الآلة العملاقة ؛ وليس مرد ذلك الى انه كان أقل منه نفاساً ؛ فالواقع ان جنون العظمة وأوهام القوة المطلقة هما محرك أساسي لهذا الجهاز الخاص حتى في اميركا بأكثر أشكالها التقنية تقدماً : ان نموذج هتلر المتجمع في بلد متقدم علميا كان

نغلامن أولاد السفاح،فهو في قسم منه قديم من الطراز الآشوري وفي قسم محسن على الطراز الممكنن الذي لا يزال خشنا كمكننة القرن

السابع عشر (لويس الرابع عشر – نابليون) وفي قسم حديث يستخدم أشكالا من العلم المتوفر بالاضافة الى آخر التقنيات السلوكية بغية اعداد السكان بكاملهم اعداداً مشروطاً مضيفا كذلك عناصر نفاسية مشتقة من أوهام هتلر الانطوائية – ولقد أشار البرت سبير المهندس الذي انتهى الى ان يكون المكلف بالانتاج الحربي في عهد هتلر الى الفضائل الفريدة للآلة العملاقة النازية في خطاب القاه في محاكمات نورمبرغ .

« قال سبير : ان ديكتاتورية هتلر تختلف في نقطة أساسية واحدة عن كل الديكتاتوريات التي سبقتها عبر التاريخ . . . فقد حرم ثمانون مليوناً من الناس من التفكير المستقل بفضل المخترعات التقنية كالراديو ومكبر الصوت وقد كان الديكتاتوريون السابقون يحتاجون الى معاونين ذوي أهلية رفيعة حتى في ادنى مستوى – رجال يستطيعون ان يفكروا ويتصرفوا بشكل مستقل . ويستطيع النظام الاستبدادي ان يستغني عن أمثال هؤلاء الرجال في عهد التطور التقني الحديث . . . فمن الممكن مكننة الادارة الدنيا . ونتج عن ذلك ظهور نموذج جديد : النموذج الذي يتلقى الأوامر دون ان ينتقدها . » لا يمكننا ان نبدي حيال تحليل سبير إلا تحفظا واحداً : ان القبول بدون انتقاد قد بدأ من القمة كما برهن سبير نفسه على ذلك .

بيد ان زعماء الريخ الثالث النازي كانوا يعتبرون الحرب الحالة الطبيعية للمجتمع الانساني والابادة كوسيلة مرغوبة لتحقيق هيمنة نظامهم القومي وايديولوجيتهم على الأنظمة المنافسة . وأصبح بذلك رد الجماعات والأقوام الدنيا الى الرق أو ابادتهم هو الواجب المحدد

لكل من يقرون مذهب التفوق « الآري » . ولا يستطيع الزعماء المستبدون ان يحصلوا على الطاعة المطلقة والموالاة بدون تحفظ الضروريتين لتسيير الآلة العملاقة بدون عرقلة إلا في جو الحرب المتواصلة .

ووفقاً لهذه الضلالات فقد كان العنف المنظم والوحشية والتعذيب والفساد الجنسي تعتبر كلها كمرافقات طبيعية « للنظام الجديد » بل كأمور مرغوب فيها .

وعلى الرغم من ان كل هذه السمات كانت بادية علنا منذ البدء فان كثيراً من الناس الاسوياء من النواحي الاخرى كان يحيون بدون تكتم هذا النظام باعتباره « موجة المستقبل » على الرغم من أننا لو تفحصنا سواء مبادىء النازية أو أفعالها لما أمكن ان نجد فيها سوى ماء غسالة الماضي .

وقد جرت هتلر حاجته الى سرعة تحقيق التفوق الدائم لآلته العملاقة الى ان يحاول ان يحقق بالحرب ما قد كان يستطيع بلا ريب تحقيقه بقليل من الصبر بواسطة الارهاب والفساد وحدهما بتواطؤ ستالين أو بدون ذلك التواطؤ الذي يبدو ان الميثاق الالماني السوفياتي لعام ١٩٣٩ كان يُضمنه . وقد ضمن هتلر بالواقع وبشكل اجدى بكثير من ستالين تعاون فئات المثقفين والكنائس القائمة . وبعث بدون معارضة خطيرة افتك أشكال العرقية والوجودية و (الدم والتفرد) وذلك بربطها بمهارة بمشاعر جليلة وبحاجات عاطفية أصيلة تركت خارج صورة العالم الميكانيكية واستهين بها الى حد ما في أكثر العبادات الطوبائيه معقولية في القرن السابق . وقد برهن هتلر بسيطرته على النمسا واستعباد تشيكو سلوفاكيا وابادة بولونيا وفتح فرنسا عن تفهمه المساوىء

والتعسفات القديمة للآلة العملاقة أكثر بكثير من طاقاتها الايجابية .لقد اقترب هتلر ، مثل ستالين منذ عام ١٩٣٩ من دور الملك الالهي في عيني شعبه بقدر ما يمكن تحقيق ذلك في العهد الحاضر . ولم يفعل ذلك بمباركة طبقة النبلاء الالمانية القديمة وكبار الملاك العقاريين وهيئة الضباط وكذلك أساطين الصناعة في ايسن وهامبورغ وبرلين فقط بل انه حصل كذلك على الدعم الأمين من قسم هام وربما من معظم الهيئات الاكليريكية والعلمية اذا لم نأت على ذكر الأنبياء الظلاميين كالفيلسوف الوجودي مارتن هيدجر .

وقد جند ، في سبيل تأمين وحدة لا انحراف فيها ، كتاب وفنانون وموسيقيون وعلماء نفس في منظمات رسمية مكرهة على ان تلبس البزة الموحدة العقلية نفسها . وكذلك فان العلاج النازي للبطالة كان يتفق مع أفضل نموذج فرعوني : توحيد جيش العمل . وفي غضون ذلك نقلت روح التكوين القاسي والطاعة العمياء العسكرية الى المدارس والجامعات التي لم تكن قد زالت منها تماما منذ عهد فيختي؛ كما اتى البرهان على ذلك خلال الحرب العالمية الأولى . وبكلمة ، فان الألمان لم يوسعوا أبعاد الآلة العملاقة القديمة فحسب بل احدثوا تجديدات هامة في تقنيات التسلط على الجماهير : وهي تجديدات تمضي اليوم في تهذيبها الآلات العملاقة المتعاونة اللاحقة بمساعدة أنظمة التجسس واسبار الرأي والبحث عن السوق وملفات الحياة الخاصة التي تعالجها الآلة الحاسبة الالكترونية .وتبقى في الخلفية غرفة التعذيب وأفران الجثث ان لم نقل الأحراق على مستوى الكرة الأرضية جاهزة لاتمام العمل .

ان كل نظام استبدادي ينطوي على اله انتقام خاص به بقدر ما يكون هذا النظام مغلقا منطويا عاجزاً عن ان ينتقد ذاته ويصلح نفسه بنفسه . وبعدالة شاعرية كان الزعماء شخصياهم الضحايا الأولى للنظام الذي قوضت سيطرته الفعالة مخاوف وأوهام واكاذيب صنعوها مسبقا ثم انتهوا هم أنفسهم الى الايمان بها . يشهد على ذلك العناد غير المعقول الذي تشبث به ستالين لرفض المعلومات الصحيحة عن مهاجمة هتلر الوشيكة لروسيا : انه خطأ مأسوي في الحكم تسبب في ألم واذلال عسكري لا مثيل لهما ؛ حتى كادت روسيا ان تخسر لذلك الحرب . وفي نهاية النزاع أصبحت الآلة العملاقة النازية هي أيضا ضحية تعسفات زعمائها الايديولوجية وضلالاتهم العاطفية : فقد بددوا في الاستيلاء على البلدان المخضعة واستغلالها قوى عسكرية كان ينبغي ان تحشد للمعركة . وكذلك قوضوا المجهود العسكري والصناعي بابادة ملايين من الروسيين والبولونيين غير المحاربين اشباعاً لحقدهم وازدرائهم المرضيين بينما استمر النظام في حرمان نفسه بواسطة الجوع والتعذيب والقتل من حوالي ستة ملايين من المعارضين بقي الكثير منهم الى ان واجهوا مصيرهم غير المعقول المانيين وطنيين كان من الممكن ان يستخدم عملهم بشكل مجد في زيادة الانتاج .

وبالنظر الى الصبغة الصارخة لاخطاء الحكم هذه ولفشل المجهود العسكري فقد يظن بان هاتين الآلتين العملاقتين الروسية والنازية على السواء ستزولان تماماً بعد ان يتنكر لهما الناس أكثر من الآلة غير المنظورة التي ازدهرت في عهد الاهرامات . إلا ان الاخطاء التي ارتكبها النازيون لم تحل مع الأسف دون فوزهم في البدء بسلسلة من النجاحات

العسكرية المذهلة : وهي مآثر تسببت عنها عودة ما يشبه الآلة العملاقة في بريطانيا العظمى وفي الولايات المتحدة . وبموجب دياليكتيك التاريخ العجيب فان توسيع واصلاح هتلر للآلة العملاقة النازية قد خلقت الشروط الضرورية لابداع آلات مضادة كفيلة في زمن معين بان تتغلب عليها وتدمرها .

وهكذا فان الآلة العملاقة بقيت بعيدة جداً عن ان يستهان بها بسبب الأخطاء الضخمة التي اجترحتها النخبة الحاكمة وقد حدث بالواقع عكس ذلك : فقد اعاد الحلفاء الغربيون بناء الآلة العملاقة وفق اتجاهات علمية طليعية واستبدلت عناصرها البشرية المقصرة ببدائل ميكانيكية والكترونية وكيميائيه وأخيراً قرنت بمصدر للطاقة يجعل كل الأنماط السابقة لانتاج الطاقة باطلة مثل قذائف عصر البرونز . وقصارى القول ان النازيين وهم يحتضرون نقلوا بذور مرضهم الى اعدائهم الاميركيين : ولم ينقلوا فقط أساليب التنظيم الاندفاعي أو التدمير المادي بل الفساد الخلقي الذي يتيح استخدام هذه الأساليب دون اثارة معارضة .

لقد تبين ان هتلر هو أكثر من ستالين أيضا معلم في الافساد لأنه كان قادراً على ان يطلق عند الآخرين أكثر قوى اللاشعور تدميراً .

وخلال اثني عشر عاماً جعل هتلر كل أنماط الانحطاط الانساني مألوفة حتى انه استخدم أطباء اقسموا اليمين البوقراطيةعلى ان يسوموا كائنات بشرية عذابات فظيعة علمية مزيفة لا يمكن ان يتصور مثلها إلا النفاسيون وحدهم ولو بالخيال . وحول هتلر على ملعب العالم

« مسرح اللا معقول » الأصيل الى « مسرح قوة » ؛ والمشاهد الطليعية التي تمجد الآن هذه المظاهر النفاسية هي من الشواهد السائرة على نجاح هتلر المرهق .

وقد نجح هتلر وعماله خلال سيطرتهم القصيرة في افساد القيم الانسانية وفي القضاء على المحرمات التي قضت الشعوب المتحضرة آلاف السنين في بنائها بغية حماية نفسها من أوهامها المدمرة الذاتية .

ولم يكن أي تعسف تنبأ به هيكسلي في كتابه أفضل العوالم غريباً في الريخ الثالث . ان انتصار النازيين الأول أثناء الحرب العالمية الثانية أي التدمير الكامل لمركز وارسو الذي تبعه تدمير مركز روتردام عام ١٩٣٩ كانت تطبق فيه تقنية وضعتها في الأصل الآلات العملاقة الأولى . لقد تفهم الألمان الروح الأساسية للنماذج الأصلية كما وردت في تبجح اشور ناصر ابال الذي وصل الينا : « لقد قطعت رؤوسهم وأحرقتهم بالنار وكدست على باب المدينة رجالا أحياء ورؤوساً وقد رفعت الرجال على الخازوق ؛ دمرت المدينة وهدمتها وحولتها الى تلال وأكوام من الخرائب ، وأحرقت بالنار الشبان والصبايا . » وبقي أمام عصرنا عصر « التقدم » مباركة هذه الأفعال النفاسية واعتبار هذا الأجرام طبيعيا .

وقد كان هذا السم يعمل عمله حتى قبل النازية داخل روح « التقدم » التقني — العسكري . فلقد نصح لأول مرة الجنرال وليم ميتشل قائد سلاح الجو الاميركي بسياسة الابادة الجماعية من أعالي الجواء ثم تبعه الجنرال الايطالي دوهي باعتبار هذه السياسة بديلا جماعيا رخيصا وسريعاً

لنوع الظفر الذي تحققه الجيوش التي تهاجم جيوشاً اخرى ماثلة أمامها. والانتصارات التي كان موسوليني يباهي باحرازها على قرويي الحبشة الضعفاء قد شجعت على استعمال هذا المبدأ بشكل عام : لقد اتبع الألمان تدميراتهم الأولى السهلة لوارسو وروتردام بهجمات اكثف ضد مدن بريطانية بدءاً من لندن في أيلول ١٩٤٠ .

لقد تبين تكراراً ان هذا الأسلوب اللئيم باهظ الثمن وباطل كاستراتيجية مجدية بهدف الحصول على الهيمنة العسكرية ؛ حتى عندما كان يستعمل ضد مدن كاملة لا ضد أهداف عسكرية فقد كشف الاستقصاء الرسمي ان ٢٠ ٪ فقط من القنابل التي قذفها سلاح الجو الاميركي خلال الحرب العالمية الثانية قد وقعت على المناطق المعينة . لقد اسفرت النتائج العسكرية الضئيلة من لندن وكوفنتري الى همبورغ ودريسدن وطوكيو وهانوي عن تفاوت هائل مع المجهود الصناعي الضروري . وبسبب الوضع اليائس في بريطانيا العظمى من ناحية فقد رد تشرشل على النازيين بتبني الأسلوب الشمولي نفسه متأثراً برأي الأستاذف . أ . لنديمان الشرير؛ وتبع سلاح الجو الأميركي عام ١٩٤٢ الحركة . وكان في ذلك استسلام معنوي بدون شرط لهتلر .

وكان هذا اللجوء الى قصف الابادة ضربة اخرى ، بعدالة مثالية

لقد اشتهر لبعض الوقت بقصف القطاعات أو العرقلة ، دون ان يكون له شيء من ذلك ، قد اخر هذا القصف النصر الديمقراطي لأن النصر احرز في الواقع بوسائل عسكرية كلاسيكية مدعمة بسلاح الجو التكتيكي الذي دمر جسوراً وخطوطاً حديدية وطائرات اخرى . إلا ان النجاحات نفسها الذي احرزتها قوى المحور المتحدة في أوربا

وآسيا ولدت نتيجة أشد شؤما أيضا : فان التهديد بانتصار نازي بواسطة التفوق التقني في القصف بواسطة الصاروخ البعيد المدى يضاف اليه التهديد الآخر بالتفوق المطلق بفضل امكانات تحرير الطاقة الذرية قد احدثت في الولايات المتحدة البروز العنيف المرتغب منذ زمن طويل لآلة عملاقة من طراز القرن العشرين الطليعي . وتحت وطأة الحرب تم تحرير واستخدام العنصر الذي كان ينقص الآلة العملاقة، نوع الطاقة التي تنبأ هنري ادامز بولادته « قنابل ذات قوة كونية » . ان التنظيم نفسه الذي جعل هذا ممكنا ، قد وسع كل أبعاد الآلة العملاقة وزاد قوتها على انجاز التدمير الجماعي بواسطة عامل لا يمكن تقديره .

لقد حدث هذا التغيير الواسع خفية بواسطة اعتمادات تمول جماعات سرية من العلماء كان كل منها يجهل أعمال الاخرى ، مستخدمين معلومات مكتومة لهدف بقي سراً حتى انفجار أول قنبلة ذرية بالرغم من ان الافتراضات كانت قريبة جداً من الصواب . ان الشروط نفسها التي تم فيها اختراع هذا السلاح قد جمعت عناصر الآلة العملاقة المبعثرة . وكما جرى في الآلة العملاقة الأولى فان الطراز الجديد قد ضرب عرض الحائط بالحدود المستقرة من علمية وتقنية واجتماعية واخلاقية ، وأعطى كالآلة العملاقة القديمة نفوذاً وسلطة بدون تحفظ كما يدل على ذلك التاريخ لأولئك الذين لم يبرهنوا عن أية قدرة على استخدامها بحكمة وبانسانيه ولو كان ذلك عن طريق سلطة محدودة أكثر .

وتبقى الآن مشكلة فقط لها صلة بذلك مشكلة تتجاوز كل المشكلات

الاخرى : كيف نحول دون ابادة الزعماء الفاسدين (رغم اعتبارهم سليمي المدارك) للجنس البشري ؟

هذه المشكلة لا تزال تتطلب حلاً . وقد أصبحت في غضون ذلك مشكلة اخرى على درجه مماثلة من الألحاح تقريبا : كيف نحمي الانسانية بمجملها من السقوط تحت هيمنه الجهاز الاستبدادي الجديد الكاملة دون ان تدمر بذلك المعارف العلمية والقدرات التقنيه التي أسهمت في خلقه . ؟ وكان امرسون محقا في ملاحظته عام ١٨٣٢ وكأنه يتنبأ بمخاوفنا ومحننا الحاضرة :« لا تسلموا الى الأولاد أدوات حادة ولا تنيطوا، بحق الاله، بالرجل سلطانا أكثر مما يمتلك قبل ان يتعلم ان يستخدم بذاته هذا السلطان الصغير بشكل أفضل . الى أي جحيم سنحول العالم لو كنا نستطيع ان نعمل ما نريد ! ضعوا قطعة جلد على سيف المبارزة الى ان يتعلم المبارزان الا يفقأا العيون . »

٦ : بروزات عنيفة وانفجارات

لقد اقتضى اتمام تفجير الأفكار والقوى التي انتهت الى انتاج المفاعل الذري والقنبلة الذرية ثلاثة قرون من التحضير . لم يكن من الممكن تناول أي اقتراح من هذا الحجم بالقدر الكافي من السلطان في ذلك الحين للتغلب على عطالة الشئون العادية في زمن السلم دون تحد عسكري مباشر تقذفه الآلة العملاقة من الطراز القديم مع الاحتمال القوي في الا يلبث الفيزيائيون الألمان حتى يضعوا بأيدي هتلر سلاحاً للتدمير الشامل يتيح الحصول بواسطة الابتزاز على اذعان كل الأمم الاخرى .

ان مثل هذا التهديد بالسيطرة على العالم من قبل المحور الاستبدادي ألمانيا وايطاليا واليابان وروسيا السوفييتيه قبل حزيران ١٩٤١ قد تسبب بتركيز مشابه للقوى المادية من قبل الديمقراطيات حتى قبل ان تنجر الولايات المتحدة الى الحرب بواسطة هؤلاء الأعداء . وقد كان واضحا آنذاك بالرغم من ان ذكرى تلك الحقيقة قد غامت ويالأسف ان أية تسوية مع المحور الثمل بخمر النصر لم يكن من الممكن ان توقف برنامجهم المتسارع للاسترقاق والابادة وان أية مقاومة سلبية أو غير عنيفه كتلك التي مارسها الهندوس ضد الحكومة البريطانيه في الهند كانت أقل خطا في النجاح . واذا كانت لا تزال هنالك حاجة للبرهان على تلك الواقعة فان مصير اليهود والجماعات الوطنية الاخرى في ظل النازيين ومجموعهم حوالي عشرين مليون من الافراد المذبوحين يأتي بالبرهان . ومجهودات أ . ج . ب . تايلور وزملائه الملحة للتستر على هذا الوضع بتحويل هتلر الى رجل دولة مسئول يرمي الى أهداف قومية محددة هي قلب فاضح لعلم التاريخ . وعندما شملت حرب ١٩٣٩ الكرة الأرضية لم تكن العناصر الضرورية للآلة العملاقة قد ازدادت فقط من حيث التأثير بل كانت قد وضعت في حالة من التنسيق والتعاون الوثيقين بشكل انها كانت تعمل في كل بلد وبشكل متزايد كوحدة واحدة . ووضعت كل مجالات الروتين اليومي تحت الرقابة الحكومية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وخضع – تقنين الغذاء وتقنين المحروقات وانتاج الألبسة والبناء للأنظمة التي وضعتها الادارة المركزية : ولم يطبق نظام الخدمة الاجبارية بالواقع على القوات المسلحة فحسب بل على البلاد بمجموعها .

ومع ان الصناعة امتنعت أول الأمر عن الانجرار في هذا المدار

الجديد فان نمو الكارتلات والتروستات والاحتكارات التي نشأت في القرن السابق كان يعد هذه المنظمات للتعاون الفعال تحت الرقابة الحكومية — يستهويها بالطبع المحرض المالي الضخم على قبول الاندماج واعني به الاتفاق مع ربح وفير مضمون . لقد كان ذلك يؤمن في الوقت نفسه النسبة القصوى من الانتاجية والنسبة المالية القصوى . وبمقدار تقدم الحرب كان هذا التجمع التقني العملاق يعمل أكثر فأكثر كوحدة عمل واحدة رغم المحاسد المهنية والخصومات المحلية .

غير انه بقي هنالك عنصران اضافيان ضروريان لاتمام الانتقال الى الآلة العملاقة الجديدة . وكان احدهما موجوداً : الزعيم المطلق . وقد اتفق ان كان رئيس الولايات المتحدة مزوداً بسلطات استثنائيه منصوص عنها في الدستور الاميركي وهو تقليد مباشر لسابقة رومانية .

فقد كان الرئيس يمتلك في أوضاع زمن الحرب سلطة بلا حدود لاتخاذ التدابير الضرورية لانقاذ الأمة مهما كانت هذه التدابير : لم يمارس أي ملك مطلق سلطة أعظم . ان مجرد التهديد بان هتلر يحتمل ان يمتلك سلاحاً أعظم قد أتاح للرئيس روزفلت مع موافقة الكونغرس على الموازنة ان يحشد الطاقة البشرية والطاقة الفكرية اللتين نتج عنهما اختراع المفاعل النووي والقنبلة الذرية . وللحصول على هذه النتيجة تم نقل كل العناصر الكلاسيكيه في الآلة العملاقة القديمة الى طراز أفاد إفادة كاملة من التنظيم التقني العملاق ومن البحث العلمي . ولم يكن بمقدور التركيز الرقيق لمجمع القوة ان يولد التحول الحاسم في الهيكل العسكري والصناعي والعلمي . وقد ولدت ما بين ١٩٤٠ — ١٩٦١ من هذه الوحدة الآلة العملاقة المحدثة التي تمتلك قوة تدمير شاملة .

وبدلا من ارخميدس واحد يدمر بمهارة الاسطول الروماني انخرط في العمل عشرة الآف نموذج من ارخميدس بهدف مضاعفة أجهزة الحرب وابطال الأجهزة العدوة ؛ ومقابل مؤيد واحد للحرفية كذاك الجندي الاميركي الذي اخترع طريقة سهلة لقطع سياجات النور ماندي الكثيفة التي اعاقت انتشار الدبابات الاميركية كان هنالك الآن الاف من متابعي التكنولوجيا الجديدة يعملون على الرادار وكاشف الصوت والطائرات النفاثة والصواريخ وخصوصا على القنبلة الذرية . ولا يمكن ان يحدث مثل هذا التحالف في القوى الذي يوشك‌ان يكون ذوباناً إلا تحت ضغط الحرب الشديد .

كان انتاج القنبلة الذرية في الحقيقة حاسماً في بناء الآلة العملاقة الجديدة على الرغم من ان هذا الهدف الأبعد لم يخطر ببال احد في ذلك الحين . والواقع ان نجاح هذا المشروع هو الذي أعطى العلماء مكانة مركزية داخل مجمع القوة الجديد وكانت نتيجته النهائيه اختراع العديد من الأدوات الاخرى التي كملت واشاعت نظام التسلط الموضوع في‌البدء لتلبية متطلبات الحرب فقط .

وقد منح الرؤساء المدنيون والعسكريون في الولايات المتحدة مابين يوم واخر سلطات لم يطمع بها حتى ذلك الحين آلهة عصر البرونز ، سلطات لم يمارسها في الواقع أي حاكم مجرد انساني . وبعد ذلك وحسب ترتيب الأولويات احتل العالم التقني الذي لا يستغنى عنه ارفع مرتبة في تسلسل الحكم الجديد ؛ وتحول كل عنصر من عناصر الآلة العملاقة وفقا لطراز المعرفة المحدودة خصوصاً والمعقمة عن عمد من كل القيم

والأهداف الانسانية تلك المعرفة التي اعد لانتاجها تحليلهم الرياضي المرهف واساليبهم الصحيحه .

ونظراً للتحولات النكبية التي تلت ، فمما له دلالته ان المبادأة في تحرير الطاقة النووية الحدث المركزي لانبعاث الآلة العملاقة بشكلها الحديث لم تتخذها الحكومة المركزية بل اتخذها فريق صغير من الفيزيائيين ومما ليس بأقل دلالة من ذلك هو ان محامي القوة النووية هؤلاء كانوا هم أنفسهم أناساً يتمتعون بانسانية وحساسية أخلاقيه استثنائيتين لا سيما البرت انشتين وانريكو فيرمي وليوزيلار وهارولد اوري .

وكانوا اخر من يمكن ان يتهموا من العلماء بانهم سعوا لاقامة كهنوتاً جديداً قديراً على الاضطلاع بسلطة اتوقراطيه وعلى ممارسة سلطان شيطاني . وهذه السمات غير المحببة التي أصبحت بارزة بشكل صارخ عند بعض المتعاونين المتأخرين وبعض الخلفاء قد نشأت عن الأدوات الجديدة التي توجهها الآلة العملاقة وعن المفاهيم المجردة من الانسانية التي لم تلبث ان اندمجت في برنامجها العملي . أما أصحاب المبادهة في القنبلة الذرية فقد حجبت عنهم براءتهم في المراحل الأولى على الأقل النتائج الرهيبة النهائيه لمجهودهم .

ومن المؤكد ان الفيزيائيين المتنبهين الى الخطر المباشر الذي يمثله لانشطار الذرة ان توصل الى هذه المعلومات ديكتاتور مستبد قد استخلصوا استنتاجات سياسية وعسكرية خاطئة ضد التطبيق السريع لان تكوينهم العلمي لم يوفر لهم الوقاية الكافية . وخشية ان يفوز النازيون بتفوق ساحق من السبق في صنع قنبلة ذرية أوصى اينشتين وزملاؤه رئيس

حكومة الولايات المتحدة بحرارة بصنع مثل هذا السلاح دون ان يتبينوا بتبصر الامكانات الاخرى المتنوعة . لقد كان لمخاوفهم مايبررها وكان تيقظهم رائعا . ولكن مبادأتهم أتت وياللأسف متأخرة نصف قرن . ولو تنبه العلماء الذين ينتسبون الى هذا الفرع الى انذارات هنري ادامز وفريدريك سودي قبل جيل لكان باستطاعتهم ان يلتفتوا في الوقت المناسب الى القضية الحاسمة المستبطنه : وهي كيفيه تعبئة العقل الانساني للحيلولة دون التحرير المبكر لطاقة ذات قدرة مأساوية الى هذا الحد .

لقداعد هؤلاء العلماء تكوينهم وياللأسف لتقبل فكرة ان تزايد المعرفة العلمية المتواصل وترجمتها باسرع ما يمكن الى الميدان العملي دون أخذ النتائج الاجتماعية بعين الاعتبار ليس إلا مطلباً قطعياً .

وعلى الرغم من ان أحد المعاصرين الذين يهمهم الأمر يمكن ان يتفهم المبادهة التي قام بها اينشتين وصدقها الرئيس فرنكلين . د. روزفلت فمن الممكن جداً ان يرتكب الناقد المذكور في نفس الظروف الخطيئة المأسوية نفسها . فمن الواضح الآن ان هذا الاقتراح قد تم ضمن سياق تاريخي محدود جداً ؛ وكان المقصود قراراً سريعاً بغية الحصول عاجلا على النتيجة المرجوة بالرغم من انه يخشى ان تقوض النتائج بشكل نكبي مستقبل الانسانية بكامله . ان اقتراح ابداع سلاح ذي عنف كوني دون تقديم تدابير الأمن المعنوي والسياسي المنسقة كشرط للمساعدة العلمية يدل على قلة اعتياد هؤلاء العلماء الخلقيين أنفسهم على التبصر في النتائج العملية لالتزاماتهم المهنية .

الوقائع أصبحت الآن واضحة : لقد سبق الاستعداد لهذا الاستخدام الشرير للقوة انفجار أول قنبلة ذرية . وكان سلاح الجو الاميركي قد تبنى قبل تجربة أول قنبلة ذرية بكثير العادة التي كانت حتى ذلك الحين غير معقولة عادة قصف الابادة الشاملة للسكان المدنيين بدون تمييز . وهذا ما يساوي اذا استثنينا حجم الضحايا ، الأساليب التي استخدمها زبانية هتلر في معسكرات الابادة كبوتشا توالد واوشويتز .

لقد شوت القوى الجوية باستخدام قنابل النابالم ما يقرب من مائة ألف مدني من الأحياء في ليلة واحدة . وهكذا فان التردي الى درجة هدم المعنويات والابادة الشاملين كان منظما تماماً قبل اختراع السلاح المزعوم انه الأعظم ، القنبلة الذرية ، بوقت طويل .

وعندما صدق على اعتزام صنع قنبلة ذرية وقع العلماء الذين كرسوا أنفسهم لهذا المشروع في احبولة مقدماتهم الايديولوجية الخاصة الى درجة ان قبلوا باستخدامها عسكرياً . ولم يكن من السهل تصحيح خطيئتهم الأساسية مهما كانت وخزات الضمير أو الجهود المسعورة التي بذلها الذين يفوقونهم حساسية وذكاء من رؤساء جماعاتهم لينبهوا الانسانية الى مصيرها . ولقد حدث في الواقع ما هو أسوأ من اختراع سلاح فتاك : فعملية صنع القنبلة قد سرعت تجمع الآلة العملاقة الجديدة ؛ لان حالة الحرب الدائمة بعد انقضاء الوضع العسكري الاستثنائي العاجل قد أصبحت شرط الابقاء على عمل هذه الآلة العملاقة فعلاً وشرط بقائها وتزايد توسعها .

وبالرغم من انه لم تقم خلال السنوات العشرين التي تلت القاء القنبلة الذرية سوى آلتين عملاقتين عسكريتين حديثتين في الولايات المتحدة وروسيا السوفييتية فانهما كلتيهما تحملان في طياتهما استجرار كل الوحدات القومية الاخرى الى مدارهما بالنظر الى اتساعهما الديناميكي وخصومتهما المجنونه واندفاعيتهما التفاسية . ولا بد في النهاية لهذين المنظومتين من ان يدمر كل منهما الاخرى أو ان تتحدا على نطاق الكرة الأرضية مع الآلات اخرى عملاقة مشابهة . وبدلالة مستقبل التطور البشري فان الاحتمال الثاني لا يبدو أبداً ويا للأسف واعداً أكثر من الأول . والحل الاخر الوحيد المعقول هو تجريد الآلات العملاقة العسكرية من السلاح .

يجب الاعتراف بان هذه النتائج كلها ، كان من الممكن ان تحدث بمقدار تقدم العلم والتكنولوجيا العملاقة في السبل الطويلة المتلاقية التي سلكاها في القرن التاسع عشر حتى بدون محرض الحرب والاختراع المتعمد للقنبلة الذرية . لكن الأمر كان يتطلب بلا ريب أكثر من قرن للوصول الى النقطة نفسها التي وصلوا اليها في أقل من عقد . لقد تكشف ان بيئة الحرب هي مرجل للثقافة مثالي يمكن ان تتضاعف فيه كل أنواع الأجهزة الفتاكة . ونكرر بانه كما جرى في تفجر الحضارة الأصلي فان مجموعة العوامل نفسها قد اطلقت بتنميتها للطاقة والقدرات الانسانية قوى مدمرة مقابلة للقوى البناءة وغذت قدراً من اللامعقولية الجماعية تتعارض مع المغانم الايجابية الرائعة للفكر المعقول . ومرة اخرى أيضا علي ان اطرح السؤال الذي طرحته في مقدمة المجلد الأول :

هل اتحاد القوة والانتاجية الاستثنائيتين هذا مع العنف والتدمير اللذين لا يقلان عنهما استثنائية هو اتحاد مصادفة محضة ؟ »

ان الموازاة بين منجزات عصر الاهرامات ومنجزات العصر النووي تفرض نفسها علينا مهما كان النفور من قبولها الذي يمكن ان يخالجنا في البدء . واكرر ان ملكا الهياً تتجسد فيه كل سلطات وامتيازات الجماعة بكاملها ويسانده كهنوت مبجل وديانة شاملة هي ديانة العلم الوضعي قد شرع يجمع الآلة العملاقة بشكل أكمل تكنولوجيا وأكثر مهابة . واذا نسينا حقيقة الدور الذي لعبه الملك (الرئيس الاميركي في زمن الحرب) والكهنة (شريحة العلماء السرية) والتوسيع الكبير للبيروقراطية وللقوى العسكرية والصناعة فلن تكون لدينا أية فكرة واقعية عما حدث بالفعل . ولا تتجمع كل هذه الأحداث المتفرقة والعارضة ظاهراً في منظومة حسنة التنظيم إلا بالاستناد الى عصر الاهرامات . وقد تبين ان بناء الآلة العملاقة الشاملة المحدثة المدعمة باختراع أجهزة ميكانيكيه والكترونيةوالتيلم يكن منالممكناستخدامها بشكل كامل قبل هذا التجميع هو اشأم اسهام لهتلر (بالرغم من انه غير مقصود) برد الانسانية الى العبودية .

وهكذا فان احدى المآثر العظمى لتفهم الانسان الحديث للعناصر النهائيه التي يتألف منها « العالم المادي » هذه المأثرة التي بلغت ذروتها في اطلاق الانسان للطاقات نفسها التي كان يوجهها الاله الشمس قد تمت تحت ضغط حرب الابادة الشاملة والافناء العام : انه وضع شل كل جهود الحفاظ على الحياة وترقيتها . وتواصل هذه الحال مع ما رافقها من تعميق وتوسيع للأزمة خلال الحرب الباردة التي تلت

ذلك قد زادت الى حد كبير الاحتمالات المشئومة التي كان يتوقعها هنري ادامز .

٧ : مقارنة الآلات العملاقة

يمكننا الآن ان نقارن الشكلين القديم والحديث من الآلة العملاقة ؛ اسمحوا لي قبل ان نقوم بذلك ان أوضح واقعة ان الآلة القديمة لم تكن مثبتة الهوية (بل بقيت مجهولة تماما) قبل ان تقوم الحديثة .

وهكذا فاننا سنرى بان اختلافاتهما معبرة بقدر تشابهاتهما ؛ غير ان التشابهات المستبطنه تلقي ضوءاً جديداً ، في رأيي ، على الوهلة التاريخية الواسعة وأكثر من ذلك انها تلقي أيضا ضوءاً جديداً على العهد الذي ابتدأ .

يمكن التعرف على الآلتين العملاقتين بقدراتهما التكنولوجية المتشابهة انهما جهازان جماهيريان قادران على القيام بمهمات موجودة خارج متناول التجمعات المهنية الصغيرة والجماعات القبليه أو المحلية الضعيفه . ومع ذلك فان الآلة القديمة كانت تتأثر بالمحدوديات البشرية لأنها كانت تتألف بمعظمها من عناصر بشرية ؛ فالعبد لا يستطيع ان يتجاوز ، حتى تحت اشراف اقسى رئيس سخرة ، عشر الحصان البخاري ولا ان يواصل العمل الى ما لانهاية دون ان يتضاءل مردوده .

التضاد الكبير بين طرازي الآلة هو ان الآلة الحديثة قد قلصت تدريجيا عدد العمال البشريين وضاعفت العناصر الميكانيكيه والالكترونية المضمونه أكثر : ولم يؤد ذلك الى تخفيض قوة اليد العاملة الضرورية لعملية ضخمة فقط بل الى تيسير المراقبة الآنية عن بعد . وبالرغم من

ان عمال ضبط الأجهزة البشريين يبقون ضروريين في بعض نقاط المنظومة الرئيسيه فقد تخلصت الآلة الحديثة من المحدوديات المكانية والزمنية : فهي تستطيع ان تعمل كوحدة بسيطة على مساحة واسعة لأن عناصرها الفعالة تعمل كمجموعة بسبب الاتصال الآني . وهكذا فان النموذج الجديد يسير كتائب كاملة من الوحدات الميكانيكيه المتنوعة المزودة بقوة فوق قوة البشر وبأمن ميكانيكي أعلى من الامن الانساني وبما لا يقل عن ذلك أهمية وهو سرعة البرق . ومع انه لم يكن من الممكن تصميم الآلة العملاقة القديمة بدون اختراع الكتابةفقد انهارت النظم الاستبدادية السابقة على التوالي بسبب بطء المواصلات ؛ الى درجة ان احد اهتمامات الآلات العملاقة القديمة كان تحسين المواصلات بواسطة الطرق والماء ومحطات تغيير العدائين والاحصنة وبسفن يحركها عبدان بحركة ميكانيكيه موحدة .

وعندما اخترع البرق وتبعه الهاتف والراديو زالت هذه التحديدات في تحقيق المراقبة عن بعد . يمكن الآن نظريا ان نصل أي نقطة من الكرة الأرضيه اتصالا شفهيا آنيا بأية نقطة اخرى ، والمبادلات المرئية الآنية في أي مكان لن تتأخر إلا قليلا . وقد حدث في نقل الجسم البشري تسارع مساوٍ تقريبا : فالرسل المجنحة التي كانت تحمل قديما اوامر السماء الى الأرض أصبحت في الحقيقة متوفرة اليوم في أي مطار ؛ وعما قليل سيتيح النقل بضعفي سرعة الصوت حتما لملائكتنا من الزي الحديث ان يظهروا في أية نقطة من الكرة الأرضية بأقل من نصف يوم .

لقد كانت القوة والسرعة والمراقبة الخصائص الأساسية للملوك المطلقين في كل العهود : والتخلص من الحدود الطبيعية السابقة في هذه

المجالات هو الموضوع المشترك الذي يجمع الآلتين العملاقتين القديمة والحديثة .

لقد كانت الآلة العملاقة القديمة تعمل فقط بأقصى المكافآت في نظر الجمهور وبأقصى العقوبات ؛ وكانت هذه الاعراف من الشيوع الى درجة ان أعلى موظفي الدولة كانوا يتعرضون في الغالب الى اهانات واكراهات مشابهة . وهكذا فقد كانت تتحمل الجماعة بمجملها من وقت لآخر أعمال قصاص مع التهديد بعقوبة أسوأ أيضا اذا لم يصل العاملون الى انجاز نصيبهم . وتكثر الوثائق التي تشهد على هذه الاعراف في كل البلدان التي تستغلها الآلة العملاقة . واسمحوا لي ان اضيف هنا الى ما ذكرت سابقا مقطعاً لهوبس من « قوانين مانو » رواه كارل ويتفوجل : « اذا لم يعاقب الملك بدون انقطاع الذين يستحقون ان يعاقبوا شوى الأقوى الأضعف كما تشوى السمكة على السفود . القصاص وحده يحكم كل المخلوقات ؛ والقصاص وحده يحميها » .

وانطلاقا من هذه الشواهد يحق الاستنتاج ان الآلة العملاقة كانت في الأصل من ابداع الأقلية المسلحة نفسها التي اخترعت الحرب المنظمة وفرضت الطاعة بدون شروط والجزية النظامية على فلاحي العصر الحجري الأخير السلبيين اللاعدوانيين الخاضعين ، الفلاحين الذين شكلوا في الحقيقه خلال الفترة التاريخيه التي تلت القسم الأعظم من السكان البشريين . ومع ان الآلة العملاقة الحديثة أيضا من نتاج الحرب فانها كما سنرى عما قريب قد تغلبت جزئيا على ضرورة القهر العلني بفضل نوع ارهف يبدل العقوبات بمكافآت أو بمكافآت ظاهرية .

وكانت هذه المنظومة تنطوي من جهة اخرى على مساوىء خاصة

بها : فهي لم تكن فقط تبذر الطاقة الانسانية بطلب عدد مفرط من رؤساء العبيد والمناظرين بمعدل واحد لكل رهط من عشرة رجال بل كانت تسبب الاحتكاكات والحقد الكئيب وانخفاض المردود ؛ وكانت تبرد طاقة المفكرين المتفوقين الذين كان من الممكن ان يكرسوا أنفسهم للاختراع الحر والابداعية العفوية . ولا سبيل الى ان نكون فكرة عن عدد أمثال امحوتب أو جوزيف الموجودين بالقوة الذين عقمهم الارهاب كما يجري في روسيا السوفييتيه أو في الصين اليوم .

والأسوأ من ذلك ان هذه الانساق الاضطهادية وهذه العقوبات الوحشية قد انتشرت الى ما وراء ميدان العمل وافسدت كثيراً من العلاقات الانسانية الاخرى . وتدل شواهد التاريخ ان مؤامرات وانتفاضات وتسممات وثورات عبيد قد خفضت من فعالية الآلات العملاقة الأولى العملية . وكان هنالك بشكل بارز مجال لكثير من التحسينات حتّى داخل الوحدات غير الميكانيكيه من الآلة العملاقة وسنتحرى في الفصل التالي بعض هذه التحسينات الرئيسة .

٨ : التضحية البشرية والسلامة الميكانيكية :

ان الايديولوجيا التي تسند وتوحد الآلتين العملاقتين القديمة والحديثة هي ايديولوجيا تنكر ضرورات وأهداف الحياة في سبيل تقوية مجمع القوة وتوسيع هيمنته . الآلتان العملاقتان موجهتان نحو الموت ؛ وكلما ازداد اقترابهما من توحيد السيطرة على الكرة الارضية يزداد احتمال ان تصبح هذه النتيجة حتمية . وائتلف كل فرد مع هذا الاندفاع التاريخي المستمر على صورة الحرب السمجة . فالعنف العسكري بوصفه متميزاً عن الأشكال الصغرى المتفرقة من العدوانية الحيوانية

هو النتاج التاريخي لشكل خاص من التنظيم الاجتماعي تطور عند بعض مجتمعات النمال منذ ستين مليون سنة تقريبا وقام من جديد مع كل منجزاته المؤسسية المشئومة في المجتمعات المصرية والعراقيه في عهد الاهرامات »

لقد اعيدت كل هذه السمات القديمة خلال القرن التاسع عشر وعلى الاخص التكريس الجماعي للموت . فخلال نصف القرن الأخير فقط لقي ما بين خمسين ومائة مليون شخص (يتعذر اعطاء الرقم الدقيق) الموت المبكر بالعنف أو الجوع ، على ميدان القتال وفي معسكرات الاعتقال ، في المدن المقصوفة والمناطق الزراعية التي تحولت الى معسكرات ابادة جماعية . زد على ذلك اننا قد اخبرنا تكراراً بواسطة سلطات رسمية في الولايات المتحدة (انهم يذهبون الى حد المباهاة بذلك) ان الاشتباك النووي الأول بين قوى حسنة التجهيز كالولايات المتحدة وروسيا السوفييتيه سيموت في اليوم الأول منه ما بين ربع ونصف سكان كل من البلدين .

وهذه التنبؤات الرسمية تمتنع بحذر كحذر الثعلب ان تقدر الخسائر الاخرى الناتجة عن وسائل الابادة الاخرى التي اتموا صنعها والتي تحدث خلال اليوم الثاني والأسبوع الثاني والعام الثاني وحتى القرن الثاني ؛ وينطوي هذا بالواقع على عناصر لا تحصى ذات أبعاد فلكية يخشى ان تكون نتائجها التي لا يمكن استشفافها مما لا يمكن تلافيه دائما. (وبين مستشاري الحكومة الاميركية المسموعي الكلمة علماء يبالغون في الوهم حتى انهم يفترضون بان لديهم القدرة على استشفاف تلك الآثار التي لا تحصى)

لقد اتسع وتسارع في الوقت نفسه انزال الموت الجماعي كما هو الأمر بالنسبة لكل التجليات التقنيه الحديثة . وكانت حتى الآن الانفجارات النووية والاستكشافات بواسطة الصواريخ ، وقد انبثقت هذه وتلك مباشرة من خطط الحرب ، هي المظاهر الأكثر بروزاً من هذه الميسرات الفتاكة وكذلك نظم المواصلات الخاصة بها . وواقعة ان هذه الأنماط من الابادة لا تخدم أي هدف انساني حاضر أو مقبل مهما بلغ نجاحها في (المذابح الفائقة) ليس من شأنه إلا ان يدل على الطبقات العميقة المستبطنه من اللاعقلانية النفاسية التي بنيت عليها أوهام أسلحة التدمير الشامل والقوة المطلقة والسلطة المطلقة . لقد اجرى فرويد موازاة بين الطقوس السحرية لدى العديد من الشعوب الموصوفة بالبدائيه وسلوك الشخصيات العصابية في عصرنا . غير انه لم يكن في هذه الحضارات المجمدة صيد للرؤوس ولا أكل للحوم البشر ولا قتل (للقرابين) يشبه في وحشيته الخرافية وفي فساده العقلي المشاريع الحالية للعلماء والتكنولوجيين والعسكريين الرفيعي المستوى بغية انزال الموت الجماعي على النطاق الذي جعلته وسائل التكنولوجيا الحديثة ممكنا .

وقد تكشف في هذه الآونه بالضبط التي أكتب فيها احد الادلة الحسية العديدة على الخرق الذي أقر رسميا . لقد حفر المسؤولون بغية التخلص من غازات سامة قاتلة كانت موضوع التجارب لدى سلاح الجو الاميركي بئراً بعمق أربعمائة وخمسين متراً ليفرغوا فيها المواعين التي تحتوي السم الرهيب . ولكن زيادة على مخاطر مجرد نقل هذا الغاز من مكانه الأصلي الى الحفرة فقد كانت هذه المنطقة القريبة من مدينة دنفير التي كانت تعتبر فيما مضى مركز استشفاء ضحية سلسلة من الهزات

الأرضية حديثا ، وهي هزات ربما تكون ناتجة بطريقة مباشرة عن احداث هذا الصدع المصطنع . وهكذا يجب على المسئولين المهرة عن هذا الشكل الجديد من الابادة الشاملة ان يقرروا اذا كان عليهم ان يجازفوا بهزة أرضية كفيلة بان تحرر الغاز الذي تخلصوا منه بدون تحسب أو ان يردموا البئر ؛ مع تعرضهم في حالة حدوث هزة أرضية جدية للوم لتسببهم بالنتيجة نفسها بجهودهم اللاحقة .

ان خاتم الموافقة الرسمية القابل للتبرير باسم التقدم العلمي أو الضرورات العسكرية يفترض ان يستر تماما في حضارتنا الحالية هذه المشاريع المجردة من الانسانية وهذه الأفعال المجرمة أو ان يلتمس لها عذراً ان كانت بادية . واستعداد الأمم الحديثه ، ولا تقصر السويد في ذلك عن الولايات المتحدة ، لاقرار هذه الاستراتيجية المشؤومة بالقوة بالنسبة لشعوبها ذاتها بقدر شؤمها بالنسبة لأي عدو محتمل لهو دلالة اكيدة على تردينا الأخلاقي وعقلنا الخائر أو المشلول في آن واحد . وليس من المدهش ان ينظر بعض أفضل أبناء الجيل الشاب باشمئزاز عصي على التعبير وبغضب عارم مبرر الى الذين يوافقون على ذلك من متقدميهم .

واذا قورنت عبادة الموتى المصرية التي نمت خلال عصر الأهرامات مع اهراماتها الضخمة وطقوسها السحرية وتقنياتها المحكمة في التحنيط مع غزوة التكريس للموت هذه داخل حضارتنا لما كانت سوى دليل بريء نسبيا عن اللاعقلانية . والحقيقة ان التدميرات التي كانت ترافق حروب الآلات العسكرية القديمة كانت محدودة بسبب تبعيتها الحتمية للطاقة البشرية وحدها والأسلحة اليدوية فقط والأدوات اليدوية الى

درجة انه كان من الممكن تلافي أشد مجهوداتها خرقاً . ان الغاءنا الحالي لكل الحدود هذا الالغاء الذي أصبح ممكنا فقط بواسطة تقدمات العلم والتكنولوجيا هو الذي يكشف عن الطبيعة الحقيقية لهذه الحضارة وعن المصير الذي اختارته .

نعم يستطيع كهنة ومحاربو الآلة العملاقة ان يبيدوا البشرية ؛ ولذا فانهم بعد فترة سيفعلون ان صح قول تيمان . ليس هنالك أية غريزة بسيطة حيوانية عدوانيه يمكن ان تفسر هذا الضلال المتنامي . إلا ان هنالك شيئا بالاضافة الى غريزة حفظ الذات الحيوانية سيكون ضروريا على النطاق العالمي اذا ارادت الانسانية ان تنقذ نفسها في النهاية وهو زيادة التنبه العاطفي والحرص الاخلاقي والجرأة العملية زيادة كبيرة .

الالة العملاقة الجديدة

١ : اسرار المعبد

لم تجمع عناصر الآلة العملاقة الجديدة البشرية الأساسية في المكان فقط أثناء عمليةاختراع القنبلة الذرية بل وجدت هذه العناصر نفسها وقد عينت لها أدوار حاسمة ؛ وليس من قبيل المصادفة ان كان روبرت أو بنهايمر الفيزيائي هو القائد الأعلى .

وقد أعطت هذه الفرصة الجديدة المشتركين سلطات لم يتوفر من قبل وهم متفرقون لا المحرض على ممارستها ولا مناسبة هذه الممارسة. وعلى الرغم من ان حرياتهم كرجال ومواطنين قد قلعتها ضرورة كتمان السر العسكري فان مجال عملهم ونفوذهم كاخصائيين قد زاد زيادة ضخمة . فلأول مرة كان باستطاعة علماء ان يحصلوا بدعم الحكومة وحتى بدعوة ملحة منها على مبالغ من المال بدون حدود عمليا لتدارك تجهيزاتهم : ولاريب في انه لم يسبق أبداً ان وجد عدد بهذه الضخامة من الممارسين المهرة مكلفا بمهمة وحيدة . ولم يكن يستطيع ان ينهض بمثل هذا المجهود الجماعي سوى دولة واسعة كثيفة السكان متمتعة بموارد مادية هائلة وقدرة غير محدودة تقريبا على جمع الضرائب وتأمين الخدمات البشرية .

وهكذا اعيدت سراً اقامة حكم مطلق بأبعاد فرعونية في قلب

حكومة دستورية محدودة السلطات موضوعة كما يقال تحت اشراف ومراقبة عامين مستمرين .

في الوقت نفسه فان العلماء لم يجدوا أنفسهم من قبل مكرهين على العمل بمثل هذه الشروط المسيئة لحرية التبادلات الفكرية : فلم يكن من المحظور عليهم فقط الاتصال بالعالم بل التحدث فيما بينهم أيضا بحرية عن مهماتهم المختلفة . ومع ان هذه الاحتياطات قد بررت بالسرية العسكرية زمن الحرب ، فقد رفع من قدر السر نفسه بوصفه رمزاً للسلطة واسلوباً لتدعيم السيطرة .

وقد بولغ في ممارسة ذلك الى درجة ان مخترع الماء الثقيل الأستاذ هارول اوري الذي اسهمت ابحاثه في الحصول على هذا العنصر الأساسي لم يسمح له بان يطلع على الطرق المتبعة لدى شركة ديبون لانتاج مثل هذا الماء .

بيد ان سر كل نظام استبدادي هو السرية نفسها . والمفتاح لممارسة سلطة استبدادية هو تضييق اتصالات الأفراد والجماعات بتفتيت المعلومات بطريقة لا تتيح إلا معرفة جزء صغير من الحقيقة الكاملة من قبل كل شخص فردياً — والقضية هنا هي قضية حيلة قديمة من حيل المتآمرين السياسيين . والآن ها هو ما يدعى « مشروع منهاتن » يتسرب من قلب النظام الى كل عناصر الدولة الوطنية المتعسكرة على الرغم من ان الذين كانوا في قمة الهرم كانت تنقصهم ، وياللمهزلة ، المعلومات والأضواء الكافية لتجميع كل الأجزاء .

وربما كان يتكشف ان صعوبة الحفاظ على سرية مثل هذه المعارف

يمكن ان تكون أكبر لولا واقعة ان أصبح كل قسم من أقسام العلم في الحقيقة وكالة سرية بدافع من ذاته . فالعلوم الحالية هي مختصة في تعابيرها وباطنية في مفاهيمها ومرهقة في تقنياتها ومحدودة في قدرتها على ايصال معارف جديدة الى غير الاخصائيين حتى في ميادين متقاربة تقاربا وثيقا الى درجة ان انعدام المواصلة أصبح تقريبا آية التفوق المهني عند العلماء . « قال لي حديثا أحد الفيزيائيين ، عندما يتلاقى أعضاء قسمي مرة في الأسبوع على الغذاء فنحن لا نتكلم أبداً عن أعمالنا الخاصة .لأنها أصبحت شخصية جداً يمتنع التعبير عنها بالكلمات . اننا نلجأ الى ثرثرات عن اخر نماذج العربات أو القوارب ذات المحرك » .

ان نجاح مشروع مانهاتن رغم هذه التحديدات ربما يدل على ان القدرة على تجميع مثل هذا التنوع من الكفاءات النظرية والعملية في تعاون عملي وثيق يقابل الشروط السيئة شروط العزلة وانعدام التواصل الفكريين .

وواقعة ان الفيزيائيين والكيميائيين والرياضيين الذين جعلت أعمالهم الرائعة الانشطار النووي ممكن التحقيق كانوا فريقا امميا أتيا من كل البلدان المتقدمة قد كشفت عن الطاقات الكامنة للتعاون العالمي التي ولدها الاستكشاف العلمي البيكوني بالأضافة الى التكنولوجيا الجديدة . ان اجتماع المجريين زيلاد ويغنر وتيلر والدنماركي بوهر والالماني الشيوعي الخائن فوكز والايطالي فيرمي والاميركيين أوبنهايمر واوري قد منح الفريق الاميركي ميزة كانت تنقص النازيين الواثقين بتفوق ثقافتهم (الآرية) المنطوية على نفسها .

لقد كان نوع الفريق الذي سرع اختراع القنبلة الذرية من بعض النواحي اذن نموذجا لأي نوع ارقى من التنظيم الذي يسعى وقد تحرر

من سرية زمن الحرب ان يسمو على محدوديات الآلة العملاقة الأصلية : انه النموذج في الحقيقة لمنظمة أمم متحدة مرتقبة ولادتها ومجتمعة لتوفير الحد الأقصى من تبادل المعارف أو الطاقة وأخيراً لممارسة رقابة أخلاقية على التطبيقات المجردة من الأخلاق والمبكرة لمعارف علمية نصف تامة .

ان الكشف عن سر التعاون الدولي والتبادل الفكري الحر هذا كان احفل بالوعود لمستقبل الانسانية من كل المعلومات الباطنية الحبيسة في مصنفات (سرية للغاية) أو حتى المنشورة مع الحيطة في صحف علمية .

وعلى كل فتحقيق مثل هذا التكامل في المعرفة المتخصصة يحتاج الى شيء أكثر من الرغبة في التعاون بين العلوم : وليس هذا الشيء سوى تغيير « ل (فلسفة الحياة Weltans-chomng) العلمية الكلاسيكية التي لم تكن ترى الموضوعية سوى في معطيات قابلة للقياس وفي تجارب ممكنة التكرار وتنكر التفاعل المتبادل الدائم بين عالم الطبيعة وعالم الثقافة الانسانية بطريقة يلتقي فيها الاثنان في الشخصية الانسانية . وكانت دية انتاج القنابل الذرية الكافية لافناء النوع البشري هي وضع أسلحة الابادة الشاملة والانتحار هذه في أيدي كائنات بشرية غير معصومة كما ظهر ، أعمت المنجزات العلمية المدهشة معاصريهم عن الحدود البشرية للثقافة التي انتجتها .

لم توضع أبداً فيما سبق سلطة بهذا الاتساع في أيد بشرية حتى ولا في الخيال . ومع ذلك فان السلطة على نطاق ضئيل نفسها قد احدثت من طرف التاريخ الى طرفه الاخر التواءات وزيغانات بارزة في الشخصية الانسانية . وملاحظة نتائج مثل هذه السلطة في تضخيم العجرفة قد أدت

الى ان يعتبر اللاهوت المسيحي العجرفة بحصافة شديدة من أخطر الخطايا : الخطيئة ذاتها التي جعلت الشيطان يهوي من أعالي السموات .

ولم تلبث الضلالات الايديولوجية ان تصلبت على شكل « أفكار ثابتة» بين الجماعات الحاكمة التي هيجها امتلاك أسلحة دمار شامل. وقد ولدت هذه الأفكار تشككا مرضيا ومعاداة عنيدة يشبهان ما هو مروي على جدران ضريح سيتي : وهو نص يعود بتاريخه الى ما بين القرن الرابع عشر والقرن الثاني عشر قبل المسيح ولكنه يمثل ملامح من نص أصلي أقدم بكثير : يزين لري الاله الشمسي في هذا النص ان الانسانية تتآمر سراً ضده فينوي بالمقابل تدمير الانسانية .

ومنذ البدء تبختر ممتلكو الاسلحة النووية العسكريون وتكبروا وهددوا وابادوا على غرار الهة عصر البرونز ؟ اما أنبياؤهم وعرافوهم الرسميون الذين شد من عضدهم التزايد الكبير في الطبيعة التدميرية للقنبلة الهيدروجينيه فقد ايدوا مشاريعهم وأعلنوا بثقة عن أزمات وعن تغييرات وشيكة .

وعلى الرغم من محاولات الاستفزاز فقد تبين ان هذه التنبؤات لم تكن صحيحة أكثر من نماذجها الأولى البدائية حتى مع نزوعها أيضا بسبب طبيعتها نفسها الى ان تسبب في النهاية الكارثة التي تمهد لها بحماسة . وهذه التصرفات المرضية التي تغذيها بعناية منظمات بحث في خزانات فكرية تحت الرعاية الرسمية زادت كل طاقات الأسلحة الحرارية — النووية التدميرية وأدت الى تجارب سرية لا داعي لها على أسلحة جرثومية لا تقل في فظاعتها عن الاسلحة الأولى بل هي تستعصي على كل سيطرة عليها في الطبيعة بعد ان تقذف .

لقد كثر ترداد قول اللورد اكتون الرائع في السلطة لأنه حافظ على قوته الأصلية . وهو لا يزال محافظا على مدلوله : « السلطة تفسد والسلطة المطلقة تفسد افساداً مطلقا » . وقد ولد هذا الفساد في عصرنا من طبيعة الأسلحة النووية نفسها مثلما ولد من العملاء الذين اعلوا من شأنها ومن الانحطاط الأخلاقي العام الذي سببته الآلات العملاقة العسكرية القديمة التي وسعتها وعممتها الحكومات « الديمقراطية » التي قلدت بشكل أعمى أساليبها .

وبالرغم من ان استسلام المحور عام ١٩٤٥ قد انهى بطريقة رسمية الحرب العالمية الثانية فان الآلة العملاقة الحديثة التي ظهرت في نهاية هذه الحرب لم تتخل عن أسلحتها للدمار الشامل ولا عن مشروع الهيمنة الشاملة بواسطة التهديد بالتدمير الشامل مما أعطى حلف العملاء العلميين والعسكريين مثل هذه القوة الخارقة . وبقيت الحالة بعيدة عن ذلك فبالرغم من ان الاجهزة السابقة للصناعة والحكم قد عاودت اسماً نشاطاتها المتنوعة فان النخبة المعسكرة قد اعتصمت في حصن داخلي – يرمز اليه بظرافة بهندسة البنتاغون البدائية – بمعزل عن اشراف ورقابة باقي الجماعة . ومدت هذه النخبة مجاسها بموافقة الكونغرس المتملقة. .عبر كل العالم الصناعي والاكاديمي بواسطة الاعانات للبحث والتطوير أي للتوسع في التسلح وهذا ما جعل هذه المؤسسات المستقلة بالأمس متواطئة متطوعة في كل السيرورة الاستبدادية .

وهكذا اتسع هذا الحصن المغلق على نفسه بشكل منتظم بينما اصبحت اسواره اكثف وامنع . وبفضل مجرد التحايل القائم على خلق

حالات حصار جديدة ومخاوف جديدة وانتقاء اعداء جدد أو تضخيم نوايا العدو الشريرة كما تشاء الاهواء فقد رفعت الآلات العملاقة في الولايات المتحدة وروسيا السوفيتية عوضاً عن أن تفكك، بوصفها من ضرورات زمن الحرب الموقتة، إلى مؤسسات دائمة فيما اصبح الآن حرباً دائمة أي ما يسمونه « الحرب الباردة » .. وقد تبين أن هذا النوع من الحرب مع احتياجاته الكبيرة دائماً إلى المهارة العلمية وإلى التجديدات التكنولوجية هي حتى هذه الساعة اجدى وسيلة للحفاظ على تكنولوجيا فيض الانتاج هذه في حالة عمل كامل .

وتبردلت الالتان العملاقتان خلال هذا التطور مميزاتهما . فابتعدت الآلة الروسية عن الطراز الاصلي الباطل باعتمادها أكثر فأكثر على ذراعها العلمية والتكنولوجية بينما تبنت الآلة الاميركية أشد الخصائص رجعية في النظام القيصري — الستاليني متممة بشكل واسع وبالقدر نفسه قوتها العسكرية وأجهزة السيطرة المركزية : لجنة الطاقة الذرية ، المكتب الاتحادي للبحث ، الوكالة المركزية للاستخبارات . وكالة الامن الوطنية ؛ وكلها وكالات سرية لم تناقش ابداً اساليبها وسياساتها ولم تطرح للبحث ولم تحد منها السلطة التشريعية الوطنية الا في القليل النادر . وهذه الوكالات موطدة الاركان إلى درجة انها تجرؤ على تسفيه ومخالفة سلطة الرئيس والكونغرس على حد سواء .

وقد تكشف أن هذه السلطة هي بمأمن من النقد والرقابة والاشراف العام مثل أية سلطة وراثية في عهد الاهرامات . ومع أن الآلة العملاقة العصرية هي على غرار كل آلة جهاز للقيام بعمل فان العمل الذي يشغل العاملين العلميين والتقنيين المجمعين لاجلها سواء في الولايات المتحدة أو روسيا .

العمل الذي يعتبر مبرراً لقيامها ومحققاً لثقل التضحيات التي تتطلبها ليس سوى بناء جهاز التدمير الشامل . والمسألة الوحيدة التي تتركها الآلة العملاقة مفتوحة هي معرفة ما إذا كان هذا التدمير سيكون بطيئاً أو سريعاً : إن هدفها السلبي متضمن في المسلمات الايديولوجية الاساسية التي تتحكم بالنظام . ولقد كان فنانو الجيل الحاضر الذي عرضوا هذا الهدف في انتاجهم المناهض للفن أو اللافني هم اصدق كما سنرى عما قليل من مخترعي هذا الشرك الانساني الجماعي .

أبى الجيل الذي اتاح اقامة الآلة العملاقة الجديدة كسمة دائمة للوجود الوطني أن ينظر مواجهة دليل الفشل الجذري لهذا الهدف الانساني : لقد أقر هذا الجيل هدف الابادة الشاملة بوصفها مجرد امتداد للحرب دون أن يميز أن احتمال الازدياد الكمي هو ضلال اشد هولاً من الحرب نفسها. وأغمض الجيل الذي تلا مباشرة هيروشيما عينيه وانتظر النهاية وهو مشلول ، على غرار القرد في مطاوي ثعبان ضخم ، وعاجز عن أن يلفظ أي صوت معقول .

لقد حد من الصنف البشري حتى الآن المصادر المادية الهزيلة المتاحة للحكومات . وطالما كانت الآلات العملاقة السابقة مضطرة أن تعتمد على اليد العاملة البشرية لممارسة السلطة فقد كانت باقية على المستوى البشري وكانت زيادة على ذلك معرضة للهجمات من الخارج مثل تعرضها للفساد من الداخل . ولكن الآلة العملاقة الجديدة تجهل هذه الحدود : انها تستطيع أن تأمر بالطاعة وتمارس السلطة بواسطة ترسانة واسعة من الآلات الفعالة وبعدد اقل مما سبق من الوسطاء البشريين . وبقدر لا يعقل حتى الآن تلبس الآلة العملاقة رداء التخفي السحري :

فخدامها البشر انفسهم محميون ببعدهم عن الهدف البشري الذي يحيلونه رماداً أو يبيلونه .

وتزيد هذه الدرجة العالية من التجرد من الانسانية اتوماتيكية الآلة العملاقة الفتاكة . والذين يضعون مخططات هذه الاهداف السّراتيجية يتطلعون إلى ابادة مائة مليون كائن بشري في يوم واحد بتقزز أقل من التقزز من قتل بضع مئات من بق الاسرة . وقد اصبحت التضحية بعدد مماثل من مواطنيهم مقبولة في نظرهم ايضاً عند ما يفشل توازن الرعب في اداء دوره .

وبتعبير واضح أن ديانة الآلة العملاقة تتطلب تضحية بشرية على نطاق واسع بغية أن تعيد البعد الناقص من الحياة بشكل سلبي . وهكذا يتبين أن ديانة الاله الشمسي في تكريسها العلمي الاخير ليست أقل وحشية ولا أقل لا عقلانية من ديانة الازتيك بالرغم من انها اشد فتكا بما لا يقاس . وعلى كل فقد كان الكهنة الأزتيك ينتزعون من احشاء ضحاياهم القطعة تلو الاخرى بيدهم ؛ وكان الاشمئزاز الانساني من هذا المشهد كبيراً إلى حد أن الكهنة كانوا يضطرون إلى أن يأمنوا ردود الفعل السيئة بتهديد من يشيحون فقط بانظارهم بمصير مماثل . ولا يحتاج كهنة البنتاغون والكريملن إلى مثل هذه التهديدات : انهم يستطيعون القيام بعملهم بطريقة آمن في مراكز مراقبتهم النفقية مكتفين بالضغط على زر . لا يمكن مسهم ولا تمكن مهاجمتهم ولا يمكن انتهاكهم. هؤلاء هم سادة المصير الانساني الجدد .

٢ : تخلي كبار الكهنة

وكان بين أوائل الضحايا العديدة التي سببتها الآلة العملاقة شرف

الهيئة العلمية التي اسهمت في خلقها . والواقع أن نجاح العلماء بوصفهم اعضاء في هذه المؤسسة الاستبدادية السائرة في طريق التوسع كان يهددهم بفقدان انبل فضائلهم : المتابعة المترهة للمعارف التي يمكن التحقق منها تجريبياً ويمكن أن يشارك بها الاقران وتكون قابلة للفحص والتجربة والتصحيح العام .

لا يمكن لاحد أن يخدم الآلة العملاقة الجديدة مع استمساكه بالمثل الاعلى العلمي للفكر غير المراقب وغير المعرقل . والواقع أن السرية المطلقة التي اقتضتها الحرب قد ادرجت بوصفها صفة دائمة من صفات نظام « زمن الصلح » (الحرب الباردة) . وبدلاً من هذا الضياع للاستقلال والنزاهة مارس الكهنة الجدد سلطة لم يحلموا بممارستها من قبل . ودعموا وضعهم الجديد باعتبار المسلمات السمجة التي يرتكز اليها الحرب الباردة ثابتة لا تقبل النقاش . وعلى هذا فقد رفض أحد دعاتها هرمن كاهن حتى بحث امكانية تحقيق السلام اثناء استعراض موضوعي ، كما يقال، للامكانات النظرية للستراتيجية الحرارية النووية . وهنا يكشف بحثه « الموضوعي » عن لعبة اللف والدوران النموذجية في العالم العلمي الجديد . انها عدم الاجابة الا عن اسئلة مقدرة بعناية تملي بنفسها طبيعة الجواب .

إن الذين كانوا يرفضون استبدادية الآلة العملاقة . وبشكل خاص كثيراً من العلماء الذين كانوا في أصل مشروع القنبلة النووية ، انسحبوا من البحث الذري الفعال : انهم تثقفوا في جو من الحرية الفكرية والانتقاء الاخلاقي النسبيين ؛ حتى انهم عندما تنبهوا إلى واقعة أن الاخلاق اصبحت بوليساً كما تنبأ بذلك هنري ادامز .

القوا بكل طاقاتهم في نقد الآلة العملاقة وفي المقاومة التي عارضوها بها. وقد لمع في هذه الفترة المشرقة اينشتين وزيلار وويتر ونكتفي هنا بذكر الاموات . غير أن الولايات المتحدة والحكومة الروسية لم تجدا أقل صعوبة في تجنيد مفكرين اقل تنوراً وأقل حساسية على المستوى الخلقي وخصوصاً من جيل جديد حرصوا على تنشئته على اللامبالاة بالقيم الاخلاقية وبالنشاط المستقل على السواء .

وقد قبل العلماء المسترقون ، بخزي الآلة العملاقة بنفس أوضافها وبنفس اهدافها النهائية التي لا يوصف شرها . لقد اختفى هذا الجيل من عالم العلم التقليدي المكشوف وانزوى في عالم جوفي من النشاطات السرية التي تمارس بتحريض من القوى المسلحة . انها النخبة الجديدة وهو الاسم العصري لتسمية الكهنة القدماء سادة لمعارف المعبد السرية والخدام المتحمسين لفرعون ومشاركيه في امتلاك قوته . لقد تخلى هذا الجيل الجديد عن حقه في الولادة العلمية أي عن متابعة المعرفة بدون أي تضييق مقابل اعتمادات غير محدودة للتجهيز وللعاملين وملاك متميز وأجور وميزات رفيعة :

وبعد اقل من عقد من انفجار أول قنبله ذرية اتسعت الآلة العملاقة إلى حد انها بدأت تسيطر على القطاعات الرئيسة في اقتصاد الولايات المتحدة كله : وامتد نظام سيطرتها إلى ما بعد حقول الطيران وساحات الصواريخ ومصانع القنابل والجامعات ، إلى مائة من المجالات الاخرى المقاربة رابطاً المشاريع التي كانت فيما مضى متميزة ومستقلة بمنظمة مركزية كانت سياستها اللاعقلانية والتخريبية انسانياً تضمن امتداداً أوسع ايضاً للآلة العملاقة . فالاعانات المالية ومنح البحث ومكافآت

التعليم كلها كانت تعمل بدون هوادة « لحياة وازدهار وصحة » الحكام الجدد وعلى رأسهم اشباه جوليات بمدافعهم وهم يقذفون العالم كله بتهديدات التحدي والتدمير . وفي قليل من الوقت اصبحت النخبة العسكرية الصناعية والعلمية الاصل بتاغون القوة الاعظم بالنظر إلى أنها احتوت في آن واحد الفئة البيروقراطية والسلك التعليمي .

وفي عشرين سنة ارتفعت النفقة المكرسة لبرنامج الطاقة الذرية إلى خمسين مليار دولار أي أكثر من المجموع الاجمالي للنفقات العسكرية الاميركية في الحرب العالمية الثانية . والحرب الباردة نفسها التي تبعت ذلك ، هذه الوسيلة الاساسية لتطوير الآلة العملاقة ، قد اقتضت من الولايات المتحدة نفقة سنوية تزيد على خمسين مليار دولار . وفوق ذلك فان النفقة السنوية للبحث والتطوير تبلغ حسب رالف لاب ستة عشر مليار دولار.ففي قضية محاولة بناء طائرة ذات محرك ذري انفقت القوى الجوية مليار دولار للتدليل فقط على أن الفكرة غير قابلة للتحقيق على الرغم من أن تطور الصاروخ في الوقت نفسه الذي كانوا يبددون فيه هذا المال قد افقد مثل هذا الجهاز ضرورته لأي استعمال عسكري يمكن تصوره . وكان بامكان المفكرين الذين لم يقعوا فريسة لوساوس الآلة العملاقة التكنولوجية أن يوفروا على البلاد مليار دولار قبل أن يرسم أي مخطط .

ومن المسلم به ان هذه السلطات المطلقة السيئة التطبيق تتطلب مناعة مطلقة بالنسبة للاستقصاء المستقل وتلاؤما مطلقا من جانب من يديرون الآلة . وإلا فان هذه الستراتيجيات المهددة للحياة ستخضع هي نفسها للنقد العام والتقدير الناقد والمراقبه الديمقراطية الحرة . ولذا فان من

يمتلكون ما يكفي من المعارف لتحدي السياسة السائدة سيبعدون أو يطردون من النظام الاستبدادي . وهكذا فلم يكن بمستطاع الدكتور هربرت يورك إلا بعد الاستقالة من منصبه كمستشار علمي لدى البنتاغون ان يصرح على العموم : « اذا استمرت الدول العظمى في البحث عن حلول في ميدان العلم والتكنولوجيا وحدهما فان النتائج ستكون تفاقم الوضع . »

وعلى الرغم من انه قد أنجز الكثير في ربع القرن الذي انقضى منذ عام ١٩٤٥ فان بناء آلة عملاقة قادرة ان تعمل على أساس عالمي قد اعيق لا بسبب الثورات غير المرتقبة للقوى المضادة المفرطة في البدائية نوعا فقط بل لانه لم يخلق منذ سنوات ١٩٥٠ الة عملاقة واحدة بل آلتان عملاقتان متنافستان فيما بينهما ومزودتان كلتاهما بقوة تدمير شامل ، الآلة العملاقة الروسية السوفييتية وآلة الولايات المتحدة أضيفت اليها أيضا واحدة هي الصين التي انتقلت من حالة تمزق كامل الى حالة بناء جديد وفق أسس علمية تقريبا . وقد وفر المفاعل النووي والقنبلة الهيدروجينية والأقمار الصناعية والتلفزيون والمسكنات الكيميائية والحاسبة الالكترونية التجهيزات الأساسية في النموذجين الأولين بهدف السيطرة الشاملة .

وقد كانت الآلة الروسية سائرة في المقدمة بالمعنى السياسي بالنظر الى انها كانت مؤسسة على النظام القيصري الذي لا يزال معمولاً به .

وعلى العكس فان الآلة العملاقة الاميركية قد تأخرت قليلا بسبب ضرورة الحفاظ على ما يشبه الحكم التمثيلي والمشاركة الطوعية . زد على

ذلك ان هنا لك تقاليد أقدم تشجع الاستقلال الشخصي والمحلي والمهني لم تكن بعد قد ازيلت تماماً رغم نمو المراقبة المركزية التي كانت تمارسها الهيئات العليا المائتين التي كانت تهيمن على مجمل الاقتصاد الوطني والتي ثبتت اقدامها في كثير من البلدان الأجنبية . ان الفولاذ والسيارات والمنتجات الكيميائيه والمنتجات الصيدلانية والبنزين والالكترون ، والطائرات والصواريخ والسيبرنطيقه والتلفزيون وعدداً من الصناعات التابعة دون التطرق الى المصرف والضمان والأعلام صممت كلها وفقا للمبدأ التوحيدي نفسه وكونت بالمعنى المهني من عناصر قابلة للتبادل : حتى ان أكثر الصناعات تنوعا يمكن ان تمتزج في نظام واحد مجمع .

لقد قدر هذا الوضع بسداد منذ ما يقرب من قرن العالم الاجتماعي البريطاني بنجامان كيد . فلاحظ بان مذاهب التقدم الليبرالية الرائجة الآن تجر الى اتجاه مغاير تماما للاتجاه الذي افترضه مشايعوها . وتنبأ بان صراعا هائلا سيحدث لا بين امتين كأمتين بل بين نظامين متنافسين على اقامة نوع النظام الذي يسود الأرض . ونستطيع الآن مع ازدياد تجربتنا ان ندفع هذا التحليل درجة الى الأبعد . لأنه على الرغم من ان الآلة العملاقة الاميركية نفسها تحمل عنوان حامية العالم الحر فقد أصبح واضحا ان القليل من الحرية الذي لا يزال قائما هو عقابيل حالة سابقة — انها بعض جيوب مقاومة كما توصف بالتعابير العسكرية — وان كل التجديدات التي تمت بسرعة واندفاعية متنامية هي في سبيلها الى ان تحقق تلاقي النظامين (العدوين) . على الآلة العملاقة لتضمن استقلالها وتحافظ على مكانة شغيلتها ان تدمر كل الخيارات الاخرى التاريخية والتقليدية والمستقبلية .

وما برهن عنه كلنتن روسيتر في تحليله لشكل واحد من نحولها ، الشكل السياسي في بحثه عن الديكتاتورية الدستورية هو الآن ملازم لكل عملية من عمليات الآلة العملاقة . لقد ظهرت في كل آلة عملاقة الصفات المشتركة نفسها : النزوع الى ان تصبح مستقلة وان تجتذب الى بنيتها منظمات ومؤسسات ربما كانت حولت عنها لولا ذلك الطاقة التي تتحكم بها أو قسمت الولاءات كابحة بهذه الطريقة توسعها الاوتوماتيكي.

وقد قامت في روسيا كما في الولايات المتحدة وكالات حكومية مركزية لا يحدها الرأي العام ولا تراقبها هيئات منتخبة بتهذيب تقنيات « الأزمة الدائمة » بغية تدعيم السلطات التي لم تكن معدة في الأصل إلا لمواجهة تهديد عارض .

والحصار الروسي لبرلين كان مثالا بارزا عن هذه النزعة ؛ وهكذا كان الأمر بالنسبة لاستمرار تحليقات طائرة يو ٢ الاستفزازية بأمر الوكالة المركزية للاستخبارات فوق روسيا رغم الاحتجاجات الروسية باعتبار انها وسيلة ناجحةلافشال « لقاء القمة » القريب في باريس عام ١٩٦٠ . تتصرف أجهزة الآلة العملاقة باستمرار كما لو لم تكن مسئولة الاتجاه نظام القوة نفسه . أما مصالح واحتياجات الشعوب الخاضعة للآلة العملاقة فهي لا تهمل فقط بل تحول عمداً الى موضوع للسخرية . « ان قضايا الستراتيجية النووية الكبرى » كما لاحظ الاستاذ هانس . ج . مورغنتو « لا يمكن ان تكون موضوع نقاش متماسك سواء في الكونغرس أو بين مجموع السكان بالنظر الى انه لا يمكن ان يتكون حكم موثوق بدون معارف مبينة . وهكذا فان القرارات الوطنية العظمى المتعلقة بالحياة أو الموت تأخذها صفوات من التكنولوجيين » .

فالسياسة التي تؤثر بطريقة مستمرة على الحياة البشرية وربما تئول بها الى نهاية المغامرة يصوغها ويطبقها في كل الميادين، من بناء الطرق العريضة الى الطب، خبراء ومختصون يعينون أنفسهم بأنفسهم ، ويوجهون أنفسهم أيضا ، منغلقين عن كل مواجهة بشرية ، يشكل قبولهم نفسه باتخاذ هذه القرارات على مسؤوليتهم الخاصة الدليل الايجابي عن عجزهم المطلق على القيام بذلك .

ان أوهام وتخيلات هذه الجماعات الحاكمة السحرية الظاهرة في أعمالهم الغبية وفي توقعاتهم المتهافتة — (هزيمة خليج الخنازير) بعد هزيمة اخرى — وتصريحاتهم المنشورة لا يمكن ان يكون لها إلا مخرج واحد ممكن . ولاخفاء هذا الهدف النهائي انتشروا في كل الاتجاهات ليضاعفوا عدد المشاركين في مؤامرتهم الضمنية ضد الانسانية .

لقد أخذت نخبة تكنولوجية عظيمة القوة على عاتقها مهنيا السيطرة على كل الفعاليات البشرية من الاخصاب الاصطناعي إلى ريادة الفضاء مبتدئة ببناء ، المفاعلات النووية .

ليس الوجه الأقل تهديداً اذن من الآلة العملاقة الجديدة هو قضية انها انتجت طائفة حاكمة هائلة وان هذه الطائفة لاتزال تتزايد في الولايات المتحدة وروسيا السوفييتية ! انها طائفة شبيهة بالانكشاريين في أوج الاستبداد التركي . والمرحلة المنطقية القادمة ستكون ، كما جرى ، للانكشاريين ، انتقاء النخبة من المهد وتشويهها عمداً في سبيل المقصد المحدد بطريقة لا تقلل بعدها أية خاصة بشرية مزعجة من ولائها غير المشروط للآلة العملاقة . وقد عرض جون هيرسي هذا التطور اللاحق في روايته الساخرة (شاري الأطفال) وهي أثر يستحق ان يناقش

بجدية أكثر مما حدث . وتلوح في الأفق مرحلة تفوق بكثير ذلك كله : وهي ليست سوى اصطفاء نخبة انطلاقا من مصرف للذرات المنوية والبويضات المجمدة في سبيل اخصابها في رحم اصطناعية تحت المراقبة . لقد قدم أكثر من كاهن من كهنة الآلة العملاقة التدابير الأولى النظرية الجريئة باتجاه هذا الانجاز كتقدم حتمي للعلم . وبقيت خطوة أيضا : « ما دام يمكن صنع ذلك فيجب ان يصنع » .

ولكن حركة اضافية في تدعيم الآلة العملاقة تهددنا ولم يبق أمامنا فسحة كبيرة من الوقت لاستشراف حلولها بغية تنبيه القوى المضادة الضرورية للتغلب عليها ان أمكن . واذا كانت الخطوة الأولى في هيمنة الملك الشمسي هي توحيد القوة والسلطة في شخص الملك الالهي فقد كانت الخطوة الثانية هي ابدال الملك المتجسد الذي بقي شخصاً من الأحياء بمنظمة بيروقراطية عسكرية . ولكن المرحلة الثالثة أي صنع الآلة العملاقة الكلية الشمول بذاتها لم يكن بالمستطاع اتمامه قبل اختراع حاكم أعظم من العيار نفسه ذي طبيعة ميكانيكية بكاملها بدون عناصر وخواص بشرية .

لقد تنبأ المؤرخ العظيم يعقوب بيركهاردت من مدينة بال في منتصف القرن التاسع عشر ان نوعا جديداً من الرقابة سيكون المعبر عن الحضارة التي كانت تتجه آنذاك من جديد نحو الاستبداد المطلق بدون شريعة ولاحق وسيكون أكثر استبداداً من أي نظام سابق. «وقد اشار بأن هذا النظام الاستبدادي لن تمارسه سلالات . انها مفرطة في الرفق وطيبة القلب . ستكون النظم الاستبدادية الجديدة في أيدي فدائيين عسكريين يزعمون انهم جمهوريون . انني اشمئز من ان اتصور

عالما يحكمه حاكم لا يهتم أبداً بالحق والرفاهة والعمل المريح والصناعة والمال الخ ويحكم بوحشية مطلقة .

ليس هذا العالم بحاجة الى ان نتخيله : انه في متناولنا تقريبا . واذا كانت نبوءة بيركهارت قد تعثرت في احدى النقاط فذلك لانه زود هؤلاء المستبدين بفسحات أكثر انسانية مما يعلون بتقديمه بالفعل :

وقد تكشف انهم ، بسبب (موضوعيتهم) و (حيدتهم) و (لا شخصيتهم) ، قادرون على أنماط من الارهاب والاجرام المقدرين أكثر استبدادا مما كانت عليه القيادات العسكرية من الطراز القديم .

وقد اخترعت الآلة العملاقة الجديدة أيضاً أثناء تحولها وفقا لنموذج تكنولوجي طليعي (واضع القرار) ، الملك الالهي ، الأعظم ، بشكل متسام ، الكتروني : انه العقل الالكتروني المركزي . وبوصفه الممثل الحقيقي الأرضي للملك الشمسي فقد اخترع العقل الالكتروني أولاً ، كما رأينا، لتيسير الحسابات الفلكية . وفي تحويله من نموذج بباج الاخرق الناقص البنيان الى جهاز الكتروني غريب في سرعته عناصره المتحركة شحنات كهربائية حل الالكترون السماوي محل الميكانيك السماوي وأعطى هذا الاختراع المرهف مواصفاته الالهية حقا : التواجد الكلي والتواري .

وقد بلغ العقل الالكتروني باتخاذه هذا الشكل مستوى رفيعا من العمل في تكديس المعلومات وحل القضايا التي تتطلب الدمج الآني للعديد من المتحولات مع مقادير من المعطيات أوسع مما يستطيع الدماغ البشري ان يعالجه في حياة كاملة . واذا نسينا ان الدماغ البشري هو

الذي اخترع هذه الآلة شبه الالهية وانه هو الذي ينبغي ان يغذيها بالمعطيات ويطرح القضايا المطلوب حلها فيمكننا ان نعذر العامل البشري المسكين اذا عبد هذا الاله . والذين اتحدوا ذاتيا مع هذه الآلة الجديدة يتعرضون من ناحية اخرى الى نوع من الوهم مضاد — الى انهم الله بالفعل أو شركاؤه من حيث القدرة الكلية على الأقل .

وفضل العقل الالكتروني الكلي القدرة ذلك الفضل الذي يحله فوق كل واضعي القرارات من البشر فقط هو سرعة البرق في عمله وعصمته، ان وضعنا الطوارىء جانبا ، آخذين بعين الاعتبار المعلومات الجزئية والتعليمات التي يعطيها عمال بشريون هيهات ان يكونوا معصومين .

ومع الاعتراف عن طيبة خاطر بهذه القدرات العجيبة كلها يجب ان نسجل على الأقل ثلاثة مثالب شالة . لا يزال العقل الالكتروني يشكو من مواطن الضعف الجذري الذي كان يخرب قرارات الملوك والاباطرة :

فالمعلومات الوحيدة التي يقيم لها وزنا هي التي يغذيه بها كبار وزرائه ورجال البلاط ؟ وكما كانت تجري الأمور بوجه عام بالنسبة للملكية فان رجال البلاط ، وهم الآن صانعو النماذج الرياضية والمبرمجون ، لا يطلبون من الملك إلا نوع الاجوبة التي يمكن ان تستند الى المعلومات غير الوافية التي امدوه بها . ولا بد لهذه المعلومات من ان تهمل العديد من الوجوه الهامة للتجربة البشرية بغية التلاؤم مع تحديدات جلالته الخاصة .

ان المعرفة بواسطة العقل الالكتروني لا يمكن ويا للأسف ان تبقى

باستمرار على اتصال، على غرار الدماغ الانساني ، بمجرى الواقع الذي لا ينقطع بالنظر الى ان هذه المعرفة يجب ان تعالج وتبرمج ؛ ان جزءاً صغيراً فقط من التجربة يمكن بالواقع ان يجمد بهدف استخراجه والتعبير عنه برموز مجردة .

اما التغييرات التي لا سبيل الى قياسها كما أو ملاحظتها موضوعياً كالتي تحدث باستمرار على كل المجموعة بدءاً من الذرة الى المتعضيات الحية فانها لا تقع في متناول العقل الالكتروني . وعلى الرغم من كل سرعة هذه الغريبة فان العناصر التي يتألف منها تبقى عاجزة عن ان تأتي باجوبة نوعية عن التغييرات العضوية المستمرة .

٣ : العين التي ترى كل شيء

العضو المتميز من أعضاء الاله الشمسي ري في اللاهوت المصري كان العين . والواقع ان عين ري كانت تتمتع بوجود مستقل وكانت تلعب دوراً مبدعا وموجها في كل النشاطات الكونية والبشرية . ويتبين ان الحاسب الالكتروني هو عين الاله الشمسي التي أعيد اعتبارها اي عين الآلة العملاقة التي تستخدمها كعين خاصة أو رجل مباحث وكعين منفذة أيضا حاضرة في كل مكان ، العين التي تفرض ان يتبعوا بشكل مطلق أوامرها لانه ما من سر يمكن ان يخفى عليها وما من عصيان يمكن ان يمر بدون عقاب .

وكانت الوسائل الأساسية الضرورية لعمل الالة العملاقة الصحيح والناجح هي مركزة السلطة السياسية والاقتصادية والاتصال الآني والنقل السريع ونظام لتكديس المعلومات قادر على ان يحفظ أثراً من كل

حدث طزاً في مملكة الملك الالهي : وعندما يتوفر للحكومة المركزية هذه التوابع فهي تمتلك أيضا احتكار الطاقة والمعرفة . لم يتوفر لحكام العهود قبل العلمية أي تجمع على هذه الدرجة من الكمال : فالتقليات كانت بطيئة والمواصلات عن بعد كان ضعيفة غير مضمونة مقتصرة على رسائل مكتوبة يحملها رسل بشريون بينما كان تراكم المعلومات ، ان وضعنا جانبا سجلات الضرائب والكتب ، مبعثراً معرضاً للحرائق والهجمات العسكرية . وكان يجب عند كل تنصيب خلف للملك اعادة بناء عناصر أساسية أو ابدالها . أما السماء فالالهة التي تعلم كل شيء وترى كل شيء وتستطيع كل شيء وتكون حاضرة في كل مكان والتي تقود النظام فعلا هي وحدها يمكن ان تكون فيها .

لقد أصبحت بفضل الطاقة النووية والاتصال الكهربائي والعقل الالكتروني كل العناصر الضرورية لالة عملاقة حديثة متوفرة واقتربت السماوات أخيراً . ان الالة أي العقل الالكتروني أصبح في الآونة الحاضرة نظرياً وسيصبح فعلا عما قريب في المستقبل قادراً ان يجد ويحدد مكان أي فرد من سكان الكرة الأرضية ويخاطبه فوراً بالصوت والصورة عن طريق الكهنة : ممارساً رقابة على كل جزء من الحياة اليومية للفرد من رعاياه بفضل امتلاك ملف يتضمن قراباته ومولده وبياناً كاملاً عن دراساته وتقريراً متعلقا بامراضه وانهياراته العصبية في حال المعالجة وزيجاته وحسابه في مصرف الذرات المنوية ودخله وقروضه وتعويضات الضمان وضرائبه ورواتبه واخيراً وضع الأعضاء التي يمكن ان تكون عرضة للبتر حالاً قبل موعد الموت الرسمي .

فما من عمل وما من حديث وربما على مر الزمن لا يبقى من حلم

أو فكر يمكن ان يتفلت من عين هذا الاله اليقظة التي لا ترحم ، ان كل مظهر من مظاهر الحياة سيدفع الى العقل الالكتروني ويخضع لنظام رقابته الشاملة . ولن يعني ذلك غزو الحياة الخاصة فقط بل التدمير الكامل للاستقلال : أي انحلال الروح الانسانية بالفعل .

ولو عدنا نصف قرن لبدا الوصف السابق مفرطا في الفجاجة ومفرطا في التمحل أكثر مما يجعله مقبولا ولو كهجو : لم تجرؤ « الطوبائية الحديثة » ل هـ . ج ويلز التي تقدم بصفة تجريبية نظاماً مركزياً للتحقق ان تكمل نهجها الى كل تفصيلات الحياة . وحتى قبل عشرين سنة أصبحت بالامكان فقط الخطوط الأولى غير الواضحة لهذا الشكل الحديث من عين ري من قبل عقل مستشرف مثل عقل فوربرت وينر . وقد رسم اليوم الاطر المشئومة للنظام بكامله مدعمة بالبراهين مراقب قضائي هو الآن . ف . وستن بوصفها سمة تابعة لتحليق العديد من الوكالات العامة والاختراعات التكنولوجية الماضية في التعدي على حياض الحرية الشخصية .

وما يدل عليه وستن في هذا المقطع أيضا هو ان ملفات المحفوظات التي لا تحصى والتي نظمها بيروقراطيون خاضون لحاجاتهم الخاصة أصبح من الممكن تجميعها في عقل الكتروني واحد مركزي بفضل التصغير الكهر — كيميائي : ولا يتناول ذلك فقط المجموعة التي انتقيتها بل يتناول أيضا الملفات المتعلقة بالحماية المدنية والسكن والممتلكات وطلبات الرخص وبطاقات النقابات والضمان الاجتماعي والجوازات والسجل العدلي ونمر السيارات وشهادة السوق والمعتقف والدين والمهنة ، ومن

المؤكد ان الجدول سينتهي بالامتداد الى أبعاد الحياة،الحياة المجردة على الأقل القابلة للتسجيل والصغيرة رمزياً .

وقد توفرت الوسائل التي تتيح مثل هذا التجسس الشامل بفضل قفزة كمية الى الامام نشأت عن الانتقال من الميكانيك الكبير الى الميكانيك الصغير ، الى درجة ان الفلم المصغر الذي كان يبدو كثيفا في العقود السابقة « قد خلى مكانه الآن حسب قول وستن ، لصور مصغرة ملونة تتيح تصوير التوراة بكاملها على ورقة رقيقه من البلاستيك مساحتها أقل من خمسة ستمترات مربعة أو اختزان نسخ من كل كتب مكتبة الكونغرس صفحة فصفحة في ستة مصنفات ذات أربعة جوارير . » والمهزلة في قضية ان هذه القفزة الى الأمام الهائلة حقاً-كانت من ثمرات الأبحاث التي قامت بها الجمعية الوطنية للصناديق المسجلة لا تقلل من صفة هذا الاختراع العجيبة : انها تأتي فقط لتثبت الوصف السابق لبنتاغون القوة .

واذا كان هنالك من شيء يمكن ان يشهد لسلطات كهنة العلم السحرية وسلطات اتباعهم التقنيين أو يعلن أمام البشرية الصفات العظمى للسلطة المطلقة التي يستحوذ عليها العقل الالكتروني الالهي فلا بد من ان يكون هذا الاختراع وحده كافيا . وهكذا يصبح هدف الحياة النهائي أخيرا واضحا بالاستناد الى الالة العملاقة : انه يقوم على تقديم ومعالجة كمية لا نهائية من المعطيات لزيادة دور نظام القوة وضمان هيمنته .

واذا كان مصدر هذه القوة العظمى الخفية القادرة على حكم العالم الحديث موجوداً في مكان ما،فهذا المكان هنا.يقيم في الارهاب الخفي الذي

يتمتع بقوة ومعارف غير محدودة ليست كل أشكال السحر الاخرى بجانبها سوى مخادعات غبية كما تبدو كل أشكال الرقابة الاخرى خالية من السلطة السحرية . من يجرؤ على الضحك من سلطات بهذه السعة ؟ ومن يستطيع ، يا للشيطان ان يتفلت من رقابة هذا الحاكم الأعظم القاسية التي لا تكل ؟ أي ملجأ بعيد بما فيه الكفاية يواري المتمرد ؟

وقبل عقد من انجاز امكانات التكديس اللا محدود للمعلومات بهذا الشكل الالكتروني الاثيري كانت المراحل التالية للتطور التكنولوجي الذي يتهددنا ان لم يستعمل أي كابح ولم يحدث أي تبطيء طبيعي قد استشفها الاب اليسوعي تيلاردي شاردان . فقد اعتبر حتى قبل ان تتثبت الآلة العملاقه وقبل ان يتم العقل الالكتروني بكثير نظام الرقابة الذي يقيمونه في هذه الآونة بسرعة محمومة ، ان مليارات السنوات من التطور المادي والبيولوجي تسير أو بالحري انها بشكل حتمي مسيرة نحو هذه النتيجة النهائية .

ولما كان من أهداف هذا الكتاب الأساسية البرهان على ان مثل هذه النتيجة وان تكن ممكنة لا تشكل تتويجا حتميا مسبقا للتطور الانساني وهي أقل من أن تكون مثلا أعلى له فانني سأعالج بشكل مستفيض أكثر هذا الموضوع فيما بعد . ولا اجازف هنا سوى بتنبؤ افتراضي على الرغم من انه مطمئن : وهو ان الأجهزة العظمى الأرضية ستتفتت قبل ان تبلغ الظاهرة الانسانية نقطة النهاية بزمن طويل .

٤ : انسان التنظيم

لم يكن من الممكن ان تولد الآلة العملاقة القديمة والحديثة ، مهما

كانت أجهزتها اتوماتيكيه وعملياتها متميزة، بدون الاختراع الانساني المصمم ؛ وقد تجسدت أولاً معظم خواص هذه الموحدة الجماعية الواسعة في شكل قديم نموذجي أول هو انسان التنظيم . فالنظام نفسه هو ، من أقدم صور النمطية القبلية الى صورة أعلى سلطة سياسية ، امتداد لانسان التنظيم الذي يؤدي في الوقت نفسه دور المبدع والمخلوق والاب والضحية النهائية للآلة العملاقة .

ومن اللغو التساؤل عما اذا كانت آلة العمل أو الآلة العسكرية قد قامت أولاً وعما اذا كان قد وضع النموذج الأول للتعبئة الكاهن أو البيروقراطي أو الجندي ، بما اننا لا نمتلك أية مسلمة متينة للحكم في ذلك . يجب ألا نتجاوز في وصفنا لرجل التنظيم النقطة التي يتجلى فيها بفضل الوثائق والادلة الرمزية .

ولما كانت الاثار الأولى الدقيقة بعد كهوف العصر الحجري الأول هي حسابات المعبد التي تسجل كميات الحبوب الواردة أو المصروفة فانه يبدو معقولاً ان النظام الدقيق الذي تتصف به البيروقراطية على كل المستويات قد نشأ في الأصل من قواعد المعبد الطقسية ؛ والواقع ان هذا النوع من النظام لا يتلاءم مع حوادث الصيد المغامرة أو مع تقلبات الحرب المنظمة . ومع ذلك فاننا نجد حتى في هذا العمل الأخير حسابات مبكرة بشكل عجيب بأرقام دقيقة للاسرى المأخوذين والحيوانات المطوقة والمغانم المتحققة . ان من الممكن التعرف حتى في هذه المرحلة البدائيه الى رجل التنظيم بفضل الاهتمام الذي يوليه للمحاسبة الكمية .

غير انه يجب علينا ان نستكشف وراء كل هذه المسيرة اللاحقة من التنظيم والمكننة القدرات الأولية المترسخة بعمق في الجسم البشري

(ويشاركه فيها كثير من الأنواع الاخرى) على تنظيم السلوك والرضا بنظام تكراري يقيم ترابطا انسانيا مع وتائر عضوية وحوادث كونية .

لقد برز رجل التنظيم خارج هذه الكومة الأصلية من الأفعال التكرارية الموحدة والمعزولة بشكل متزايد عن الوظائف الجسدية والعقلية الاخرى .

أو للتعبير عن هذا الأمر بالمقلوب ، فعندما نفصل الواحد تلو الاخر أعضاء ووظائف الجسم البشري ونفصل في الوقت نفسه المجامع التاريخية من الفن والثقافة نبقى أمام هيكلها الميكانيكي المشترك وامام قوتها العضلية المشتركة الضروريين لحياة الفقريات ولكنها تكون آنذاك بدون وظيفة وبدون معنى عندما نعتبرها كيانات منفصلة .

وقد اعاد العصر الحاضر اختراع هذا المخلوق المثالي بشكل مسخ ؛ ولكن التنظيم كان دائما حاضراً بوصفه عنصراً معروفاً من الجسم البشري وبوصفه شكلا مكملا وضروريا لكل حضارة انسانية . ولما كان من الممكن بالضبط ان نعثر من جديد على أثر النظام الميكانيكي حتى هذه البدايات البدائية ولان المكننة نفسها قد لعبت دوراً مستمراً في التطور البشري فانا نستطيع الآن ان نفهم خطر عزل انسان التنظيم باعتباره شخصية شكلت نفسها بنفسها منفصلة عن القطن الطبيعي والصفات الثقافية والتحليدات والتحريمات التي تؤمن سمة انسانية بالشكل التام .

فرجل التنظيم يمكن اذن ان يعرف باختصار كجزء الشخصية الانسانية الذي حذفت منه أوسع طاقات الحياة والنمو بهدف مراقبة

الطاقات الجزئية الباقية وتغذية النظام الجماعي الموجه ميكانيكيا . انسان التنظيم هو الحلقة المشتركة بين طرازي الآلة العملاقة القديم والحديث ؛ .

هذا هو السبب الذي ادى الى الا يتغير إلا قليلا الموظفون المختصون الذين تدعمهم فئة العبيد والجنود الالزاميون والرعايا وبايجاز المراقبون والمراقَبون طوال السنوات الأخيرة الخمسة آلاف .

ورجل التنظيم هو كأي نموذج ثقافي اخر صناعة بشرية على الرغم من ان المواد التي صنع منها تمت الى نظام الطبيعة الحية . ومن الخطأ تاريخيا تمثل رجل النظام كنتاج حديث محض أو كنتاج تكنولوجيا متقدمة فقط : انه بالحري نموذج مثالي مغرق في البدائيه قد من طاقات الجسم الحي الاغنى منه بكثير مع ترك معظم الأعضاء الحية أما منتزعة أو محنطة ومجففة والدماغ نفسه متقلصا ليجابه ضرورات الآلة العملاقة . والنعت الحالي للتعبير عن مثل هذا التقليص للامكانات البشرية — مقلص الرأس — مشئوم جداً لانه صحيح .

وفي الاطار المحدود للمنظمات الاقتصادية المهنيه على نطاق واسع في الولايات المتحدة أعطى ف . هـ . هوايت صورة كلاسيكية عن اصطفاء وتكوين وضبط انسان النظام في أعلى مستويات القيادة وعن تحويل الاقلية الثرية (أو الساعية وراء الثروة على الأقل) الى عناصر من الجهاز الأعظم تعمل بلون عائق . ولكن ذلك ليس إلا جزءاً صغيراً من الأعداد المشروط الذي يبدأ بالتكوين الصحي للطفل من خلال توحيده اللولة —

الاله مع الدوله – الحرب وينتهي بشمول كل وجه من وجوه الحياة حتى الموت وزرع الأعضاء .

ودرجة الضغط الضرورية لصنع انسان النظام من المحتمل الا تفوق الضغط الذي يحتاجه أي مجتمع قبلي بغية ضمان النمطية بالنسبة للتقاليد والطقوس القديمة : والواقع ان يمكن مهر ملايين الافراد في المجتمع الحديث بالخاتم نفسه بسهولة مماثلة لمهر بضع مئات من الناس المتلاقين وجها لوجه وذلك بفضل التعليم الابتدائي الالزامي وخدمة العلم والاعلام الجماهيري . وما كان يسميه عالم الاجتماع ماكس ويبر (الشخصية البيروقراطية) كان مهيأ، كما يظن، ليشكل (النموذج الأمثل) الذي سيسود في العالم الحديث . واذا كان لا بد من ان تستمر مجموعة القوة الحاضرة بالعمل بدون انقطاع أو تغيير في الاتجاه فسيكون لنبوءة ويبر حظ كبير في ان تتحقق .

ان الفضائل المميزة لانسان النظام تلائم أشد ما يمكن التلاؤم الآلة التي يخدمها؛وهكذا فان شطر شخصيته الذي اسقط على أدوات ميكانيكية يدعم بدور ه هذا الاسقاط بالغاء كل وظيفة عضوية أو بشرية لا تتوافق مع ذلك . وينتشر خاتم الانتظام الميكانيكي على وجه كل وحدة بشرية فاتباع البرنامج ، واطاعة التعليمات ، و « التمرير الى من يلي » وعدم التدخل شخصيا بحاجات الأشخاص الاخرين ، وقصر ردوده على ما هو موجود مباشرة على المكتب ، على حد قولهم، وعدم الاهتمام بأي اعتبار انساني قريب ، مهما كان حيويا ، عدم المناقشة في اصل الامر أو الاستعلام عن مصيره النهائي ، وتنفيذ كل الأوامر مهما كانت لا عقلانية ،وعدم الادلاء بأي حكم قيمة أو حكم على ملاءمة العمل

الجاري ». وأخيراً الغاء المشاعر والعواطف أو الشكوك الاخلاقية المعقولة التي يخشى ان تعرقل التنفيذ السريع للعمل : تلكم هي واجبات البيروقراطي النموذجية وتلكم هي الشروط التي تتيح لرجل النظام هذا المؤتمت بالقوة داخل نظام اتمتة جماعي ان يزدهر. ان نموذج انسان التنظيم هو الآلة نفسها . وكلما يصبح الجهاز نفسه أكثر اكتمالاً تصبح فضلة الحياة الضرورية لمتابعة المسار اضأل وخالية من المدلول .

وليس هنالك أي مبرر ، في النهاية ، لوجود انسان التنظيم إلا كجهاز ضبط مجرد من الشخصية داخل الآلة العملاقة . ومن هذاالمنطلق يجب ان يهلل لادولف ايخمان المبيد المطيع الذي طبق سياسة هتلر واوامر هملرباماتة لا يزعزعها مزعزع ، يجب أن يهلل له باعتباره « بطل عصرنا». الا ان عصرنا وياللأسف قد انجب كثيراً من أمثال هذا البطل الذين قبلوا ان يفعلوا ، عن بعد وقائي ، بواسطة قنابل النابالم والقنابل الذرية وبمجرد الضغط على زر القذف ما اجترحه مبيلو بلسن واوشويتز بأساليب حرفية قديمة باطلة . وكانت هذه الأساليب أبطأ في التنفيذ ولكنها مقتصدة أكثر فيالحفاظ الحريص على المشتقات : النفاياتالبشرية ، ذهب الأسنان ، الشحم ، نخاع العظام للأسمدة وحتى الجلد لعاكسات النور . في كل البلدان الان عدد لا يحصى من أمثال ايخمان في المكاتب الادارية وفي هيئات الأعمال وفي الجامعات والمخابر والقوى المسلحة : رجال منظمون ، مطيعون ، مستعلون لتنفيذ أية ضلالة مقررة رسميا مهما كانت مجردة من الانسانية وسافلة .

وكلما زادوا من قوة رجل التنظيم يقل تحوطه في استعمالها . والذي يجعل هذا النموذج المثالي مهدداً أكثر أيضاً إنما هو استخدامه

المكلل بالنجاح للتنكر بالزي البشري . فجهازه كمسخ آلي يشبه اللحم والدم : واذا استثنينا بعض سكان الكهوف فلا شيء يميزه خارجيا عن الكائن البشري المعقول اللطيف التصرفات الناعم الصوت المحبب خلقا . حتى انه يمكنه على غرار هملر ان يكون « رب أسرة صالح » .

لم يكن هذا النموذج مجهولاً في الحضارات القديمة : لقد كانت أجهزة الضبط البشرية هذه تنظم حتى في عصرنا معارك متبارزين في حلبة روما تستخدم آلات تهشيم العظام التي كان يستخدمها التفتيش المقدس . لقد كانت فرص انسان النظام اندر قبل ان تغزو التكنولوجيا العملاقة كل الميادين : فقد كان هذا الانسان في الماضي اقلية مقتصرة بمعظمها على البيروقراطية أو الجيش . ومصدر الاختلاف اليوم هو ان اسمه قد أصبح جيشاً لجبا ولما كان لا يرى عندما ينظر الى ما حوله الا صورته الذاتية فهو يعتبر نفسه كنموذج للانسانية السوية .

ودرجة الفعالية التي اضيفت بمقتضاها الى الشخصية الحديثة انعكاسات الطاعة التي يتطلبها انسان النظام تمت الى تجربة سيكولوجية تحققت بادارة الدكتور ستانلي ميلفريم في بال كما روتها (صحيفة السيكولوجيا الشاذة والاجتماعية) . وكان المختبر يسعى الى اكتشاف أي نوع من الأشخاص المطيعين للأوامر كالعبدان يكون قادراً بان يرسل اخوانه من بني البشر إلى غرف الغاز أو أن يرتكب فظاعات مثيلة كما جرى في فيتنام . وقد استخدم اربعون فرداً متفاوتو الاعمار وأخبروا أن التجربة هي بحث علمي عن اثر العقوبة بالصدمة الكهربائية على التطور التربوي .

اجلسوا الأفراد أمام لوحة فيها أربعون زراً . وكان يجلس بشكل

منظور في الغرفة المجاورة يفصله جدار زجاجي « تلميذ » متطوع ملروب جيداً على ان يلعب دوره المقرر ويفترض انه جالس على « كرسي كهربائي ولكنه في الحقيقة غير موصول بأقل تيار . وفقا لعنوان معَاكس التيار التي يستخدمها الأفراد فقد كان كل معكس يولد صدمة محددة سلفاً بالتدرج من الخفيفة الى القاسية بصفة جزاء لارتكاب خطأ . وكان هنالك بعد المعكس المعنون (خطر : صدمة خطيرة) زران آخران يحملان هذه الاشارات المهددة ××× وكان التلميذ — الزائف يصرخ بناء على التعليمات صوتا متظاهراً بالألم عندما يعمل زر ال٣٠٠ فولت على الرغم من انه كان يضرب على الجدار ليطلب من « المعلم » ان يواصل . وعند هذه النقطه كان لا يزال هنالك عشرة معاكس تدل على شدة متزايدة في الفولتاج وفي الألم .

وقد عارض تعليمات التجربة أربعة عشر فرداً فقط من أصل أربعين ورفضوا المزيد من التعاون عندما دل رد الفعل المسجل على ألم شديد أو عذاب .

وقد انزعج بعض الأفراد الذين تابعوا عاطفيا من التجربة وهذه مأثرة لهم بوصفهم كائنات بشرية غير ان ٦٥ ٪ منهم استمر الى ما بعد « النقطة الخطرة » (لمصلحة العلم) أو نفعا للعلم .

وعلى الرغم من ان التجربة المنفذة على أربعين فرداً ليست حاسمة فذلك لا يقلل من مساعدتها على شرح سلوك الناس المتحضرين ، كما يقال ، في مختلف فترات التاريخ عندما يشهدون بدعم من أعلى السلطات الملكية والاكليركية والعسكرية أو العلمية كما هي الحال اليوم عذابات مروعة أو يجترحونها فعلاً . ويتجلى ذلك سهلاً أكثر في حضارة كحضارتنا

معدة اعداداً مشروطاً كعنصر أساسي لتحقيق « الموضوعية » وللاعتقاد بأنه يجب ان تلغى المشاعر والانفعالات. وبالفعل أي نوع من أنواع الانعكاس الذاتي من التجارب العلمية المحضة .. لم يبق المشاركون في هذا الاختبار كائنات بشرية تشعر بالتعاطف والرأفة : لقد كانت أكثرية من بينهم مستعدة لا لتشهد التعذيب فقط بل لتحدثه باشراف السلطات بواسطة أفعال من عندياتها . وقد تشرح هذه التجربة لماذا امتدت الان ممارسات سادية ادخلت في البدء في اطار فرع من العلم صارم ، كما يزعم ، هو تشريح الحيوانات الحية ، الى ما بعد هذه الحدود .

واذا كان هذا الوصف يشبه انحرافا من اسمج الأنواع فسبب ذلك فقط ان الحقيقة قد أصبحت مبتذلة حتى اننا لا نستطيع ان نتعرف إليها. اسمحوا لي اذن ان اروي كلمات عالم نابغة صاحب جائزة نوبل ينادي به زملاؤه في البيولوجيا كزعيم متمرسة في ميدانه على نطاق شامل ويبدو انه كان ، كما تشهد كتاباته ، شخصية معقولة طبيعية منعتقة من كل ضغط أو ضلال عصابي ظاهر . وهذه الصفات المغرية تدل على سمو الاقتراحات الفعلية التي طرحها بصفته علما في علم الوراثه أمام فريق من زملائه العلماء .

« قال هذا العالم ، يجب على الانسان اجمالاً ان يسمو حتى يصبح أهلاً لانجازه الأفضل . فان لم يستطع الانسان العادي ان يفهم العالم الذي اكتشفه العالم وان لم يتمكن ان يتعلم تفهم التقنيات التي يستخدمها اليوم ويفهم كذلك آثارها البعيدة والواسعة وان لم يستطع ان يشارك في الحماسة للاشتراك الواعي في المغامرة الانسانية الكبرى والاحساس برضا حقيقي عن قيامه فيها بدور بناء فسيسقط الى منزلة جزء يفقد أهميته

تدريجيا داخل آلة ضخمة . وفي هذا الوضع تتضاءل قدراته على تحديد مصيره وارادته في ان يفعل ذلك ويؤول الأمر بالاقلية التي تحكم الى ان تجد طريقة للاستغناء عنه »

انالم اخترع هذا العالم : كان يدعى هرمن مولر . وقبل ان يصف مولر مبادىء وأهداف الآلة العملاقة ، حددت انا هوية الطراز القديم والطراز الجديد على السواء . والذي يستحق الملاحظة هو انني استطيع بعد عشر سنوات من الدراسة ان ادعم تصريح ميلر بلائحة طويلة من الناطقين العلميين الذين ليس بعضهم أقل نبوغا من مولر .

والمذهل هو ان هتلر قد تذرع بالذرائع نفسها التي استخدمها مولر ليرفض اليهود كعاجزين عن المشاركة في مغامرته العظيمة « وعن الاحساس برضا حقيقي عن القيام فيها بدور بناء » . ولتطبيق هذا الحل النهائي على هؤلاء الساقطين اللاآريين تلقى ايخمان وزملاؤه الامر بان يقودوا ضحاياهم الى غرف الغاز .

يبدو ان قولة « ايجاد وسيلة للاستغناء عنه » هي قولة بريئة ولكن اليست براءتها خطرة ؟ الم يكن من الاشرف القول « للتخلص منه » ؟

لقد اعتبر خدام الآلة العملاقة الامناء هؤلاء ان من المقرر ان ليس هنالك إلا رؤية واحدة مقبولة للعالم هي الرؤية التي يمثلونها ، وان نوعاً واحداً من المعرفة وطرازاً واحداً من المغامرة البشرية لهما قيمة هما معرفتهم ومغامرتهم أو ما يتفرع عنهما مباشرة . ويريدون ان يقولوا في نهاية المطاف ان نوعا واحداً من الشخصية يمكن ان يعتبر مرغوبا فيه: انه النوع الذي تعتبره كذلك النخبة العسكرية والصناعية والعلمية التي ستدير الآلة العملاقة .

ويبدو مثل هذا الوضع لهؤلاء الزعماء منيعاً الى درجة انهم يملكون حسب رأيهم الحق في وضع نماذج من الشخصية وفقاً لاقوالهم الخاصة الفقيرة نوعاً وفي تهديد وقهر الذين يجرؤون على معارضة أساليبهم أو انكار صحة أهدافهم وفي الاستغناء عنهم اذا اقتضت الضرورة . هذا هو اذن المطلب النهائي لانسان التنظيم : سلطانه في ان يحول العالم الى صورته الخاصة الضيقة .

٥ : تقنية الرقابة المطلقة

لقد أظهرت الحضارة الانسانية حتى الآن في تحولاتها عدداً كبيراً من الخصائص المكتشفة في تطور الأنواع : فالنزوع الى تحقيق هوية الأنواع والى التطور الفردي في تبادل تلاؤمي مع البيئة قد قابلته استكشافات وهجرات وسعت امكانات اقامة العلاقات واختلاط العروق والتواصل المتبادل .

وعلى الرغم من أنه يمكن التحدث عن « الانسان » ابتغاء للسهولة فليس ذلك الأحيلة لغوية لانه ليس هنالك أي مخلوق موحد الشكل وعام من هذا النوع اللهم إلا بالتعبير الاحصائي . لم تسد الكرة الأرضية كلها حتى الان أية بنية سياسية وحيدة وأية ايديولوجياو حيدة وأية تكنولوجيا وحيدة وأي نموذج للشخصية وحيد . فالانسان ليس له مثال وحيد بعد .

وما يصح بالنسبة لقطن الانسان والحضارات الانسانية يصح أيضا بالنسبة لأنساب الانسان التاريخية . وكما ان أية منطقة أو حضارة وحيدة لا يمكن ان تتيح اكتمال كل قوى التطور الانساني فلا يمكن لأ ي جيل

وحيد كذلك ان يجسد هذه القوى . وبالفعل فليس هنالك من جيل قبل جيلنا كان من الغباء بحيث يتصور ان من الممكن ان يعيش حصراً ضمن حدوده الخاصة الزمنية الضيقة توجهه فقط معلومات مكتشفة حديثا ؛ كما انه لم يقر قبل ذلك مطالب الجيل الحاضر وحده كمطالب نهائية ومطلقة دون ان يربط هذه المطالب الماضية أما بمشاريع المستقبل أو بالامكانات المثلى .

ان الاكتفاء بتجارب جيل (اليوم) لا ينطبق حتّى على الحياة الحيوانية . فكل المتعضيات الحية العليا تحرص في الواقع على مستقبلها بالتزاوج وتغذية الأولاد ويذهب بعضها الى حد الاستعداد للحاجات المستقبلية بتخزين الغذاء .

لقد بالغت الحضارات السابقة على الأغلب في تقدير العادة والتقليد وذلك لمصلحة الاستمرارية والتراكم الثقافي وتمسكت بأخطائها خشية ان تضيع باجتثاث هذه الاخطاء اكتمالها . والرأي بان الماضي يجب ان يصفى بدلا من ان يحترم يشكل آية خاصة من آيات نظام القوة التقنية العملاقة . وقد نطق الانتروبولوجي راجلان بهذا الخصوص بكلمات تبدد الأوهام : « غالبا ما يزعمون بان الانحطاط سببه جمود النزعة المحافظة ومعروف ان النظريات الدينية أو السياسية التي تقتضي الايمان بعصمة القدماء لا بد من ان تقود غالباً الى الانحطاط غير ان الناس، على عكس ذلك ، لا يتبينون بان غروب الحضارة يمكن أيضا ان ينشأ بسرعة عن القطيعة مع الماضي » .

والعناية بتنمية الصفة الانتقالية العارضة بالنسبة لحضارة كحضارتنا

الحالية كما لو كانت الحركية قيمة مطلقة والاستقرار من أي نوع عائقاً : معناها جهل الوقائع الثابتة لا وقائع الاستمرارية العضوية فحسب بل الوجود المادي . فلو كانت العناصر الكيميائية كلها مثل الزمرة المشعة في عدم الاستقرار لما ظهرت الحياة العضوية على أرضنا ولما كان هنالك كوكب ككوكبنا معد من قبل للحياة كما برهن لورنس هندرسن .

وعلى الرغم من عدد من الجمودات والتوقفات والتراجعات والخسائر فقد كانت النتائج الاجمالية للتطور البشري خلال السنوات المائة ألف الأخيرة شبيهة بغناها وتنوعها بالنتائج التي لم تقو الطبيعة على تحقيقها إلا بالسير البطيء في تطور الأنواع . لقد صنع كل عرق وكل حضارة وكل قبيلة وكل مدينة وكل قرية أيضا نماذج جديدة من الانسان متشابهة دائما بما يكفي للتعرف اليها بدلالة نوع الانسان العاقل غير انها مختلفة بما يكفي لاتاحة امكانية انجازات قد تكون اسمى واغنى . لقد كان هنالك تطور ثنائي القطب منذ البدء حتى في الصفات المشتركة ما بين كل عروق الناس : قطب يلح على التفرد .

والاستقلال والاخر على مشاركة أوسع وتجانس ؟ الأول مركز على ذاته محصور يوجه من الداخل والاخر نزاع الى التوحيد والشمولية والاجمالية .

وقد نفذت هذه التطورات من وقت لاخر الى وعي الانسان الفكري بالغة بعض الأحيان أعماقاً هامة من الادراك عند الشعوب « البدائية » . ولم يبدأ بوصف الأوضاع التي تطورت ضمنها الحضارات الانسانية وبتمييز أنماط النمو الصالحة من الأنماط المرضية التي سببت خوراً في السير وسببت الموت الاخلال القرون الأخيرة فقط . ولا يتمكن

أحد ان يزعم ان المعارف الأثرية والانثروبولوجية والتاريخية المتوفرة لدينا هي على قدر كاف من السعة أو هي موثوقة حتى تزودنا بأكثر من مقترحات واعدة عن الحقائق المقبولة . غير ان لدينا صورة على قدر كاف من الوضوح عن التطور البيولوجي والاجتماعي معا حتى نميز ان العوامل التي هي لصالح التنوع والاصطفائية والتغيير يجب ان تقابلها العناصر التي هي لصالح الاستمرارية والانتظام والاستقرار والشمولية وان الحياة والنمو يهددهما نقص هذه الزمرة أو تلك .

ومع ان قربنا المفرط من حضارتنا الخاصة يحول دون اصدارنا حكما موضوعياً تماماً فقد أصبح جليا ان هذه الحضارة قد سقطت في حالة من عدم التوازن خطرة وانها تنتج الآن عقولاً مشوهة وغير متزنة . ان قسما من حضارتنا هو القسم الذي يكرس نفسه للتكنولوجيا قد اغتصب السلطة من كل العناصر الاخرى الجغرافية والبيولوجية . والانثروبولوجية : الى درجة ان أشد المدافعين عن هذا التطور حماسة يعلنون ان العالم البيولوجي بأكمله هو في سبيله الى ان تحل التكنولوجيا محله وان على الانسان أما ان يقبل بان يكون صنيعة تكنولوجيته أو ان ينتهي من الوجود .

والتكنولوجيا لا تدعي الأولوية في الشؤون الانسانية فقط : فهي تضع ضرورة التغيرات التكنولوجية المستمرة فوق أي اعتبارات لجدواها أو استمراريتها أو حتى قدرتها الخاصة على البقاء ؛ وهذا مدعاة للسخرية. وللحفاظ على مثل هذا النظام الذي تناقض مبادئه الأساسية المبادىء التي تدعم كل الأجسام الحية تطالب التكنولوجيا الجماعة الانسانيه بنمطية مطلقة في سبيل حمايتها الذاتية ؛ وللوصول الى هذه النمطية تقترح

التكنولوجيا اقامة نظام مطلق من الرقابة بدءاً من الجسم الانساني بالذات حتى قبل ان يتم الحمل . ووسيلة بناء هذه الرقابة تشكل هدية الآلة العملاقة العظمى ؛ ولو لم تغمرنا فكرة اسطورة الآلة بوصفها كلية القوة وكلية العلم وكلية القدرة لما توصلت الى النقطة التي بلغتها الآن .

ولنعد مرة اخرى الى جدول المخترعات القادمة المحتملة تلك المخترعات التي يهتم الآن من بايعوا اسطورة الآلة اهتماماً بالغاً بنشرها : لنأخذ جدولاً مقبولاً كذاك الذي اقترحه ارتور كلارك مثلا . ليس بين ما ينوف على دزينة من المآثر التقنيه التي عددها (من الهبوط على القمر الى مراقبة درجات الحرارة ومن تعليق الحياة الى الحياة الاصطناعية) ما له أقل علاقة بمهمة الانسان التاريخية المركزية والملحة اليوم أكثر من أي وقت ؛ مهمة في ان يصبح انسانا . وان فشل جيل واحد في القيام بهذه المهمة يخشى بان يرجع بالجماعة الضالة القهقرى عهداً جيولوجيا كاملاً ؛ وهناك من الأسباب للاشتباه بان الأمر قد بدأ يحدث فعلا في زمننا .

وزمرة الاكتشافات والمخترعات الوحيدة التي يرفض أنبياء التكنولوجيا هؤلاء ان يحسبوا لها حساباً هي المخترعات الانسانية الداخلية التي ستؤدي الى وضع التكنولوجيا نفسها رهن تقويم وادارة انسانيين مستمرين :

وعلى العكس ولمجابهة كل هجوم معاكس من هذا النوع قبل ان يبدأ فقد نشروا الاعتقاد بان التكنولوجيا توفر نمط الحياة الوحيد المعقول والمقبول اليوم .

لقد سارت مهمة خلق حيوان انساني محدود خاضع مهيأ علمياً تهيئة مشروطة ومتلائم تماماً مع بيئة تكنولوجية محضة على وتيرة سرعة تحول هذه البيئة نفسها ، ولقد تحقق هذا الأ مر في جزء منه ، كما سبق ان أشرنا الى ذلك ، بفضل تقوية النمطية بواسطة المكافآت المحسوسة كما تحقق في الجزء الاخر بواسطة رفض كل امكانية خيار حقيقية خارج مجال نظام التقنيه العملاقة .

فالأ طفال الاميركيون الذين يقضون ، كما تشهد الاحصاءات ، من ثلاث الى ست ساعات يومياً في مشاهدة برنامج التلفزيون الذي تتألف اعلاناته من أغاني غرف الحضانة والذي يفل حس الواقعية فيه عالم تسوده العلاقة اليومية مع السوبرمان وبطمان ولفيفهما من المسوخ ، لن يكون بمقدورهم التخلص من مثل هذا النظام إلا ببذل جهد بطولي ؛ أي ما يكفي لاسترداد درجة ما من الاستقلال . فالآلة العملاقة تبقيهم تحت رقابتها عن بعد ، معدين لتقبل رواسمها بشكل فعال أكثر بكثير من أشد الوالدين صرامة . ولا يدهشنا إلا قليلا ان يجابه الجيل الأ ول الذي ترعرع في ظل مثل هذه الوصاية « أزمة هوية » .

لقد ابدع هذا النمط من الا عداد المشروط نموذجا سيكولوجيا جديداً : انه نموذج مطبوع منذ الولادة تقريبا بطابع التكنولوجيا العملاقة بكل أشكالها ؛ نموذج عاجز عن الرد مباشرة على مرامي البصر والسمع وعلى أشكال الانباء المحسوسة عاجز عن ان يعمل بدون قلق في أي ميدان وعاجز حتى عن الشعور بانه حي إلا باذن أوامر لاعضوي تقدمه (الآ لهة ـ الآ لة) . وقد بلغ هذا الأ عداد المشروط في عدد من الحالات درجة التبعية الشاملة ؛ وحيا اشأم أنبياء هذا النظام هذه الحالة من النمطية

على انها التحرير الاسمى للانسان . تحرير مم ؟ تحرير من الأوضاع التي ازدهر فيها الانسان وهي العلاقة الناشطة ، علاقة المبادلة المجزية بشكل متقابل مع بيئة انسانية وطبيعية ، « غير مبرمجة » متنوعة متفاعلة ، بيئة زاخرة بالصعوبات بالاغراءات بالخيارات الصعبة بالتحديات بالمفاجآت وبالمكافآت غير المتوقعة .

وهنا من جديد كانت الخطا الأولى في اقامة الرقابة تبدو برئية .

انظروا الى آلة ب . ف . سكينر للتعليم . من الممكن ان تخفف مثل هذه الآلة ، في تعليم موضوعات كاللغات تتطلب كثيراً من التكرار والتصحيح بهدف الحفظ الصحيح،من عبء المدرس وتتيح للطالب ان يبلغ بسرعة أكبر النقطة التي يستطيع الأستاذ ان يساعده فيها بشكل فعال في مسائل لا سبيل الى برمجتها على الآلة . ويمكن ان نتصوران هذه يمكن ان تعمل لمصلحتهما المشتركة ولكن ذلك ليس حتمياً .

وقد تكون آلات التعليم مساعدة مفيدة شأنها شأن الكثير من الاختراعات الميكانيكية الاخرى . ولكن اتجاه التكنولوجيا العملاقة مع الاهتمام الالزامي الذي توليه لتحقيق أقصى حد ممكن من الأرباح للهيئات المهنية التي تستغل هذه الآلات ، هو تحويل المساعدات الصغرى والعارضة من هذا النوع الى جهاز أعظم دائم وان تمد خدمات الآلة الى كل الخاضعين للبرنامج من كل الأعمار . وهذا يعني ان نعطي التجهيز الميكانيكي والالكتروني الوقت والجهد والمال والاهتمام العاطفي أي ماكان يجب ان يكرس للعلاقات الانسانية وللعاملين الانسانيين. والنتيجة هي ان عادات الدراسة الجيدة التي تمارس بوقت مبكر وكذلك

التدريب المتعمد للذاكرة قد تزود بتعليم أفضل من الانتشار الكبير للآلات وتكون مجالات تطبيقها أوسع . غير ان مثل هذه الوسائل الانسانية لا تحقق ربيحات مالية .

ان مثل هذه التربية الزائفة المبرمجة هي في الحقيقة الأداة الكاملة للاستبداد السياسي والقبول العام بهذا النظام سيكون شؤما على ممارسة استقلال الرأي والاختلاف الناقد والفكر المبدع . كان وزير التعليم العام في فرنسا في ظل بيروقراطية ما بعد العهد النابليوني يستطيع ان يباهي بمعرفة ما يقوم كل معلم بتعليمه في ساعة معينة في كل المدارس معرفة دقيقة . غير ان هذا النمط من الرقابة بقي عاجزاً عن الغاء الحوار الانساني الغاء تاماً وحذف كل الانعكاسات الانسانية العضوية . والواقع ان المعلم كان لا يزال انسانا مشخصا تمكن اثارته وتحديه ويمكن عصيانه ؛ بينما كان طلاب أحد الصفوف مهما كان الانضباط صارما يطمئنون الى تواجدهم ويشعرون بقدرتهم على التأثير على المعلم ولو بواسطة الخبث والفوضى ! ومثل هذه الاتصالات تبطل ادعاء الوزير التوحيد . والتكنولوجيا الرائجة اليوم إنما تكرس نفسها للقضاء على هذه الاثار الأخيرة من العلاقات الانسانية أي لضمان العزل والخضوع الكامل .

وتبحث بيروقراطية خبراء التربية المهددة بنقص المعلمين المؤهلين بتكالب عن حلول ميكانيكية معقدة لكل صعوبة بدلاً من ان تستخدم جهودها لاقناع عدد أكبر من الأشخاص المؤهلين بالدخول في السلك التربوي ولتقليص الاجراءات العقيمة التي تفسد الطاقة والاهتمام الانسانيين .

ولم تشجع هذه البيروقراطية فقط استخدام آلات التعليم والعقول

الالكترونية بل سعت بحرص الى استغلال وسائل اتصال اخرى وحيدة الاتجاه كالاذاعات المتلفزة بواسطة الأقمار الصناعية لمصلحة النظام كله لتحل محل بقايا العلاقة الثنائية الاتجاه والمشاركة الايجابية كتلك القائمة الى حد ما حتى في أكثر غرف التدريس تواضعاً حيث يتلاقى المدرسون والتلاميذ وجها لوجه.

وهذا اللجوء الى الحلول الميكانيكيه لحل قضية الكم عندما يكون ما يتوجب في الحقيقة الاختصار الميكانيكي والتوسع الانساني يقوي النظام الذي أدخلته الآلة العملاقة القديمة — الحديثة.

وقد أصبحت اليوم آلة التعليم البسيطة باطلة. فقد عرضت في معرض نيويورك العالمي عام ١٩٦٤ مدرسة المستقبل بشكلها النهائي شكل كبسولة فضائية، يجد كل طالب نفسه قد تحول بفضلها الى نوع من « اليرقانة الدارسة » المعزولة يقضي نهاره كله في مقصورة مغلقة بيضاوية تماما تنقل اليه المعلومات وتنهال عليه من محطة مركزية. وهكذا يتخلى شعار المخبز الجماعي أو مصنع تحضير الغذاء « لا تمس الأيدي الانسانية شيئا »، عن مكانه اليوم الى اجرأ شعار للسلوكية الآلية: « لايمس الانسان شيئا ». ان الخلية العازلة التي هي احد اقسى أشكال العقاب المتصورة خلا البتر مطروحة الآن كجهاز مدرسي موحد.

وليس هدف هذا الجهاز هو تجريد التلميذ من تقابل الاتصالات الانسانية فقط بل انه يهدف كذلك الى عزله عن العلاقات مع كل جزء من العالم الواقعي ما عدا الجزء الذي برمجته لأجله سلطة عليا بغية ان يكون تحت رقابة الآلة العملاقة بشكل أكمل. عندما يتوطد هذا النظام فلن يكون التعليم وحده هو الذي يتم عبر قنوات رسمية وفي ظل رقابة

السلطة المركزية الدائمة بل كل الاتفاقات البشرية الاخرى . ليس هذا تعليما بل ترويض حيواني . ولما كان الانسان هو أكثر الحيوانات قابلية للتكيف فان عدداً كبيراً من الناس قد تم خضوعهم روحيا على الأقل لمثل هذا المفهوم العقيم للتعليم . ولا يخامرهم أي شك بالظاهر ان هذا النوع من « التقدم » التكنولوجي الشبيه بمكافئاته الكثيرة في ميدان الابادة بالجملة ، ينتهك الشخصية الانسانية ويشكل بالفعل امارة مقلقة من امارات التقهقر الانساني .

لقد أصبح معاصرونا معدين اعداداً مشروطا لقبول « التقدم » التكنولوجي كشيء مطلق لا يقاوم مهما كانت النتائج شاقة وقبيحة وشالة عقلياً أو مؤذية فيزيولوجيا الى درجة ان يقبلوا اخر هدية من التكنولوجيا سواء أكانت طائرة أسرع من الصوت أو خلية تربوية قبولاً باسماً خصوصاً اذا صحب التجهيز شرح علمي وبدا بأنه من طراز متقدم في الميدان التكنولوجي .

لقد هجا تولستوي منذ زمن طويل هذا الضلال العام في بحثه « ما هو الفن ؟ » وقد رسم تولستوي في هذا البحث الرجل الحديث وهو يسد باحكام نوافذ منزله ويفرغ منه الهواء حتى يستطيع ان يضخ اليه الهواء من جديد مستخدما جهازاً ميكانيكيا شديد الغرابة بدلا من الاكتفاء بفتح النوافذ . ولم يخطر لتولستوي ان هذا الجنون سيرتكب حقا بعد أقل من جيل لا كحيلة مقبولة بغية اتقاء الغبار والغازات السامة المنفوثة أو التخفيف من فرط الحرارة فقط بل انه سيستخدم حتى من قبل معماريي المنازل والأبنية المدرسية الواقعة في قلب الطبيعة حيث يتوفر الهواء

الصافي وحيث يكون الصخب الطبيعي في مستوى أدنى من مراوح التفريغ المستعملة في جهاز تهوية .

لقد فقد هجاء تولستوي حدته الآن ، مع الأسف ، والواقع ان أمراً لا تمكن استساغته قد حدث أيضاً : ان كل عناصر البيئة هي في السبيل الى ان يعاد بناؤها وفق المبادىء نفسها بغية الضمان بألا يفلت الانسان في أية نقطة من حياته من الرقابة الخارجية . غالباً ما كان يعيق التطور الانساني في العهود الماضية فقدان التجهيز التقني ونقص المعلومات أو المعرفة التقنية المتنخلة بعناية وانعدام الوسائل المادية الضرورية لعلاقات وتعاون على قدر كاف من السعة . وكثير من الناس يواصلون التصرف بطريقة غريبة كما لو كان هنالك افتقار الى هذه الوسائل . بيد ان العكس تماما هو الصحيح . فلا يبدي في الآونة الحاضرة أي جزء من البيئة أو من تنظيم الانسان الحديث أقل اشارة من اشارات الجمود أو الافراط في الاستقرار ماعدا الأتمتة نفسها .

فالتكنولوجيا قد انتجت ، على العكس ، حالة من الديناميكية الجارفة بالنظر الى ان شكل الرقابة الوحيد الممارس فعلا يقوم على اخضاع كل عنصر لتحول اسرع أيضا بينما يصبح النظام نفسه جامداً وأشد صلابة . فالانسان شخصيا ماض اذن في فقدان سلطانه على كامل الحياة الشخصية التي يمكن ان تسمى حياته الخاصة : انه الآن في السبيل الى ان يجد نفسه متحولاً الى شيء معد للمعالجة واعادة البناء جماعياً بالأساليب نفسها التي انتجت البطارية الذرية والعقل الالكتروني .

واستعداد الانسان الحديث لقبول هذه الرقابة الخارجية حتى بعد ان ذاق ومارس طوال القرون الأخيرة درجة كبيرة من الحرية المحلية

والمهنية والشخصية قد يسرته في الوقت نفسه ضغوط خارجية وكروب داخلية . ان مجرد الازدياد العددي (ولا اعني فقط الزيادة الشاملة لسكان بل زيادة حجم كل الوحدات الاجتماعية من المدن الى الجيوش والبيروقراطيات) قد جعل النفس الفردية اجبن وأقل ثقة بذاتها . لقد شعرت انها عاجزة عن مواجهة احداث تقع أبعد من مرمى بصرها أو رقابتها العضلية الفعالة . « اني ، غريبة ، مذعورة في عالم لم ابدعه » .

وعندما تلغى أنماط المشاركات الصميمية على نطاق ضيق أو تشل تنشد النفس السلامة في المنظمات الكبرى اللاشخصية : ولا اعني الدولة فقط بل شركة التأمين على الحياة أو النقابات التي تقوم أيضا بدور العناصر الأساسية لنظام القوة نفسه . وازدهار هذه الوحدات المهنية يفرض ضرورة تعبئة أكبر أيضا ومركزية أكبر للرقابة . وهكذا فان « التخلص من الحرية » ينتج ، كما أشار اريك فروم الى ذلك قبل جيل ،شكلا جديداً من التحرر : التحرر الدائم من المسؤولية ومن الخيار الفعال .

وفي المرحلة النهائية من التطور التقني ستحاول العلوم المنظمة ، كما أدرك ذلك بسرعة العديد من مؤلفي الرواية الخيالية ، ان تفعل مباشرة وعلى الاخص بوسائل فيزيائية وكيميائية ماسعت مؤسسات انسانية اخرى كالدين والأخلاق والقانون ان تفعله بطريقة غير مباشرة أكثر ،محرزة فقط نجاحاً جزئيا بفضل الوعظ والاقناع أو التحذير المنذر : وأعني بذلك تغيير طبيعة الانسان . ويتطلع العلم بثقة الى تغيير طاقات الانسان من الأصل بتدخله على المستوى التناسلي وببرمجة حياته فيما بعد ذلك بطريقة لا تفسح المجال لأي انحراف أو تمرد مفاجئين . والتشويهات

الجذرية التي لم يتوصل الملوك والكهنة قط الى تحقيقها إلا باللجوء الى انتزاع الاحشاء يتطلع العلماء الآن بثقة الى أحداثها في الجثمان الحي بفضل التبريد الجراحي والمعالجة الكيميائية أو الرقابة الالكترونيه . ولكن الاندفاع الى ممارسة الرقابة ملح الى حد ان هذه التجارب تلقت دعم المؤسسات الوطنية (الخيرية) المالي ؛ حتى أصبح يخشى جداً ان تؤخذ ، حتى قبل ان تطبع هذه الكلمات ، قرارات جذرية يمكن ان تعرض للخطر امكانات متابعة التطور الانساني .

وقد صدر أبرز تحذير فيما يختص بمصير الانسان المشئوم عندما يخضع تماما للآلة العملاقة من الزمرة التي تمتلك الآن كل مواقع السلطة الستراتيجيه في الدولة الحديثه : العلماء . ومن الممكن سوق مائة مثال عن مثل هذه الضلالات الذاتية التي تتبدى بشكل معقول ظاهراً بوصفها « مراحل مقبلة على طريق التقدم » : ولكنني اكتفي ببعض الأمثلة النموذجية ؛ بدءاً من حلقة علمية كاشفة تماماً عن « مستقبل الحياة » نظمتها شركة صيدلانية دولية كخدمة عامة وحضرتها مجموعة كاملة من العلماء المتميزين . (انظر جولدون ولستنهولم) .

وقادت البحوث المقدمة الى نقاش في مسألة معرفة أي أشكال الرقابة كان ممكنا بغية رفع مستوى السكان التناسلي وحذف الجنات غير الصالحة التي كف الاصطفاء الطبيعي عن حذفها . وقد اثار ذلك قضية الاصطفاء الاصطناعي انطلاقا من عروق متفوقة مما قاد بدوره الى نقاش حول مسألة معرفة ما اذا كان من حق الكائنات البشرية الطبيعي انجاب أولادهم . وكان تصريح أحد المشاركين وهو مؤرخ علوم كاشفا من هذه الناحية : « انني وأنا أكرر حجة كريك في موضوع النقاش الانساني النزعة لمعرفة

ما اذا كان يحق للناس ان ينجبوا اقول ان الجواب هو لا بالنسبة لمجتمع تكون الجماعة فيه مسؤولة عن رفاهة المواطنين (صحة ومشافي وتأمين البطالة الخ) .

وقد يبدو من الظلم ان نبني حكمنا على أحد العلماء على تأكيد اطلقه بشكل عابر خلال احدى المناقشات فقط ، حتى اذا سمح بنشره . وواقعة ان جوابه قد خلا من التردد ومن التحفظ قد تدل على انه شائع على نطاق واسع . فكثير من هؤلاء القادة الذين انتخبوا أنفسهم قد أكدوا انه يجب رسميا فرض الطاعة والتوافق الصارم مع التعليمات أي تعليماتهم على الناس مقابل النعم التي يتلقونها ، وبطريقه تشبه كثيراً الطريقة التي تفرضها بها الانساق البيروقرطية الحاضرة على مرضى آلوا الى العجز في المستشفيات الحديثة .

وهذا الالتزام ينطوي على شيء أكثر من الاصغاء للنصائح الطبية كما يمكن ان تعطى عن حق الى الذين تتبدى في مصنفهم نقائص وراثيه خطيرة . انها تتضمن كما تدل المناقشة التي تلت ذلك ، حق العالم في ان يقرر نماذج بشرية مثلى بالاستناد الى مقاييسه الذاتية الخاصة المحدودة في الزمن وفي ان ينتقي على هذا الأساس ذرات منوية وبويضات بهدف الانسال . وقد ذهب السير فرنسيس كريك الى أبعد من ذلك أيضا ونصح بحرية التشويه التجريبي للجنات البشرية على الرغم من انه يخشى بفعل سوء الطالع ان ينتج مسوخا وقد اعترف هو نفسه بذلك .

لقد كان هنالك شيء ينقص بعض المشاركين في هذا النقاش : انه الحس بأن من يمكن ان يمتلكوا المعرفة والتقنيات الضرورية لممارسة مثل هذه الرقابات ينبغي ان يلزموا بتقديم برهان ايجابي على كفاءتهم

الخاصة على تحديد مستقبل النوع البشري . وفقدان كتب الاعتماد هذه أو بالحري الاعتقاد الساذج بأن الأهلية العلمية هي كتاب الاعتماد الوحيد الضروري لم يكن ليسبب على ما يبدو أي ارتباك . ومن شأن مثل هذا النقاش الاينبه أبداً الى ان آلافاً من أحكم المفكرين قد نظروا خلال آلاف السنين في مسألة معرفة ما هي أحب مواصفات الكائنات البشرية وما هي القسمات التي يجب ان تغير أو تمنع وما هي الطبيعة المركبة أو مجموعة الطبائع المفضلة بهدف انتاج أرفع صنف من الكائنات البشرية .

وكانت كل حضارة تصنع بعد الاخرى جوابها الخاص عن هذه القضية بانتاج طرازات مثلى وتجسيدها في سلسلة لا متناهية من النماذج في شخص الهتها وأبطالها وقديسيها وحكمائها ، ولكنه تبين انه لم يكتب لأ ي من هذه النماذج أو صورها الاخرى ان تكلل بالنجاح تماماً أو تطبق على نطاق شامل . ولكي لا نتحدث إلا عن اليونان نقول انه لم تجد كل الحاجات في زويس ولا ابولون ولا بروميثيوس ولا هيفايستوس ولاهيرقليس ولا اخيل ولا عوليس مايحققها. واذا التفتنا نحو ، أصدق جهود الديانة والفلسفة في سبيل تجسيد طراز انساني امثل فاننا نحار أيضا في اختيارنا : فالكونفوشية والتاوستية والزرادشتية والبوذية والافلاطونية والرواقية والاباحية والمسيحية والمحمدية قد انتجت جميعا مفاهيمها الخاصة عن الانسان الكامل وكانت لها الى حد بعيد صفة الانكار الدفاعي للطرازات الاسمج التي سادت الحضارة الأقدم .

ولكن لم يتوصل أي شكل من هذه الأشكال المثلى ، حتى عندما يقارب شخصيات فردية كسقراط أو فرنسوا داسيز ، الى بلوغ الكمال

في الأطار الذي اختاره هو نفسه . ولم يتوصل أبداً الى أي اجماع في ارفع الحضارات تطوراً التي حفظ التاريخ أثرها أي الحضارة اليونانية .

وانني استخلص ان ما يعنيه ذلك هو ان الطريقه الوحيدة الناجعة لمواجهة هذه القضيه هي الطريقة التي تبنتها الطبيعة من زمن طويل : توفير امكانية تنوع لامتناه من الطرازات البيولوجية والثقافية بالنظر الى ان أي طراز وحيد مهما كان غنيا ومجزيا لا يقوى على ان يشمل كل قدرات الانسان الكامنة . فما من حضارة وحيدة أو عرق وحيد أو حقبة وحيدة يمكن ان تفعل أكثر من ان تنتج تنوعات جديدة لهذا الموضوع غير القابل للنفاد .

وكثير من البيولوجيين الذي لا تقف معرفتهم للتطور عند حدود الظواهر الجزيئية مقتنعون بان فكرة تحسين أي جزء هام من الجنس البشري بفضل الاصطفاء النوعي للجنات لدى عينات فردية (اذا افترضنا ان الأمر يمكن تحقيقه تقنيا وهذا ما هو موضع شك) تمثل سراباً . لقد تبين ان نتائج الاصطفاء المفرط في النوعية في تربية الماشية وكذلك في قضية القزامة الشهيرة عند الثور الأسود كانت في الغالب سلبية .

وواقعة ان علماء في تحسين النسل نابهين كمولر وكريك قد تولدت لديهم القناعة بان التدخل المباشر ليس ممكنا فقط بل مرغوب فيه (نستطيع اذن فنحن ملزمون) تدل الى أية درجة استأثرت بمثل هذين المفكرين الفكرة الفرعونية اللاعقلانية عن السيطرة الشاملة . ان هذه المقترحات مرتبطة بالأوهام القديمة نفسها الشبيهة بالأوهام التي تفجرت

مع نجاح الآلات العملاقة الأولى في عهد الأهرامات شأنها شأن تبريد الجثث الى درجة منخفضة تطلعاً الى بعث مقبل وهذا هو المعادل الحديث للتحنيط في سبيل ضمان الخلود . ويبدو ان النتيجة الحتمية هي ان عنصر الشخصية الانسانية الوحيد المنعتق حتى الآن من الرقابة العقلانية هو الذي ينتج هذه الأوهام .

غير ان ما يدعو الى الريبة أكثر في موضوع هذا النقاش لم يكن فقط فقدان الحدس العلمي بل انعدام الحكمة في معرفة الذات والنقد الذاتي . فرفض التاريخ أي تراكم شواهد التجربة الانسانية لم يتبد أبداً بوضوح أكثر كمصدر للخطأ . انني لا اتكلم عن التاريخ البشري فقط بل عن التطور العضوي أيضاً . ان أنواع النمل التي توصلت الى نظام سيطرة موطد بانتاج نماذج خاصة قد بقيت ثابتة خلال حوالي ستين مليون سنة . انها تبشر بالمصير النهائي للجماهير البشرية المبنية بناءً مماثلاً . آه ، انه أفضل العالمين .

والشيء الوحيد المراعى في هذا التراتب العلمي الجديد هو التعليمات الوحيدة الاتجاه : والذين يدلون بآرائهم بأعلى درجات الثقة عن قطاع وضيع من قطاعات المعرفة الرياضية يطالبون على الأغلب دون خجل بالحق في ان يتحدثوا باسم البشرية عن مشكلات من التجربة الانسانية العامة لا يستطيعون ان يتناولوها إلا على الأساس المتدني نفسه التي تتناولها على أساسه الكائنات البشرية الاخرى . حتى انه لم يذكر في العديد من المناقشات المتعلقة بالمستقبل الذي يحكمه العلم الحق في المقاومة الشعبية ؛ بينما ان ولاء التابع في المجتمع الاقطاعي نفسه مهما كان وضيعا كان يشكل عقداً حقيقيا وثنائي الطرف كما أشار الى ذلك مارك بلوك ؛

والحق في مقاومة السلطة الظالمة أو المستبدة لم يكن ضمنيا فقط بل كان في الغالب مصرحا به ، لقد كان الحاكم نفسه يعتبر مسئولاً تجاه الشعب. (شأنه شأن راعي الخنازير تجاه السيد الذي يستخدمه) كما كتب عن ذلك راهب الزاسي حوالي عام ١٠٩٠ . ووفقا لهذا التدبير أو ذاك وتحت قناع المصلحة العامة في الغالب أصبح الآن هذا الحق الثمين حق اللانمطية وحق المعارضة في سبيله الى ان يرفض سراً .

وفي هذه المناقشات كلها عن امكانات المستقبل التكنولوجي مدعاة للريبة ، خصوصا بتمديد النزعات الماثلة أو المخترعات الوليدة . الحتمية المتأصلة التي تبديها : فهي ترفض قبول احتمال الانقلاب الكامل للتيارات القائمة ، انقلاب كالذي حدث في الامبراطورية الرومانية عندما وجدت نفسها تحل محلها المؤسسات المسيحية الجديدة القائمة على نظام من العقائد مختلف . ويتسم بهذه الحتمية مراقبون اجتماعيون كجاك اللول الذي يستهجن بشكل بارز مساءات التكنولوجيا العملاقة كما يستهجن الذين يتحرقون لتسريع حركتها حتى اذا شوهت وهدمت عدداً من المنجزات الانسانية الثمينة .

اسمحوا لي ان اسوق مثالا أخيراً انتقيته فقط لصفته النموذجية المؤسفة . لقد أعلن الدكتور كنغسلي دافيس في كتاب تحسين النسل ومستقبل الانسان وهو خبير بعلم السكان رفيع الاحترام ان مراقبة التناسل المتعملة لا بد من ان تحدث وانها عندما تبدأ « فلن تلبث ان يفيد منها العلم والتكنولوجيا وهذا ما ييسر بدوره تقدماً وراثيا أوسع كما يوسع ميدان العلم وتتتابع هذه التوسعات بشكل لولب غير محدود مدعما بعضها الاخر . » وختم بالقول « انه عندما يسيطر الانسان على

تطوره البيولوجي الذاتي يكون قد ارسى آسس السيطرة على كل ماتبقى ويصبح الكون اخيرا ملكه » .

والقضيه هنا قضية عينة متحفية خاصة بالفكر العلمي المتناهي القدم وفوق ذلك بالفكر الدائري بالنظر الى ان المقدمة الأصلية للنزعة الاوتوماتيكية (لا بد من حدوث الأمر) تثبت كما لو كانت غير قابلة للاعتراض . ويغفل الدكتور دافيس باطمئنان واقعة ان كل عنصر من استنتاجه غير مثبت ولا يمكن اثباته بدءاً من الرأي بان التقدم الانساني نفسه يمكن أن يقرن بدعم العلم والتكنولوجيا دعما غير مشروط .

بيد انه حتى اذا كان العلماء قادرين على التعرف الى الصفات النوعية التي تجعل لدى الجنين استعداداً مسبقا لهذه الميول فبالاستناد الى أي مقياس عقلاني يمكن القول بان توسيع وتقوية هذه الصفات وتوزيعها على اوسع نطاق تشكل هدفا انسانيا منشوداً ؟ ان لدينا أسباباً أصوب للتفكير بان من المهم ان نستعير من مستودع تناسلي أغنى بكثير بالنسبة للمستقبل الانساني وبالنسبة للماضي قبل الانساني حتى نحقق تقدمات اضافية وان ملامح طبيعة انسانية وطرازات انسانية مختلفة تماماً هي الآن ضرورية للتغلب على اختلال توازن الانسانية الثقافي الحاضر .

أما ان نلقي مراسينا حصراً عند العلماء والتكنولوجيين بوصفهم منتجات متفوقة من التطور البشري وتجسيدات نهائية « للصيرورة الصحيحة الكاملة ، فما أسعد هذا الحل ! إلا انه ساذج في اعجابه النرجسي بالصورة العلمية الى درجة أن قراءة هذا الشيء مزعجة حقاً . ولو لم يكن مثل هذا التملق للذات شائعا على نطاق واسع ولو لم يشكل هذا الاعتقاد المشترك الآن عقبة هائلة في سبيل بروز مجموعات مختلفة

من الشخصيات لا تتفق مع نظام القوة ولا تتلاءم مع الصيغ التقنية — العلمية المعنية لكان في ذلك ما يضحك .

وهذا الاقتراح لصالح رقابة الانسال يرد فكرة الرقابة نفسها الى أدنى درجات سفاهتها : انها الفكرة المدعية بان يكون مفكرون مكتملون يعملون بالاستعانة بتجهيزات محدودة من ثقافتهم ومن ظرفهم التاريخي الخاصين مؤهلين ان يمارسوا رقابة مطلقة على امكانات التطور الانساني المقبلة اللامتناهية .

وهنالك لفظة أخيرة تحتاج مع ذلك الى شرح : هي فكرة « السيطرة » نفسها . فبأي اتجاه تمثل فكرة « السيطرة » أقل مدلول بالنسبة لمكانة الانسان وسط الطبيعة ؟ وما علاقة ذلك بتسويات وتفاعلات الأنواع التعاونية أو بمحاولة الانسان الذاتية لتجاوز حدوده البيولوجية الخاصة بفضل أنماط من الحياة فوق العضوية ؟ ان لفظة سيطرة نفسها هي لفظة عسكرية باطلة مهما دعمها كل نظام القوة لدينا ، والقضية بالفعل هي قضية متحجر ايديولوجي موروث عن الحقب الأصلية الجارحة من الحضارة تلك الحقب التي سببت الحرب والعبودية والتدمير المنظم والابادة الجماعية . ان « السيطرة » و « الحضارة » هما علوتان تاريخيتان وهما واقعتان في قطبين متعارضين .

وقصارى القول ان السيطرة ليست بأية حال آية ضرورية من آيات التفوق في التطور الانساني على الرغم من ان الفاتحين رأوا دائما غير هذا الرأي .

وكل مفهوم صالح عن التطور العضوي يجب ان يستعمل التعابير

الأولية تعابير علم البيئة والتعاون والتعايش وكذلك الصراع والمنازعة ؛ والواقع ان الحشرات الخاتلة هي جزء من سلسلة غذائية وهي لا تستولي على فريستها إلا لأكلها . ان فكرة السيطرة المطلقة هي امتداد لنظام القوة القائم : انها لا تدل على غاية مستحبة ، التكيف ، بل على ضلالة مرضية تدعمها المكافآت التي يمنحها هذا النظام . أما الفكرة العظمى بان « الكون سيكون أخيراً ملكا للانسان » فهل هي سوى ضلال ذهاني ، شبيه بمطامع مريض في المصح يزين له انه امبراطور العالم ؟ ومثل هذا المطمع هو على بعد ما لا يحصى من السنوات الضوئية عن الواقع .

وعامل الأمان النهائي في التطور الانساني هو ان الاخطاء التجريبية النوعية العديدة وضلالات الانسان الذاتية لم تثبت عن عمد في الجينات . ان كل جيل جديد يهز الزهر التناسلي على نطاق لا يتمتع به أي نوع آخر ويقذف تآلفات جديدة تاركا للعوامل الانسانية الجديدة حرية اصلاح الأخطاء الماضية والانخراط في تجارب جديدة . لقد ارتكب أثناء تطورات الحضارات المعروفة كلها كثير من الأخطاء شل بعضها، كالحرب والرق والاستغلال الطبقي ، بشكل خطير التطور البشري . ومع ذلك فلم تترسخ أي من هذه الضلالات في الجسم بعمق كاف حتى تصبح غير قابلة للتلف أو خالدة . واذا كان لا بد في المستقبل من ان تحجب عنا الامكانات الانسانية الجديدة فسيحدث ذلك لان نظام القوة السائدة قد تعمد حجبها بالطريقة التي يوصي بها دعاة التكنوقراطية .

وبمقدار ما يعتبر وهم الطبيعة المحتمة للتكنولوجيا كحقيقة لا مفر منها كـ (لا بد من حدوث الرقابة الانسالية) مثلا فليس من شأن هذا

الموقف إلا ان يضيف نزعة اندفاعية داخلية الى الاندفاعات العديدة الخارجية التي يفرضها مجمع القوة . وغالباً ما تبدو مثل هذه الاعتقادات كنبوءات تتحقق بذاتها وتجعل تركيز الآلة العملاقة العالمية محتملا أكثر . ويخشى ان يتبين في نهاية المطاف ان نظام القوة هذا المفروض من فوق مع اندفاعيته واوتوماتيكيته الملحة هو أخطر تهديد لتطور الانسان الخاص .

وبينما تبرمج الوراثة الثقافية جزئيا من جيل الى جيل ومن حضارة الى حضارة وتعدلها من ساعة الى ساعة كذلك مشاريع وأفعال مفكرين فرديين فمن المحتمل ان تستطيع الرقابة الانسالية برمجة الرجل خارج الحياة وابداع رجيل مكانه : هو العنصر المحدد من نظام اوتوماتيكي فارغ انسانياً . وقد تجنب النوع البشري حتى الآن بواسطة مخترعاته الثقافية توقفاً على هذا القدر من الشؤم .

٦ : النقص الحراري الالكتروني

ربما انتظر الانسانية مصير اخر في الحقيقة اذا وجب عليها ان تستمر بعمه في مسيرتها الحالية : وليس هذا المصير هو التوقف عن التطور مع السقوط في نهاية المطاف في اللاشعور أو تحويل كل وظائف العقل الانساني الى داخل الآلة العملاقة العالمية وليس هذا المصير كذلك هو النوع المغامر من التربية الاصطفائية أو التركيب الكيميائي الذي قال به الأساتذة شارل . س . برايس وجوشيه ليدريبرح مع احتمال انتاجه في المستقبل البعيد لقطاعات بيولوجية كالتي وصفها اولاف ستابليدون .

ولربما سيصل الانسان العاقل من ذلك الى نهاية أسرع بطريق أقصر

اشير اليه في عدد من تظاهرات الفن الحديث كما عبر عنه الأستاذ مارشال مال لوهان وتلاميذه بهوس (نفاسي) : وكان من المحتمل ان تولد الآلة العملاقة السابقة ، المتينة ظاهراً مع صلابة حدودها وعملها المتوقع ، النقيض تماماً : النقيض للآلة انعملاقة الالكترونيه المبرمج بهدف تسريع الاختلال والجهل والتناقص الحراري . وقد ينشد جيل اليوم الثائر ضد طبيعة التنظيم والاستعباد الاستبدادية والمتأثر بمبادىء ماك لوهان . التحرر الكامل من التنظيم والاستمرارية والاستهداف من كل نوع وذلك بالتهديم المنظم والانحلال وانعدام الابداع . يا للسخرية . ان مثل هذه العودة الى العرضي قد يحدث حسب نظرية الاحتمالات هذه الحالة على أكبر درجة ممكنة من السكون والانكشاف حالة « المادة » غير المنظمة .

وستحدث آنيه الاتصال العالمي كما يرى ماك لوهان تحرراً ازاء كل الحضارات السابقة وكل أنماط التعبئة السابقة : وستختفي الآلات لتحل محلها معادلات أو بدائل الكترونية . ويبدو ان ماك لوهان قد اعتقد فعلاً تحت تأثير رعشاته التنبؤية ان الأمر قد حدث وان الدولاب نفسه يوشك ان يزول بينما تعود الانسانية بكاملها الى مستوى بدائي تشترك فيما بينها بمشاعر لا واعية واتصال سابق للغة . ولن تبطل داخل عالم الأشباح الالكترونية التي أتى ماك لوهان على ذكرها الآلات البالية فقط بصفة دائمة بل ان الطبيعة نفسها ستستبدل ! وسيكون الأثر الوحيد من العالم المتنوع . عالم الأشكال الحسية والتجربة الحسنة التنظيم ، هو الأصوات والصور « المحسوسة » على شاشة التلفزيون الحاضر أبدا أو نوع الأعلام المجرد غير المباشر الصالح للنقل الى العقل الالكتروني

وعلم الأمراض النفسية يكشف عن الطبيعة الحقيقية لهذه الحالة الموعودة . وهل هي الا المعادل الالكتروني للتفكك والتضخم الذاتي الذي يحدث تحت تاثير الحامض المفتت والعقاقير المشابهة ؟ وبحدود ما يتوافق تصور ماك لوهان مع حقيقة وجودية ما فتلك الحقيقة هي التشوش النفسي الجماهيري الذي يحدث بطريقة الكترونية . وبطريقة قد لا تكون مدهشة اليوم بعد ما أصبح للاتصال الآني منافذ عالمية أصبح من الممكن اكتشاف أعراض هذا التشوش في كل أجزاء كوكبنا . ويلعب المرض في قضية ماك لوهان دور التشخيص .

ويتفق إلا يكون اقتراح حصر الانسان بقفص زمني حاضر مع قطعة عن ماضيه وعن مستقبله على السواء قد ولد في الحقبة الحالية وإلا يكون كذلك متوقفا على تكريس حصري للاتصال الالكتروني . والأسم القديم للدلالة على هذا الشكل من ممارسة الرقابة المركزية هو « احراق الكتب » . وقد شكل هذا الأمر في الماضي المنهج الأكبر للحفاظ على الرقابة الملكية المطلقة عندما أخذ انتشار التقرير المكتوب يهدد بمنح شيء من القوة للذين كانوا يتحدون مراكز الرقابة الرسمية . وقد تكرر احراق أول اباطرة الهان في الصين للكتب على فترات بوصفه « الحل الاسمى » عندما تفشل الرقابة ويفشل الحظر القانوني اللذان لا يزالان سائدين في البلدان ذات النظم الاستبدادية .

وعلى الرغم من ان جيلي يجمع عادة مابين هذا الاحراق ونيران الفرح التي أشعلها النازيون في السنوات ١٩٣٠ فلم يكن الأمر هنا سوى تظاهرة بريئة نسبياً لانها لم تقض إلا على كمية رمزية من تراكم الكتب العالمي . إلا ان ماك لوهان قد اختص برسم طراز من الرقابة مطلق

أكثر معتبراً انه هدية سميا من التكنولوجيا : طراز من الرقابة يحقق الأ مية المطلقة ، بدون محفوظات دائمة إلا تلك التي تقدم رسمياً للعقل الالكتروني والتي هي متاحة فقط لأولئك الذين يسمح لهم بالوصول الى هذه الرفاهة . وهذا الرفض للمحفوظات المستقلة المكتوبة والمطبوعة لا يعني أقل من محو الذاكرة الجماعية المتشرة والمتعددة الأصول الفكرية عند الانسان : وهذا يرد كل التجربة الانسانية الى تجربة الجيل الحاضر والآونة العابرة .

والمحفوظات الآنية تمحي بذاتها . وهذا ما يؤدي بالانسانية ولو لم يكن عن قصد الى حالة بدائية أكثر بكثير من أية حالة قبلية . فشعوب ما قبل الكتابة كانت بالواقع تحفظ قسماً كبيراً من ماضيها بتنميه ذاكرة خارقة وبالحفاظ بواسطة التكرار المستمر على الروابط الأساسية مع ماضيها ولو على حساب الابداعية والاختراع . وكان شعراء هذه الثقافة الشفهية يستطيعون سرد الالياذة بكاملها دون الاستعانة بكلمة واحدة مكتوبة .

ولكي تتوج هذه الثورة المحايثة ثورة احراق الكتب بالنجاح يجب أن تتم على نطاق عالمي وتشمل كل أشكال المحفوظات الدائمة باستثناء تلك التي يمكن ان تعزل ويجعل الوصول اليها محدوداً عندما يعهد بها للعقل الالكتروني . وكلمة السر بالنسبة لمثل هذه النزعة الاستبدادية هي كما كانت بالنسبة للفوضوية في القرن التاسع عشر : « حولوا الوثائق الى رماد » . ان مهاجمة ماك لوهان للكلمة المطبوعة كما عبر عنها في عدائه« للانسان الطابع » وهو اكذوبة من بنات خياله لم يكن من شأنها

إلا ان تدعم اعتداءات مادية محضة تعرضت لها الكتب ولا مبالاة مزمنة تجاه مضمونها كذلك .

وقد قامت مظاهرات طلابية خرقاء أيضاً في بعض الجامعات في كل القارات .

وكما حدث في كثير من ظواهر نظام القوة الاخرى فان الاتصال الالكتروني قد ضاعف السرعة فقط ولم يغير الهدف . فالهدف هو الانحلال الثقافي الشامل أو ما يميزه ماك لوهان باسم « المشاعية القبلية » ، بالرغم من ان المقصود بالفعل هو النقيض المطلق لكل ما يمكن نعته بحق بالقبلي أو المشاعي . أما « المشاعية » فهي التورية عن « العلاقات العامة » التي يستخدمها ماك لوهان للدلالة على الرقابة الشاملة .

بيد ان الاتصال الالكتروني قد أضاف بشكل بارز بعداً جديداً الى القدرات الانسانية والى التعاون العملي : والقضية هنا قضية فكرة شائعة من أفكار القرن التاسع عشر حاول ماك لوهان ان يحولها الى مفارقة شخصية مؤثرة .

فقد كان من الممكن ، قبل ان يهذب التلفزيون بما يكفي لاستخدامه تجارياً ، وصف طاقاته الثمينة والتنبؤ بنقائصه التي أصبحت ظاهرة منذ عام ١٩٤٥ .

ولا يأخذني أي تردد من هذه الناحية في ان أسوق الأفكار المعبر عنها في كتاب « تقنيات ومدنية عام ١٩٣٤ » ، في الزمن الذي كان لا يزال التلفزيون فيه في المرحلة التجريبية . لقد قلت في تفسيري للنيوتكنولوجيا : « وباختراع التلغراف بدأت مجموعة من المخترعات تسد الحفرة الزمنية

بين الاتصال والرد رغم عوائق المكان : التلغراف أولا ثم الهاتف ثم التلغراف اللاسلكي ثم الهاتف اللاسلكي وأخيراً التلفزيون .

والحصيلة : ان المواصلات هي اليوم بفضل الوسائل الميكانيكية على شفا العودة الى الرد الآني من شخص الى شخص الذي بدأت به . ولكن امكانات هذا التلاقي المباشر، بدلا من ان يحددها المكان والزمان لن تحددها إلا كمية الطاقة المتاحة وكذلك الاكتمال الميكانيكي للجهاز ومدى امكانية الوصول اليه . وعندما سيضاف التلفزيون الى الراديو ـ الهاتف فلن يختلف الاتصال عن العلاقة المباشرة إلا بمقدار ما يكون الاتصال المادي المباشر متعذراً . »

وإنني لم أشر فقط الى تطبيقات ومضامين الالكترون بل تنبأت خلافاً لماك لوهان ، بمساوئه . وليس أقلها قضية ان « الاتصال المباشر على أساس عالمي لا يعني بالضرورة شخصية يقل فيها المألوف والتبعية » . واشرت زيادة على ذلك ان الحفاظ على المسافة المكانية والزمانية معاً هو احد شروط المحاكمة المعقولة والعلاقة التعاونية على خلاف ردود العقل الطائشة والأحكام الجارحة . « وقد تابعت بالقول ان الغاء التقييدات المفروضة على ضيق العلاقات الانسانية كان في مراحله الأولى خطراً مثل تدفق السكان على بقاع جديدة ، فقد ضاعف مناطق الاحتكاك . . . وعبأ وسرع ردود الفعل الجماهيرية كتلك التي تحدث قبيل الحرب»

واخشى ان تقلل هذه الصفحات من ادعاءات الأولوية والحدس الخاص التي غالباً ما ينادون بهما لحساب ماك لوهان الذي بقي يعتبر بعد ثلاثين عاماً نبي العصر الالكتروني الوحيد . وهذا ما يبعثه مع القليل من المنافسين في فن عقلنة اللاعقلانيات التي أدخلتها التكنولوجيا

العملاقة ؛ بشكل إننا بالتركيز على أخطاء ماك لوهان يمكن ان نتخلص من كتلة هائلة من التصريحات الخاطئة من النمط نفسه .

لقد وصفت السفينة البخارية والخط الحديدي ومنظومة البريد والتلغراف الكهربائي والطائرة على التوالي كآلات ستتجاوز القصورات المحلية وتصلح التفاوتات في الموارد الطبيعية والثقافية وتقود الى وحدة سياسية عالمية ! « برلمان الانسان اتحاد العالم » . وكان المفكرون (التقدميون) يقدرون بانه عندما يتم التوحيد التقني فسيتلوه التضامن الانساني . وبعد قرنين فقدت هذه الامال رصيدها . فبقدر ما كانت تتوطد المكتسبات التقنية كانت الانهيارات الأخلاقية والعداوات والمذابح الجماعية تصبح صارخة أكثر لا في المنازعات المحلية وحدها بل على نطاق عالمي .

وليس هنالك من سبب للتفكير بان الراديو والتلفزيون سيصلحان من مصيرنا ما داما لم يصبحا وسيلتي قرارات انسانية احكم ولم يشملا كل وجوه الحياة ويكفا عن ان يقتصرا على الوجوه التي توافق بنتاغون القوة .

ولدى ماك لوهان ومعاصريه التكنوقراطيين بالنسبة لهذه القضية حل بسيط . انه استبدال الاستقلال الانساني بكل أشكاله بنمط الكتروني من الآلة العملاقة يتفق مع الذوق الحاضر . لقد برهن ماك لوهان ان الثقافة « تذاع قبل ان توضع موضع التأمل » . ووضعها بمنأى عنا ينزع «الى أبطال احتمال ان تكون موضع أقل تفكير » بالضبط . وهنا يبوح ماك لوهان بالسر . بما ان كل جهاز تقني هو امتداد لأعضاء جسم الانسان بما في ذلك الدماغ . فلا بد لهذا البنيان الجانبي

حسب تحليل ماك لوهان بسبب كتلته وتواجده بالذات ان يحل محل كل الحاجات أو الرغبات المستقلة ! بالنظر الى ان « التكنولوجيا هي اليوم ، بالنسبة لنا ، جزء من أجسادنا » ، وليس هنالك من فكاك أو طلاق ممكن . » وعندما نتخلى عن حواسنا وجملتنا العصبية لصالح المعالجة الشخصية . معالجة أولئك الذين يحاولون ان يفيدوا من قضية استئجار عيوننا واذاننا وأعصابنا ، لا يبقى لنا بالواقع أي حق (اقرءوا أي استقلال) .

وقد يمكن اعتبار هذه النقطة الأخيرة انذاراً بان علينا ان نتخلص باسرع ما يمكن من نظام القوة الذي يتصف بهذا القدر من التهديد ؛ أما في نظر ماك لوهان . فذلك يقود بالحري الى ضرورة الخضوع بلا شرط .

« لقد قال « في مملكة التكنولوجيا الكهربائية تصبح مهمة الانسان كلها هي التعلم والمعرفة » وفيما عدا ان المعني هنا هو صورة اكاديمية مؤثرة لقدرات الانسان فان نوع الدراسة والمعرفة الذي تحمس له ماك لوهان هو بالضبط النوع الذي يمكن برمجته على العقل الالكتروني ، لقد قال (اننا اليوم قادرون على نقل كل القضية الى ذاكرة عقل الكتروني) . ولا سبيل الى ان نجد صيغة أفضل لوقف التطور البشري وحذفه في النهاية .

ان الكتابة والطباعة وهما بعيدتان جدا عن افساد العلاقات الشفهية قد جعلتا هذه العلاقات مجدية بالنسبة لاعداد من السكان اوسع بكثير زمانا ومكانا أكثر من أية اذاعة عالمية اليوم . عندما أصبحت الأوذيسة كتابا أيضا لم يخاطب هوميروس القرى التي كان ينشد بها قصائده بل

خاطبه العالم واستمرت (صرخة الفلاح الفصيح) المصرية بعد ما سجلت على البردى بدلا من خنقها من قبل الاقليه المهيمنة ، استمرت تسمع بعد الآف السنين بفضل الكتاب الذين نسخوها واعادوا نسخها .

والتكنولوجيا المتعددة الجوانب التي تستخدم كل الروافد التقنية تفوق التكنولوجيا الوحيدة الجانب في المواصلات وفي كل وجوه التكنولوجيا الاخرى خصوصاً عندما تكون مصممة بقصد ان تلائم ضرورات مجمع القوة . ولكن الواقع هو ان الشعر العظيم وحده كشعر هوميروس أو الاحداث المعبرة كتحدي (الفلاح الفصيح) للحكم المطلق هما اللذان يستحقان الانتشار العالمي : ان الأفكار والاحداث والمشاهد الاقرب الى المألوف والتي تنقل فقط في سبيل اتقاء جوع المشاعر المحرومة بتوليد وهم الحياة لا تستحق مثل هذا التوسع . انها تدمر مهما كان مقدارها الردود الشخصية على اللحظة الحية .

والقبلية السمعية – البصرية (قرية ماك لوهان العالمية) هي سراب – والاتصال الحقيقي سواء كان شفهيا أو مكتوبا ، عارضا أو دائما ، غير ممكن إلا بين أناس يشتركون في ثقافة مشتركة وينطقون باللغة نفسها ؛ وعلى الرغم من ان من الممكن ومن الواجب توسيع هذا المجال بفضل التحصيل الشخصي لأكثر من لغة وبفضل اتساع افق الشخص الثقافي بواسطة السفر والعلاقات الشخصية الناشطة فان فكرة امكانية التخلص من كل هذه الحدود ليست إلا وهما من أوهام الالكترون . وهذا الوهم يغفل السمة الأكثر تمييزاً لكل الأشكال العضوية والبيولوجية أو الثقافية : وهي قبولها بالتحديدات لتضمن امكانية حياة أفضل . وقد حقق الراديو بعض الملع انتصاراته لا بالاذاعة العالمية بل بالاذاعة المحلية التي تبين انها

ذات فاعلية عجيبة في توليد التماسك الاجتماعي وسرعة الردود والشاهد انتفاضة سكان براغ في صيف ١٩٦٨ . ان هذه التعبئة العضوية للمقاومة التي جعلتها الاذاعات المتنقلة ممكنة قد دلت بشكل رائع على مرونة هذه التكنولوجيا الجديدة عندما تستخدم في وحدات ضيقة .

ولكن لاحظوا ان الأمر لم يكن من أية ناحية تعبيراً عن ثقافة قبلية بل كان على العكس برهانا على التجمع الذكي في مدينة تاريخية منظمة تنظيما وثيقا ومتحدة صميميا . ولو ان سكان براغ كانوا متفرقين في أنحاء تشيكوسلوفاكيا في عدد كبير من المدن المشوهة غير المتماسكة التي يتوصل اليها فقط بواسطة محطات الاذاعة المركزية القوية والتي يمكن لقوة عسكرية صغيرة ان تحتلها لما كان هذا التعاون ممكنا .

ومع تغلبها السطحي على تأثير المسافة فقد دلت الوسائط الالكترونية على ما يجب دفعه من ثمن غال ولو في سبيل اصطناع علاقة متعددة الأبعاد . كل عامل له في الاتصال الحقيقي دور يؤديه ؛ الحركة المرئية والكلمة المنطوقة مباشرة والرسالة المكتوبة واللوحة المرسومة والكتاب المطبوع والراديو واسطوانة الحاكي والشريط الممغنط والتلفزيون . وبدلاً من استبدال هذا التنوع من الوسائط المتعددة بالتلفزيون والراديو والعقل الالكتروني فقط فان التكنولوجيا الراشدة الناجعة تجهد في الابقاء عليها جميعا ليقوم كل منها باتمام وظيفته الخاصة وسط الموقف المختار . وكما ان نظام النقل لا يمكن ان يستغني عن الراجل المستقل صاحب التنقلات الحرة دون احداث عقدة احتقان مدينية أو تبعثر شبه مديني مربك ايضاً كذلك تجري الأمور في نظام الاتصال الناجع . فالذي يلزمه انما هو تكنولوجيا على قدر كاف من التنوع وتعدد الأشكال

والمرونة والتلاؤم مع الضرورات الانسانية حتّى يستطيع الاستجابة إلى كل الأهداف الانسانية الصالحة . ويبقى الجسم الانساني نفسه هو الوسيط المتعدد الجوانب الحقيقي الوحيد .

لقد برهنت الدراسات الانتروبولوجية تكراراً أن الصفة السيالة العابرة التي ينسبها ماك لوهان للاتصال الشفهي هي بالضبط ما لا تستطيع أن تغضي عنه اية حضارة قبلية بدائية إلا في نشدانها الانحلال .

وإذا توجب على تراثنا الخاص المعقد أن يستمر في اتباع أوامر ماك لوهان فقد يتفتت أمام عيوننا — ألم يصبح هذا التراث في سبيله إلى ذلك ؟ لا يمكن الفوز بالحرية الحقيقية حرية الانعتاق من اللحظة العابرة والمكان المرئي الماثل للتصدي للتجربة السابقة أو لتغيير العمل المقبل إلا في مرحلة رفيعة من التفرد أصبحت ممكنة أولا بواسطة الصورة المرسومة أو المنحوتة والرمز المكتوب والكتاب المطبوع . وعدم الشعور الا بالمحرضات المباشرة والاحاسيس المباشرة يشكل عرضاً طبياً من اعراض الخلل الفعلي .

وإذا كانت اراء ماك لوهان عن دور التكنولوجيا الالكترونية قد قبلت على نطاق واسع فاني افترض أن السبب هو انها تكبر وتبسط العناصر الرئيسة في نظام القوة في الفعل نفسه الذي يظهرها وكأنها تثور ضد عملية التعبئة فيه . لقد وجد ماك لوهان ما بين التحديدات الشالة في الحضارة السابقة واختراع الكتابة،الحضارة التي جعلت من سكان العالم المبعثرين الزراعيين فريسة سهلة للفتح العسكري والاستغلال والمساوىء التاريخية التي تتسم بها « المدينة » : أنها التسلط على جموع غفيرة من السكان لصالح اقلية حاكمة فقط .

وفي مثل هذا النظام البعيد جداً عن تشجيع الاتصال العفوي اصبحت هذه الوسائط الالكترونية مراقبة بعناية للتأكد من عدم تسرب افكار « خطرة » أي غير مستقيمة من خلالها . ولا يتيح مثل هذا النظام المؤتمرات ولا الحوار كما يجري في العلاقة الشفهية الحقيقية : وليس ما يتم بمعظمه سوى منولوج منسق بدقة حتى إذا تواجد على الشاشة أكثر من شخص . والاناس الذين يخضعون تماماً لمثل هذا الاعلام الشفهي المراقب ، حتى إذا وصل إلى كل نفس بشرية على الارض ، لن يكونوا فقط تحت رحمة الاقلية المهيمنة بل سيصبحون بشكل متزايد اميين وبعد قليل متناكرين . وهكذا تفرض نفسها على المراقب مرة اخرى الموازاة بين عهد الاهرامات وقواننا : إن امامنا هنا بالفعل توقع برج بابل الكتروني . إن الاتصال العالمي الآني الموجه وفق هذه المبادىء سيؤدي إلى اقصاء كل جماعة محددة الهوية .

يجب علينا الآن أن نتفحص من موقع اقرب اللوحة السريرية التي تقدمها ثورة الساعة بمعرفتها الآنية وقوتها الآنية وتدميرها الآني . وهذه اللوحة راعبة جداً إذا نظر اليها بذاتها . ولكن النظام قد بدأ ينتج ردوداً آتية من الداخل تهدد استمرار تسلطه أن لم تقل وجوده نفسه .

اراضي الالة العملاقة البائرة

١ : الأهرامات ذات الهواء المكيف

وعلى الرغم من أن تصور عصر الأهرامات للسماء كان ساكناً فقد كانت ديناميكية هذا العصر تعدل في منهجيتها وصرامتها ديناميكيةعصرنا التكنوقراطي . كان كل فرعون يبني لنفسه عاصمة جديدة خلال حياته : وهذا تغيير لم تغامر أية حكومة حالية بأن تقلده . وبينما كانت هذه الأهرامات مع موكبها من المعابد ومساكن الكهنة تمتص الطاقات الفائضة في وادي النيل فانها لم تكن تحافظ فقط على توازن اقتصاد الرخاء الوليد هذا بل كانت تقوم مقام البرهان المادي على قوى الديانة الكونية الجديدة الفائقة الطبيعة .

وقد اعادت الآلة العملاقة المحدثة صنع كل الصفات البدائية للطراز القديم ببناء أهرامات على نطاق واسع أيضاً ، وكما كانت البنى المادية الساكنة تدعم ايمان العابد بصحة ادعاءات فرعون بالألوهية والخلود فانه يبدو أيضاً أن أشكال المجمع الهرمي الجديدة الديناميكية (ناطحات السحاب ، المفاعلات الذرية ، الأسلحة النووية ، الطرق الفائقة الإتساع ، الصواريخ الفضائية ، مراكز المراقبة تحت الأرض ، الملاجيء النووية الجماعية « القبور ») تثبت وتمجد الديانة الجديدة . لم تنتج أية ديانة أخرى هذا القدر من مظاهر القوة ولم تولد نظام رقابة على هذا المستوى من

الكمال أو توحد هذا العدد من المؤسسات المتفرقة وتلغي هذا القدر من انماط الحياة المستقلة وبالتالي لم تتطلب أية ديانة أخرى هذا القدر من المشايعين الذين شهدوا لالهتها النووية والإلكترونية بالسيادة والقوة والمجد بالكلام وبالأفعال . إن الأعاجيب التي انجزها كهان التكنوقراطية صحيحة ، والخاطىء فيها هي إدعاءاتهم بالألوهية فقط وينتصب في مدخل المجمعات الهرمية الجديدة رمزياً المفاعل النووي الذي أظهر لأول مرة قواه للجمهور بعرض نموذجي من عروض آلهة عصر البرونز وهو الإبادة الآنية لمجموع سكان مدينة كثيفة السكان . ويمكن أن نقول عن هذا العرض الأول للقوة النووية كما يمكن أن نقول عن كل الإزدياد الواسع لامكانات التدمير الذي تلا ذلك بسرعة ماقاله عن نفسه نقيب ميلفيل المجنون في رواية (موبي ديك) : « كل أساليبي وكل وسائلي معقولة ؛ وهدفي وحده هو المجنون » . والواقع أن انشطار الذرة كان التتويج الرائع والتثبيت لأنماط التفكير التجريبية والرياضية التي زادت منذ القرن الثامن عشر هيمنة الإنسان على القوى المادية بشكل فائق .

وقد توحدت الآن بوضوح كوضوح البرهان الإقليدي طاقة الشمس وأصغر تجمعات الطاقة تحت امرة الإنسان : وهكذا فقد تعرض الإله الشمسي بالحقيقة لتجسيد انساني وامتلك كهانه أخيراً سلطة نسبية . ولاهوتهم هو لاهوت كالفيني معدل قليلاً فقط مقدر فيه على عامة الناس الهلاك المرعب والمصطفون وحدهم أي النخبة التكنوقراطية هي التي ستنجو من ذلك وبالإختصار أنه علم المعاد لشهود يهوا الذي أصبح الرائج اليوم .

وما أن تم اكتشاف سر الإنشطار النووي حتى تتابع بناء الأهرامات

الجديدة بسير مسعور حتّى اضطر القادة العسكريون في الولايات المتحدة في السنوات الإثنتي عشرة التي تلت أن يخترعوا لفظة جديدة «الإفراط في القتل» لوصف فائض قوى الإبادة التي أصبحت متوفرة لديهم . وكان لديهم من القنابل مايكفي للقضاء على ثلثمائة مليار من الأشخاص على الكرة الأرضية التي قد تضم ثلاثة مليارات . إن وسائل الموت في اقتصاد الرخاء هذا كانت تفوق وسائل الحياة .

ولاتقف عند هذا الحد التوازيات مع عهد الأهرامات . فحول هذا الجمع الجنائزي لأهرامات الآلة العملاقة تمتد بدوائر متنامية أماكن عمل الكهان المسماة مراكز البحث أو « مستودعات الفكر » . وهذه المراكز مبثوثة على سطح الطبيعة بكتل رقيقة وأبعد مايمكن عن مراكز الإستيطان القديمة وهي لاتزال تحتوي ذكريات مزعجة عن أشكال أخرى من العبادة وأنماط أخرى من الحياة .

ومن المؤكد أن الموقع الرمزي الامثل للاهرامات الجديدة هو الصحراء كما كان أصلاً في لوس الاموس لأن المقصود بذلك البيئة السميا المدمرة والمعقمة تماماً بالطريقة الميكانيكية التي تناسب الأيديولوجيا نفسها .

والمجمع الأوسع يدعو بدوره إلى بناء اهرامات أدنى كالمفاعلات الذرية المعدة لانتاج المحروقات النووية . وباستثناء كميات صغيرة من المواد المشعة النافعة في بحوث علمية أخرى دون اقتضاء توظيفات مالية هائلة أو انفجارات رائعة فان المنتجات الأساسية للمفاعلات الذرية هي نفايات سامة إلى أقصى حد تعمل ببطء . وماء ساخن بينما (الآلهة تلهو !) .

وقد جرت المعارف العلمية التي حررت الطاقة الذرية معها حدساً حقيقياً عن بنية الكون بكامله وردمت الهوة خلال السنوات الأخيرة بين المادة اللاعضوية التي كانت تعتبر فيما مضى عاطلة ومنفعلة والأجسام الحية . وسيعود رأس المال الثقافي المتراكم على هذا النحو على ذرارينا خلال قرون بأرباح في المعارف اللاحقة يمكن أن يتبين انها ذات قيمة عظيمة وبأشكال لاتخطر ببالنا بعد ، إن بقيت لنا ذرارٍ . . والأثر المباشر لهذا النمط من البناء الهرمي هو بالضبط شبيه بأثر عصر الأهرامات الحقيقي . وخيارنا الحيوي الحالي ، فيما عدا الإفراط في القتل ، هو المزيد من الماء الحار أي المزيد من الطاقة في خدمة هذا النظام العملاق المفرط في توسعه المشئوم . للماء الحار فوائده ؛ غير أن هنالك وسائل أقل كلفة لانتاجه .

إن الفارق بين الفضيلة المتخيلة للانجاز العلمي للمفاعل النووي وتفاهة النتائج العملية يستدعي الإنتباه إلى تفاوت مشابه بين قوة فصم أسلحة الدمار الشامل التي لاتقدر وتفاهة النتائج العسكرية . ويمكن بعد عشرين سنة من إلقاء أول قنبلة ذرية أن نلخص بايجاز كما يلي مجمل الإنجازات العسكرية للاسلحة النووية : تدمير مدينتين متوسطتي الحجم هيروشيما وناغازاكي مع ازهاق أرواح مشابه وليست أكبر من الإزهاق الذي يحدث بأساليب أبطأ (على الرغم من أنها أرخص) من الإبادة والتعذيب الجماعي كاستخدام قنابل النابالم (دريسدن وطوكيو) أو الذي يحدث في معسكرات ألمانيا النازية للابادة بالغاز السام . زد على ذلك أن سقوط طائرتين تتقلان قنبلة نووية قد نشر فضلات ذرية في اسبانيا وفي غروينلند مع نتائج لم تحدد بعد وربما كان تحديدها غير ممكن .

وتجارب الأسلحة النووية المحسنة المتتابعة بالمئات التي أقبلت عليها القوتان النوويتان الرئيسيتان ، وفي المقدمة الولايات المتحدة ، قد انتجت نتائج اضافية: التلوث الخطير لأراضي الكرة الأرضية كلها بالسترونتيوم ٩٠ مع اليود المشع ذي الآثار الأقصر أمداً . وكانت حصيلة ذلك تسمم الأغذية وخصوصاً الحليب المعد للاطفال والتلوث الفرعي للتربة والماء بفضلات مشعة مما قد تكون ثمرته الإرتفاع المحتمل لحدوث السرطان ، وفي الوقت نفسه تشويهات وراثية يقتضي اكتشاف مداها الكامل جيلين .

وحسابات سهلة لعدد الناس الذين يمكنهم مادياً البقاء لفترة محددة في ملاجيء جوفية عميقة لايعطي أية فكرة عن الجراح النفسية التي تنتظر اولئك الذين سيصعدون إلى بقاع من الخرائب يستمر السم ينهال فيها وتغطي سطحها الذي لم يقصف أجسام حية في حالة تفسخ ويصبح الغذاء في الأماكن الذي لايزال يمكن انباته فيها فاسداً أيضاً بفعل مواد مولدة للسرطان ؛

غير أنه إذا لجأ القادة العسكريون في النقاش الشامل الناشيء عن مثل هذا الصدام النووي إلى انماط إبادة أمضى أيضاً بالفحم والتسمم بالاغذية المحفوظة فان النخبة الحكومية والعسكرية نفسها المحمية حماية جيدة يخشى أن تجد كهتلر في ملجئه الأخير ضد الغارات الجوية ، إن الإنتحار أفضل من مواجهة الباقين الذين يمكن أن يتخلصوا من الإحراق الآني .

وخلاصة القول أن النتائج السلبية للانجاز العلمي العظيم في شطر الذرة هي الماثلة حتى الآونة الحاضرة . أما القنابل النووية الحقيقية فان فوائدها الإيجابية الوحيدة هي تلك التي تجنيها موقتاً المنظومات الصناعية والبيروقراطية والعلمية التي أقامت الآلة العملاقة الجديدة . إن أكبر

الفوائد التي تحققت بفضل السيطرة على التفاعل النووي كانت ، من قبيل المفارقة ، فوائد روحية محضة : إدراك أغنى للحقائق الكونية ؛ وحدس أعمق عن طبيعة الكون وعن المكانة التي تشغلها فيه الإجسام الحية وفي النهاية الإنسان شخصياً .

وقد يتبين أن أشأم نتيجة لبناء الأهرام ليست في نهايةالمطاف الأسلحة النووية بذاتها ولا بعض أفعال الإبادة التي يخشى أن تسببها والتي لايمكن تلافيها . لايزال من المحتمل أن ينتظرنا ماهو أسوأ وما لن يكون تلافيه أقل صعوبة أن تمادوا فيه بما فيه الكفاية وهو : الفرض الشامل للآلة العملاقة بشكل متقن كأعظم وسيلة من وسائل « العقل » الخالص يقمع بها كل مظهر آخر من مظاهر القدرات البشرية أو يقضي عليه تماماً . وقد أصبحت مخططات هذه البنية النهائية جاهزة : حتى أنهم اطروها بوصفها ارفع مصير للانسان. غير أن الآلة العملاقة نفسها هي ، لحسن حظ الإنسانية ، في أزمة خصوصاً بسبب تبعيتها المبكرة للقنبلة النووية . والواقع أن مفهوم ممارسة السلطة المطلقة نفسه قد نصب شركاً جماعياً للتوازن غير المستقر حتى أن جهازه كان غير مرة على وشك أن يتهاوى على غرار ضحاياه المحددين سكان الكرة الأرضية . ولو حدث هذا الأمر لهدمت الآلة العملاقة في الوقت نفسه بنيتها الخاصة . ويحوم فوق بتاغون القوة كله بفعل الغطرسة التكنوقراطية والعقل المؤتمت للذين بنوا هذه القلعة مصير الآلهة النهائي أو غروب الآلهة النووية الذي تنبأت به منذ زمن بعيد الميتولوجيا الشمالية : عالم تلتهمه النيران ويتسلط فيه على كل شيء بشري والهي أقزام ماكرون وعمالقة طغاة . لقد انتهى عصر الأهرامات في مصر بعد السلالة السادسة بانتفاضة شعبية عنيفة ، وحتى

دون مثل هذا الإنقلاب الكوني . وقد ينتظرنا أمر أقل خطراً من الكابوس الشمالي بالرغم من أنه ليس أقل تهديداً للآلة العملاقة ؛ إلا إذا كان من المحتمل أن يحدث هذا الأمر بالفعل حالياً .

٢ : الطيران الفضائي ، بعيداً عن الحقيقة

إن السمة البارزة للآلات والأدوات التي تختار الآلة العملاقة أنتتركز عليها في سبيل غاياتها اللاعقلانية الخاصة هي أن هذه الآلات والأدوات يجب أن تتكل على أكبر المصادر الطاقية الممكنة وأن تفيد من أشد الوسائل اتقاناً لغايات لاتمت إلا إلى أهداف مجمع القوة المقيدة : توسيع بنيتها الخاصة ونشر نمط رقابتها الخاص . وتبرز الآلة العملاقة ، وقد نبذت الهدف والقصدفي كل وجوه تفسيرها للحوادث الطبيعية، الا هدفاً واحداً مهيمنا على كل شيء : هدف أن تحل محل القوى الطبيعية والبشرية منظومتها الخاصة الضخمة الحجم والمبرمجة بدقة . وكل التحسينات التي تضمهاهذهالبنيةالطاقيةلا تتوجهإلى الإنسان بل إلى الآلة العملاقة ومساعداتها ؛ وليست القيمة الإنسانية لهذه المأثرة هي التي تضفي عليها مدلولاً بل صعوبتها العلمية والتكنولوجية .

وقد دافع مارشال ماك لوهان عن هذه النتيجة البائسة ببلاغة وبالمجان بعبارته الأنيقة : « الوسيط هو الرسالة » . وبما أنني كنت مختبراً هاوياً في الراديو منذ أكثر من نصف قرن فأنا أعرف بدقة مايريد ماك لوهان أن يقوله . وبوصفي قارئاً شاباً لمجلة الكهربائيات الحديثة فقد استبعدت بتخيلاتي كمراهق وسائل الإتصال اللاسلكية الجديدة . وعندما جمّعت أول جهاز راديو سررت عندما التقطت بالفعل اذاعات تبثها محطات

قريبه وواصلت التجربة بأدوات وحلقات جديدة لالتقط إذاعات أقوى أيضاً من محطات أبعد ، ولكنني لم أهتم أبداً بالتمكن من أبجدية الرموز أو بمعرفة ماأصغي إليه : الوسيط هو الرسالة . ولو أني أصبحت تكنوقراطياً كاملاً أو أنني بقيت متوقفاً عند المراهقة لما تطلبت نتيجة اصلح من الناحية الإنسانية . وهذه القصة الصغيرة تنطبق على مائة من المآثر التقنية الأخرى . والعقول التي تكتفي بالإنتفاع بالوسيط مع جهل الرسالة هي المنتجات اللاعقلانية الأخيرة لما سموه ، دون تمحيص ، « العقلنة » .

وعلى الرغم من أن القنابل النووية هي ، من المسلم به ، أعظم رموز قوى التدمير في الآلة العملاقة فان الصاروخ الفضائي المسكون الذي يطلق إلى الكواكب قد يكون البرهان النموذجي أكثر عن المبادىء التي يستبطنها النظام بكامله : فالصاروخ الفضائي يحتاج ، بالواقع ، إلى أكبر مقادير من الطاقة وهو على أشد مايكون من التعقيد البالغ الدقة في تصميمه وأغلى مايمكن في صنعه وصيانته وهو كذلك أشد المنجزات عبثاً من ناحية النتائج الإنسانية الملموسة والخيرة ما عدا الهيبة والدعاوة اللتين تنصبان من مأثرة الملاح الفضائي على الهيئة الوطنية والبنتاغونية . والإنسان الحديث هو من المؤكد في سبيله إلى فتح الفضاء بفضل الصاروخ البالغ القوة . غير أن الآلة العملاقة تسير إلى الأمام في الإستيلاء على الإنسان في عملها لجعل هذا الإنجاز ممكناً . وبدقة رمزية مستساغة فقد كان أول أهداف الإستكشاف الفضائي تابعاً مقفراً لا يلائم الحياة العضوية إن لم نتطرق إلى الإقامة الإنسانية الدائمة .

والصاروخ الفضائي هو أولاً مأثرة استراتيجية عسكرية مبدعة شأنه

شأن الطائرة الأسرع من الصوت والقذيفة العابرة للقارات . ومثل هذه الإستراتيجية تتخلى عن قواعد الحرب التقليدية التي تستهدف عدداً محدوداً من الكائنات البشرية لتبلغ التسلط المطلق بالتهديد أو العنف الفعلي الممارسين على شعوب تعمر قارة أو تعمر نصف الكرة الأرضية . ومن المحتمل الإستجابة تحت الضغوط النفسية الحالية إلى الطلب العلمي الصرف طلب ناقلات فضائية غير آهلة لحساب الذين يبحثون إما عن وسائل أفضل للمواصلات بين أجزاء القارة أو لريادة الجواء الخارجية أو لرصد فلكي أفضل .

وللتركيز الهائل على تطوير الصاروخ من قبل الإتحاد السوفييتي والولايات المتحدة هدف مختلف تماماً ، هدف لا إنساني ماثل بشكل بالغ حتى لايمكن اخفاؤه ، هدف قد تحقق جزئياً . وقد بدأ هذا النمط من تطوير الصاروخ على شكل وسيلة للتجسس العسكري وقد توصل الآن إلى نتيجة ظافرة بمشروع لالقاء القنابل النووية من محطة فضائية يزعم أنها منيعة . والصواريخ الآهلة والمحطات الفضائية ليست تجديدات محتومة ؛ إنها تشكل اسقاط الوساوس العسكرية المريضة بشكل محسوس وتتولد فقط من الخوف من أن يوشك العدو الذي ليس أقل وسواساً أن يتفوق بوضع مخطط نهائي للفضاء . ويبدو أن زعماءنا يظنون أنهم يخفون طبيعة ضلالاتهم المجرمة بأن يطلقوا على اسلحتهم المختصة لقب (خرضه) .

لم يكن كبلر مضطراً في حلمه الخيالي الصرف أن يحسب كلفة مثل هذه الرحلة القمرية ؛ إلا أن أحد علماء اليوم الدكتور وارين ويفر قد كلف نفسه عناء القيام بذلك . وأشار إلى أن المليارات الثلاثين

من الدولارات التي أنفقتها الولايات المتحدة وحدها بهدف وضع إنسان على القمر (ومن المؤكد أن مبلغاً معادلا قد انفق كذلك في روسيا السوفييتية كأجور عمال وتجارب علمية وطاقة عملية) كان من الممكن أن تنفق على أهداف إنسانية أكثر فائدة بالطريقة التالية :

هذا المبلغ يؤمن زيادة ١٠٪ في السنة لكل مدرس في الولايات المتحدة وعلى مدى عشر سنوات . أو يجهز مائتي كلية صغيرة بمعدل عشرة ملايين دولار لكل واحدة . أو يمكن أن يمول دراسة خمسين ألف عالم ويبني عشر كليات طب جديدة بمعدل مائتي مليون دولار لكل واحدة . كما يمكن أن يبني ويجهز أكثر من خمسين جامعة كاملة وأن يحدث ثلاث مؤسسات روكفلر جديدة كلفة كل منها خمسمائة مليون دولار . لاحظوا أن هذه الإمكانات الأخرى تعكس بتمامها أهدافاً تربوية وحتى علمية بوجه خاص . ولذا فلا يمكن رفضها بدعوى أنها صادرة عن عقل لايبالي باهتمامات العلم أو بتقدمه المتواصل . وبدلاً من ابقاء فريق من الكائنات البشرية ، بكثير من المجازفة ، يحيون حياة وظفية محضة وبثمن خارق على كوكب لايصلح للسكن بغية انجاز مأثرة فارغة إن لم نقل مدمرة بالقوة فان خيارات الدكتور ويفر الأخرى تدعم على الأقل الهيئة العلمية الموجودة وتغنيها . ولامجال هنا لأن أبدي من عندي أي تحفظ بالنسبة لمقترحات الدكتور ويفر : يكفي أنه يمكن قبول أهدافها الإنسانية .

لقد كان من شأن درس الحساب هذا أن يبرز نقطة يخشى أن تربك القارىء عندما ذكرت تنبؤات بركهارت في موضوع مقاربة «الفدائيين العسكريين » في ظل نظام الطغيان الذي يكون قادته « غير مكترثين أبداً

بالحق والرفاهة والكدح المفيد والصناعة والمال إلخ ». تلك هي سمة الحالة العقلية الرائجة لدى « النخبة العسكرية والصناعية والعلمية معاً » .
إن المبالغ الفلكية التي بددت لوضع تقنيات الإبادة الجماعية وللهبوط على سطح القمر دون الإكتراث بالضرورات الإنسانية أو بالنتائج الإقتصادية هي من ضمن الأسلوب الذي توقعه بركهارت .

٣ : العمل الفضائي

إنني أشير ، ولو غامرت بأن أظهر وكأنني أفرط في الذهاب بعيداً بالموازاة بين عهد الأهرامات القديم والعهد الحديث ، إلى أن الكبسولة الفضائية المسكونة كما تصمم الآن تقابل بالضبط أقدم مقصورة من الأهرامات الكبرى حيث وضع جسد فرعون المحنط تحيط به تجهيزات مصغرة ضرورية للرحلة السحرية باتجاه السماء .

وقد ذكّر بعض كهنة العلم من جديد وكتهيئة للاستكشافات فيما وراء المنظومة الشمسية بضمان الخلود المحضر اصطناعياً والضروري لمسافات الإنتقال التي يجب أن تقاس بالسنوات الضوئية ؛ وزعموا أن الأجسام الحية تصبح في غيبوبة في مثل هذه السرعة الكوكبية ويتضاءل حجمها وفقاً لنظرية اينشتين دون أن تتعرض لأي ضرر داخلي أو تدرك مرور الوقت بشكل أن ألف عام قد تمر كيوم واحد وأن العمليات الحيوية ستتقلص كذلك وتعلق . وأكرر أن هذه الموازاة بين دوافع ورمزيات العهدين واضحة جداً حتّى لا سبيل إلى أن تبدو غير اختراع شرير . غير أن المعطيات هي لحسن الحظ متاحة للتفحص العام .

من الممكن أن نصف ماحققته التكنولوجيا الفضائية داخل الكبسولة المعزولة بأنه تحنيط موقت : إنها حالة توفر الشروط الدنيا لابقاء العامل

الإنساني حياً أو بالحري لمنعه من التفسخ خلال طيرانه . وإذا أمكن أن نصف بحق الضريح المصري كصاروخ ساكن فان الصاروخ الفضائي الكوني هو بالفعل قنبلة متحركة . وقد قدمت التكنولوجيا في كلتا الحالين أتقن انجازاتها لابقاء دمية بشرية في حالة حياتية معلقة .

وفي أساس كل هذا الجهد هدف يحرك الآلة العملاقة بأكملها ويبدو وكأنه التتويج الوحيد الصالح للبقاء : وهو رد الجسم البشري نفسه وقطنه ونمط حياته وهدف حياته إلى الأبعاد الدنيا وحدها التي تؤدي به إلى سلطة خارجية مطلقة .

في قضية فرعون كان الذين يضعونه في سفينته الفضائية الموجهة نحو السماء يريدون أن يزينوا أنه لايزال حياً وقادراً على ممارسة كل امتيازاته الرفيعة،أما مايحكم استعدادات ملاح الفضاء للرحلة الفضائية فمجموعة مبادىء معاكسة تماماً : إن الملاح الفضائي مضطر على الرغم من أنه حي وبفعل تدريب صارم أن يتخلص من كل خواص الحياة المزعجة حتّى أنه لايبقى له من الحياة الإنسانية إلا أدنى حد من الوظائف الجسدية والعقلية التي تتيح له البقاء على قيد الحياة في ظل تقييدات وحرمانات تماثل في هولها ما صادفه متسلقو جبال الألب الذين تغلبوا على قمة افرست خلال التسلق الأخير .

ومن الثابت تماماً إنه لايقنع كائنات بشرية طبيعية تطفح قلوبها بالحرارة كما يبدو كثيرون من ملاحي الفضاء بالآشتراك في طقس على هذا المستوى من منافاة الحياة سوى خليط من أعمق أنواع الإندفاعات المغامرة والقناعات الدينية . إنهم بحاجة ، إلى جانب الشجاعة المادية الفائقة والوعد

بانتهاء التجربة سريعاً ، إلى قناعة دينية ، يزداد نفعها إن تكن غير واعية ، بدورهم كرسل سماويين . وإن ورعا من هذا النوع قد اتاح لنساك مسيحيين أن يسجنوا أنفسهم بشكل دائم في كوخ مظلم منتن متغذين من فتحة بسيطة : بشكل إن هذا النمط من التضحية لم يكن بدون سابقة مقدسة . غير أنه لاشيء يشهد ببلاغة أكثر على السلطان الذي أقامته اسطورة الآلة على عقل الشعب مثل القبول بهذا الطقس بوصفه (مرحلة مقبلة) منشودة وحميدة في هيمنة الإنسان المشوهة على الطبيعة .

ولكن لاحظوا أن روح التضحية التي أيقظتها ديانة الإله الشمسي الحديث كانت مطلقة إلى درجة أن ثلاثة روسيين (طبيباً وعالماً بالميكروبات ومهندساً) قد تطوعوا لمكابدة سنة كاملة من السجن فيما يشبه السفينة الفضائيه للبرهان في معظم هذه التجربة عن امكانية البقاء على قيد الحياة داخل مكان محدود (أقل من ٤ أمتار مربعة) باستخدام الأوكسجين والهواء والماء المتجدد انطلاقاً من منتجات نفايات بشرية وأغذية مجففة والجرجير الغني بالفيتامينات ونباتات أخرى مزروعة في بيوت زجاجية صغيرة ١٨ م٢ .

لقد أجتاز هؤلاء الرجال مادياً هذه الحياة الجوفاء كما اجتازوا التوترات مابين الأفراد التي تنتج عنها إنها توترات كبيرة إلى درجة أنهم لم يكونوا يجرءون أن يلعبوا الشطرنج خوفاً من تفاقم النزاعات المكبوتة بين الرابح والخاسر .

وقد تبين أن مأثرة الجَلَد هذه غير مجدية مثلما هي خالية من المدلول بالنظر إلى نقص أرهب شروط الرحلة الفضائية : انعدام الوزن ، العزلة الفضائية بالنسبة للأرض ، احتمال الخطر الناشيء عن عطل ميكانيكي

أو الإضطرابات الجسمانية أو القلق في موضوع المخاطر الإضافية عند الدخول في جو الأرض إنه خطر ماثل دائماً . لقد كانت التضحيه البشرية حقيقيه تماماً ولكن ظروفها كانت زائفة . ولجعل كل هذه التجربة أكثر خرقاً أيضاً فقد أعلن موظفون روسيون قبل انتهاء التجربة بشهر أن التجربة التي نفذت على كلاب حية من خلال طيران فضائي حقيقي لم يدم سوى خمسة وعشرين يوماً قد دلت على اصابات خطيرة في أعضائها الحيوية وفقدان المناعة ضد المرض .

ولاحاجة إلى أن نشير بأن هذه الجهود لتحديد الشروط المادية الدنيا الضرورية للبقاء البشري في الفضاء تشكل النقيض تماماً لتقليد الفيض والكمال الطبيعيين : وهما الشرطان الأقصيان التي ازدهرت الحياة بالفعل بتأثيرهما . ولكن الضرورات المادية للعيش ولو كان ذلك لأمد قصير داخل كبسولة فضائية مهما كانت مضيقة وحارمة تبدو مواجهتها أسهل بكثير من الضرورات النفسيه بالنظر إلى أن الحرمان الحسي وفقد حس الإتجاه لاتقود إلا بسرعة مفرطة إلى الإنحلال النفسي . والأمر الذي له دلالته أن بعض هذه الضرورات قد تنبىء بها في حلم كبلر القديم لأنه كان يفترض أن المسافرين الأوائل باتجاه القمر سيجلدون أنفسهم يتناولون المخدرات ليتاح لهم احتمال رحلة قد لاتستغرق وفق حساباته المفرطة في التفاؤل سوى أربع ساعات .

بيد أن شروط الرحلة الفضائية الطويلة (بالنسبة لأبعاد القطن الإنساني المتعددة والإنفصال بالنسبة للاندفاعات والضرورات الإنسانية غير تلك التي تقررها الضرورة التقنية والفرص الضئيلة في اختيار القرارات والتغلب على العقبات المفاجئة) . كل هذه الشروط كان لها مايوازيها في رحلات

المحيطات السابقة . وكان ذلك يترافق مع خوف مشابه من الخطر الناشيء في الوقت نفسه عن أسباب طبيعية كالزوابع وعن أخطاء في المحاكمة البشرية . وكما كانت الحال بالنسبة لأقدم المستكشفين البحريين الذين كانوا يجابهون مثل هذه الأخطار ويتغلبون عليها يتمتع ملاحو الفضاء الشجعان اليوم بلا ريب بتمجيد مشابه (أتاهم) عند انتهاء التجربة . وهكذا فان الرحلة الفضائيه قد وعدت بالتأكيد بسبب صعوباتها التقنية والإنسانية بأن تعيد للانسان جزءاً من هذه الثقة الحيوية بالذات أثناء مواجهة الحالات القاهرة التي تمضي أوتوماتيكية وضغط الزر في بذل كل جهودها للتخلص منها .

ويخشى أن يتبين سكان الأرض أن الرحلة الفضائيه تعرضهم للهلاك بشكل أخطر من ملاحي الفضاء المختارين – فهنالك احتمالات ، إذا لم تتعثر الأساليب الحالية لمعالجة وتهيئة الجسم البشري المشروطة أن تجبر الكتلة البشرية بأن تتحمل مشاق الرحلة الفضائيه طوال حياة كاملة دون أن تتمتع بأية مكافأة من المكافآت التي تجري على النخبة الأثيرة . وهكذا فان هدية التكنولوجيا الفضائية العليا كما تتبدى اليوم هي وضع الشروط المطلوبة لحبس أعداد واسعة من السكان وتهيئتهم تهيئة مشروطة ومراقبتهم في نماذج تجريبية على قياس صغير .وتصميم هذا النموذج وجعله صفة دائمة للحياة البشرية قد يشكل احدى اسمج ضلالات التكنولوجيا العملاقة .

ولربما تمت هذه التجربة بشكل طوعي لأنه قد تبين أن (فتح الفضاء) ولو مؤقتاً هو البديل الوحيد الذي نمتلكه حتى الآن لتوفير منصرف لحاجات استهلاك الآلة العملاقة الماثلة وقواها المدمرة دون أن يولد ذلك

النهاية النكبية لهذه الألة نفسها بأفعال جماعية من الإبادة المحسوبة التي تجرد الكرة الأرضية من الأوراق الخضراء وتعرق الجنس البشري . ويمكن أن يعتبر التنافس بين الآلتين العملاقتين الروسية والأميركية في سباقهما للهبوط على القمر أو لاستكشاف أقرب السيارات كبديل مرهف رغم بطلانه لمعادل الحرب الأخلاقي عند وليم جيمس . وبما أن مثل هذا التنافس الفضائي يفسح المجال لوجود كل الأسلحة الحالية المعدة لأفناء الإنسانية ويزيد بالفعل من قدراتها القاتلة فان هذا الشكل من التنافس الجماعي لايوفر أي وعد بضمان الوفاق الحسن الدائم أفضل من هذه المباريات الدولية في كرة القدم التي تنتهي في أحيان كثيرة إلى تظاهرات عدائيه وعنف صريح أشد أيضاً .

غير أن الميزات المباشرة للاستكشاف الفضائي هي مرضية إلى أعلى حد بالنسبة لمن لهم علاقة مالية ببنتاغون القوة . ولاحاجة بي إلى أن أذكر القارىء بأن هذه الفئة تضم كل المرتبطين بطريقة مباشرة أو بعيدة بالوسط الصناعي ، وليست النقابات ومساهمو الطبقة الوسطى أقل ارتباطاً من المديرين الماليين والإداريين والعلميين ؛ حتى أن (البحث والتطوير) الفضائيين قد توفرت لهما اعتمادات وملاكات آتية من كل الفعاليات المدنية .

والإستكشاف الفضائي هو بلا حدود خلافاً لكل فعالية مرتبطة بالأرض وطلباته التكنولوجية لايمكن اشباعها . ولذا فنزعة المغامرة الفضائية لها بالتأكيد ميزات الحرب المشئومة : ويزيد من فعالية هذه النزعة أنها تستعيد برسم الإستهلاك الشعبي المشاعر القديمة التي أدت في الأصل إلى استكشاف العالم الجديد بدءاً من القرن السادس عشر .

وبما أن (الفضاء الحر) والحركة السريعة وانتقاء القطن تشكل كلها مشاركات بشرية سعيدة على النقيض من السجن وتحديد الحركة وطبيعة الإستقرار غير المغامرة فانه يبدو أن الإستكشاف الفضائي كان يعد بالأمس العقل البشري بالتحرر العام الذي يمكن حتى المعتكفين أن يتمتعوا به بالوكالة. وقد قال هـ. ج. ولز متهللا في فجر القرن العشرين سيأتي اليوم الذي سيقف فيه الإنسان على الأرض كما يقف على مقعد ويمد يديه بين النجوم ». من توفرت لديه الحصافه ليحزر منذ البدء أن فتح الفضاء مابين الكواكب وفتح الزمن اللذين كانوا يعتبرونهما أحد الإنتصارات الفريدة للتكنولوجيا الحديثة سيتبين بالفعل أنهما وسيلة للجم العقل البشري وتحويله عن المجالات التي تحتاج أكثر إلى أن تنمى تنميه شديدة :

الشخصيه الإنسانية نفسها المهزأة اليوم والمتضائلة بواسطة انتصاراتها التقنيه .

وقد كشف هذا الفتح الجديد حتى لو جرى في شروط أصلح من السفر بالصاروخ عن مساوىء تكبر ميزاته . الرحلة الفعلية في الطيران مابين القارات على طائرة نفاثه تقارب سرعتها السرعة التي تفوق سرعة الصوت هي مضايقه ومملة وفارغة إلى درجة أن المسلي الوحيد الذي تجرؤ الخطوط الجوية تقديمه هي التمرينات التافهة التي تتوفر بالذهاب إلى أقرب مقهى ، أو مطعم أو سينما : كحول وأطعمة وأفلام ومضيفات ناعمات . والشعور المبهم بالخوف واحتمال الموت الرهيب هما وحدهما اللذان يردان إلى الإنسان حس الواقع .

وإذا لم يحدث اكتشاف علمي لايخطر لنا ببال اليوم يهدف إلى التغلب

على الجاذبية وفق مبدأ جديد تماماً فالإحتمال قليل في أن تصبح الصواريخ صغيرة ورخيصة أو أن تصبح الكبسولات الفضائية مضاهية بكبرها وراحتها مقاعد حتى من الصنف الثاني على متن طائرة . غير أنه يمكن بناء كبسولات فضائيه ثابتة على نطاق عملاق ؛ وقد اتخذت تدابير من الدرجة الأولى في الأهمية بغية انتاج مثل هذه القطنات الجماعية . والناس الذين سيخصصون بهذه البنى العملاقة سيقضون حياتهم كما لو كانوا في الفضاء بين الكواكب بدون وصول مباشر إلى الطبيعة ولاشعور بالفصول أو بالإختلاف بين الليل والنهار وبدون تغير بالطقس أو النور ولا اتصال بقريبهم إلا من خلال الأقنية الجماعية المحددة .

ومن الثابت تماماً أن الرحلات الجوية الأسرع من الصوت وتكنولوجيا الجواء الخارجية لم تهذب بهذه السرعة خصوصاً من أجل حسناتها الإنسانية الصنف . ولولا الضغط طلباً للتفوق العسكري لبقي نظام النقل الأكثر تنوعاً والأكثر صلاحاً والأضمن والملائم أكثر من الوجهة الإنسانيه والذي كان قبل ١٩٤٠ يستخدم الفترة الطويلة الكافية لامتصاص تقدمات تقنية أوسع بدون تخريب الطبيعة وتلويث الهواء وتدمير مدينة كبيرة بعد الأخرى.والقضية هي أن السفر الفضائي خلافاً لأشكال الإنتقال الأخرى سيكون متعذراً بدون تعبئة الألة العملاقة تعبئة كاملة ، الآلة التي هي سيدة كل موارد الدولة حتى النفاد : والمقصود في آن واحد هو رمز الرقابة المطلقة ووسيلة اشاعتها بين الشعب وتقديمها كرمز للتقدم فائق الوصف . وهدفها الأسمى الذي ذكرناه ، حسب تقدير بوكمانستر فولر ، هورد كرتنا الكبيرة إلى أبعاد كرة بليار ، بمعنى ما ، غير أن لها مواصفات أخرى نبه إليها أحد الزملاء في بحث حديث عن التكنولوجيا

الفضائيه : « الفضاء هو مشروع من الثابت أنه غير محدود . . . إنه يتطلب أفضل جهود فن المهندس ! إنه يمتلك كل استهواءات الإستكشاف المادي ، وهو مرتبط بحماية أسلوب حياتنا » .

والأخيرة من هذه المواصفات الثلاث هي بشكل بارز أكثرها دلالة ، والواقع أن « اسلوب حياتنا » الذي يرجع إليه المؤلف هو اسلوب مجمع القوة القديم : هذا الأسلوب المختلط القائم على الصنع المستمر للمستجدات التكنولوجيه والنوافل الصالحة للاستهلاك والمتع الجوفاء وعلى استهلاكها . والتكنولوجيا الفضائية من الناحية الإنسانية ، تقدم أسلوباً جديداً من اللاوجود : أسرع تحرك ممكن وسط بيئه موحدة وبشروط موحدة نحو مقصد موحد من المتعذر كذلك تمييزه . إنه عالم مخصص حصراً لمطاعم هوارد جونسون وفنادق هيلتون . وإذا صح ذلك على الأرض بالنسبة للسفر بالطائرة النفاثة فانه ينطبق بدقة أكثر أيضاً على السفر في الجواء الخارجية ؛ لأن الكبسولة الفضائيه الحقيقيه والمحلات المقصودة العارضه على حد سواء تمثل أقل قدر ممكن من الشبه مع القطنات الغنية عضوياً التي ازدهرت فيها بالفعل الحياة والروح .

يجب على أبطال الرحلة الفضائيه لكي يبرروها أن يحطوا بوقاحة من قدر الحياة على الأرض . هذا هو بالضبط مالا تردد الأنتلجنسيا التكنوقراطية في فعله بغية تبرير تكريسها المطلق للالة العملاقة : قال ارتور كلارك « من الجائز تماماً أن يكون العقل قادراً على بلوغ أكمل قدوده في الفضاء وحده حيث يقابل بيئات أشد صرامة وتعقيداً من أية بيئة يمكن أن تعثر عليها على كرتنا الأرضية » . « يمكن لبطيئي التفكير

البقاء على الأرض الهادئه والعبقرية الحقيقيه لاتزهر إلا في الفضاء مجال الآلة لا اللحم والدم »

وإن مثل هذا الثناء من الآ لة العملاقة ومن يخدمونها للبطيئي التفكير المعدين أعداداً مشروطاً للأرض يمكن أن يظهر مبالغاً فيه إلى درجه أن يصبح أخرق . إن « العبقري الحقيقي تنقصه الخواص الإنسانية حسب اعتراف الدكتور كلارك نفسه . وما يهمنا أكثر هو أنه ليس هنالك أي دليل علمي يشير إلى أن العناصر التسعين الثابتة الموجودة على الأرض ليست بالفعل عينات صالحة عن حالة المادة في كل أجزاء الكون الأخرى وانه إذا كانت هنالك في أماكن أخرى عقول أخرى وقدرات أخرى فلن يكون ذلك نتيجة مضيهم بالإستكشاف الفضائي إلى الأمام أكثر مما أعمل سكان الأرض في بيئات « أكثر صرامة وأكثر تعقيداً » بل لأنهم انهمكوا بشدة أكثر منا وربما على مدى زمني أطول بسر اعجوبة الحياة فقط في المكان الذي يمكن فيه مقابلة هذه الأعجوبة مقابلة كاملة : في وعي الكائنات الحية العليا .

إن أية رحلة فضائية في حالة غيبوبة وأي تبريد الفي مهما كانا مستمرين لا يعدان ولو بجزء مما اتمه الانسان المرتبط بالأرض . لاتزال كرتنا الأرضية تحتوي في بطنها خفايا لا تحصى كبيرة أكثر من الخفايا التي تمتد ما وراء مجرتنا. وهذه المعرفة نفسها مهما نفذت إلى الأعماق ليست الا جزءاً من المظهر الشامل للحياة في ملايين من الأنواع الحية . والعبقرية الحقيقية التي « لن تزهر الا في الفضاء في مجال الألة » هي عبقرية التناقص الحراري ومضاد الحياة . وقد عاد إلى الظهور مع الاستشكشاف الفضائي العلو التقليدي لله وللانسان بشكل بعد الفلوسي . وكما كان الأمر في الماضي إذا قبل الانسان أن يبيعه نفسه فهو يقدم طعمه القديم : قوة على

الهيمنة بدون حدود وتسلط مطلق لا على الممالك والأمارات الأخرى فحسب بل على الحياة نفسها .

٤ — ثقافة مابعد التاريخ .

لقد اخترعت كل عناصر الآلة العملاقة بطريقة مستقلة دون الاستشراف الواعي للنتائج الانسانية إلا في الطوبائيات وفي تخيلات الرواية الخيالية . وعلى الرغم من أن اهدافاً نوعية محددة قد دخلت في كل مراحل هذا التطور العلمي والتقني فان توحيد هذه الأهداف في جبية متزايدة التماسك تنظم نفسها ذاتياً وتتوسع ذاتياً بطريقة أوتوماتيكية في الظاهر قد كان بالفعل من نتاج عقول عديدة واعية انجبتها . ومن هذه الناحية فان تركيب الآلة العملاقة بغائيتها وطبيعتها النهائية العالية التعقيد معاً يشبه اللغة ، فليس من الممكن ولو أن نتكهن إلى أي اتجاه ينزع أكثر فأكثر كل هذا المسار التطوري إلا في المرحلة النهائية مرحلة التعقيد المنظم . ولكي نتفهم تماماً ماحدث في السابق يجب أن نقرأ بطريقة معكوسة من الحاضر إلى الماضي .

غير أنه بالنظر إلى أن التكنولوجيا هي من جميع النواحي وظيفة من وظائف الحياة فلابد للتطور والتكامل المفرطين للوسائل « التقنية » من أن يهددا كثيراً من وظائف الحياة التي تضارعها في الأهمية مثل أي اختلال عضوي آخر .

إن التنظيم الموحد النهائي للآلة العملاقة هو على خلاف مع مختلف ضرورات وامتيازات الجماعات البشرية القائمة بذاتها والمستقلة التي صنعتها إلى درجة أن رد فعل بدأ يرتسم حتى قبل أن تتمكن الآلة العملاقة من التحول إلى وحدة عملاقة ذات اكتفاء ذاتي افرزت منها كل العناصر

البشرية . والتحليل الناقد الحاضر هو نفسه نموذج من رد الفعل هذا . ومن حسن الحظ أن الآلة العملاقة لم يكتمل تجميعها تماماً بعد . ومن حسن الحظ أيضاً أنه تبين أنها عرضة لأخطاء في الحساب لكبوات شائنه تحط من نفوذ رهطها الرسمي وتضع مبادئها الأساسية وأهدافها النهائيه على السواء موضع التساؤل .

ويقودنا تقدير هذه النتائج مرة أخرى إلى ملاحظات هنري أدامز . لقد لاحظ وهو يحلل التسارع المستمر للمعرفة العلمية ولمصادر الطاقة اللاعضوية منذ القرن الثالث عشر : « ولكن إذا توجب على الفكر أن يستمر في اهتزازات وهلاته الأخيرة العجيبة السرعة يلعب دوره الحالي العام كمذيب أو حالٍ عام وأن يرد قوى الجزيء والذرة والإلكترون إلى هذه العبودية بدون كلفة التي رد إليها عناصر الأرض والهواء والنار القديمة ؛ إذا توجب على الإنسان أن يواصل تحرير قوى الطبيعة اللامتناهية والسعي للوصول إلى رقابة القوى الكونية على نطاق كوني فمن الممكن جداً أن تكون النتائج مدهشة مثل تحويل الماء إلى بخار والسرفة إلى فراشة والراديوم إلى الكترونات » . لقد تبين أن هذه النبوءة ، حتى في هذه المرحلة المبكرة ، صائبة أكثر مما كان مستعداً لتصديقه أي واحد من معاصري أدامز المباشرين .

ومثل هذا التحول الرجعي للانسان قد حلل بطريقة صريحة لأول مرة في تحليل رودريك سايدنبرغ المقلق رغم حدته « لإنسان مابعد التاريخ » . سيكون هذا المخلوق اللامبالي كما تمثله سايدنبرغ الناتج الجزئي النهائي للتطور الناشيء عن تضخم خاصة الإنسان المهيمنة : عقله . وقد نبه سايدنبرغ إلى أنه كلما كان العلم والتكنولوجيا يتقدمان « كان

الإنسان وحده يبدو ككيان متمرد عصي على كل توقع داخل عالم طيع من ناحية أخرى » . وإذا « طلب العلم من الإنسان أن يعتبر نفسه موضوعاً عنصراً من منظومته الخاصة فلابد للانسان أيضاً من أن يصبح خاضعاً للحساب التكنولوجي » .

وقد يصبح مثل هذا الوضع لايطاق على مر الزمن عندما ينقلب العقل بموجب منطقه الخاص ضد الجسم البشري نفسه . والخلاصة أن المفاجأة التي أصبحت بادية في انتصار الآلة العملاقة العلمية الشامل ليست إلا رضوخ الإنسان الوضيع للادوات المناهضة للانسانية التي أبدعها العقل البشري . ولكنه كان لابد لهذا الإنجاز الرفيع من أن يتحمل انتقام آلهته الخاصة : بفصل العقل المحض عن كل مصادره العضوية المنظمة والحامية ذاتياً بالنظر إلى أن الخاصة الوحيدة التي لايمكن نقلها إلى أي نوع من المؤتمات المبرمجة هي الحياة نفسها .

كان سايدنبرغ يعتبر هذا التحول كعملية من عمليات التطور البيولوجي لارجوع عنها ، هذا التطور الذي ، بتيسيره نمو العقل عند فصيلة الأدميين ثم عند الإنسان العاقل نفسه قد يضطر الإنسان الآن إلى العودة إلى مرحلة من النعاس (النوّام) الطيع وفي النهاية إلى اللاوعي . وسيكون ذلك شراً من السبات الحيواني : والواقع أنه سيحظر من الآن فصاعداً على التحولات الوراثية الطارئة وتحديات البيئة المتواصلة والتلمسات الذاتيه الهادفة التي كانت تدفع التطور الحيواني أن تعيق أهداف العقل بعد الأدمي الثابتة الرامية إلى ضمان استمرارية رقابته الخاصة وفق التوجيهات التي وضعتها الآلة العملاقة وحددتها .

إن هذا التفسير البيولوجي الواضح بل البالغ الوضوح لمصير الإنسان

النهائي يستند لحسن الحظ إلى تجريدات واستنتاجات منطقية محضة وقابلة جداً للمناقشة . من المؤكد أن بروز الإنسان البيولوجي قد تسارع خلال المليونين الأخيرين من السنين؛ وكان ذلك باتجاه واحد هو تنمية الجملة العصبية بإدارة عقلية موحدة أكثر فأكثر . غير أن العقل لم يكن هو الوحيد المستفيد من هذا التطور : فمجموعة الإنفعالات والمشاعر والحدوس المبدعة كما تتجلى في الثقافة الأخلاقية والعلاقات الإنسانية والفنون قد زادت كذلك زيادة هائلة . وقد تعمد سايدنبرغ كما قصد ارتور كلارك اغفال ازدهار (تجسد الروح) الإنسانية هذا .

لقد اغتنت الإنسانية بتراكم المصنوعات والرموز الهائل التي تفوق بمدلولها وقيمتها منتجات العقل المجرد ، وخصوصاً العقل الذرائعي المحدود الذي ارتبط بأوثق طريقة بمجمع القوة . هنالك كثير من الأدلة على المقاومات الإنسانية أو الإنحلالات التي لم يأخذها سايدنبرغ بالإعتبار . وسيتوجب علينا عما قريب تفحص أشد التقهقرات تدميراً تلك التقهقرات التي كشف عنها نصف القرن الأخير .

وليس طفح قوى الحياة البدائيه التي تصلح أخطاء سلوك العقل البارد بطريقة لاشعورية وبعض الأحيان بلاعقلانية وحشية هو أدنى طرق الوقاية من التطور النهائي الذي يصفه لنا سايدنبرغ والإنسان فيه بذاته غارق في دوامة من الخدر الشامل . وتبعيننا المفرطة الحالية بالنسبة للعقل من طراز الحاسبة الإلكترونية قد تتسبب ، في حالة احتمال وقوع كارثة عالمية متأتية من فقدان الأبعاد الإنسانية . باحتدام السعار الجماعي والعنف بلا وازع بمقدار مايبلغ هذا العقل غايته المثلى من التسلط المطلق . ومع ذلك فمن المحتمل أن يتغلب العقل إذا نما حقيقة على حبه النرجسي

لصورته الذاتية المجردة ويعمل على تجنب مثل هذا المصير . فالعقل اليقظ يجب أن يكون قادراً على تغيير مقدماته الخاطئة المعمول بها وأن يتغلب على تحديداته الذاتيه الملازمة . أليس هذا بالضبط مايحتمل أن يكون قد بدأ يحدث ؟ انني سأطرح قريباً هذا السؤال .

ومع ذلك فان مايعطي تحليل سايدنبرغ بعض الوزن هو أن الضلال الذي يصفه ليس من عمل جيلنا الخاص فقط هذا الجيل التي نفخه نجاح العلماء بالنفاذ إلى أسرار عن الذرة وأسرار عن الكون كذلك بقيت خافية زمناً طويلاً . للمفاهيم التي جعلت التطبيقات المتسرعة لمعارف جيل واحد على هذا القدر من الإندفاعية ، تاريخ طويل . ومع ذلك فان مفكراً ذا نزعة انسانية كتيلار دي شاردان رغم تثقفه في سلك ديني ماهر في كشف اغراءات الكبر والقوة ، سقط ضحية شر هذا السحر . لقد قال « يبدو أننا ، بفضل معرفتنا للهرمونات على وشك أن يكون لنا صوت في موضوع تطوير اجسادنا وعقولنا أيضاً . ويبدو أننا بفضل اكتشافنا للجينات سنكون قريباً قادرين على التحكم بآلية الوراثة » .

وربما لايكون هنالك مايصور الفتنة التي تمارسها مدعيات مجمع القوة الجريئة على العقل الإنساني بشكل حسن مثل ماتصور ماقد تعتبر أكثر الروايات استهواء وأكثرها حيوية قواها الفائقه وطبيعتها النهائيه واعني بها الرواية التي قدمها هذا الأب اليسوعي في مجموعة أعماله وأولها الظاهرة الإنسانية وهي كتب يخفي طريقها المنطقي المتزلق هطول ثلج طري من التوريات البراقة . إن لوحة التطور الإنساني التي رسمها تيلار دي شاردان تستند بمعظمها إلى تفسيره للتطور العضوي . غير أنه أضاف في مقاربته للمستقبل حزاماً جديداً إلى الجيولوجيا : فقد اكتشف

إلى جانب غلاف الحجارة والغلاف المائي والجوي غلافاً آخر سماه غلاف العقل : إنها قشرة من العقل في سبيلها إلى الإنتشار حول الأرض مكونة طبقة متميزة من النشاط العقلي النشاط الفعلي الواعي متزايدة التوحد . ويسمي هذه العملية (التوحيد والتقننة والعقلنة المتناميه لأرض البشر). والقضية هنا بالفعل هي قضية صورة اثيرية للآلة العملاقة .

ويتفق ألا يكون ماعمله تيلار دي شاردان الأ ترجمة بتعابير علمية تقريباً ، بتعابير واضحة أكثر لفكرة عبر عنها قبل قرن ناتانيل هوتورن على لسان كليفور في « بيت الجذر السبعة المثلثه » صاح كليفور «وهنالك بالتالي الكهرباء ، هذا الشيطان ، هذا الملاك ، هذه القوة المادية العظمى ، هذا العقل الذي ينفذ إلى كل شيء . . . أليس صحيحاً أنه . . . بفضل الكهرباء ، أصبح عالم المادة عصباً يهتز على آلاف الكيلومترات في نقطة لاهثة من الزمن ؟ إن الكرة الأرضية هي بالحري رأس كبير ، دماغ ، غريزة زائد عقل ؛ أو أن نقول أنها هي نفسها فكرة ، لاشيء غير فكرة لا المادة التي كنا نظنها » . لقد حدد هذا المفكر الشاعر ببضع عبارات العامل الجديد الذي سيجعل صورة العالم الميكانيكيه كلها تتطاير شظايا .

وقد كان اسهام تيلار دي شاردان هو أنه جعل حدس هو تورن يجتاز مرحلة اضافية ؛ ولكن تيلار بعمله هذا أعطى لهذا الحدس وجهاً رجعياً بربطه بالدوافع الإنسانية التي تمت إلى نظام القوة الأصلي (تضخيم العقل العقيم والإستيلاء على الطبيعة) : فآلة تيلار العملاقة الأثيرية لم تكن أقل عداء لطبائع الإستقلال والتمايز الفردي والتسامي الذاتي المتجليه في التطور الإنساني .

ستختفي في المرحلة النهائية من التطور كما تصورها تيلار الكائنات البشرية التي يمكن التعرف إلى هويتها ، لأنها سترد إلى وضع مجرد خلايا متخصصة كخلايا القلب والكلية دون ماسبب لحياتها سوى مايخدم غلاف العقل . وستتحول الحياة الشعورية في هذه النقطة إلى نوع من الدماغ المتفوق خارج الهيولى كلي العلم وكلي القدرة . والإنسان بخلقه هذا الإله البعيد عن أن يكون الله المحبة سيهدم الطبيعة ويهدم ذاته .

ليس هنا مكان كل مايشبه التقدير الوافي الناقد لفكرة تيلاردي شاردان . لقد كان تيلار بوصفه عالم أثار واحد مكتشفي انسان بكين مرجعاً في هذا الميدان الذي انتقاه ؛ زد على ذلك أنه كان أسرع من كثير من العلماء الأخرين في التوصل إلى النتيجة التي أصبحت الآن وعلى ضوء الفيزياء الذرية حتمية تقريباً وهي أن الكون المادي نفسه قد مر بتجربة التاريخ وأن هذا المسار التاريخي الذي بدأ بتنظيم وافراز مستقلين للعناصر الذرية قد تتابع بلا شرخ عبر ذرات أكثر تعقيداً وأشكال من التنظيم ارفع إلى أن أصبحت بعض الذرات العضوية البالغة التعقيد أشكالاً من الحياة المتكاثرة ذاتياً . وأتى مع الحياة في احدى مراحل التطور الحيواني الأخيرة الشعور والتنظيم الهادف . كل شيء حتى الآن حسن جداً .

غير أن وصف تيلاردي شاردان اللاحق للروح هو مايهم أن يخضع لتحليل يقظ ؛ والواقع أن تفسير تيلار لتطور الإنسان المقبل يستند إلى تبنيه بدون مراجعة ناقدة للفكرة التي كانت رائجة منذ القرن السابع عشر وهي ان الشعور يقاس بالعقل وأن العقل بشكل رياضي متزايد التجريد هو ارفع مظاهر الروح . وقد كان بامكان وليم بلاك أن يجنب تيلار هذا الخطأ ؛ لأن الشاعر قد كتب بدافع قلقه بخصوص النتائج الممكنة

للفيزياء النيوتونيه : « ليحفظنا الله من أن تكون الحقيقه قاصرة على البراهين الرياضية ! » وإذا كانت مقدمات تيلاردي شاردان صحيحة فستشكل حينئذ خاتمة العقل المجرد هذه كما تجسدت في نظريات العلم وممارسات التكنولوجيا السحرية الحدث الإلهي البعيد الذي يسير باتجاهه كل الخلق .

اسمحوا لي بغية تجنب سوء الظن والمعارضة أن أذكر تعابير تيلار الدقيقة في « المستقبل الإنساني » . إن دليل مصير الإنسان النهائي قد أصبح بحسب تيلار ظاهراً ؛ لأن « الباحثين في المجالات التي تشمل كل أشكال المادة الطبيعية والحياة والفكر يعدون بمئات الآلاف ؛ والبحث الذي كان حتى الأمس مطلباً مترفاً هو في سبيله إلى أن يصبح وظيفة عظمى بل وظيفة الإنسانية الأساسية . أما مدلول هذا الحدث فانني لاأتبين من جهتي إلا طريقة واحدة لشرحه . إنه الفائض الهائل من الطاقة الحرة التي حررها غلاف العقل المعد بواسطة عملية تطور طبيعي للدخول في بناء* وتشغيل* ماأسميته دماغه » .

والأمر على وجه الدقة هو أن الطاقات اللامتناهية للمنظومات الحية كما تطورت على كرتنا الأرضية سترد إلى جزء تافه في هذا التضييق لتطورات الحياة وإلى قصرها على متابعة العقل المنظم وحده وإلى أن تكون اسقاطاً له : سترد هذه القدرات إلى الجزء الذي ييسر التنظيم العقلاني والرقابة المركزية . وسيوجه كل هذا التغيير ، حسب رأي تيلاردي شاردان ، إلى النقط التي سيعمل فيها الغلاف العقلي بكامله كدماغ عالمي وحيد تفقد داخله الأرواح الفردية هويتها وتتحكم وحدتها كمتعضيات بذاتها لتمجد وتعظم مسار الفكر نفسه — وبذلك ينكفىء الفكر على ذاته ويصبح مظهر

الوجود الوحيد الصالح للحياة . وبينما خطا ديكارت الخطوة الأولى في هذا الإتجاه : « إنني أفكر فأنا موجود إذن » فان تيلاردي شاردان قد نعم بالعملية النهائية : « الدماغ الكبير يفكر إذا فأنا لست موجوداً » . وسيصل التطور في هذه النقطة النهائيه إلى مرحلة التتويج كما يرى تيلارو — ومن المؤكد أن هذا يقارب نيرفانا جيل اليوم السماوية : النجاة الإلكترونيه متنكرة بزي انجاز مسيحي .

وليس مثل هذا الوصف لمملكة العقل المحض النهائية من العلم بل من الميتولوجيا ومن علم المعاد ؛ ومزيته من وجهة النظر المتبناة هنا هي أنه جعل المقدمات العقائدية المستبطنة لميتافيزيك ولاهوت الآلة العملاقة واضحة . واطفاء الشخصية الإنسانية هذا باغراقها في الغلاف العقلي في الكنف الأزلي لألهها الإلكتروني هو في نظر تيلار دي شاردان مصير الإنسان الأسمى . « لقد كتب اننا نتصور الأنا وكأنها ماضية في التفاؤل وفي الإمحاء بفضل التيار المتجه نحو ماهو أكثر واقعية وأبقى في العالم أي الجماعي والشامل » . يرى تيلار أن خواص الشخصية السميا لن تبرز نهائياً إلا في المركز الذي سيجمع فيه الوعي «الأشعة» المتلاقية لملايين من المراكز البدائيه المبثوثة على سطح الأرض المفكرة » .

إن تلك الروح المسيحية التي لم تكن إلا مفرطة في انسانيتها قد ارتكبت ، بافتراضها أنه يمكن لفكرها أن يتوصل إلى نتائج قيمة فيما يختص بالمصير الأسمى للنوع الإنساني وبتجويزها التيارات المعاصرة ، ماهو أسوأ من القطيعة مع الأرثوذكسية اللاهوتية : فتيلار كان بالفعل يدفعه الإعتداد بنفسه إلى أن يوحد مابين فكره الخاص وفكر الإله الجديد ! كان يلعب لعبة الألهة ! زد على ذلك أن تيلار بربطه نفسه

ومستقبل الإنسان على السواء بتأثيرات العقل قد خضع سلفاً للآلة العملاقة وعجل انتصارها بأشد الأشكال الإستبدادية الجائرة الممكنة . وعلى الرغم من أن حجة الأب تيلار كلها قائمة في اطار بيولوجي فانها تستند إلى انكار مايشكل احدى أروع المواصفات المثبتة لكل حياة : وهي وحدة كل جسم حي المطلقة . ومهما كان الشبه بين أفراد النوع الواحد قريباً فليس هنالك في الحقيقة نموذجان متماثلان؛ وهذه الصفة نفسها هي مصدر طاقات الحياة المذهلة وأحداثها غير المتوقعة ومفاجآتها التطورية المدهشة . ويشدد البيولوجيون الآن على أن هذه الواقعة تميز الأجسام الحية عن توحيدات وتوقعات الحياة قبل العضوية من جهة أو عن المصنوعات الميكانيكيه والإلكترونيه من جهة أخرى .

تقع صوفية تيلار دي شاردان الجسمانية إن نظر إليها نظرة سطحية في القطب المقابل للصوفية التكنوقراطية ، لنقل عند بوكمانستر فولر أو مارشال ماك لوهان أو ارتور كلارك ؟ أما إذا نظرنا إليها عن كثب أكثر فانها مثلها معزولة تماماً عن الحقائق العضوية ؛ فبالرغم من الدماثة الإنسانية لشخصيته التي نكتشفها في سيرة حياته بدون تكلف فان رؤية شاردان هي على قدر من التجرد من الشخصية وعلى قدر من المادية السمجة ومن الأوتوقراطية مساوٍ لرؤية خدام الآلة العملاقة الأخرين . وهكذا فانه عندما يتحدث عن الكائنات البشرية من منظور أرضي شامل يعتبرها عادة « جزيئات » كما يتحدث عن العقول البشرية في نفس السياق « كحبوب » أو « حبيبات » .

وعندما ينظر إلى القسمات التي تحقق هوية الكائنات البشرية من مثل هذه المسافة الفلكيه يؤكد بأن صفات وأنماط السلوك التي تميزها

ستزول تماماً باستثناء النشاط العقلي المتخصص الذي يمكن أن يرتبط بعقل أرضي مركزي .

وهكذا يرد شاردان الحياة إلى مجموعة من الرسائل المجردة التي يمكن فرزها وبرمجتها بواسطة حاسبة الغلاف العقلي . وبالنظر إلى موت تيلار دي شاردان المبكر عام ١٩٥٥ فقد فاتته أوسع التطورات في تصميم وتصغير العقل الإلكتروني تلك التطورات التي ربما كانت تثبت بفضل الآلا ت المخصصة تساميه التكنوقراطي واستبداديته الدينية .

أين تقع إذن الصفة الخداعة لهذه الصورة الدينيه والتكنوقراطيه على السواء لمستقبل الإنسان ؟ في المكان نفسه التي كانت فيه في القرن السابع عشر عندما جُمّعت لأول مرة صورة العالم الميكانيكيه الأصلية . إنها تسقط من حسابها أيضاً بشكل جذري أكثر مما فعلت أية ديانة تاريخيه طبيعة الإنسان الكاملة وطبيعة ظواهر الحياة . تقوم اللعبة على رد الحياة إلى وظائف العقل المنظم المجردة . الإعلام مثيل للحياة . لايشكل هذا العقل إلا جزءاً محدوداً من « الظاهرة الإنسانية » على الرغم من أنه قد ضخم اليوم بشكل سمج . وبحذف تيلاردي شاردان عن تصميم لهذه لهذه الواقعةفانهيجعلأوامر العقل غير مشروطة ومطلقة وبالتاليضدالعضوية .

وقد عبر تيلار ، لحسن الحظ ، عن هذا الهدف الوهمي بعبارات خاصة : « المعرفة لذاتها . بالإضافة وربما أكثر من ذلك المعرفة من أجل الحكم » . وقد قال بصراحة أن واجب البشرية الأساسي يقوم على الإدراك بأن (وظيفتها الرئيسية هي النفاذ إلى الطاقات التي تحيط بها وتوحيدها ذهنياً وتثميرها بغية تفهمها وزيادة التحكم بها . . . » وحسب

هذا البيان قد لايمكن التكهن بأن الحياة تبدأ حتى عند أدنى المتعضيات في التنامي المادي والمشاركة البيئية وتتطور عند المتعضيات العليا تسانداً متبادلاً وتكاثراً حيياً وأملاً في التجديد .

وأن أول واجبات الإنسان لتكثيف العقل الأرضي هو ، حسب شاردان ، القيام بشكل صحيح ولكن بوعي وقوة ودءوب أكثر من ذي قبل بما يمضي الرجل الغربي في القيام به ! وواقعة أن كل القوى المبدعة التي ليست من وظائف العقل فقط والتي تسبقه في الغالب وتقويه بل وتسمو عليه سيلغيها هذا التركيز الذهني والذرائعي ، هذه الواقعه لم تثر لدى تيلار أي شك في بنائه الخاص النظري . وليس تراجعه أمام هذه النتائج سوى تراجع عاطفي ضعيف كتراجع ارتور كلارك وهو مثله لايؤدي إلا إلى الكشف عن بطلان حجته . وكمسيحي صالح عضو طيع مستسلم لسلكه الرهباني على الرغم من أنه باطنياً مهرطق فقد ادخل بعد لأي تقريباً مفهوم الحب كوجه من وجوه كل مشاركة انسانية وكتتويج نهائي للحياة . ولكن أية مكانة للحب داخل غلاف عقل اختفى منه الجسد وشكل الحب أو بالحري تبخرا رسائل ؟

كان تيلار دي شاردان يخدع نفسه — فغلاف العقل كما تصوره لا مكان فيه للحب كما أنه لامجال فيه لبروز شخصيات فردية بشكل مكتمل أكثر مرتبطة بالتطورات الكونية ولكنها مع ذلك تتجاوزها على غرار ماوصف اللاهوت المسيحي يسوع المسيح . وعلى الرغم من كل مايقوله شاردان في موضوع الحب ، تلك الخاصة التي تصل الإنسان بأسلافه من اللبونات والتي تحفظه من السقوط إلى عالم الدم البارد عالم العظايات المدرعة والزواحف الطائرة فإنه هو نفسه ينكر مصدر الحب

ذاته ، لأنه يعتبر الشخصية « كخاصة جسميه وراثلة نوعياً ، سجن يجب علينا أن نحاول الفرار منه » . إنه يبتغي تطوعاً الإنتقال من سجن الشخصية الفردية هنا إلى سجن أوسع يتعذر أي هروب منه : سجن الآلة العملاقة الإستبدادية . وتأتي تعابيره بالذات لتدعم من جديد هذه الخاتمة المحزنة .

« ويعود شاردان إلى الظاهرة الإنسانية فيقول : ومهما تكن النزعة الإستبدادية الحديثة فظيعة : أليست هي في الواقع تحريفاً لشيء بديع وقريبة لهذا السبب تماماً من الحقيقة ؟ فما من سبيل إلى الشك بأن الآلة الكبرى البشرية — وهذا التعبير الأخير هو تعبير شاردان نفسه — معدة للعمل ويجب أن تعمل منتجة فيضاً من العقل » . لقد أصبح الأمر واضحاً ؛ إن هدف هذا الفيض هو زيادة نطاق عمل الآلة الأرضية وقوتها . هذا ماكان يجب البرهان عليه . ومالم يلحظه شاردان فيما يختص بعمل هذا الدماغ المتفوق هوأنه وهو يعمل في عالمه الخاص تبعاً لتقلباته الذاتية فانه يتغذى أكثر فأكثر من ذاته مستخدماً معطيات ورموزاً ومعادلات ونظريات ليس لها إلا أوهى العلاقات مع الشخصية الإنسانية أو بالحري مع اكتمال التجربة الأرضية : إنه منفصل عن الواقع إلى درجة أن يسبب له ذلك من كل النواحي اختلالاً . وباختصار ، انه يكرس نفسه لتوسيع سلطان عقل جاف عقيم انسجته المنشطة خالية من الخواص الحيوية . لهذه الغاية يريد تيلار دي شاردان أن يكرس الطاقات الهائلة التي جعلتها التكنولوجيا الحديثة متوفرة . ولايمكن التكهن بأن فيها الحب والحس الجنسي والفن والتكاثر مما يتوفر في عالم الأحلام .

وسواء قدمت بالشكل المحسوس الذي وصفته باسم الآلة العملاقة

أو بالصورة الأثيرية التي كان تيلار دي شاردان يفضل أن يتوسع فيها أي بوصفها « قشرة عقل » ارضي أو عقل مجرد يشمل كل الفعاليات الإنسانية أو بالحري يقلص ويكثف هذه الفعاليات بغية زيادة المعرفة والقوة فان النتيجة النهائية لاتتغير : الدماغ الكبير نظام عالمي للرقابة يتعذر أي هروب منه على هذه الكرة بل خارج هذه الكرة . ومع ذلك فان هذا النظام الإستبدادي كله الأشد فظاعة في تجمعه النهائي من هذه الأنواع الحالية المحدودة أكثر يمثل محاولة ماهرة للتخلص من تذبذبات التغيير الذاتي المبدع مع مايواكبه من حرمانات ومآسي حتمية .وهدف هذا النظام الأرضي سواء بالنسبة لمن يرونه حالياً أو بالنسبة لتيلار دي شاردان يقوم على رد قوى الحياة إلى قوى يمكن معالجتها وتحويلها بيسر من قبل الهه الإلكتروني . وعلى هذا فان الوظائف التي لا تمكن معالجتها على هذا النحو : القصص الإنسانية والمصنوعات الشخصية والجماعية والنشاطات المستقلة والمثل السامية ستنبذ وكأنه لاقيمة لها ؛ أي ، لاقيمة لها بالنسبة للآلة العملاقة

أي مناهض لاكتمال التحول بالنسبة لتطور الرئيسات ! ان لم نتحدث عن تطور الإنسان التاريخي الخاص . إن اللوحة التي يرسمها تيلار دي شاردان لمصير الإنسان النهائي الغارقة بتمامها في الجهاز الأرضي الأعظم المستقل لاتختلف بحالتها اللاشعورية الكاملة وبقدر ماتعنى « بالحبيبات » المبعثرة عن اللوحة التي رسمها رودريك سايدنبرغ . الأجسام شبه البشرية المتبقية ستخفق في فراغ .ميكانيكي — الكتروني صنعه الإنسان نفسه . وستبيد كل وظائف وإبداعات وقوى الإنسان الواحدة تلو الأخرى أو ستؤخذ من جديد بشكل معقم تماماً ومرمز

بغية الإستخدام في الآلة العملاقة ذات الإكتفاء الذاتي التي تلغي كل امكانات التطور الأخرى .

وعلى هذا فان هذا العالم اللامتناهي الديناميكية قد ينتهي رغم طاقته كلها ومجهوده كله في وضع ساكن سكوناً كاملاً إلى تبادل مستمر لرسالات خالية من المدلول يجعل تشوشها نفسه كل تطور واقعي ولو بالفكر متعذراً . مامن شيء قابل للاستشراف وثابت مثل التشوش ؛ فالجدة والإبداعية لايمكن التعرف إليهما في الواقع إلا إذا انبثقتا من النظام.

والأمر الغريب أن حياة على هذا المستوى من الفراغ واللا مسئولية قد وصفها بمحبة فريق ياباني (يقوم بدراسة عما يتعلق « بجهاز الحياة ») . لقد أتى هذا الفريق على ذكر جماعة عظمى على مستوى الكرة الأرضية تستخدم وسائل تقنية لم تخترع بعد وهذه الجماعة تخسف « نحن » لزمياتين و « أفضل العوالم » لالدوس هكسلي . لقد سبق أن قدمت تفسيراً مصوراً لهذا الكائن الأرضي الأعظم مع نص ايضاحي على اللوحة النهائية في كتاب « المدنية في التاريخ ».

ويكفي أن نقول أن ذلك يجسد في الخيال الفكرة التيلاردية عن الغلاف العقلي كوجود جماعي ممثل الكترونيا وآهل بحبيبات بشرية « متحررة » .

وهذه الجزيئات الخافقة مجردة من الوظيفة ومجردة من الهدف مثل الأشباح الشاكية في (هاديس) هوميروس بالنظر إلى أن الفكر نفسه نافلة بالنسبة لهذه اللاكائنات الإنسانية وأن الشيء الوحيد الذي يبقى هو

« المتعة » هذا العنصر التجريدي الأخير من مجمع القوة . ولكن هوميروس كان يعلم أنه يصف جهنم خلافاً لهذا الفريق « الطليعي » . وإذا كانت مثل هذه اللاحياة يجب أن تشكل الهدف النهائي لكل صراعات الإنسان فلِمَ بذل هذا القدر من الجهود لبلوغها .

وعود، ومفاسد، وتهديدات

١ : بدايات الرخاء

لقد أخر انتشار الصناعة الميكانيكية حتّى القرن العشرين عادات ومؤسسات تمت إلى عهد سابق عهد الندرة : عهد كان يتهدده بطريقة مزمنة وفي كثير من المناطق نقص الطاقة غير البشرية والسلع المادية أو حتّى الغذاء اليومي . واستمرت قوانين الإقتصاد تحكم في الوقت نفسه المصنع وساحة السوق ماعدا في المقامرات والمضاربات . وكان من المحتمل دائماً أن يقضي على الهامش الضيق التي كانت تعمل فيه حتّى الزراعة المزدهرة تتابع سنوات الجفاف أو آفة من الحشرات أو انتشار مرض فتاك . وقد قوت صنعياً عادات التوفير الضرورية لتأمين البقاء منذ أول بدايات الحضارة النقص المصطنع : الإنتزاع المتعمد لفوائض المزراعين لمصلحة الأقلية الحاكمة .

وكان النقص الطبيعي والطبيعة المتخلفة للممارسات الزراعية يضاف إليها نقص وحرمانات مدعمة اجتماعياً تشكل محرضات العمل اليومي .

ولكي تفرض في انكلترا التعبئة للعمل التي يتطلبها نظام القوةصودرت الأرض الزراعية المشاع من الفلاحين وخفضت الأجور في الريف وجمع العاطلون عن العمل وسجنوا في « بيوت عمل » أو في مصانع بينما أرسلت زوجاتهم وأولادهم إلى ورشات أو مناجم ليعملوا فيها من أربع عشرة إلى ست عشرة ساعة يومياً مقابل أجر هزيل . وكما لو كان جيريمي

بنتام أبو الذرائعية النفعية يريد أن يعطي صورة ساخرة عن فلسفته الخاصة والممارسة الرائجة على السواء فقد اقترح بالفعل بنية مثالية نصفها مصنع ونصفها سجن وجناحاها خاضعان لرقابة مركزية

ومما لايصدق أن حوالي قرنين تصرما قبل أن تخلص الصناعة الرأسمالية إلى أن تتبين أن هذا التضييق المنظم للأجور وللقوة الشرائية يضائل السوق التي فتحتها لهذه الصناعة المخترعات الجديدة والإنتاج بالجملة .

ومع ذلك فان الصناعة الرأسمالية قد اتخذت رغم كل عرق الشغيلة هدفاً مناقضاً . فقد سعت ، على الرغم من نصحها الفقراء بأن يرضوا بالضنك، إلى تنمية التوسع الصناعي رافعة شعار (ازدياد الحاجات) كأساس ضروري لتطور التقدمات الصناعية . وكان لهذا الترقب أثر معاكس ؛ فالإقتصاد السائر نحو التوسع لم يكن مسوغه الضمان ضد العوز فقط أو تلبيته الأكمل للحاجات القائمة منذ عهد طويل بل مضاعفة عدد وأنواع الحاجات المزعومة ورفع مستوى الحياة أو بشكل أدق رفع مستوى النفقات لدى كل السكان .

وكان هذا المعيار يحدد فيما مضى على مستويات مختلفة حسب الرهط والمهنة والمرتبة العائلية . ووفقاً لهذا المبدأ الجديد اصبح بامكان حتى أدنى عامل أن يأمل أن يوفر لنفسه مع الوقت قسماً صغيراً من ميزات الطبقة الوسطى بينما أن هذه الأخيرة كان بامكانها بفضل تزايد دخولها أن تبيح لنفسها بعض البذخ وبعض الحماقات الطائشة التي طالبت بها الأرستقراطية فيما مضى بوصفها امتيازها الحصري وأخص بالذكر منها عدم الإهتمام بالإنفاق . (وهل الشراء غير المحدود بالتقسيط اليوم إلا « دمقرطة » هذه الرذيلة الأرستقراطية المترسخة ؟) والغريب أن

أبرز أثر للانتاج الميكانيكي كان أولاً أثراً ربما لم يتبينوه تماماً إلا اليوم بينما زالت الظاهرة نفسها .

لقد حرر هذا الإنتاج مع تزايد السكان المرتبط به عدداً متزايداً من الشغيلة المترليين متيحاً بذلك لقسم أكبر من القوى الكادحة بأن تنخرط في الجيش العامل وفي الشرطة البلدية الجديدة وفي الخدمات المدنية . وربما لم تكن الخدمة الإنسانية أبداً في السابق وفيرة ورخيصة في العالم الغربي كما كانت خلال القرن التاسع عشر وحتّى الحرب العالمية الأولى . لقد كان هذا بالنسبة للأثرياء وللطبقات المتوسطة عصراً ذهبياً كما يتبين الجميع ذلك اليوم ؛ والواقع أن هذه الطبقات كانت المتفعة الرئيسة من نظام القوة الجديد بفضل رخص اليد العاملة المترلية والسلع البالغة الغزارة . لقد باشر التنظيم النقابي لحسن الحظ عملية بطيئة لتحسين شروط العمل بتقليص وقت الدوام ورفع دخول عامل المصنع وفي النهاية دخول حرف وخدمات عديدة كانت باقية خارج المصنع .

وعلى كل فان دخول الطبقات الكادحة بقيت رغم التحسينات العشوائية ناقصة في النهاية سواء لتأمين مسكن لائق أو لشراء فائض الإنتاج الميكانيكي وفائض الزراعة الواسعة النطاق ؛ مما أدى إلى اختناقات دورية في السوق تصحح بخفض القيمة أو « زيادة الأسعار » (بواسطة الندرة المفتعلة) مع مايواكب ذلك من خسائر سواء للمساهمين أو للعمال . وكانت هذه الأزمات تعود كثيراً حتّى نعتوها « بدورة الأعمال » . ومع أن خطوطها البيانية المجنونة — المحزنة قد ذللت بعض الشيء على مر الزمن بتأمين البطالة والضمان الإجتماعي ومعاش الشيخوخة فقد بقي النظام نفسه مستعصياً حتّى زمن متأخر عندما أقر زعماؤه واقعة أن قواعد

الشح القديمة يجب أن تنبذ إذا أريد لاقتصاد الرخاء الذي جعله الإنتاج بالجملة ممكناً أن يبلغ درجة كافية من الإستقرار ليواصل توسعه .

وكان تغيير الصورة هذا عميقاً أكثر من امكان حدوثه بين يوم وآخر . وبواسطة سلسلة من المبادآت والتهيئات التجريبية التي يصعب تحديد مكانها أو زمانها والتي تجمعت مع ذلك تدريجياً في سياسة عامة تحول اقتصاد النقص القديم في البلدان المتقدمة بعد العديد من الإنكماشات والعديد من الإنهيارات إلى اقتصاد رخاء أو كما يمكن أن نعبر عنه بطريقة أصح إلى اقتصاد ثراء سيء التوزيع .

وبسبب مردود الصناعة الممكننة الطاقي العجيب فان العديد من المنتجات التي كانت فيما مضى تحفظ للجماعات ذات الدخول الأرفع هي الآن متاحة وبكميات للمستوى الوسط ؛ وعملية رفع المستوى هذه وتوسيع السوق يمكن لها نظرياً أن تتواصل إلى مالانهاية إلى أن تدمر النظام من جديد افراطاته .

وربما تكون الفرجة البارزة في الإنتقال من الإقتصاد القديم إلى الإقتصاد الجديد قد تمت في صناعة السيارة تلك الحالة الكلاسيكية من جميع النواحي.فلقد كان من الضروري بغية الحصول على سوق بالجملة لإنتاج بالجملة ، فيما يختص بآلة على مستوى تعقيد حتى سيارة فورد نموذج T الرخيصة الثمن ، منح قوة شراء اضافية لشريحة من الدخول أوسع بكثير . وقد اعترف هنري فورد بالأمر بوضع سلم أجور أرفع على سلسلة التجميع .وقد أسهم العمال أنفسهم بسهمهم في الرخاء المحدث بالتضييق على عائلاتهم في المسكن أو الغذاء بغية تحويل نفقاتهم إلى السيارة.

وأول دراسة لفريق لندعن « ميدلتون » قد أوضح هذا الإنتقال من الحاجات الأساسية إلى البذوخ الميكانيكية ، وقد تكشف أن نفقات الإستهلاك غير المتزنة هذه هي تنبؤية بالنسبة للنفقات السيئة التوجيه في المجتمع إذا أخذ بمجمله . ولم يكن لأزدياد النتاج القومي الأصلي أثر كبير في اصلاح هذا الإعوجاج . ومع ذلك فعندما أقرت ضرورة الإستهلاك الضخم كملحق لاغنى عنه للانتاج الضخم أصبحت الطريق واضحة لصالح تفضيل الإقتصاد القائم على الرخاء لا على الشح .

وقد أصبحت هذه الفكرة شائعة في وقت مبكر في الولايات المتحدة قبل ازمة ١٩٢٩ — ١٩٣٩ باسم « الرأسمالية الجديدة » وحل شعار « سيارة لكل أسرة » محل شعار هنري الرابع « الدجاجة في القصعة كل الآحاد » . إلا أن ضمور السيولة النقدية والإنهيار الذي تلا أول اقرار لأهمية التوزيع الجماهيري للدخل قد دلا على أن في هذه الصيغة نقصاناً .

وما كان ضرورياً قد برهنت عنه الحرب العالمية الأولى وأصبح مقرراً بشكل وطيد بفضل الآلات العملاقة الوطنية الرئيسية خلال الحرب العالمية الثانية وهو نوع الطلب اللامحدود الذي تجعله الحرب وحدها أو الحرب الزائفة ممكناً .

فقد أصبحت في ظل التجنيد الإجباري « الأمة تحت السلاح » معادلة للأمة في أثواب العمل الزرقاء عند أدوارد بيلامي وقد أضيف إلى ذلك توسع في الإعتماد وضمان للأرباح في الصناعات الحربية ورفع مستوى الدخول للجميع ماعدا الطبقة الدنيا من السكان . والأفضل من كل ذلك استهلاك الناتج السريع بفضل التدمير المتواصل . المقصود هنا هو الإستهلاك الضخم ولكن الحاقد المنتقم .

وكانت نتيجة الحرب نفسها أن انتقل مركز الثقل الإقتصادي إلى الدولة أي إلى الآلة العملاقة الوطنية ؛ وبين اصلاح تدميرات الحرب الحقيقيه واختراع وصنع أسلحة جديدة أكثر تعقيداً وأرفع كلفة من السابق اقترب الناس لأول مرة من الشرط الضروري للاستخدام التام وللانتاج التام و « للبحث والتطور » التامين وللاستهلاك التام .

وبالنظر إلى هذه الشروط « المثالية » (آلات قوية ، ورقابة مركزية ، وتبذير وتدمير بلا حدود) فليس هنالك أي شك في انتاجية التكنولوجيا العملاقة الماثلة وفي واقعة أن قسماً من السكان أوسع بكثير من كل ماسبق يصبح قادراً بأن يفيد من أساليبها ؛ فالصناعة نفسها يمكن في الواقع أن تعوض عن ارتفاع الأجور بتحميل زيادة ثمن الكلفة إلى جمهور المستهلكين المتزايد والذي تهيئه تهيئة مشروطة بعناية الدعاوة والتدريب على ألا يطلب إلا منتجات الجملة التي يمكن أن تباع بربح . وإذا حكمنا على الوضع بالإستناد إلى المنتجات المصنوعة فقط فلا مجال للشك في أن اقتصاد رخاء قد أصبح في حالة انطلاق جزئي .

إلا أن الربح يبدو أكبر على الورق منه في الواقع ؛ لأن مثل هذا التعداد لايحسب حساب الرخاء السلبي الذي رافق هذه المأثرة ؛ فاستنفاد التربة والثروات المعدنية وتلويث الهواء والماء ومدافن العربات الصدئة وجبال الأوراق القديمة والأقذار الأخرى وتسمم الأجسام وملايين الموتى والجرحى على الطرق ، كل ذلك يشكل الفضالات) الحتمية للنظام . والمقصود هنا انبعاثات مجتمع الرخاء السامة ، كما يقال .

وعلى الرغم من أن الحصيلة الكاملة لاقتصاد الرخاء تؤمن ربحاً صافياً

اضأل مما يكون انصارنا المزهوون مستعدين بوجه عام للقبول به إلا أنها تدخل عنصراً هاماً يقابل عدداً كبيراً من نقائصها . ولاريب في أن هذا العامل هو المسئول عن انعدام الحذر الذي رافق تبنيها ؛ وذلك بأنه يجب على نظام الآلة العملاقة ليعمل فقط ألا يزيد المكافآت فحسب بل أن يوزعها على كل السكان . فكرتان مضمرتان في الإنتاج بالجملة لهما مفعول مبدأ أخلاقي انساني إن لم نقل هدفه ، أولاً ان سلع الإنتاج الأساسية التي تشكل نتاج حضارتنا الشاملة يجب عندما تتوفر بغزارة أن توزع بالتساوي على كل أفراد الجماعة ؛ ثانياً أن الفاعلية يجب أن تصان ، كلما كان العمل متوقفاً على الجهد البشري ، لا بالحرمان والقهر والعقاب بل بتفاوتات مناسبة في المكافآت على الأخص . وليست هذه الإنجازات انجازات طفيفة ان لها بالفعل نتائج ثورية .

ولنعط هذا النظام مايستحقه قبل أن نزن ماله وما عليه . يبدو أن دمقرطة الإقتصاد بكامله قد حققت عدداً من الحسنات الإجتماعية الملموسة على عكس الحالة التي سادت الطبقات الكادحة من قبل طوال القرن التاسع عشر وحتى الجيل الحاضر تقريباً في الولايات المتحدة . وواقعة أن الإنتاج بالجملة لم يقيض له أن يكون مجدياً بكميات ضئيلة أو بكميات واسعة الطلب عليها غير مضمون أو غير منتظم ، هذه الواقعة لم تكن في البدء محذوراً خطيراً .

وكانت الفوائض كتلك التي تمتلكها الآن شعوب كثيرة تعد بمئات الملايين معروفة بالتأكيد على نطاق ضيق لدى مجتمعات بدائية متفرقة بفضل انفجارات غزارة طبيعية عارضة ؛ كما في قضية رف ضخم من سمك سليمان في شمال شرقي المحيط الهادىء ؛ حتى أن هذه الجماعات

لجأت إلى أساليب توازن اجتماعي مثل حفلة توزيع الهدايا أو حرية منح الزعماء هبات لأفراد الجماعة المحرومين . ومهما يكن نجاح انكا البيرو في حكم امبراطوريتهم الواسعة فسبب هذا النجاح هونظامهم في التعبئة الذي وان كان في الغالب استبدادياً وقاسياً في تدمير الروابط الجماعية المحلية فذلك لم يكن يقلل من تقديمه الضمان المادي بفضل أوسع توزيع لفوائضهم المحفوظة في الأهراء بطريقة منظمة .

لقد أبطأ الذين يديرون المشروعات الرأسمالية في تفهم منطق اقتصاد الهبات هذا بوصفه نظاماً معدلاً لاقتصاد الربح الخاص بهم . ومن الغريب (أن الأدبيات الرئيسة حول هذا الموضوع ليس مصدرها الولايات المتحدة المتحدة بل فرنسا) .وعلى كل فان شعار « حصص عادلة للجميع » لم يطرحه أبداً لأول مرة حزب العمال البريطاني أثناء حملته الإنتخابية عام ١٩٤٥ : إنه موضوع الفكر الإشتراكي كله من طرف القرن التاسع عشر إلى طرفه الآخر . ومآثر التنظيم والمكننة التي تمت في صناعة بعد الأخرى بالغة أوجها في الإنتاج الحربي قد جعلت موقتاً أكثر آمال الإشتراكية تفاؤلاً قابلة للتصديق : قابلة للتصديق بالتأكيد ومتحققة جزئياً.

وقد اصبحت النتائج الفعلية اليوم جلية ومألوفة في البلدان الصناعية المتقدمة إلى درجة أنها لاتحتاج إلى أن تشرح احصائياً أو أن تروى إلا إذا تم ذلك بأشد التعابير عمومية . ويكفي أن نلاحظ أن معظم المطالب الجديدة الثورية التي رفعت باسم الطبقة العاملة في البيان الشيوعي عام ١٨٤٨ أصبحت الآن منجزات شائعة حتى في بلدان تعتبر أنها متشبثة برأسمالية' الضمان ذات الإحتكار ، أو بتعبير آخر المشروع الحر . وعلى الرغم من أن الرتابة والأعمال المملة لم تستبعد فقد قلصت

على الأقل بفضل انقاص ساعات وأيام العمل إذا لم نتحدث عن استراحات القهوة والأجازات المرضية والتسيب المشروع والإجازات النظامية الأطول . وإذا كانت الملكية والإمتيازات والرعاية السياسية والقوة العسكرية في الفئات العليا لاتزال تتطلب من الجماعة جزية اقتصادية مفرطة فلا ينفي ذلك وجود تساوٍ متزايد في النعم تحت هذه المستويات : العناية الطبية ، التعليم ، الضمان ضد البطالة والعوز ، معونة الشيخوخة : لقد أصبحت هذه النعم الإنسانية متوفرة كلها أكثر فأكثر لا بفضل الجهد الفردي بشكل خاص بل بفضل مجمل انتاجية الصناعة والزراعة .

إن هذا التحول الهائل من اقتصاد تقتيري بوحشيه إلى اقتصاد متع ماض في التوسع يمكن تلخيصه بتضاد وحيد. لقد استطاع ماكولي أن يكتب منذ أكثر من قرن وفي غمار أزمة اقتصادية خطيرة أن من الأفضل أن يموت العمال العاطلون جوعاً على أن تقلص حقوق الملكيه بأية طريقة كفرض ضريبة على الدخل لتخفيف البطالة والمجاعة . واليوم ، على العكس ، بدأ العاطلون في الولايات المتحدة يطالبون لابحقهم في العمل فقط بل بدخل سنوي مضمون ، عملوا أم لم يعملوا .

وبعيداً عن أن يعتبر هذا الإقتراح اقتراحاً جارحاً فقد تقدم به مصلحون ينتسبون إلى الطبقة الوسطى تحت عنوان مموه قليلاً هو « ضريبة الدخل السلبي » . وقد تقدمت أنا نفسي في (التكنولوجيا والمدنية) بفكرة مشابهة بتسمية أصرح هي « الشيوعية الأساسية » مع أنني قدرت في فكري حينذاك ، مالا أزال أفعله ، حداً أدنى من الحد الذي يطلبه الذين تبنوا رأي بيلامي بدون أن يتفحصوا بعين ناقدة المحدوديات

الخطيرة التي تكشفت عنها تجربة برامج الترفيه وبرامج مناهضة الفقر في الدول – الإلهية .

ومع ذلك فعندما أقرت فكرة أن الإنتاج الضخم يستجر الإستهلاك الضخم أدخل عاملان لايزال علينا أن نقدر تقديراً تاماً نتائجهما . احدهما زوال كثير من الصناعات والخدمات الأساسية التي لا يمكن أن تصمد أمام سلالم الأجور المقررة في الصناعات التقنيه العملاقة المغلة والموسعة مالياً .

لم تلغ الأتمتة العمل البشري تدريجياً فقط بل إن هذا العمل قد استبعد من كل الميادين بسبب سعر كلفته الباهظ بالنظر إلى أن العامل يطلب اليوم لقاء خدماته أجراً ساعياً يمكن للانتاج الميكانيكي وحده أن يسمح بدفعه . وعلى الرغم من أن جهوداً تبذل الآن لأختراع مسوخ آلية متعددة الوظائف تصلح للخدمة المنزلية فالمأمول ضئيل في أن تكون زهيدة الكلفة أو اوتوماتيكية إلى درجة أن التنبؤات بالنسبة للقرن التاسع عشر تتضمن توقعات غريبة وان كانت مهددة توقعات عن قضية تنمية ذكاء فصيلة الشامبانزي وفائدتها في الخدمة لترث المهمات التي كان يقوم بها فيما مضى عبدان من البشر .

وهنالك نتيجة أكثر جدية أيضاً تنجم عن زوال شرور المدنية القديمة ، الأعمال اليدوية المنهكة والأعمال الإستعبادية لصالح الجماعات القائدة القاهرة . إننا بدأنا الآن نتحقق بأننا استبدلنا بعبء الإستهلاك الإضطراري الجديد عبء الإنتاج الإجباري . ولكن مبدأ الإندفاع يبقى متضمناً في النظام ويشكل الشرط المحدد بهدف تلقي المغانم . فأمامنا نحن عوضاً عن واجب العمل واجب الإستهلاك ؛ وبدلاً من أن نلزم

بممارسة التوفير نحن الآن متمـلّقون ـــ ماذا أقول ؟ نحن نحرض بالحاح لاتباع التبذير والتدمير الفوضوي . وفي غضون ذلك تواجه شريحة من السكان متزايدة حياة متعطلة ، بدون جهد ومنأناة مادياً ولكن فراغها يتزايد .

وتجابه الآن الجماهير المحررة نفس المشكلة تماماً التي اضطرت كل الأقليات الممتازة أن تطرحها على نفسها عاجلاً أم آجلاً : كيف تستخدم فائض خيراتها ووقتها الحر دون الوصول إلى الاشباع من الأول ودون أن يفسدها الآخر ؟ لقد ظهر مع ازدياد خيرات الإنتاج بالجملة ازدياد في المحاذير غير متوقع ولعل أفتك هذه المحاذير السأم . وما كان ثورستن فيبلن يسميه بسخرية (اتمام الفراغ) هو في سبيله إلى أن يصبح بسرعة البديل الممل الإلزامي للقيام بالعمل .

وهكذا فان البشرية اليوم ماضية في تغيير مسكنها ولكن بالإنتقال فقط إلى جناح حديث من السجن القديم نفسه السجن الذي وضعت أساساته في عهد الإهرامات : انه أفضل من ناحية التهوية وصحي أكثر وأمتع شكلاً ولكنه يبقى دائماً سجناً الهروب منه أصعب أيضاً من كل ماسبق لأنه يهدد اليوم بسجن جزء من الجنس البشري أوسع بكثير ، وبينما كانت الوسائل السابقة للفوز بالإنتاجية والإمتثال بمعظمها خارجية تشجعها أبهة الطقوس الدينية وانتشار القصور فان الوسائل المطبقة على الإستهلاك هي في سبيلها إلى أن تصبح باطنية ولذا فان نبذها بالتالي أصعب . ولكي نقدر كميا تزايد هذه الضغوط النفسية فان ارقام بوتر عن الدعاوة معبرة : لقد أنفق على الدعاوة عام ١٩٠٠ في الولايات المتحدة خمسة وتسعون مليون دولار في السنة وارتفع هذا المبلغ عام

١٩٢٩ إلى ألف ومائة وعشرين مليوناً ثم ارتفع عام ١٩٥١ إلى ستة آلاف وخمسمائة وثمانية وأربعين مليون دولار وتزايد بشكل منتظم منذ ذلك الحين . إن هذه الزيادة الفائقة لشاهد على نمو الإستهلاك الإلزامي حتّى لو أخذنا بالحسبان زيادات السكان والإنتاجية .

٢ : سعر الكلفة والأرباح التقنية العملاقة

لقد تحقق في البلدان الصناعية « المتطورة » التي ترسخت فيها بقوة « الدولة الآلة » كثير من مقدمات التكنولوجيا العملاقة على شكل موجة من البضائع كما وصفها تيليكليدس في الأشعار القديمة التي ذكرتها سابقاً . وليست بعض هذه المنتجات مرغوباً فيها فحسب بل أنها بلغت درجة رفيعة من الكمال التقني . ففي منزلي الخاص مثلاً براد كهربائي يعمل منذ تسعة عشر عاماً احتاج خلالها إلى إصلاح صغير فقط : إنه عمل رائع . والبرادات الأوتوماتيكية سواء للاستعمال اليومي أو للحفظ في درجة حرارة منخفضة هي مخترعات ذات قيمة دائمة .

ومع أنه لايمكن بشكل من الأشكال أن نخص بمثل هذه المدائح تصميم السيارة المعاصرة فلا مجال للشك بأنه لو أقيم وزن للمعايير البيوتقنية أكثر من معايير محللي السوق واختصاصيي الزي أو الطراز لأمكن أن يخرج من دترويت (مكان صنع السيارات) نتاج لايقل جودة عن البرادات مع استخدامه استخداماً طويلاً متواصلاً أيضاً .

ولكن ماذا سيحل بالإنتاج بالجملة ونظامه في التوسع المالي إذا كان الكمال التقني والمتانة والجدوى الإجتماعية وتلبية الحاجة الإنسانية هي

الأهداف الموجهة ؟ إن شروط النجاح المالي الحالي نفسه ، التوسع المستمر في الإنتاج وفي الإبدال يعمل ضد هذه الأهداف . تلجأ التكنولوجيا العملاقة إلى سلسلة كاملة من الوسائل المختلفة لتضمن سرعة امتصاص انتاجيتها الهائلة : البيع لأجل للمستهلك ، البيع بالتقسيط ، تنويعات متعددة ، طرازات غير عملية ، مستجدات مقلدة ، مواد رخيصة ، صناعة رديئة، هشاشة ملازمة أو بطلان اضطراري أثر تغيرات الطراز الكثيرة والكيفية . ولولا الحث الدائم والإغراء بواسطة الدعاوة لتباطأ الإنتاج وتعادل مع حاجات الإبدال الطبيعيه . وألا فمن الممكن أن يبلغ عدد من المنتجات مستوى من الجدوى في التصميم لايستدعي إلا حداً أدنى من التغييرات من سنة لأخرى .

يهيمن الباعث المالي في ظل التكنولوجيا العملاقة على جميع الطبقات بطريقة لاعهد للمجتمعات الزراعية بها . ليس هدف الصناعة في الوجه الأول هو تلبية الحاجات الإنسانية الأساسية بادنى قدر من الجهد المنتج بل مضاعفة عدد الحاجات المقلدة أو الموهومة وملاءمتها مع الحد الأقصى للقدرة الميكانيكية على انتاج ارباح . تلكم هي المبادىء المقدسة لمجمع القوة . والفنانون (الطليعيون) كتنجيلي الذين عرضوا منحوتات معدة للانفجار أو الإنهيار لم يقوموا سوى بترجمة روح التكنولوجيا العملاقة المقنعة تقريباً إلى تعابير جمالية زائفة . إن توسيع الميادين الجديدة بهدف الإستغلال التقني ومضاعفة المنتجات الجديدة يدر اليوم أضخم الأرباح .

وليس الجهد الأقل لهذا النظام هو في إبدال الإصطفاء والتقييد الكمي باستهلاك فوري لاتمايز فيه . لم يحسب أحد بعد آلاف الكيلومترات من الشريط الحساس ولا فراسخ الأوراق الحساسة التي

تستهلك كل سنة بغية أخذ صور آنية كيفما أتفق لاينظر إليها أصحابها أكثر من مرة عندما تعود من التظهير كما لو أن متعة أخذ الصور الآنية بواسطة العيون ، هذه المتعة الحيوية كانت مجردة من القيمة قبل أن تترجم الى معادل تقني . ولا سبيل الى حساب الكيلو مترات التي تلف الكرة الأرضية من العصائب الممغنطة المعدة للحفاظ بدون اختيار على نتائج المؤتمرات الأكاديمية أو مؤتمرات الأعمال التي يمكن بوجه عام أن يتقلص مضمونها الجدير بالذكر ، باستثناء الرواسب التي تخلفها في عقول المشاركين ، إلى بعض الأوراق المطبوعة على الآلة على أبعد حد .

وطبيعة الشريط والورق القابلة للاحتراق تعدل قليلاً هذا الحكم المضاد لأنها ، خلافاً للمنتجات الكيميائية السامة وللسيارات المحدودية ، يمكن بالفعل التخلص منها دون أي مس خطير بالبيئه . ولكن فضيلتها العظمى هي أن تسوغ وتبرر الإختراعات نفسها بتحقيق أرباح ضخمة للتوظيف .(إنني أسارع فأضيف أن أفلام السينما والعصائب الممغنطة والصور المستعملة بدون تمييز هي كلها اسهامات صالحة بالقوة في سبيل السعادة البشرية ؛ وإن هذا النقد هو موجه فقط ضد طقوس الإستهلاك الأوتوماتيكي القاسية التي تفرضها عقدة المتعة المالية) .

غير أن منتجات التكنولوجيا ليست كلها وياللأسف تتدمر ذاتياً بفاعلية كفاعلية أكوام الورق أو المنحوتات المتفجرة ، ولاسبيل إلى التغاضي بسهولة عن استخدامها المفرط . وللحفاظ على الإقتصاد التقني العملاق في حالة دوران بدون عائق مع توسع منتظم لكل جهاز والحفاظ على ارفع نتاج وطني أصلي ممكن يجب أن يتحقق شرطان . ينبغي قبل كل شيء لكل فرد من الجماعة بدافع الواجب أن يشتري ويستخدم ويلتهم ويبدد وأخيراً يتلف كمية من السلع كافية لابقاء جهاز الإنتاج

متنامي دائراً . وبالنظر إلى أن انتاجية هذا النظام هائلة فان الواجب المشار إليه يبدو أثقل مما يمكن أن يظن . والواقع أن التكنولوجيا العملاقة لاتغفل فقط كثيراً من الحاجات والمصالح الحيوية كاسكان الجماعات ذات الدخول المنخفضة ، وهذا مالا سبيل إلى تحقيقه إلا بمعونة ضخمة من الدولة ، بل يجب علىٰ العامل نفسه فيها ليتم واجبه في الإستهلاك أن يزيد من انخراطه في الإنتاج .

وهكذا فان يوم العمل الأقصر الذي وعد به النظام هو في سبيله إلى أن يتحول إلى خدعة . يجب على أفراد العائلة لبلوغ المستوى الأرفع المطلوب من الإستهلاك أن يزاولوا أعمالاً أخرى . إن عادة العمل المزدوج المعروفة في الولايات المتحدة باسم (العمل على ضوء القمر) تصبح عامة بل انها ستزداد بلاريب إذا تتابعت الضغوط الحالية لأجل الإستهلاك . والنتيجة ، باللسخرية ، هي تحويل يوم العمل المؤلف من ست أو سبع ساعات والمكتسب حديثاً إلى يوم من اثني عشرة أواربع عشرة ساعة ؛ وهكذا يعود العامل إلى نقطة انطلاقه مع سلع مادية أكثر من كل ماسبق ولكن مع وقت أقل للتمتع بها وعدم توفر الفراغ الموعود. ويخشى أن تنتزع الحاجة نفسها ربة البيت حتى خلال فترة الحمل من العناية بمنزلها وأولادها لضمان التدفق المناسب للأنفال التي تصون المكانة الإجتماعية .

وليست الضرورة الثانية بأقل إلزاماً من الأولى . يجب على غالبية السكان أن تتحاشى كل أنماط النشاطات غير التي تستلزم الإستخدام المسعور للآلة أو لمنتجاتها . ويندرج تحت العنوان الأول ترك العمل اليدوي والمهارة الحرفية ولو كانا على أبسط قياس منزلي وشخصي .

إن تعاطي أي شكل من التدريب الجسدي واستعمال المعول أو المنشار وقلب أرض البستان أو تعشيبها باليد والمشي أو التجديف أو استعمال الشراع عندما يكون بالإمكان أن يكون للمرء سيارة أو مركب بمحرك ، وحتى فتح علبة بسيطة من المحفوظات أو بري قلم رصاص أو قطع شريحة من الخبز دون استخدام وسيلة ميكانيكيه (والأفضل أن تكون ذات محرك) كل ذلك يعني عدم القيام بالمطلوب.

وكلما كان حد أدنى من النشاط الجسدي ضرورياً للصحة فانه يجب أن يتحقق بفضل شراء آلات للتدريب كالدراجات الثابتة والدالكات الميكانيكيه . وبذا عمم الآن الإحتقار القديم الأرستقراطي للعمل اليدوي من كل نوع .

إن استخدام الآلة بهذا القدر من الإفراط يجعل أي رائزة عملية للجدوى موضع سخرية : إن له قوة الطقس الديني الإلزامي والسجود أمام شيء مقدس .

إن ما لايمكن عمله بواسطة الآلة أو بمساعدتها أو لأجلها يجب ألايعمل أبداً . وقد بلغ الأمر القمة في اعدادات تجهيزات المخيمات في الهواء الطلق تلك الإعدادات التي تصبح بفضلها التجربة التي تقوم قيمتها كلها على العودة إلى أخشن علاقة مع الطبيعة وأشدها بدائية ، مثاراً للسخرية بسبب مايستوردونه إلى هذه البقاع الوحشية من نسخ أمينة عن كل المصنوعات المألوفة الضرورية للحياة في مدينة مزدحمة من أفران المطبخ إلى أجهزة التلفزيون

وقد مضوا في هذه النزعات بعيداً إلى درجة تسمح باستشراف

نتائجها النهائية إذا لم تحدث أية حركة معاكسة . إن انتصار المجتمع التكنوقراطي النهائي سيكون تدعيماً لكل فعالية بشرية ضمن نظام اوتوقراطي أحادي . وسينتج ذلك نمطاً من الحياة تلغى منه أو تستأصل كل الوظائف التي يمكن جمعها في النظام . وقد يبدو هذا التوقع ، إذا نظر إليه بحد ذاته عندما تصبح خطوطه الكبرى بادية علناً، راعباً إلى حد يكفي لتحريك رد فعل بشري ساحق . وإذا كان رد الفعل هذا لا يزال حدوثه ينتظر فسبب ذلك لايبحث عنه بعيداً . وعندما تقبل هذه الحدود تشيع التكنولوجيا العملاقة حتّى في شكلها الحالي نصف المنضج فساداً هائلاً معداً لأن يصبح أكبر وأكثر جاذبية كلما تكاثرت الآلة العملاقة نفسها وتراكمت وتدعمت .

وفقدان الإستقلال هذا بغية زيادة خدمات التكنولوجيا العملاقة ينطوي أيضاً على شرط : يجب عدم المطالبة بسلع أخرى غير السلع التي تقدمها الآلة العملاقة خلال السنة الجارية ؛ كما يجب كذلك عدم السعي إلى الإحتفاظ بكل السلع التي تبين أنها متينة وممتعة إلى درجة أن تفضل على السلع المقترحة إلى مابعد نصف المدة المحددة لها . وهذا يعني أنه يجب ألا ينشد أي نوع من الحياة سوى النوع الذي يمكن أن يعاش في إطار الزي الرائج ، كما هو مرسوم . أما أن يعيش المرء حياة منفصلة بأية طريقة عن المجتمع التقني العملاق إذا لم نقل أن يجرؤ على أن يكون مستقلاً عنه أو متمرداً على متطلباته فالأمر لايعتبر أقل من شكل من أشكال التخريب وهذا سبب الغضب الذي يثيره الهيبيون بمنأى تماماً عن كل سلوك غير مستقيم . إن الإعتزال التام هو هرطقة وخيانة حسب لغة التقنية العملاقة إن لم يكن دليل عقل مختل . ربما لايكون كارل ماركس هو العدو الرئيسي لاقتصاد الرخاء بل هنري تورو .

٣ : فساد التقنية العملاقة

من المحتمل أن يبدو فساد التقنية العملاقة صفقة جيدة إن تفحصناه بدون مبالغة في الإحتراس . إنهم يوفرون للمستهلك كل مزاياوامتيازات واغراءات ومتع مجتمع الإستهلاك بشرط أن يوافق على قبول ماتقدمه التكنولوجيا العملاقة بكميات تكفي لتوسع كل نظام القوة توسعاً متواصلاً . وإذا ماأمسك فقط عن طلب سلع أخرى أو خدمات غير التي يمكن تنظيمها أو صنعها بواسطة التكنولوجيا العملاقة فانه بلا ريب سيتمتع بمستوى رفيع من الثقافة المادية أو على الأقل بنوع ما مخصص منها لم يبلغه أي مجتمع آخر من قبل . وعلى كل فسيغزو الترف أكثر من الرفاهة على الرغم من أن كثيراً من الحاجات الإنسانية الأساسية التي لاتدخل في نطاق التكنولوجيا العملاقة قد حذف بسبب فقدان التغذية . ومن المفترض في « مدينة السرور » ألا يلحظ فقدانها .

ولايبدو أوسع تطور لهذه التكنولوجيا المركزة على الخداع حتمياً فقط بل مرغوباً فيه : إنه المرحلة التالية للتقدم في نظر أفراد كثر من المجتمع الأميركي الذي سارع إلى القبول بهذا النظام تحت عنوان خادع هو (المجتمع الأعظم) أو اقتصاد المدينة العملاقة . ومن يجرؤ على مقاومة التقدم ؟ إن الناس الذين تدللهم الدولة — الآلة بما فيه الكفاية لاينشدون ، وهم يتلقون المكافأة الملائمة ، شيئاً أفضل مما تقدمه السوق .

إن الذين أعدوا اعداداً مشروطاً منذ الطفولة الأولى بواسطة التهيئة المدرسيةووصاية التلفزيون لاعتبار التكنولوجيا العملاقة كاعلى نقطة من نقاط تسلط الإنسان على الطبيعة سيتقبلون هذه الرقابة الإستبدادية لتطورهم الخاص لا كتضحية رهيبة بل كانجاز مرغوب فيه جداًمنتظرين

بفارغ الصبر أن يربطوا بطريقة دائمة « بالعقل الأعظم » كارتباطهم الآن بمحطات الإذاعة وبأجهزة الترانسيستور المحمولة حتى عندما يسيرون في الشارع . إنهم يأملون أن تحل كل المشكلات الإنسانية بالنسبة إليهم بفضل تقبل هذه الوسائل وستكون الخطيئة البشرية الوحيدة هي عدم اطاعة التعليمات . وستكون حدود حياتهم الحقيقية في نطاق شاشة التلفزيون .

أفي هذا مبالغة خشنة عن الإنجازات والمشروعات والوعود الحالية ؟ أيمكن ألا يكون ماذكرناه ، سوى تخيلات خرقاء لايغذيها جدياً أي انسان متزن العقل ؟ كلا وياللأسف ! إن من المتعذر المبالغة . لننظر إلى الجداول الرائجة للاحتمالات التكنولوجية والعلمية التي اقترحها لعام ٢٠٠٠ ناطقون باسم هذا النظام مثل هرمن كاهن وب . ف . سكنير وغلين سيبور ودانيل بل دون التعرض للمفكرين التكنوقراطيين الأقل تحوطاً أيضاً .

يبدو هذا المنظور كله بالنسبة لكثير من الناس الصديقين محمساً ولا يقاوم أيضاً . انهم الآن كالذين أصبحوا نهائياً ملمنين على التلخين ، ينذرون أنفسهم بهذا القدر إلى « التقدم » التكنولوجي الذي يجهلون تهديده الحقيقي لصحتهم ولتطورهم العقلي أو بالحري لحريتهم . فالحياة التي تقتضي الإضطلاع بمسئولية شخصية وممارسة جهد شخصي تبدو لهم لا واقعية طوباثية وكذلك الوضع الطبيعي لكل الأجسام الحية الوضع الذي يبلغ عند الإنسان أوج الغائية الواعية .

إن هذا الإقتصاد الجديد قد حل الرابطة المألوفة بين الممتلكات والجهد الشخصي المكافىء بالتلويح بالرخاء بلا جهد كهدف أعلى للأتمتة

مع الحيازة والإستهلاك الدائمين باعتبارهما واجباً وطنياً . سيكون كل شيء عما قريب ، نظرياً ، تحت تصرف من يطلبه . وقد بدأ عدد متزايد من القناصة الأخلاقيين تلبية لتحريضات رجال الإعلان المسعورة على الإستهلاك المباشر يستعملون كل السلع التي يكتب لها أن تقع في أيديهم بدون أن ينتظروا هذا اليوم الموعود . فالسرقة العلنية والسرقة العادية والنهب وقطع الطريق تلك الجرائم التي كان يرتكبها فيما مضى أناس مناهضون للمجتمع أو أناس على قدر موئس من البؤس قد أصبحت من الممارسات المتعاظمة بين أناس (فقراء) و (محرومين) بمعنى أنه لن يكون بمقدورهم أن يمتلكوا عن طريق الشراء أو الهبة المجانية كل السلع التي يعلن مجتمع الإستهلاك بالحاح أنها أساسية لسعادتهم . والسرقة وحدها يمكن أن تسد حاجاتهم الجشعة ، ولابد لمثل هذا الإنحلال الأخلاقي من أن يحبط حتى أعدل نظام توزيع .

إن مدمني الآلة هؤلاء مستعدون أن يتخلوا عن امتيازاتهم ككائنات حية طلباً للرخاء المادي والرمزي بواسطة النافل المؤتمت ؛ انهم مستعدون أن يتخلوا عن حقهم في الحياة وفي تحريك كل اعضائهم بدون تدخل شبه رسمي وفي أن يروا بأعينهمالذاتية ويسمعوا باذانهم ويعملوا بأيديهم ويتحركوا على سوقهم ويفكروا بعقلهم ويتعرفوا إلى الإشباع الجنسي وينجبوا أولاداً بعلاقات جنسية مباشرة وبالإختصار أن يتصرفوا بصفة كائنات إنسانية كاملة حيال كائنات انسانية أخرى كاملةوبارتباطات مستمرة في الوقت نفسه مع البيئةالمرئية والتراث الثقافي التاريخي الهائل الذي لاتشكل التكنولوجيا نفسها سوى جزء منه .

وقد رضي قسم لايستهان به من السكان ، بغية التمتع بالأتمتة

الشاملة ، أن يتحول إلى مسوخ آلية أو أن الأمر كان من الممكن على الأقل أن يبدو كذلك لولم يشر العدد المتزايد من الأعطال والتقهقرات إلى أن هذا التطور الذي لايقاوم في الظاهر هو في الحقيقة عرضة لمقاومات على نطاق كان ينبغي قبل ذلك بكثير أن يزعزع ثقة كهنة وأنبياء هذا النظام .

وهنالك أمر على الأقل يجب ألا يتأخر عن أن يصبح واضحاً : عندما تختار أغلبية أية أمة التكنولوجيا العملاقة أو بالحري تقبل سلبياً النظام بدون طرح أي سؤال لايبقى أمامها أي خيار آخر . إذا وافق الناس على التخلي تخلياً تاماً عن حياتهم من المنبع ، فان هذا النظام التسلطي يعد بسخاء بأن يجعلها بقدر الإمكان متدرجة ميكانيكياً ، متكاثره كمياً متخيرة علمياً مشروطة تقنياً معالجة وموجهة وموزعة اجتماعياً تحت اشراف بيروقراطية مركزية . وما كان لايصلح في البدء إلا لزيادة كمية السلع ينطبق الآن على كل وجوه الحياة . والفرد الذي يتقبل مجتمع التقنية العملاقة يمكنه أن يحصل على كل مايتتجه النظام شرط أن لاتكون له ولا لجماعته أية رغبة شخصية وألا يقوموا بأية محاولة شخصية لتغيير النوع أو تقليص الكمية أو التشكيك بكفاءة « المسئولين » فيه . والخطيئتان اللتان لاتغتفران أو بالحري الرذيلتان المستحقتان للعقاب في مجتمع كهذا هما العفة والإصطفائية .

ويسأل دعاة النظام « ولكن أليست هذه صفقة مشروعة ؟ » . « ألا توفر التكنولوجيا العملاقة بفضل سحرها الخاص المدهش أكثر فأكثر قرن البحبوحة الذي حلمت به الإنسانية دائماً ؟ » هذا صحيح تماماً . ان عدداً من السلع التي توفرها اليوم التكنولوجيا العملاقة وأكثر منها

تلك التي تعد بأن تعممها بشكل أوسع في المستقبل هي نعم حقيقية :إنها السلع الموحدة على مستوى رفيع المجدية « ميكانيكياً ، المجسدة ، على الأقل في أفضل نماذجها ، وهذا التراكم الهائل من المعارف العلمية المنظمة المقارنة المجربة التي زودت الإنسانية في عصرنا بقوى لم تمتلكها أبداً فيما سبق ولم تجرؤ حتى على أن تحلم بها . وإذا كان لايمكن أن تفهم وتطبق بشكل تام هذه المعارف إلا أقلية رفيعة الموهبة من الخبراء في الفكر التجريدي مع أنه غالباً مايكون من نعنيهم أطفالاً فيما يتعلق بالتجربة البشرية الثابتة فماذا نقول عن النعم التي يتمتع بها اليوم أصحاب أضيق العقول أنفسهم . ألم يسبق ان حدثت في حضارات أقدم مساواة في الخيرات غير معروفة حتى الآن تقريباً لدى المجتمعات المتحضرة مع انها كانت عامة رغم الفقر ؟

ألا تستحق البرادات والسيارات والطائرات الخاصة وأجهزة التدفئة الأوتوماتيكية والهواتف وأجهزة التلفزيون والغسالات ذات المحرك الكهربائي أن تقتنى ؟ وماذا نقول عن المنجزات الأخرى التي ألغت الأعمال المضنية كالبلدوزر والسيارة ذات الشعب (ومصعد الأمتعة الكهربائي وسير النقل وألوف من الإختراعات الأخرى المفيدة ؟ ماذا نقول عن الأعباء العقلية الرهيبة في ميدان المحاسبة تلك الأعباء التي ذهبت بها الحاسبة الإلكترونية ؟ وماذا نقول عن أجهزة الجراح وطبيب الأسنان المرهفة ؟ أليست هذه مكتسبات عملاقة ؟ ولم البكاء إن سقطت بعض المنتجات القديمة والمتع القديمة من خلال حلقات هذه الشبكة الكهرميكانيكية ؟ هل يبكي أي شخص عاقل على زوال العصر الحجري القديم ؟ وإذا كانت كل هذه السلع معقولة ومرغوباً

فيها فردياً فبالاستناد إلى أي شيء يمكننا أن ندين النظام الذي يمثلها جميعاً؟ هذا مايصرح به الناطقون الرسميون .

نعم : إن هذه الإدعاءات وهذه الوعود هي صالحة وهذه الإنجازات هي حقيقية إن لم نفحص كل واحد على حدة إلا المنتجات المباشرة للتكنولوجيا العملاقة . فمحاسنها المنفصلة غير قابلة للنقاش إن فصلت عن الأهداف الإنسانية الطويلة الأمد وعن نموذج معبر للحياة . يجب ألا تزدرى كيفياً أو تهمل ويجب أكثر من ذلك أيضاً ألا تستبعد عن متناول اليد أية أنماط ناجعة من تنظيم التكنولوجيا العملاقة وأية اختراعات للاقتصاد بالعمل وأي واحد من منتجاتها الجديدة مهما كانت جريئة في انفصالها عن الأشكال القديمة . ويجب أن يضاف إلى ذلك شرط واحد تحاشى المدافعون عن مجمع القوة بعناية أن يعترفوا به . لاتبقى هذه النعم كلها صالحة إلا إذا لم تهمل أو تستأصل مصالح انسانية أهم .

إن كثيراً من وعود فرنسيس بيكون بقيت صالحة وثبتت فيما بعد . وكل ما أحاول أن أوضحه هنا هو أن هذه الوعود ليست غير مشروطة . وعلى العكس من ذلك فان اتمامها الوحيد الجانب بصيغ لاتلبي إلا مقتضيات التكنولوجيا العملاقة هذا الإتمام الذي يحرض إلى مالانهاية (مركز المتعة) البشرية المجرد من هدف الربح دون أن يحسب حساب للوظائف والأهداف الإنسانية الأخرى ينطوي على مثالب فادحة يجب الإقرار بها ودفعها عن تصميم . المساوىء الناجمة عن التكنولوجيا العملاقة لاتتأتى من احباطاتها وأعطالها بل من نجاحاتها غير المحدودة في التضخيم الكمي . لقد كانت هذه النقائص موجودة في تصور صورة العالم الميكانيكية ذلك التصور الذي يولي الحاجات العضوية وعمليات

رد الفعل العضوية ظهره ويلح ويبالغ في الإلحاح على الكمية والسرعة كأن الكمية تضمن بذاتها قيمة النتاج الكمي .

إن من البدهي إذن أن المنتجات الميكانيكية أو الإلكترونية ليست بصفتها هذه هي مايتهمه المفكرون الأذكياء بل النظام الذي انتجها دون الرجوع باستمرار إلى الحاجات الإنسانية ودون أي تصحيح محسوس عندما لاتلبى هذه الحاجات . لقد تسرب هذا الحكم النوعي من جديد منذ الآن ببطء إلى النظام نفسه لحسن الحظ على شكل تقديرات (سعر الكلفة — الربح) يطبقها المهندسون والإداريون : إنه اعتراف قاطع بواقعة أن الأرباح الميكانيكية كانت تتحقق في الغالب مقابل خسائر اجتماعية كبيرة وإنه يجب قبل قبول العطايا التي تقدمها التكنولوجيا العملاقة بلاشرط أن نتفحص الخسائر التي ترافقها ونقرر إذا كانت الأرباح تبرر هذه الخسائر ؛ وإذا كانت بالفعل مرغوباً فيها على المدى الطويل إن كان مرغوباً فيها في الآونة الحاضرة .

وربما لاتشغل المعايير المالية المحضة داخل الإقتصاد البيو— تقني إلا مكاناً ضيقاً في مثل هذه الإعتبارات .

٤ : التكمية بدون النوعية

إن أخطر نقيصة من نقائص التكنولوجيا العملاقة النقيصة التي لاتقبل الإصلاح حسب المبادىء المتجسدة تاريخياً في مجمع القوة تنبجس مباشرة من تجلياتها الملوخة : فالحياة الإنسانية معرضة إلى أن تختنق وتبهظ في مائة مكان بسبب الإسراف الكمي فقط بدءا من الإسراف في الولادات .

ونستطيع الآن أن نتأكد أن هذا الإسراف لايجر مغانم ايجابية فقط بل نفقات فادحة ومحاذير مخربة ؛ والأسوأ من ذلك أن مجمع القوة يزدهر بانتاج السلع السلبية كالسجائر والمبيدات مثلما يزدهر بانبات النباتات الغذائية ، والأرباح التي تجنى من مثل هذه المنتجات القاتلة هي في الغالب ارفع بكثير .

بيد أن اكتشاف حقيقة أن التكمية ليست خيراً بذاتها قد تم منذ قرون وقرون في وقت كان يمكن فيه للأقلية المحظوظة فقط أن تكون على رأس السلع والخدمات بكمية غير محدودة نسبياً . إن أول تحد حقيقي لنظام القوة القديم المتمدن الذي كان البشير باقتصادنا ، اقتصاد الرخاء الحديث، قد حدث ، كما برهنت على ذلك سابقاً ، مابين القرن الثامن والقرن السادس قبل المسيح عندما أدخلت أفواج متتابعة من الأنبياء والفلاسفة ، الذين أدركوا النتائج الإنسانية القاتلة للسعي بدون تقييدلنيل كميات غير محدودة من الغذاء والخمر والمتعة الجنسية والمال والقوة ، نظاماً جديد من المراقبة الطوعية . ولم تعد أنماط الإستهلاك الإستعراضية التي اتصف بها الأثرياء والأقوياء مقبولة كنماذج مرغوب فيها للانجاز الإنساني ؛ ونادت الديانات والفلسفات المحورية بدلاً منها بالزهد والإعتدال وتقليص الحاجات النافلة والرغبات المتقلبة والأنانية وذلك لمصلحة التوازن الداخلي والسمو الروحي معاً .

وعلى الرغم من أن الحضارة كانت إلى حدما واقعة تحت تأثير هذه الديانات والأيديولوجيات المحورية منذ ألفين وخمسمائة سنة بوجه الإجمال فقد فشلت ، حتى في لحظات ذروة تقبلها وأعظم انجازاتها ، في أن تحل تماماً محل نظم القوة السابقة أو أن تمنع النظم الحالية . وذلك

لسببين . لم يصبح أي من أنماط التفكير الجديدة هذه موطداً إلى درجة كافية لإزالة مؤسسات المجتمع القديم السائدة — الحرب ، الإستعباد ، نزع الملكية الإقتصادية — أو للتغلب على الضلالات الإجتماعية التي كانت ترتكز هذه المؤسسات عليها . ولكن الواقع أن نظم الزهد فيها لم تكن معدة لتكسب مكافآت في هذه الحياة بل لتجعل المؤمن راضياً رغم غياب هذه المكافآت أو تجعله يأمل في تعويض بفائدة مركبة في حياة وهمية أزلية بعد الموت .

وبالنتيجة فان ما حققته الديانات المحورية كان قليلاً باستثناء طراز من العلاج ضعيف الضمانة خصوصاً بفضل الصدقة الطوعية للتيقن من أن سلعاً بمقادير كافية قد وزعت بالقسطاس على الجماعة بكاملها . وإلحاحها الحصري على نوعية الحياة وعلى المكافآت الداخلية والذاتية لم يكن من شأنه إلا قلب النزعة الأقدم للتركيز المفرط على القوة المادية ؛ بينما أن توازن عناصر القوة والمحبة الكمية والنوعية ضروري بالنسبة لكل الأجسام السامية بغية تأمين أفضل حياة ممكنة . فلا القوة غير النوعية ولا الفضيلة العاجزة تحلان حلاً ملائماً المشكلة الإنسانية .

وبأخذ اقتصاد الرخاء بالإعتبار فان هنالك موازاة بين الموقف ذي الحدين الذي يجابهه الآن الإنسان الحديث بسبب تكنولوجيته والموقف الذي طرح منذ زمن طويل في الطبيعة بفعل زيادة الخصب في تناسل الأنواع الفردية . وقد ظهر للبيولوجيين منذ عهد بعيد أن القدرة التناسلية لدى أي نوع ، حتى لدى بعضها الذي لايحتل اليوم إلا قطناً متواضعاً ، ستكون كافية لإغراق الكرة الأرضية بذراريها ان تواصل الأمر دون احباط . إن الطبيعة تستخدم لحسن الحظ مجموعة كاملة من الأساليب

التحديدية التي تحبط ، على مدى أية فترة كافية من الزمن ، الزيادة الكمية الناشزة وتقيم التوازن .

لقد حافظت الشعوب الإنسانية على نظامها الحسن عندما واجهت في الماضي تهديدات مشابهة ، لابواسطة التقليصات المعيارية التي كان يجريها المرض والحرب والمجاعة بل بواسطة قتل الأطفال والجماع غير الكامل واللواط والعفة الطوعية تضاف إليها بالمناسبة مانعات الحبل التجريبية .

إن لدينا الدليل عن التزايد المتواصل ، مع أنه غير منتظم ، لسكان العالم باكمله خلال القرون الثلاثة الاخيرة لأسباب يبقى شرحها عسيراً بالنظر إلى أن ذلك قد حدث في مناطق لم تشهد اية زيادة هامة في الموارد الطبيعية ولا في الانتاجية الصناعية وأي تغيير جدي ، كما يبدو ، في العادات الجنسية أو الصحة الجسدية . ومهما تكن تلك الاسباب والأوضاع المتنوعة فان ما يسمونه الانفجار السكاني ترافق مع انفجار الحضارة الغربية التكنولوجي : وللاثنين غاية مشتركة هي اتلاف الحياة .

لقد كان الإدارك بان هذا التكاثر في التناسل البشري لا سبيل إلى استمراره إلى ما لا نهاية بطيئاً في تنبهه ؛ ومع ذلك فان الوعي الأول للاخطار كما يبدو في بحث توماس مالتوس عن الديموغرافيا (علم السكان) يضاف اليه اختراع أول مضادات الحمل الشعبية الرخيصة وخصوصاً الحمام المعقم قد بطأا معدل التزايد حتى أن اخصائيين في الديموغرافيا (علم السكان) كانوا يأملون في بلاد كفرنسا وانكلترا في فترة متأخرة لعام ١٩٤٠ أن يصلوا إلى التوازن بعد جيل أو يأملون حتى أن يصلوا إلى الانكماش في بلد كفرنسا . لم تتحقق هذه التنبؤات ؛

ولكن قضية حدوث تباطؤ بالفعل تدل على أن التضخم الكمي البيولوجي كان تحاشيه ممكناً ويبقى ممكناً كذلك باستخدام القدر الكافي من الذكاء التطبيقي . إن مختلف اساليب منع الحمل الضرورية بغية مضاءلة تزايد السكان في العالم بأكمله إلى الحد الافضل المرغوب فيه اجتماعياً واقتصادياً هي في متناول اليد بثمن زهيد نسبياً . والعراقيل الباقية هي نفسية وايديولوجية لا تقنية .

لم تضع التكنولوجيا بعد من الداخل ، وياللأسف ! كما أنها لا تأمل بالاستناد إلى محرضاتها الاقتصادية الاثيرة إن تضع أي حد لتكاثر الآلات أو منتجاتها : إلى هذا الحد تتبع القوة كما يتبع الربح انتاج المزيد من السلع للمزيد من المستهلكين وقضية تأمين الاستهلاك في اقصر فترة من الزمن ممكنة .

زد على ذلك بانه إذا استمر نظامنا التقني العملاق الماضي في التوسع بدون تغيير في اتجاهه الحاضر ، فمن المحتمل على الامد الطويل ويقصد هنا بالامد الطويل فترة تقل عن قرن بلا ريب ، ان يجعل الكرة الارضية كلها غير صالحة للسكن بالنسبة لكل من يشبهون سكانها الحاليين والخلاصة انهم إذا لم يوقفوا القوى المجنونة التي تعمل الآن فسيقضى حتى على السكان القلائل . عندما يدافع عالم حسن السمعة كالدكتور لي دي بريدج عن الاستعمال المباشر على نطاق واسع لمبيدات الحشرات ومبيدات الجراثيم والمنتجات الصيدلانية التي قد لا تقل عنها خطراً بقوله انه قد يلزم عشر سنوات لتجربتها بشكل كاف وللتأكد من قيمتها ومن أنها غير مؤذية وإن الصناعة لا يمكنها الانتظار فمن الجلي أن تقديس الدكتور

دي بريدج العقلاني للعلم ثانوي بالنسبة إلى الضغوط المالية وإن انقاذ الحياة البشرية لم يعد بالنسبة للصناعة موضوع اهتمام عظيم .

ولم ينجم ذلك عن نقص التحذيرات الواسعة فيما يتعلق بالتطبيقات السيئة للعلم والتكنولوجيا على السواء خلال القرن الاخير . فقبل صدمة القلق العنيفة التي لوحظت لدى استبعاد مبيد الحشرات (D.D.T) سجلت حلقة بحث ويزجرين عام ١٩٥٥ اثناء تحريها عن « دو ر الانسان في تغيير وجه الكرة الارضية » الضرر الواسع الذي سببه للبيئة تطبيق التكنولوجيا السيىء واللامسؤول ؛ وقد اوضحت الموقف بسرعة مدهشة التحليلات الحديثة التي قام بها كثير من علماء البيولوجيا الاكفياء الآخرين وخصوصاً راشيل كارسون وباري كومونر .

والذين لا يرون في التكمية أي تهديد شخصي لا بد من أن يكونوا مستعدين للاعتراف بنتائجها التي يمكن البرهان عنها احصائياً : في الاشكال العديدة لتردي المحيط وللاختلال البيئي التي نجمت عن فضلات اقتصادنا التقني العملاق. وما يدعو للسخرية في أثر التكمية هوان عدداً من اشهى نعم التكنولوجيا الحديثة تزول جاذبيته عندما يوزع بالجملة أو عندما يستخدم بطريقة مستمرة جداً ومفرطة في الاوتوماتيكية كما هي الحال مع التلفزيون . والانتاجية التي يمكن أن تتيح هامشاً واسعاً من الخيارات في كل النقاط مع مراعاة أكبر للحاجات والافضليات الفردية تصبح بدل ذلك نظاماً يقصر ما يقدمه على ما يمكن أن يحقق له طلب ضخم . وعندما يتجه في يوم واحد ايضاً عشرة آلاف شخص بسياراتهم نحو مكان مسرحي أقيم في قلب الطبيعة « للتقرب من الطبيعة » يختفي المكان الوحشي لتحل محله المدينة العملاقة .

وقصارى القول أن التكنولوجيا العملاقة التي بقيت بعيدة جداً عن حل مشكلة الندرة لم تفعل سوى أن قدمتها بشكل جديد حله اعسر ايضاً . الحصيلة : نقص خطير في الحياة ناجم مباشرة عن غزارة لا يمكن الانتفاع بها ولا تطاق . إلا أن القدرة تبقى : لا بالسلع المادية المصنوعة بواسطة الآلة أو الخدمات الميكانيكية مؤكداً ولكن بأي شيء يفترض امكانية تطور شخصي اغنى قائم على قيم غير الانتاجية والسرعة والقوة والهيبة والربح المالي . فليس في البيئة بمجملها ولا في الجماعة الفردية أو شخصياتها النموذجية أي اعتبار للشروط الضرورية التي تيسر التوازن والتطور والتعبير الموجه . ولا تكمن النقائص التي بحثناها في المنتجات الخاصة بل في النظام نفسه . إن ما ينقص هو الاجابات الحساسة والتقديرات والتلاؤمات اليقظة والمراقبات الملازمة والتوازن الحسن بين الفعل ورد الفعل ، التصريحات والنواهي التي تبديها كل المنظومات العضوية وخصوصاً طبيعة الانسان الخاصة .

كتب غوته « انما يعلن المعلم عن نفسه بتقييداته » وهذه الحقيقة لا تنطبق فقط على الكتاب العبقريين بل على كل الاجسام : والحديث عن الاجسام هو حديث عن التنظيم الاصطفائي والتحديد الكمي . فكل حياة موجودة وسط هامش ضيق من الحرارة والبرد ، ، التغذية والجوع ، الماء والظمأ : ثلاث دقائق بدون تنفس تسبب موت الكائن البشري ؛ وبضعة ايام بلا ماء وشهر بلا غذاء وهاهو يختفي . غير أن الاسراف هو شر كالافراط في الاقلال .

وعلى الرغم من أن الزيادة الكمية المختزنة كاحتياطي تلعب بالفعل دوراً اساسياً في الحفاظ على توازن الجسم وتجعل الحرية والبحبوحة ممكنتين فالانسان لا يزدهر باستعمال كميات غير محدودة .

والذي افتقدته اجمالاً الع مآثر التكنولوجيا الحديثة انما هو بالضبط الصفات العضوية النوعية التي تنكر لها أولاً بشكل منظم غاليليو وديكارت واتباعهما اللاحقون ثم رفضوها .

٥ : تهديد النزعة الطفيلية

إن الفساد الهائل الذي يطرحه الأمن والفراغ والثراء في ظل اقتصاد الرخاء على النطاق المحدود القائم في الولايات المتحدة حتى الآن ينطوي أيضاً ، وياللأسف ! على محذور لا يقل عنه هولاً : انه الخوف من نزعة طفيلية شاملة . لقد كانت للحضارات السابقة مناوشات مع هذا العدو : فقد استهوى رواد عوليس لدى آكلي اللوطس نظامهم المعسول ويسرهم الحالم إلى درجة أن الأمر استلزم انقاذهم بالقوة . لقد اكتشف أكثرمن امبراطور أو حاكم مستبد ان التسامح بشكل تشجيعات وتدريبات حسية يمكن أن يكون أجدى من القسر لضمان الطاعة . وما أن يستقر الطفيلي حتى ينتحل شخصية مضيفه ويسعى إلى زيادة ازدهاره .

ولما كانت النزعة الطفيلية قد روقبت على نطاق واسع في المملكة الحيوانية فان لدينا المعطيات الكافية لنتكهن دون أن نخشى الخطأ كثيراً بنتائجها الانسانية النهائية .

بيد أن التكنولوجيا العملاقة تقدم مقابل تقبلها الاعمى كهدية حياة بدون جهد : فيضا من السلع المسبقة الصنع التي يحصل عليها بادنى حد من النشاط المادي وبدون منازعات منهكة أو تضحيات قاسية ؛ حياة قائمة بطريقة ما على نظام الدين ومع بطاقة اعتماد بدون حدود لا يظهر

فيها الحساب النهائي من غثيان ويأس وجوديين الا باحرف صغيرة.وإذا كانت العينة المحظية مستعدة أن تتخلى عن الحياة الحرة والحركات الطليقة المستقلة ذاتياً أمكنها ، بارتباطها الدائم بلويثان مضيفها ، أن تتلقى عدداً كبيراً من السلع التي كانت تضطر فيما مضى أن تنهك نفسها للحصول عليها وتتلقى في الوقت نفسه علاوة واسعة من النوافل الممنوحة لتستهلكها بلا انتقاء ولا تحفظ لكن تحت ديكتاتورية الموضة الحديدية كما هو معلوم .

ومن المحتمل أن تكون النتائج النهائية لمثل هذا الرضوخ ماتنبأ به رودريك سايدنبرغ : السقوط ثانية في حالة بدئية من اللاشعور مع التخلي حتى عن المعرفة المحدودة التي يجب على الحيوانات الأخرى أن تحتفظ بها لأجل البقاء .

وبالإستعانة بالعقاقير الموهمة يمكن حتى أن يسمي هذه الحالة المعالجون والمعلنون الرسميون لها اعداداً مشروطاً « توسعاً في الشعور » أو صيغة ما معادلة للتهدئة يقدمها اخصائيو العلاقات العامة .

وإذا احتاج الأمر إلى أدلة بخصوص الطبيعة الحقيقية للرقابة الإلكترونية فقد قدم هذه الأدلة أحد مصدري النظام الذي لايقل عن ماك لوهان . لقد قال في كتاب وسائل الإفهام .

تتطلب التكنولوجيا الكهرطيسية خضوعاً بشرياً مطلقاً كما تتطلب هدوءاً في التأمل مناسباً لجسم يحمل الآن دماغه خارج جمجمته وأعصابه خارج اهابه . يجب على الإنسان أن يخدم تكنولوجيته الكهربائية بالأمانة نفسها الضابطة التي يخدم فيها مركب الصيد أو القارب أو المطبعة وكل

امتدادات اعضائه الطبيعية الأخرى » . وقد أدى الأمر بماك لوهان إلى أن ينكر بوقاحة الوظيفة الأصليةللأدوات والمواعين بوصفها خادمة مباشرة للأهداف الإنسانية ، ليبرهن على حجته . ويريد ماك لوهان أن يعيد ، بفضل نفس النوع من التزييف المخادع ، اندفاعات عصر الأهرامات بوصفها صفة مرغوباً فيها من صفات المجمع الإلكتروني الإستبدادي .

ويتبين أن الفساد الأعظم لايفضل حلوى سارق الأطفال . وستكون الحياة الطفيلية كما تقدمها التكنولوجيا العملاقة بالواقع عودة إلى جوف الأمومة ؛ إنه جوف جماعي هذه المرة . إن جنين الثدييات هو لحسن الحظ الطفيلي الوحيد الذي تبين أنه قادر على تجاوز هذا الوضع عندما يحدث : فتهليلة الطفل تعلن ظفر هروبه . ولكن لاحظوا مايلي :عندما يترك الكائن البشري جوف أمه تصبح الشروط التي كانت هنالك ملائمة لنموه عوائق . وليس هنالك من وسيلة لوقف النمو لها مثل فاعليةالتلبية الآنية بدون جهد لكل حاجة ولكل رغبة ولكل اندفاع عارض وذلك بفضل جهاز ميكانيكي أو الكتروني أو كيميائي . فالنمو في كل العالم العضوي يتوقف على الجهد والإهتمام والمشاركة الناشطة ؛ وليس التحريض بواسطة المقاومات والمنازعات والنواهي والتأخيرات هو أقل الأساليب ملاءمة . حتى في مملكة الجرذان تسبق المغازلة الجماع .

إن هذا الشرط هو أساسي بالنسبة للنمو الإنساني إلى درجة أنه حتى في مجال الألعاب حيث يستطيع الإنسان أن يضع بطريقة كيفية كل الشروط تحدد حدود في الزمان والمكان وتكون قواعد اللعب المشددة المدعمة بالعقوبات مستقلة عن نزوة وإرادة اللاعبين . وجوهر اللعب الصحيح يكمن في توتر وصراع التلاقي الإنساني لا في قضية الربح

أو الخسارة وحدها : والحقيقة أن الإنتصار البالغ السهولة يفسد متعة اللعب حتّى بالنسبة للمنتصر . وإذا كان هدف كرة القدم الوحيد هو ، كما أشار إلى ذلك يوماً وليم جيمس ، وضع الكرة في المرمى فان أبسط طريقة للربح هو حمل الكرة إليه بدون شهود في إحدى الليالي المظلمة .

وبالإستناد إلى هذا المعيار المفتعل لسهولة النجاح المنفرد افترضوا حديثاً بأن جلد عميرة هو أرفع من العلاقة الجنسية .

وهكذا فان الحياة بدون جهد ، أوتوماتيكياً بكبس الزر الحياة اللسمة المضمونة التي وعدت بها التكنولوجيا العملاقة وصممت حصراً وفق مبدأ اللذة ينقصها الشعور المحرض بالواقع ذلك الشعور الذي يوفره حتى اللعب . ومن المحتمل أن تكون العبودية قد وفرت للعبد في مصر واليونان حياة أسعد بكثير بالنسبة لحاجاته العضوية ، على الأقل للعبدان الذين كانوا يمارسون الفنون والحرف . ويمكن من هذه الناحية اضافة شهادات أخرى صادرة عن الحيوانات . لقد لاحظ حراس حديقة الحيوان أن الحيوانات تكون عندما تتوفر لها هياكل كاملة تمزقها كما تصنع في الطبيعة ، في حالة أفضل مما تكون عندما تعطى اللحم المقطع إلى شرائح . وإذا كانت المصلحة تشجع الجهد ، فالجهد بدوره يدعم المصلحة .

ويمكن خلال فترات قصيرة ، أثناء المرض أو النقاهة أو للتعويض عن عناء منهك ، أن نجد من المفيد العودة إلى نسق مطرد شبه طفيلي كما يفعل الإنسان ذلك مريضاً أو في المستشفى أو مسافراً على سفينة . ولكن جعل هذا الوضع هدف الحياة الدائم والمبرر لكل الجهود السابقة لحياة ومماة الإنسان ، هو نسيان لكل الأوضاع التي برز الإنسان في ظلها

من الحيوانية أصلاً متبعاً حياة أكثر تنوعاً وأكثر انهاكاً مما تجده معظم الحيوانات الأخرى ضرورياً .

لا تربط الانسان بالطبيعة سرة : ولم يكن الأمن ولا التكيف الخطين الموجهين للتطور البشري ؛ وإذا كانت شروط الحياة الإستوائية قد بدت، عن غير حق ، مناسبة للتكاسل والإسترخاء فان روح الإنسان قد ارتفعت إلى أعلى المراتب فوق محدوديتها الحيوانية في مناطق صعبة ، في طرق الصحراء أو في الجروف المغمورة لمجاري المياه ، في بيئات ناقصة ، غير كافية أو نصف عدوانية ظاهرة ، محققة لا التوازن والتطور فقط بل أعلى خواص الشخصية الإنسانية على ندرتها : أي التسامي .

وعلى الرغم من أن التدجين لاينتج التخريب الضخم الذي يحدثه التطفل الكامل فقد دلت دراسات حديثة قام بها كورت . ب . ريختر عن جرذ النروج أنه يحدث في مثل هذه الأوضاع شيء أخطر من ضياع الإستقلال الذاتي . دجن جرذ النروج لأول مرة نحو عام ١٨٠٠ ليوفر ضحايا للعبة صراع الجرذان المنتشرة ؛ وقد تولد منذ منتصف القرن نوع داجن محدد من الجرذان الحسب مع تغيرات وراثية مختلفة ، فقدان الأنياب ، وفقدان الوبر ، والرجفة والسادة العينية منذ الولادة مما لا نصادفه عند النوع المتوحش .

ويقارن ريختر شروط تدجين الجرذ مع الشروط التي تقدمها اليوم « الدولة — الآله » — غذاء وفير . انتفاء أي خطر . وأي توتر . توحيد المحيط والمناخ ، وهكذا دواليك . ولاحظ أنه قد حدث تلف عضوي في ظل هذه الأوضاع الملائمة ظاهرياً : ضمور في حجم تعدد

الكظور التي تساعد الجسم على مجابهة المحن أو التعب وتمنع بعض الأمراض ؛ بينما أن الغدة الدرقية المنظمة للاستقلاب تصبح أقل نشاطاً . وقد لا يكون من المستغرب أن يكون دماغ الجرذ الداجن وربما قواه العقلية ضامرة أكثر . وفي الوقت نفسه تنضج الغدد الجنسية باكراً وتصبح أكبر حجماً وتبدي نشاطاً أكبر وتنتج معدلاً أرفع من الخصب ، ماأشد الطابع الإنساني في كل هذا .

ويسجل ريختر أمراضاً موازية وسط جماعات بشرية محمية حماية مفرطة : تكاثر حدوث التهاب المفاصل والأمراض الجلدية ومرض السكر وأمراض الدورة الدموية ؛ بينما تتفاقم الحالات المصحوبة بالأورام كما يبدو بسبب الإفراز الزائد للهرمونات الجنسية . ولايقل عن ذلك أهمية نقص الحيوية وتزايد الإضطرابات العصابية والنفاسية . وليس هذا الدليل بالقاطع ولكنه على الأقل يوحي بقوة بأن كل تحديد للاقتصاد المناسب بالإستناد فقط إلى واقعة أنه يوفر أقصى حد من التسهيلات بغية الحفاظ على الحياة المادية بأدنى حد من الجهد العضلي معرض إلى الإتهام بأنه يغفل الشروط الأكثر تعقيداً والضرورية لكل نوع من التطور العضوي بما في ذلك الشروط السلبية .

لقد قدم بتريك جدز ، من هذه الناحية ، بوصفه بيولوجياًملاحظات لا تزال ناهضة . لقد لاحظ في كتاب (تحليل مبادىء الإقتصاد) أن « شروط التردي في العالم العضوي معروفة تقريباً . وهذه الشروط هي في الغالب من نوعين متمايزين : الحرمان من الغذاء والنور إلخ مما يؤدي بهذه الحال إلى التغذية الناقصة والضعف ؛ والنوع الآخر هو حياة

الراحة مع مئونة غذائية وفيرة ونقص في التعرض لأخطار البيئة . ومما تجدر ملاحظته أنه بينما أن النوع الأول لايسبب سوى الإنحطاط أواطفاء النموذج النوعي على أبعد حد فان النوع الآخر ، يسبب عدم استخدام البنى العصبية وغيرها الذي يقتضيه مثل هذا الإختزال للحياة ويحدث هذا التردي الأشد خطورة والكامل الذي نراه في مسيرة جحافل الطفيليين ».

وتغيرات الشخصية التي ستنتج عن محاولة انتاج حياة تتطلب أقل مايمكن من التفكير والجهد والإهتمام الشخصي بواسطة الآلة العملاقة لاتزال بحاجة إلى القياس وإلى التقدير (وقد أصبحت هذا التغيرات بادية في كثير من المجالات) ؛ ومع ذلك فان الحدود القصوى التي تنزع إليها هذه الحركة هي الآن جلية : مرض الطفولة أو عجز الشيخوخة .

لقد تبين المحللون النفسانيون منذ زمن طويل لدى الكائنات البشرية نزوعاً كامناً للعودة إلى جوف الأم . والرضيع يحفظ ، ولو بعد خروجه من هذا المحيط الكامل ، وهم القدرة الكلية فليس عليه إلا أن يبكي حتى يرى كل رغباته متحققة . وهو يفوز من محيطه بجواب سريع عندما يرطن بصخب : وجه أنيس يتقدم ويد تلاطف الطفل ويقدم له الغذاء ثدي .

لقد شكل ثقل هذه الحياة السحرية المعفاة من الجهد إلى مرحلة النضج المهمة الضمنية لنظام الأتمتة الذي أكمله الإنسان الحديث . ولكن الحالة التي يبدأ الرضيع بها الحالة التي لايكون فيها قادراً على التمييز بين جسمه الخاص وأي جزء آخر من محيطه المباشر تصبح في مرحلة متأخرة عجزاً عن تحقيق ذاته أو عن أن تكون له أية

رغبة لايمكن تلبيتها مباشرة داخل المحيط المحدد . إن ثمن تحقيق الرغبة السحري هذا هو التبعية المطلقة ؛ فاذا لم يطرأ أي تطور لاحق يفصل الطفل الملحاح عن أهله المجارين له فسيؤدي ذلك إلى عدم الإستخدام التدريجي للأعضاء الأساسيين كما سيؤدي إلى السقوط ثانية في حالة من اللاوعي المطلق .

وإذا كانت الأتمتة قد بدأت باقامة تبعية طفولية فستنتهي ، بمقدار مايفرض نظامها بنجاح على كامل الجماعة ، إلى احداث استلاب وتلف شيخوخيين يتسمان بفقدان الملكات والوظائف التي تطورت . إن الأتمتة تسبب بطريقة مصطنعة الشيخوخة المبكرة بواسطة تأثيراتها النهائية لأنها ترد الجسم الإنساني إلى هذه الحالة من العجز والضعف العقلي وانعدام الجدوى المهنية مما يشكل أسوأ لعنة يمكن أن تصيب الناس المسنين. وموجة الآداب الخليعة المتباهية الحالية قد تكون دليلاً قاطعاً على مثل هذه الشيخوخة : تتركز هذه الأخيرة بشكل حتمي على صور تجريدية أو على مايتبقى من الجنس عندما تزول القدرة على تعاطي الحب .

والتجربة الجارحة التي تستبد في الغالب بالأشخاص المسنين عندما يبلغون (سن التقاعد) على الرغم من أنهم في الغالب لايزالون قادرين على العمل بفاعلية هو ادراكهم لواقعة أنهم لم يبقوا ضروريين . ولعل اقسى محنة من محن العامل المتقاعد هي مجابهة مستقبل ليس له فيه أية وظيفة يقوم بها وأي مكان يشغله وأية مسئولية يمارسها . إن الذين يجابهون الشيخوخة بذكاء يحاولون أن يدفعوا أطول وقت ممكن هذه الفترة النهائية فترة الحرمان والضياع والشلل . غير أن الأتمتة التقنية العملاقة ، بقدرما تصبح ناجحة وشاملة ، ستجلب هذه الآفات النهائية إلى مراحل من الحياة

أبكر دائماً حتى تنحل في نقطة ما مثالية صفات مرض الطفولة بصفات الشيخوخة دون أن تترك فسحة بينهما تملأ بأي شيء يمكن أن يسمى بحق حياة يانعة توجه توجيهاً ذاتياً وتتكامل ذاتياً .

وإذا كان هنالك أدنى ريب فيما يتعلق بحقيقة هذه المقاربة المنذرة للنزعة الطفيلية الجماعية عندما تبلغ الآلة العملاقة عملها الكامل فاننا لانعدم الشهادات المنذرة منذ العهد الذي توفرت فيه الآثار المكتوبة تقريباً. ولا شيء يصدم من طرف التاريخ إلى طرفه الآخر أكثر من انطفاء المحبة المزمن والضيق والسأم والتدمير النفاسي الذاتي عند الطبقات الحاكمة عندما يتوفر لها « كل مايشتهيه القلب » . والواقع أن الأقلية المهيمنة ، الفئة القليلة صاحبة الإمتيازات كانت دائماً تواجه الآفة العظمى لحياة خالية إلى هذا الحد من المدلول : السأم المحض المجرد . والشاهد على ذلك « الحوار عن الإنتحار » العراقي المروي في نصوص بريتشارد أو « مغامرة الإنسان القديم الثقافية » .

لقد باهى الملوك دائماً بأن أقل رغباتهم كانت أوامر . وكان الدليل التقليدي على قوتهم ونجاحهم امتلاكهم لكميات غير محدودة من الغذاء والخمر والثياب والحلي والخدمات عبدان وخدام وموظفين لايحصيهم عد ولمحرضات حسية لاحد لها ولما لايقل عن ذلك أهمية أي الفرص اللامحدودة للعلاقات الجنسية لأن اللذة الجنسية نفسها كانت تقاس هنا بمقاييس كمية سمجة .والثروة التي كان الملك وبطانته يحتكرونها في الماضي تقدم الآن للانسانية بأكملها كهدية سميا من نظام القوة .

لاحظوا مع ذلك الإختلاف الجدي بين النمطين . لقد كان في قلب النظام القديم تحد منقذ سيزول عندما تصبح النزعات الحاضرة

شاملة . والواقع أن النزعة الطفيلية قد حدثت بالفعل لدى الأقليات القديمة كمكافأة ثنائية المدلول لنمط حياتهم حياة القنص في الأصل . لم يخضع هؤلاء الزعماء ومحاربوهم ويستغلوا شعوباً فلاحة أكثر منهم بكثير عدداً إلا بفضل جهود مسعورة والتعرض إلى خطر القتل . وكان على الملوك الذين نجحوا ، حتّى بعد فوزهم بقدر من التسلط والأتاوات كاف لانهماكهم في نمط حياة طفيلي ، أن يستمروا على حذر من هجمات الخصوم الحاسدين أو غارات الحكام والأمراء المخاتلين الآخرين الذين يسعون إلى توسيع رقعة أتاواتهم أو حتّى من الإنتفاضات الجماهيرية من قبل الشعوب والعبدان المستغلين .

كانت الطبقة القائدة تعود إلى مجموعة اسلحتها وإلى السيف لإعادة تثبيت سلطتها عند أول شائعة عن تمرد أو حتّى بصفة وقائية . وكان هذا التوتر يبقي المنتفعين الرئيسيين بالنظام التطفلي في حالة من السهر ومن الإستعداد الجسماني الحيوانيين . زد على ذلك أنهم اعتادوا أن يجددوا شحذ أسلحتهم كقناصة بصيد الأسود والنمورة .

وكان الذين يفقدون شرفهم ويتردون في العطالة الطفيلية يستبدلون بسرعة بخصوم أكفأ وأنشط .

لم تكن الحرب على الطريقة القديمة تشكل إذن الوسيلة المعيارية لامتصاص الطاقات الفائضة فقط بل كانت كذلك تبقي الأقلية المهيمنة على اتصال مع حقائق الحياة العضوية المستبطنه وهي حقائق ينكرها ضمناً اقتصاد الرخاء القائم على مبدأ القوة — اللذة وحده أو يزدريها صراحة .

وبالطريقة التي تبنى بها آلاتنا العملاقة العسكرية الحالية ستزول من

الوجود وشيكاً حتى هذه المخاطر وهذه الجهود الشخصية : والعترة العسكرية هي الفريق الوحيد الذي سيكون في مأمن ، محمياً في مراكز قيادته الجوفية أو في مخابئه المتنقلة تحت البحر إلا إذا تبنت استراتيجيته الشريرة الحرب الجرثومية الناقعة . وإذا ماتحقق بقوة شيء ما كالسيطرة على الكرة الأرضية كما قد يمكن أن يتم بتحالف الآلات العملاقة العسكرية المتعادية اليوم فسيتوطد الشرط لقيام نزعة طفيليه كامله أي لاتلاف الطاقات البشرية بالجملة .

لقد أشار وليم جيمس في محاولته الإجابة عن سؤال : « هل تستحق الحياة أن تعاش ؟ » بأن الشروط السيكولوجية التي تضاف إلى ملاحظات علماء البيولوجيا عن النزعة الطفيلية تدل على أن أرفع فعالية النوع العضوية تنوس بين قطبين : موجب وسالب ، قوة وألم ، خير وشر وأن محاولة العيش بالإستناد إلى الموجب والممتع والغزير فقط يهدم القطبية الضرورية بالذات للتعبير الكامل عن الحياة .

« ويقول جيمس : في الحقيقة أنه لأمر يستحق الإعتبار أن الآلام والصعوبات لاتقلل بوجه عام حب الحياة ؛ وتبدو أنها ، على العكس ، تعطيها قلقلاً حاداً أكثر . ومصدر الكآبة الأساسي هو البدانة . والضرورة والصراع هما اللذان يثيراننا ؛ وساعة ظفرنا هي الساعة التي تجلب الفراغ ».

الشعوب البدائيه بالذات التي يمكن أن نتصور بشكل معقول بأنه كان عليها أن تكابد كثيراً من المشقات قد عرفت هذه المفارقة الأساسية : الأدوار المتبادلة ضمن بعض الحدود بين اللذة والألم . ولذا اخترعوا « طقوس انتقال » وامتحانات تدريب يصحبها في الغالب تشويه جسدي يتطلب قوة في الطبع شديدة . ماالذي يبقي الإنسان الحديث بصحة جيدة

عندما يكف عن أنْ يكون ضرورياً لتأمين العيش الجهد المادي والتوتر والألم والتعب المنهك ؟

لقد أصبح كافياً أن تضغط على زر أو أن تدير معكس تيار لتقوم على خدمتك طائفة كاملة من الخدام الميكانيكيين . ويمكن للرياضة في هذه الأوضاع أن تقوم مقام بديل موقت عن العمل ؛ ولكن الرياضة قد انتقلت بمعظمها وفقاً للقواعد المألوفة لمجمع القوة إلى ممتهنين يدفع لهم بسخاء ويشاهدهم آلاف المتفرجين المتخمين والقليلي الدربة الذين تكون وسيلتهم الوحيدة للاشتراك بطريقة فعالة في اللعب هي مهاجمة الحكم .

ويرتجل الشبان الآن ضمن مثل هذه الحضارة نصف الطفيلية طقوس انتقالهم الخاصة في هجمات عصابات قاتلة أو في اعتداءات سادية أو في تدمير الملكية كيفما اتفق أو في سباقات سيارات تنذر بالموت لا تنظمهم أعراف القبيلة ولاحكمة سلطة القربى . كانت حضارة روما التي تمارس الطفيلية على أوسع نطاق بوصفها « نمط حياة روماني توفر بدائل عن الإعتداءات والمخاطر بواسطة حلبة البراز . غلو في العنف متطاول يبلغ ذروته في ابادات جماعية . ولعل من الأفضل قبل أن نقبل كأمر محتوم اقتصاد الرخاء الموعود بالطريقة التي يتراءى فيها لنا اليوم أن نفحص من موضع أقرب ، كما سأفعل في الفصل القادم ، دلائل الإنحلال والتردي الأخلاقي التي أصبحت بادية في كل الحضارات التي لامسها ولو من بعيد نظام القوة المجدَّد .

وهنا من جديد كما في « المدينة في التاريخ » ؛ لو لم يسبقني منذ نيف وقرن أحد أثقب المفسرين السياسيين استشرافاً الذين أنجبتهم أوربا اليكسس دي توكيفيل لكنت غير متأكد من تفسيري الخاص للمعطيات

التي تعرض لنا . إنه لم يكن في تفسيره لديمقراطية العالم الجديد في الولايات المتحدة غير شاعر بالوعود العديدة التي تجلبها لنا التكنولوجيا الجديدة حتى انه كان يصرح بالحرف أن تاريخ السنوات السبعمائة الأخيرة كان تاريخ مساواة اقتصادية واجتماعية تدريجية . ولكنه لم يكن أقل شعوراً بالثمن الرهيب الذي قد يتوجب علينا دفعه ثمناً لهذه الإصلاحات . » لقد قال : احاول أن أرسم القسمات الجديدة التي يخشى أن يظهر بها الإستبداد في العالم ضمن حشد من الناس متساوين ومتشابهين جميعاً ساعين إلى الفوز بالمتع التافهة والبائسة التي تتخم حياتهم .

« وتنتصب فوق هذا الجنس من الناس سلطة هائلة حامية تأخذ على عاتقها تأمين مسراتهم والسهر على مصيرهم . هذه السلطة مطلقة دقيقة نظامية متبصرة سليمة . ولو كان هدف هذه السلطة تهيئة الناس للوضع الإنساني لكانت تشبه السلطة الأبوية ولكنها تحاول على العكس ابقاءهم في حالة طفولة دائمة . انها تسر كثيراً بأن يتمتع الناس شرط ألا يفكروا بغير المتعة . إن مثل هذه الحكومة تعمل طواعية لسعادتهم ولكنها تختار أن تكون العامل الوحيد والحكم الوحيد لهذه السعادة . إنها تسهر على أمنهم وتزيد وتلبي حاجاتهم وتيسر ملذاتهم وتهتم بهمومهم الرئيسية وتوجه فعالياتهم وتنظم نقل الملكية وتقسم مواريثهم : وماذا يبقى سوى أن تجنبهم كل اهتمام بالتفكير وكل سأم من العيش ؟

« وبعد أن تأخذ السلطة العليا بالتتابع كل فرد من الجماعة بساعدها القوي وتصوغه على مهل تمد حينئذ ذراعها على الجماعة بكاملها . وتغطي سطح المجتمع بشبكة من القواعد الصغيرة المعقدة الدقيقة والموحدة

لاتستطيع أكثر العقول اصالة وأقوى الطبائع أن تنفذ منها لترتفع فوق الجمهور .

لم تكسر إرادة الناس ولكنها لطفت وأخضعت ووجهت ؛ فنادراً مايجبرون على التصرف بتأثيرها ولكنه يطلب منهم باستمرار أن يتصرفوا...

« لقد خطر لي دائماً أن العبودية من الطراز النظامي الهادىء اللين التي وصفتها يمكن أن تنضم (تنسق) بشكل أسهل مما يظن عادة إلى بعض اشكال الحرية الخارجية وأنها يمكنها حتى أن تضع نفسها تحت جناح سيادة الشعب » .

لم يصف أحد أفضل من هذا الوصف الفساد والتهديد على السواء اللذين يتأتيان عن نجاح التكنولوجيا العملاقة نفسه هذا النجاح الذي يبلغ ذروته في التجميع النهائي لآلة عملاقة على مستوى الكرة الأرضية . إن ما كان تأملات نظرية محضة بالأمس عند مؤلفي التخيلات الطوبائية والعلمية قد أصبح الآن بشكل مزعج قريباً من نقطه التجسد .

التردي الاخلاقي والتمرد

١ : المسلة تتصدع

إن مجال الشك ضعيف في أن المجمع التقني الجبار هو الآن في قمة قوته وسلطانه أو أنه يدنو من هذه القمة بسرعة في معظم البلدان المتطورة صناعياً على الأقل . وبالتعابير المادية التي يمكن قياسها موضوعياً(وحدات الطاقة ، المردود بالسلع ، الإستهلاك « بالشرور » القدرات على القهر الجماعي والتدمير الجماعي) حقق النظام تقريباً ابعاده وامكاناته النظرية ؛ وإذا لم يحكم عليه بالإستناد إلى المقاييس الأكثر انسانية ، فنحن أمام نجاح ساحق.لقد بدأ مجمع الآلة العملاقة ، في مجالات عدة ، يمارس هيمنةشاملة عملياً في الولايات المتحدة وفي روسيا السوفييتية على السواء على الرغم من أن من المحتمل أن يكون النظام الأميركي أجدى بالنظر إلى أنه يستمر في اللجوء في الحالات المستعجلة إلى أقدم تقليد متعدد التقنيات ، تقليد عصر الرواد كما يلجأ في الوقت نفسه إلى عادات التدريب والإختراع المستقلين الميسرة في مثل هذه الحال . وإذا وضعنا جانباً خصومة هذين النظامين المتبادلة وعداءهما غير الخافي فانهما يبدوان منيعين ومستعصيين بشكل متزايد ؛ زد على ذلك أن عادات التفكير والعبارات اللا عقلانية التي أحلاها مكانة رفيعة تنقل بوسائل الأعلام الجماهيري إلى قسم متزايد الإتساع من البشرية .

لقد أشار شمبيتر منذ جيل أن الرأسمالية تولد بواسطة قواها الذاتية

العادات التي تسبب إبدالها بشكل ما من النظام الجماعي اللاشخصي الذي لامكان فيه للملكية الخاصة وأحكام القيمة الشخصيه والعقود الشخصيةولامكانفيهأخيراً حتى للأرباح والرواتب الشخصية إلا بالاشكال القديمة تبعاً للمكانة والإمتيازات .

وما ينطبق على الإقتصاد الرأسمالي ينطبق اليوم على مجمل مجمع القوة : فالإبهامات والمفاسد الأخلاقية التي يعبر عنها الفن الطليعي تقترب بسرعة من النقطة التي لايحل فيها الوسيط محل الرسالة فحسب بل محل الإنسان نفسه الذي كانت توجه إليه الرسالة فيما مضى . لقد أصبح نظامنا نظام القوة كله خداعاً : لقد أصبحت نعمه شروراً وأرباحه افلاسات كما أصبحت اختراعاته المفيدة غير نافعة ومدمرة ؛ إنه إبدع الآن بدلاً من الأهداف اللاعقلانية من النوع الممكن توقعه امكانية قصوى للبلبلة .

ولافائدة من أن يدهشنا في هذه الحال أن يصاب مجمع القوة في أكثر من ميدان بثورات خطيرة . ومع أن هؤلاء العمالقة محصنون ضد كل هجوم جبهي إن لم يكن من نظام قوة من الحجم نفسه فانهم سريعو العطب بشكل خاص أمام هجمات وغارات عصابات محلية تشكيلاتهم الضخمة عاجزة حيالها عجز جوليات الثقيل السلاح أمام داود رشيق لم يختر استخدام الأسلحة نفسها أو مهاجمة جزء معين من الجسم .

والتوترات الحالية في العالم بأكمله تكشف عن عجز « الصفوة » العسكرية والبيروقراطية والتربوية عن فهم الإنعكاسات الإنسانية التي ولدها نجاح نظامها بدون عائق . إنها أقل من ذلك قدرة على مواجهتها إلا إذاحركت اعداداً أوفر من العمليات المجردة من الإنسانية التي تثير

الآن هذه الردود المعادية . وعلى الرغم من أن حالات الفرار والتخلي لاتزال غير هامة من ناحية العدد فان شيئاً ما كالإنكماش أو الإنقلاب على نطاق واسع يمكن أن يكون بالفعل في الأفق .

ان ديناميكية التكنولوجيا نفسها وتفكيرها بالموارد التي لاتحد لصنع أجوبة تكنوقراطية للمشكلات الإنسانية قد أعميا هؤلاء القادة عن طبيعة ردود الفعل المعاكسة هذه . وينتج عن ذلك أن العلاج الأرثوذكسي للسخط ، الصور المختلفة للدولة — الإله صاحبة (خبز وألعاب السيرك) ليس من شأنه إلا أن يفاقم الداء . وكما أنه لايوجد في الجسم أي نسيج يظهر قدرة أعظم على التطور السريع الا الخلايا السرطانية فان الإنحلال والتدمير اللذين تتابعا بقوة تراكمية منذ نصف قرن يهددان كذلك في الجسم السياسي الآن ويا للأسف بالتغلب على الآلية الإنتاجية وبنسف المبادىء ذات الصفة الكونية ومبادىء التعاون المعقول التي أقامت عليها بالفعل منجزاتها الصحيحة البناءة .

وعلى الرغم من أنني أنوي تناول الأدلة المحسوسة للانحلالات والتقهقرات الإجتماعية في أنظمتنا التقنية العملاقة خصوصاً بتفحص ردود الفعل الذاتية التي أصبحت بادية منذ زمن طويل اسمحوا لي أولاً أن أشير بايجاز إلى الصدوع الظاهرة لهذه البنية الوحيدة الحجر ظاهراً.من المحتمل أن تستمر ، في كل البلدان الصناعية ، الأغلبية ، المعدة بعناية اعداداً مشروطاً لقبول أنفع منتجات التكنولوجيا العملاقة والمبالغة في تقديرها ، في المطالبة بشراهة بالمكافآت المادية .

ولكن هؤلاء المنتفعين يظهرون مع ذلك كراهة متنامية للابقاء على النظام في حالة دوران بفضل جهود طوعية : انهم يحاولون بدلاً من ذلك

أن ينتزعوا منه أعطيات ومغانم وميزات مع قيامهم بالحد الأدنى من العمل باشمئزاز متزايد ومع قبولهم بدرجة من المسئولية ليست أقل تدنياً . وبطريقة مميزة ، فان تحية مفارقة العامل الأميركي ازميله هي : «لا تهتم !».

يجب أن يكون سبب هذه التشتت العام واضحاً . إن معظم الاختصاصات القديمة والقرارات القديمة قد سحبت من أيدي العامل بواسطة الاوتوماتيكية والرقابة المركزية، والصفات الانسانية القليلة التي بقيت هي بمعظمها سلبية : التهرب ، اللامبالاة ، اللاوعي ، الغل ، الكره ، وهي ، موجزة في تعبير واحد ، التسرب السيكولوجي . وحتى عندما يبقى العامل حاضراً بالجسد فهو لا يكون بكامله « موجوداً » .

وللتعويض عن عجزهم في توجيه مسار العمل أو عن وضع نماذج لانتاجه لا يتردد حتى أكثر الاعضاء حظوة في منظمة تقنية عملاقة ، كنقابات العمال الصناعيين الكبيرة ، في أن يقلبوا أو يشلوا الفعاليات الاساسية لأمة بكاملها بغية تقوية الرضوخ إلى مطالبهم الاستبدادية بعض الاحيان . وبالنظر إلى أن اتساع مآخذ الارباح هو معيار نجاح التقنية العملاقة لا التوزيع المعقول ولا العدالة الاجتماعية فان النظام لا يستطيع أن يقدم خياراً معنوياً جذاباً آخر . إن استمرار التوقفات في العمل والاضرابات في المصانع والاضرابات والاعتصابات غير النظامية لأسباب في الغالب تافهة تبدو كانها تشكل جهداً لا شعورياً لاعادة قسم من المبادآت الانسانية التي الغاها النظام بواسطة انقلاب تشنجي . وينتج عن ذلك أن توجه الانتفاضات العمالية في أحيان كثيرة ضد زعماء العمال المنتخبين الزعماء الذين يعتبرون بطريقة صحيحة مماثلين للنظام القائم .

من المؤكد أن « الصفوة » المهنية التي يدار النظام بها ولها بشكل متزايد لم تكن ابداً ملتزمة بشكل أكمل مما هي عليه اليوم ولا مرهقة بطريقة الزامية أكثر ولا مكافأة بسخاء اوفر ولا معتبرة وممجدة ومملقة وممدوحة أكثر . وهي تتغذى كأسلافها الكهنوتيين الاقدمين من القرابين التي تحرق وتضحي على مذابح إله الشمس المقدسة .

أما بالنسبة للذين لا يزالون ينذرون انفسهم لاسطورة الآلة العريقة في القدم والذين هم اعضاء اثيرون في بنتاغون القوة الجديد فان التضحيات التي يتطلبها إله الشمس ليس من شأنها إلا أن تثبت نذرهم . لقد رأينا إن ملاحي الفضاء يخضعون لاقسى التجارب الجسدية بغية تلبية المطالب الطقسية في الرحلة الفضائية نحو مناطق بعيدة من المنظومة الشمسية .

إن اشتراك السكان القائمين على ارض الكرة بهذه الطقوس إلى حد ما عن طريق اشخاص وسطاء وهو اشتراك اصبح ممكناً بفضل الفلم والتلفزيون والراديو يعيد إلى الاذهان المعنى الغارب للمغامرة الكبرى ؛ ويزيد احتمال الموت الاحتمال الحاضر دائماً في سباق كوني كما تزيد في سباقات السيارات المقادير اليومية لعنف المبارزة الحرة الذي يقدمه بامانة الاعلام الجماهيري .

والنقطة التي يجب أن ندركها قد تأكلت في الحضارة الغربية منذ نصف قرن : وهي أن الاقتصاد الذي تغلب فيه التقنية العملاقة لا يمكن أن يبقى يعمل بربح الا بالتوسع المنظم والمستمر . تتطلب التكنولوجيا العملاقة بدلاً من الاقتصاد المتوازن المكرس لاستصلاح الحياة توسعاً بلا حدود على نطاق هائل : انه انجاز لا يمكن أن يتيحه إلا الحرب أو الحرب الزائفة فقط (بناء الصواريخ وريادة الفضاء) .

كلما اصبحت بنية القوة منظمة بشكل اقوى يقل امكان قبول عوامل غير نمطية وتزيد هشاشة النظام بكامله ازاء الاعطال الناتجة عن اخطاء ميكانيكية أو طوارىء طبيعية أو الناتجة أكثر ايضاً عن هجمات مضادة من قبل الطبقات والجماعات التي ابعدت عن النظام أو التي حرمت جزئيا من حسناته التي يكثر اطراؤها . وبما أن الحرب نفسها بشكل أو بآخر هي النواة الديناميكية لهذه البنية فما من جزء من البلدان الاطراف بمنجى من الهجمات . وبدون الحرب يختنق النظام التقني العملاق بشكله الارضي والكوني الحالي المتسع فضائياً يختنق بتأثير انتاجية بدون هدف . ومن هنا كان العنوان الحسن الاختيار لكتاب هرمن كهن « التفكير في ما لا يحده الفكر » . وكما يقول بوضوح منذ البدء فان ما لا يحده الفكر ليس الابادة الشاملة (يضع كتابه فرضيات احصائية متنوعة في هذا الموضوع) بل أي محاولة لتوظيف مقادير معادلة من الطاقة العقلية والموارد المادية في ابداع توازن عالمي ييسر العدالة والسلام . إن ما اصبح لا يحده الفكر انما هو فرض اقل محدودية على توسع نظام القوة .

بينما كان الاقتصاد التقني العملاق طور البناء كان من الممكن لمفكرين « تقدميين» أن يعتبروا مثالبه الاجتماعية وتردياته المادية متأتية فقط من تلف الرواسب الاجتماعية الناتجة عن الانظمة السابقة التي هي أكثر خشونة على المستوى التقني . وعلى هذا فان فيلسوف التطور الفيكتوري هربرت سبنسر كان يعتبر كأوغست كونت وأتباع سان سيمون ، العسكراتية والحرب وفي الوقت نفسه كل اشكال الديانة الفائقة الطبيعة كبقايا مجتمع همجي لا تلبث أن تحل محلها اهداف نفعية معقولة وممارسات اعمال وتقنية معقولة أكثر . « قانون الحالات

الثلاث » لكونت . وكان لسبنسر شخصيا شرف الاعتراف قبل نهاية القرن التاسع عشر بالدليل الراعب ضد الامبريالية . ولكن المحاولة المشبوهة لشرح اتساع الشرور الحالية دون الرجوع إلى توسعات التكنولوجيا الحديثة تتخلى عن مفتاح تاريخي هام .

ولم يكن ما فعلته التكنولوجيا الحديثة كما لاحظنا ، هو ابدال المجمع المؤسسي المتداعي الذي يمكن رده على الاقل إلى عهد الاهرامات بل اعادة الاعتبار اليه وتهذيبه واتاحة توزيعه عالمياً . إن حسنات هذا النظام الكامنة ، في ظل إدارة أكثر انسانية،لا تزال عظيمة.ولكن نقائصه الملازمة بالنظر إلى طلاقه المطلق مع التلطيفات البيئيةوالمعايير الانسانية قد ابطلت ميزاته وجعلت منه تهديداً خطيراً لبقاء الانواع الحية ذاته . من يستطيع أن يشك ، بالواقع ، إن التدميرات والمذابح واستنفادات المحيط والتردیات الانسانية التي اصبحت متغلبة خلال نصف القرن الاخير كانت متناسبة مباشرة مع الديناميكية والقوة والسرعة والرقابة الآنية التي شجعتها التكنولوجيا العملاقة ؟

لقد اصبحت انجع منجزات التكنولوجيا مرتبطة منذ الآن إذن ارتباطاً وثيقاً بالمظاهر السلبية المعاصرة . إن ما بلغه مجموع التهديم المادي والابادة البشرية خلال السنوات الخمسين الاخيرة على نطاق وطني يفوق كثيراً بوحشيته المجنونة وبالتدمير بلا داع اقوى جهود الاشوريين والمغول والازتيك . ولا تقتصر هذه الضلالة على الحرب . فأبرز نموذج لانتصار الانتاج الحالي بالجملة ، السيارة ، قد ذبح من الكائنات البشرية منذ ١٩٠٠ كما تشهد الاحصائيات أكثر بكثير مما ذبحت الحروب التي قامت بها الولايات المتحدة بينما أن العدد الاجمالي للجرحى والمشوهين بصفة دائمة قد يكون مرتفعاً أكثر .

هذه اللامبالاة العامة بنتائج تكريسنا اليومي للقوة والسرعة تساعد على شرح تسامحنا تجاه الهجمات التكنولوجية الضخمة في كل مجالات الحياة الاخرى. وهكذا شب جيلان اصبحت بالنسبة لهما كل انواع العنف المجنون هي المصاحب المستمر للحياة « المتحضرة » التي تقدسها اعراف ومؤسسات اخرى ليست اقل دناءة على الرغم من رواجها .

٢ : اختفاء الحواجز الواقية

عندما نلتفت إلى الفترة التي تجاوزناها ندهش لا من الاحتجاجات والاستفزازات التي تحدث اليوم بل من واقعة انها لم تحدث قبل ذلك وبطريقة أكثر تشدداً ايضاً . لا ريب في أن اسباب هذا التأخر في رد الفعل عديدة ؛ وقد كان السبب الظاهر قبل كل شيء هو التقدم العملي للتكنولوجيا نفسها مما شجع ، حتى بين الطبقات الكادحة ، الأمل في أن تكون في المتناول ايام افضل ، رغم صراع ساقة الشغيلة الحرفيين القدماء اليائس .

وقد تحدى هذه الامال طوال القرن التاسع عشر كثير من التحذيرات في الوقت المناسب ؛ ولكنها كانت ترفض « كباطلة » أو مثالية مفرقة أو لا واقعية غير معقولة لأنها كانت تصدر خصوصاً عن اناس من خارج النظام .

والواقع هو أن نظام القوة الذي بدأ بالتخلي عن القيم التقليدية الاجتماعية والاخلاقية التي جعلت التفاهم والتعاون الانسانيين ممكنين كما تخلى عن التفسيرات التقليدية للظواهر الطبيعية لم يكن يستطيع أن يواصل العمل إلا بمدى ما تتبقى فضلة فاعلة من هذه القيم المدعمة بأشكال الفن والطقس

التي ابدعت عالماً حيياً يغذي الحياة . وعندما جردت القوة من هذه الاثواب التاريخية كان ما تبقى من الانسان عنصرين لم يكن معترف بهما كانسانيين : المسخ الآلي وال (هو) . الأول : نتاج التجريدات العلمية والتقنية والآخر مظهر لحيوية عضوية سمجة لم يتيسر للعقل بعد التسلط على اندفاعاتها المدمرة في الغالب . وهذا النقص في الابعاد الانسانية لا يمكن أن تعترف به وياللأسف العقول التي كيفها نظام القوة وأعدها بدقة اعداداً مشروطاً . ومن هنا نشأ الوضع الانساني : الوضع الذي يقترب بانتظام من الفساد الاخلاقي الشامل .

وكانت لا تزال هنالك اوضاع اخرى ابقت قوى الهمجية الداخلية التي ولدها النظام نفسه معلقة طوال نيف وقرن. وأحد هذه الأوضاع يقوم على أن اربعة اخماس سكان الكرة الارضية تقريباً استمروا حتى بدء القرن الحالي يعيشون في قرى ومزارع معزولة نسبياً لم تمسها بأية طريقة اساسية التكنولوجيا الجديدة .

وقد بقيت الفئة الريفية والقروية التحتية قبل أن تقلبها المكننة والتمدين خارجة عن نظام القوة رغم استغلاله لها . وما هو أهم من ذلك ثقافتها الاخلاقية البالية التي حافظت على تجمع بقية المجتمع ، لأنها وإن احتفظت بعدد من العادات الهرمة اللاعقلانية فقد بقيت كذلك قريبة من حقائق الحياة الانسانية والالهية العظمى : الولادة والموت ، الجنس والحب ، الولاء العائلي والمساعدة المتبادلة ، التضحية والتسامي ، الكبرياء الانسانية والاحترام الكوني . ولم تكن حتى ادنى القبائل تحتفظ اقل من الجماعات القومية الكبرى بالشعور القوي بأهميتها الخاصة وقيمتها بوصفها كائنات بشرية مشاركة في خطة اجتماعية لا يتعلق مدلولها بأدوات هذه القبائل

والجماعات ورفاهتها الجسدية . وكان هذا الخزان الثقافي يحفظ بفعل التخلف نفسه بعض العناصر العضوية الاساسية التي كانت التكنولوجيا العملاقة ، غير المهتمة الا برفع كل التحديدات عن الانتاجية والقوة ، تغفلها أو تستأصلها بازدراء .

وقد لعبت الرومانطيقية كفكرة وكفعل معاً بعض الوقت دور الثقل الموازن لتثبت إلى حد ما افكاراً عن الطبيعة وانماط الحياة كانت قد استبعدت من الصورة الميكانيكية والنفعية للعالم وترد اليها اعتبارها . لقد كانت هذه الحركة حركة حيوية بكل معاني الكلمة وأسهمت اسهامات مفيدة حتى في العلم ؛ إن الافكار نفسها التي نطق بها روسو قد حرضت بالواقع همبولت وغوته وجيلا كاملاً من علماء الطبيعيات في القرن التاسع عشر وعلى رأسهم دار وين وولاس . ولكن هذه الحركة كانت غير مجدية على المدى الطويل لأنها لا يمكن أن ترتبط بمجمع القوة دون أن تتخلى عن مبادئها الخاصة ومثلها .

وعلى خلاف الوضع المعروض في قصة ديغوية الخيالية روبنسن كروزويه فان السفينة التي هجرها الغرقى الرومانطيقيون لم تغرق بل اصبحت قادرة أكثر فاكثر على السير في البحر واتجهت إلى موانيء أبعد .

ومع ذلك فقد كان وجود الكثير من المؤسسات التاريخية الباقية التي كانت عاداتها وآدابها الشعبية ومعتقداتها النشيطة توفر بنية قيم اساسية ، عاملاً أهم ايضاً في حماية نظام القوة من الهجمات الداخلية . لقد كانت هذه النماذج الاجتماعية الحيوية تنقص ايديولوجيا القرن السابع عشر الاساسية كما كان نقصها أكبر ايضاً بالنسبة لمكافآته التكنوقراطية والذرائعية المتأخرة . من يستطيع أن يقول إلى أي مدى ابطل تمجيد

الدعة المسيحية والتسامي المسيحي والامل المسيحي وفي الوقت نفسه المحاسبة الاخلاقية الورعة لدى الشيع البروتستانتية مفعول اسوأ الاذلالات المفروضة على فاخوريي ستوك وعمال القطن في مانشستر ولويل أو عمال مناجم الفحم في بلاد الغال وبنسلفانيا وضمن تحملهم الخامل ؟ إن الاشكال السلفية للديانة كانت على الأقل بالنسبة لعدد من النفوس الورعة قيمة مستقبلية في الأزلية لا تشكل الحياة بدونها سوى حياة بائسة ومجردة من المدلول اطلاقاً .

لقد فقدت التكنولوجيا العملاقة بقرض هذا التراث التقليدي عنصراً اجتماعياً اساسياً بالنسبة لدورانها الكامل : احترام الذات ، والوفاء لشرعة اخلاقية مشتركة والاستعداد لتضحية المكافآت العاجلة في سبيل مستقبل اشهى . لقد بقي لمجمع القوة الاستقرار والاستمرار ، اللذان لم يعد يمتلكهما الآن ، طوال بقاء هذه الاخلاقية الاساسية بحرمها ونواهيها وتضييقاتها وزهدها « كطبيعة ثانية »وسط الجماعة . وهذا يعني كما بدأ يتأكد لنا الآن أنه يجب على الاقلية المهيمنة كما هي الحال في روسيا السوفييتية والصين أن تلجأ إلى نفس نظام القهر الباغي الذي اقامه اسلافهم منذ الالف الرابع قبل المسيح لتستمر في العمل بشكل فعال . والا وجب على هذه الاقلية لضمان الطاعة ولتطويق الهجمات المضادة أن تستخدم انماط رقابة « علمية » أكثر كالاقتراح الذي تقدم به حديثاً احد العلماء بوضع المهدئات والمسكنات في مئونة الماء . والآن وقد كفت الديانة عن أن تكون « افيون الشعب » اصبح « الافيون » (الحشيش والهيرويين وغيرها) بسرعة دين الشعب .

لقد فقد الآن العاملان اللذان كانا يحميان نظام القوة من العصيان الداخلي والتمزق الخارجي: لقد اغلق صمام المنفذ بواسطة الهجرة وانهارت انماط الرقابة الاجتماعية الداخلية القائمة على قيم مشتركة إلى حد بعيد وطقوس نظامية وآمال غيبية . وسيتوقف عما قريب عن العمل في هذه الأوضاع أقوى الانظمة مكننة لأنه لم يبق له من قيم خاصة ماعدا القيمة الخاصة المستقلة عن الأوضاع : دعم مجمع القوة . إن الوسيلة الوحيدة المجدية بالنتيجة للحفاظ على منجزات التكنولوجيا الصحيحة هي تغيير الاساس الايديولوجي للنظام بكامله . وما نعنيه بذلك مشكلة انسانية لا تقنية لا تقبل حلاً سوى الحل الانساني .

إن العديد من الطقوس والعقائد القديمة هي الآن فارغة من المدلول بشكل بين . ولكن أي مدلول يمكن أن يرتبط بالروتينات الحالية للمكتب والمصنع والمخبر والمدرسة أو الجامعةو هي قائمة إلى حد بعيد ، على مسلمات نظام القوة العقيمة التي تحرم الحياة ؟ وما هو الخلاف بين يوم عمل ، ينقضي في برمجة وملاحظة العقول الالكترونية ويوم ينقضي في الحراسة أو في العمل المتسلسل ؟ أي في فيض من السلع المادية يمكن أن يعوض عن حياة سهر تضائل انسانيا أن لم تقل تحط بقدر ما تفعل حقيقة مهمات ضغط الزر المتروكة للمنفذين من البشر ؟ وإذا كانت القوة ونزوات الاستمتاع لا اكتمال الحياة قد اعتبرت خطأ نعماً عظمى فلماذا لا يسعى إلى بلوغها الذين يحاولون تجنب الآلة العملاقة بطريق اقصر ؟

٣ : الغليانات الثورية

على الرغم من أن الحظوظ المعاكسة لتكلل الثورة بالنجاح كانت دائماً منذ الالف الرابع قبل المسيح وربما قبل ذلك لمصلحة الاقلية المسلحة

التي تمتلك حصون السلطة الحقيقية فان الخوف المستبطن من مثل هذه الثورة قد استبد بالطبقات الحاكمة من بدء التاريخ إلى نهايته . ولم يكن هذا الخوف بلا مبرر لأن لدينا وثائق ترجع إلى مصر القديمة وتدل على أن مثل هذه الانتفاضة قد حدثت بالفعل وأدت بعصر الاهرامات القوي نفسه إلى نهاية مخزية .

وفي القرن الثامن عشر بلغ التصاعد الشعبي للديمقراطية المطالبة بالغاء الامتيازات وتساوي الفرص ذروته في الثورة الفرنسية ؛ وقد اشتد الخوف من مثل هذه المهاجمةلمجمع القوة بعد انفجارات عام ١٨٤٨ بولادة الاشتراكية التي كانت تهدد بقلب البنية الاقتصادية القائمة . لقد كانت الرأسمالية تستند بقوة حتى في أكثر نظامها الحر تسامحاً ، إلى الشرطة والجيش لقمع العصيانات واسجن أو نفي أو اعدام محرضي مثل هذه الاحتجاجات .

بيد أن الاشتراكية كما صاغتها جماعة متتابعة من المفكرين الموثوقين بدءاً من سان سيمون وانفنتان إلى ماركس وانجلز وتلاميذهم اللاحقين كانت مركباً محكماً من الاحلام الطوبائية والتنازلات الواقعية والمقترحات التكنولوجية العامرة بالأمل . وبقدر ما كانت الاشتراكية ترمي إلى تغيير كامل لنظام القوة عندما تستولي الطبقة العاملة على اجهزة الدولة العسكرية والبيروقراطية كانت تشتد جهود الطبقات الحاكمة المضادة بهدف اعادة بناء الآلة العملاقة بواسطة الفتوح العسكرية الامبريالية والتجنيد الالزامي الشامل . وقد تجنب في مناسبة شهيرة اضراب عام في الخطوط الحديدية في فرنسا بفضل سوق الرجال الذين هم فيسن التعبئة إلى الجيش . وبقدر ما كان يتزايد نمو التهديد بثورة عنيفة كانوا يتابلونها بتكتيك وقائي مضاد للثورة بفضل الحرب .

وكان هنالك بالنسبة لنظام القوة وسيلة للحماية اجدى لم يتعرف اليها الا فوضويون – شيوعيون مثل بيوتر كروبوتكين من حيث نزعتهم الانسانية : وهي أن حركة الطبقة العاملة الثورية قد قبلت بسذاجة بمقدمات مجمع القوة الايديولوجية . فالاشتراكية بالاستناد إلى الفكرة الماركسية بان التقدم الميكانيكي محتوم واتوماتيكي افتراضياً لم تقم سوى باقتراح نقل السلطة من طبقة حاكمة إلى أخرى ؛ مع بقاء الالية العامة كما هي : والطوباثية الاشتراكية الاكثر قابلية للتحقيق هي العملية الثورية نفسها ؛ وعندما تتم الثورة يصبح من العسير ، كما نلاحظ اليوم في بلدان كروسيا السوفييتية أن نميز النظام الجديد عن النظام الذي قام على التشريع والموافقة الجماعية في بلدان اخرى . والمطالب التي كانت ثورية و الملخصة في البيان الشيوعي لعام ١٨٤٨ قد امتصتها بالواقع في كل مكان تدريجياً الممارسة اليومية ودفعت في الغالب إلى الأمام أكثر .

وهكذا تبين أن المخاوف من النظام الرأسمالي القديم لم تكن قائمة على أساس : فالضمان الاجتماعي والرواتب التقاعدية والتأمين ضد المرض وطوارىء العمل والبطالة وزيادة الدخول ورفع مقدار الانتاج الجماهيري ، كل هذه المطالب التي كانت بالامس ثورية قد ثبتت بالفعل نظام القوة ولم تقلبه ، زد على ذلك أن هذه التيسيرات لم يكن من شأنها الا أن تستخدم لربط السكان بكاملهم إلى الوكالات الرسمية للسلطة ولا يقل ذلك في الولايات المتحدة عنه في روسيا السوفيتية أو في الصين . وما لم يحدث بالفعل في أي مكان حتى في بدء المرحلة الاولى للثورة الروسية هو تحقيق الوهم الرومانطيقي وهم « الثورة الآنية » : أي تغيير عفوي ينجب فجأة الرجل الجديد والمرأة الجديدة والتعليم الجديد والجماعة الجديدة والعالم الجديد ،

خفق متألق لأجنحة الفراشات الشيوعية المتحررة الخارجة من شرنقة الرأسمالية القبيحة .

يجب علينا لتفسير كثير من ظواهر الارتداد التي نشهدها اليوم أن نتذكر على السواء الانجاز الهزلي والانهيار المقرف لآمال القرن التاسع عشر الطوبائية التي افلتت من عقالها . وقد رمز إلى هذه الخيبة الجماعية المنكودة بطريقة مبكرة تحول الحالم الطوبائي برتيليمي انفانتان (الذي صنع ديانة اشتراكية جديدة بطقوسها ولبوسها وصيغها الخاصة التي تبشر كلها بولادة مخلص انثى يتوج النظام الجديد الهيأ إلى مهندس مدني ناجح منهمك في بناء الخطوط الحديدية .

والمخلص المؤنث الوحيد الذي ظهر في القرن التاسع عشر السيدة ماري بيكر ادي لم يكن يتوافق ابداً مع نبوءة انفانتان .

وكان هذا الانقشاع الخاص للوهم مضحكاً أكثر منه مؤثراً ؛ ولكن مثل هذا الفقدان للايمان لم يكن فقط من نصيب الطوبائيين المعلنين امثال اتباع أوين وفوربيه والميتريين والفرق العديدة المتفرقة القريبة عنهم كالمورمونيين بل كانت ايضاً مع الاسف من نصيب الجماهير التي انضمت إلى الاشتراكية . والواقع أنه عندما نشبت الحرب العالمية الأولى كان أكثر الزعماء ثورية في فرنسا والمانيا هم الذين ساندوا أشد مساندة الآلة العسكرية الوطنية . ولا يزال يردد كلمات التعارف القديمة وشعارات « التقدم » الآلي و « الثورة » الديكتاتورية بجلبة أكثر اليوم الفتيان الذين تنقص أو تزيد سنهم عن الثلاثين والذين عزلت افكارهم عن الماضي إلى درجة انهم لم يتعلموا شيئاً من اخطائه وحرماناته وهزائمه .

وثمن فرض الإرداة الجامحة لاقلية ايديولوجية على سكان غفيرين هو المذبحة ؛ والضحية العظمى لهذه المذبحة هي الثورة نفسها .

واتفق أن عبرت حياة واعمال ويليام موريس عن روح الطوبائية الرومانطيقية والثورية معاً بوضوح فذ ، وما جعل هذا التعبير افضل هو إن النزاع الداخلي بينهما لم يحل ابداً حلا تاماً . لقد اتاحت لموريس الثروة التي ورثها والتي نجمت عن استثمارات منجمية بأن يكرس قسماً كبيراً من حياته لقرض الشعر وممارسة الفنون والمهن التي جدد بفضلها وحده ممارسة حرف المطبعة والزجاج المعشق والسجاد والرسم الجداري على الورق وفن الطباعة . ويبقى علينا أن نقدر بجد الامثولة التي نستخلصها من هذا المثال وأن نطبقها على المجتمع المعاصر . المجتمع الذي يضعفه اليوم نقص تكريسه للعمل اليدوي ومقاومته المتزايدة للعمل النشط من كل نوع .

وقد تجلى جزء من حياة موريس في طوبائيته الوجدانية «قصص لا تنتسب إلى وطن» التي كتبت بعد أن اعتنق الاشتراكية الماركسية الثورية بدافع الحقد على القبح والفقر والظلم . ومع أن موريس توصل إلى اطراء الآلة بوصفها تخفف العمل المادي المضني فانه لم يقر أبداً أو بطريقة أدق كان يكره بشدة نظام القوة نفسه على الرغم من أنه اعتبر بان الانتقال إلى مجتمع جديد لا يمكن أن يتحقق بدون عنف مادي .

ولكن أي الصورتين بدت أكثر واقعية التغيير الثوري أو وجدانيته الحلوة الرعوية ؟ لم يكن موريس يجهل أبداً في أن نكلترا المستقبل التي وصفها في (قصص لا تنتسب إلى وطن) لم تكن سوى نتاج خياله وتجميل لتجربته الشخصية كرب منزل في كيلمسكوت مانور . هل كان حلمه

بالحقيقة ساذجاً أكثر من ايمان لينين غداة الثورة الروسية بأن النقد سيلغى وأن الدولة ستزول والتطور الجدلي نفسه سيصل إلى نهايته وفقاً لتنبؤات ماركس الموثوقة ؟ يبدو أن ماركس ولينين لم يتوقعا ابداً أن تراتب السلطة القديم سيقوم من جديد عندما تنجح الثورة مع صعود اقلية جديدة ذات امتيازات وأن السمات الاصلية للآلة العملاقة ستعود بالشكل الكلاسيكي الدقيق الذي وصفناه . إن ما كانت تقوله بالفعل الشيوعية الرسمية والبيروقراطية هو : لا تخافوا الثورة ! فلن يتغير أي شيء اساسي في مجمع القوة !

ومع هذه الضلالات المحزنة نفسها كان لحلم وليم موريس العبثي فضيلة بسيطة ؛ فقد أقامه موريس على سمات انسانية لاتزال فاعلة . لقد كان الشكل الذي صب فيه طوبائيته قديماً وكانت الحياة التي رسمها خالية من التوترات والحرمانات والتضييقات والمنازعات مما يجعلها ملائمة للابداعية الإنسانية . وكان موريس في مزاجه الوجداني يشكو من اغفال دروس مأساة حياته الشخصية الخاصة . ولكن قصصه التي لا تنتسب إلى وطن كانت قصصاً جيدة لأنها كانت تشير إلى العودة إلى المركز الإنساني : أي تصفية مجمع القوة والجمود المؤسسي اللذين اسهما منذ عهد الأهرامات بشلل واجهاض التطور الإنساني .

إن موريس قد عرض بتقديم هذه اللوحة انقشاع الوهم لديه لا بالنسبة للنزعة الصناعية المعاصرة فقط بل بالنسبة لنوع الأيديولوجيا الثورية التي كانت تأمل أن تحل محلها . لقد انتشر انقشاع الوهم هذا الآن بين قسم متزايد الإتساع من سكان البلدان الغربية ؛ وهو يفسر جزئياً

القطيعة الداخلية التي حدثت عند قسم من الجيل الشاب . وهذه القطيعة إذا لم تخلف وعدها يجب أن تنتهي إلى نسف كل نظم القوة الرائجة سواء كانت رجعية أم « تقدمية » أم ثورية .

٤ : ردود فعل عدمية

إذا لم نبق الآراء والأحداث التي سجلتها بشكل شديد الإيجاز تحت نظرنا فاننا لانستطيع أن يتوفر لنا أي تفهم للاضطرابات الخارجية والتّرديات الداخلية التي ترى الآن في كل مكان . إن انقشاع الوهم والإباحية والعدمية الوجودية التي ترى اليوم انما يجب أن تقدر بقدر مضادتها لهذه الخلفية .

إن التهديد بازالة الإنسان بواسطة أوتوماتيكياته التكنولوجية والمؤسسية العزيزة هو الذي ولد بدوره هجوماً مضاداً ليس أقل تدميراً، هجوماً ضد الحضارة الحقيقية وحتّى ضد النظام الأساسي بالنسبة للاستمرارية العضوية . وكما حدث عند انحلال مجمع القوة الهيلنستي بدءاً من القرن الرابع قبل المسيح فقد أصبحت المصادفة هي الإله السائد وأصبح التشوش هو الفردوس .

غير أن النتائج التي نلحظها اليوم لم يفت توقعها خلال القرن التاسع عشر أولئك الذين أوتوا قدراً كافياً من التيقظ . لقد كتب جون ريسكن : « تأخذني الرغبة في الضحك عندما اسمع فورة الإبتهاج العامر بالأمل لدى الكثيرين حيال قدرة علم هذا العالم الجديدة وقوة جهود هذا العالم الجديدة ؛ كما لو كنا عائدين إلى بدء عهد جديد . إن في الأفق عاصفة كما أن فيه فجراً » . وكان ديلاكروا يرى في الأجهزة الزراعية الجديدة

المعروضة في باريس الأدوات الرهيبة للحروب الجديدة كما تكشف عنه بالفعل الجرار الزراعي بشكل دبابة عسكرية ؛ بينما كان تينيسون يتنبأ بـ (أساطيل جوية) تمطر الموت من أعالي السموات . وحدوس الشعراء والرسامين الحساسة كانت على اتصال بالحقائق المقبلة بشكل أوثق من الحسابات الذرائعية أو لنقل البصيرة حسابات المهندسين والعلماء والجنود ورجال الدولة . ولو لم تنتزع احشاء الحياة الذاتية نفسها وتحنط في الكنائس والمدارس والجامعات في العالم الغربي لكان من الممكن أن يحدث رد الفعل الجماعي على هذا المشروع التكنولوجي غير المتزن بسرعة أكثر وان يتخذ مساراً معقولاً أكثر .

إن ماحدث بهذه السرعة خلال نصف القرن الأخير قد توقعه دوستويفسكي في زمن سابق جداً في« الممسوسون . وجريمة وعقاب وفي رسائل من العالم السردابي الرهيبة في تنبئيتها . » لقد تنبأ في هذه القصة الأخيرة بشخص قاص رافض منتحب . وهو نموذج أصلي وتجسيد مسبق تقريباً لهتلر . إن تنظيم المجتمع الحديث بقوانينه وأعراف الإحترام المتبادل وتقدمه التكنولوجي « سيكسر بالأقدام إلى ألف قطعة » يوماً ما بشكل أن تعاش الحياة من جديد لا وفقاً لنزواتنا الخاصة البلهاء » وبنفس شروط اللا مسئولية المثيرة التي حاولت فرق متكاثرة من الرافضين والهيبيين أن تعيش فيها .

لقد تجاوز دوستويفسكي في تعظيم التدمير هذا حتى عدمية العدميين الذين رسمهم تورغنيف في (آباء وأبناء) . لقد عرض تورغنيف في هذه الرواية منذ نيف وقرن نزاع الأجيال في عصره : إنه مواز صحيح تقريباً لعصرنا . لقد كان بازاروف نقيض ـ البطل عند تورغنيف لايريد

بوصفه علمياً فيلسوفاً أن تكون له أية صلة بقيم المجتمع التقليدية . إنه لايرفض فقط مؤسسات الدولة والكنيسة بل يرفض أيضاً النظام الحر المنافق نظام جيل والده ، مع جهوده الثنائية المدلول رغم قلقها لتحسين حياة اخوانه في الإنسانية دون أن يغير بشكل جوهري انساقه الخاصة المترفة . لقد كان هذا الرفض العدمي جذرياً إلى درجة أن بازاروف طرد بازدراء حتى الشاعر والفنان خارج مجتمعه المثالي . وكان يقول انه مستعد أن يبادلهم كلهم بكيميائيين جيدين . ولكن لاحظوا مايلي : على الرغم من أن بازاروف كان مستعداً أن يهدم البنية الإجتماعية بكاملها ويستأنف الرحلة من الصفر فان ذلك لم يضعف احتفاظه بايمان غير متفائل بالمطلق الأرثوذكسي الذي أتى بعد القرن السابع عشر : العلم والتكنولوجيا . لم يكن يخامر بازاروف أي شعور بأن عقلانيته العلمية الخاصة يخشى أن تكون عرضة للاعتراض والهشاشة أمام النقد المعمق مثل أشد العقائد التي يرفضها هرماً . إن الذي لم يكن يدخله في حسابه هو انه إذا تهدم تراث القيم والأهداف الإنسانية فان القيم من النوع العلمي يمكن أيضاً أن تنحل أو ، ماهو شر من ذلك أيضاً ، أن تصبح أداة مهيأة تماماً لضلالات رهيبة كانت حتى الآن موضوعة جزئياً تحت رقابة أخلاقية ، والضربة الاضافية كانت من راسكولنيكوف دوستويفسكي الذي أغتال امرأة عجوزاً بغية تجريب احساس جديد انها ضربة بشرت بجنوحات اليافعين والرافدين في عهدنا .

هذه الجنوحات قد توطدت اليوم وتدعمت بواسطة العبادة الواعية لمضاد الحياة . لقد رفع أبطال هذه العبادة من المركيز ساد إلى سيلين وجان جيني السادية والفسق والأدب العاري والجنون والتدمير الذاتي

إلى مصاف التعابير العظمى عن الحياة والفن على السواء . وليس على سلم قيمهم السلبية أي حد أخلاقي لقوى مضاد — الحياة . ولذا فان هذه العبادة بتأثيرها العملي تشجع المشاريع العسكرية المخزية التي تهيأ اليوم بهدف الإبادة الشاملة .

لقد حدث التمجيد الظافر لعبادة مضاد — الحياة : وكان تجسده الكامل بمخلوقين لهما شكل خارجي إنساني انحدرا لا إلى مستوى تحت الإنساني فقط بل إلى مستوى تحت الحيواني . إن آدم وحواء الأولين لهذا الدين هما الفرد الذكر والفرد الأنثى اللذان لم يكتفيا في انكلترا بتعذيب طفلين حتى الموت بل سجلا بمهارة تكنوقراطية عجيبة على شريط ممغنط استغاثاتهما وحشرجاتهما للاستمتاع بها مستقبلاً . ولم يترك سوى المشهد النهائي من هذا الطقس الشيطاني لرسول ماقبل من رسل هذا الدين وهوالتبريد الآني لبقايا الضحايا لجلسات لهو مقبلة في ولائم خاصة ولائم أكل اللحوم البشرية . وليس في دين مضاد — الحياة أي مبدأ يوصي بالتوقف قبل هذه المتع النهائية . لقد كتب سيناريو هذا الطقس المخيف نعم كتب ومثل جزئياً في مائة مسرح طليعي عبر العالم بأكمله .

إن ماشرع به فقط عدميو بازاروف الإنسانيون إذا قورنوا مع الآخرين . يحاول العدميون المتوحشون في عصرنا أن يسيروا به حتى النهاية : هجوم مجنون ضد الحياة نفسها وكل ابداعات الفكر المنظمة القديمة والجديدة التي تحفظ وتستكشف وتشجع وتنمي طاقات الإنسان المبدعة . وبالرغم من أن هذه الردود التراجعية قد حدثت بتواتر متزايد وبأشكال عديدة مختلفة في العالم كله فانها كما يبدو لم تنطو بالنسبة لأنبياء التكنولوجيا العملاقة الوادعين على أقل تحذير ولم تزعجهم أيضاً .

فلا ردود الفعل السلبية ولا الإيجابية التي سأفيض في شرحها فيما بعد قد دلتهم على ضرورة أن يحسبوا حساباً نظرياً على الأقل لانقلاب ممكن للتيار الذي يقود إلى الرقابة التكنولوجية المطلقة التي يدعي الناطقون باسم نظام القوة إنه يشكل قدر المجتمع البشري الأعظم . ومع أن الأقلية المهيمنة تظهر في الغالب قوة إبداعية محررة إلى حد عجيب في ميدان الرياضيات والتقنية التجريدي فان اسلوب تفكيرها عندما تتناول المحسوس العضوي والإنساني متعثر بشكل فريد .

لقد عجزت الصفوة التكنوقراطية حتى الآن عن أن تدرك أن نظامها الخاص ليس نظاماً نهائياً وأن هجوماً ينطلق من الخلف (وبقول آخر من الطليعة) هو في سبيله إلى الحدوث مستهدفاً التراث الإنساني بكامله . ومع أن هذه الصفوة تعتبر أن التغيير يشكل ناموس الوجود فهي تعتقد بشكل غريب أن نظام القوة نفسه هو في منجى من هذا التطور .

٥ : أعراض الارتداد

منذ اليوم نفسه الذي افتتح فيه أميل دوركهايم النقاش حول فقدان النظام لايزال يتزايد الشعور بالضياع وبالتدمير الذاتي المعتبرين مشكلة انسانية معاصرة .

وكما كانت الحال بالنسبة لمظاهر مشابهة داخل حضارات أخرى (المجتمعات الهيلنستية وكذلك الرومانية لم تبخل بالشواهد الأدبية من هذا الصنف) فان امامنا مجتمعاً من الجماهير لاتوفر اهتماماتهم وأهدافهم ومنتجاتهم النموذجية حياة ذات مدلول كاف حتى لأسعد متفعيها وتوفر أقل من ذلك بالتأكيد للمستغلين ولمن هم أسوأ أي المهملين .

وزيادة على ذلك فان جهاز الحياة كله قد أصبح معقداً وعمليات الإنتاج والتوزيع والإستهلاك قد أصبحت اختصاصية ومفتتة إلى درجة أن الفرد فقد الثقة في قدراته الخاصة التي لاتلقى مساعدة : وأصبح راضخاً بشكل متزايد إلى أوامر لايفهمها وتحت رحمة قوى لايمارس عليها أية رقابة فعالة . سائراً نحو مصير لم يتخيره . وخلافاً للمتوحش الواقع تحت تسلط التابو والذي يمتلك في الغالب ثقة مفرطة خطرة بقدرات كاهنة أو ساحرة على السيطرة على القوى الطبيعية الهائلة مهما كانت عدائية فان الفرد الذي تعده الآلة اعداداً مشروطاً يشعر بأنه ضائع وعاجز بينما يراقب مجازياً ويأخذ مكانه في سلسلة التركيب ويقبض في النهاية أجره شيكا يتبين أنه لاقيمة له تمكن من الحصول على أية نعمة من نعم الحياة الحقيقية .

إن هذا النقص في المشاركة الشخصية الوثيقة داخل النسق المطرد اليومي يجر إلى فقدان عام للاتصال بالواقع . وبدلاً من التفاعل المتبادل المتواصل بين العالم الداخلي والعالم الخارجي مع رد فعل واعادة ضبط مستمرين ومع التحريض على الإبداعية الجديدة يزاول السلطة العالم الخارجي وحده وخصوصاً العالم الخارجي الذي ينظمه جماعياً نظام القوة : حتى أن الأحلام الشخصية يجب أن توزع عبر التلفزيون والفيلم والأسطوانة حتى تصبح مقبولة .

يترافق هذا الشعور بالضياع مع مشكلة عصرنا السيكولوجية النموذجية التي سماها أريك اريكسون بألفاظ كلاسيكية باسم « أزمة الهوية » .

إن الشروط الأساسية للحفاظ على الإستمرارية ولإقامة توازن

شخصي تختفي في عالم التربية العائلية فيه انتقالية والإتصالات الإنسانية انتقالية والأوضاع المهنية وأماكن الإقامة انتقالية والعلاقات الجنسية والعائلية انتقالية . ويستيقظ الفرد فجأة : كما فعل تولستوي أثناء أزمة شهيرة من أزمات حياته الخاصة في أرزاماس ، ليجد نفسه في حجرة غريبة مظلمة بعيداً عن بيته تهدده قوى عدائية كالحة ، عاجزاً عن أن يكتشف أين هو ومن هو مذعوراً خوفاً من ميتة مجردة من كل معنى بعد حياة مجردة من كل معنى أيضاً .

لقد كان رمز أو شعار القبيلة هو الذي يقرر هوية أعضائها ويحافظ عليها في الحضارات البدائية قبل أن يتحقق تمايز العقول والهويات . ولايزال قسم من هذا الشكل المبكر لتحديد الهوية باقياً لحسن الحظ في الأسر والفرق المهنية والجوار والمدن والأمم على الرغم من وجود حضارة جماهيرية متجانسة مقرونة بالاتساع المتواصل للمدينة العملاقة (التي تشكل هي نفسها لا كياناً شبيهاً بالحاضرة منحلاً ولايمكن تحديد هويته) تهدد حتى هذه الركائز الباقية للأنا الإنسانية .

إن التغييرات التي تحدث في المنظمات الجماعية الواسعة من كل نوع بسبب ديناميكية التكنولوجيا العملاقة العاتية فقط تخلق أيضاً أزمات هوية أخرى . فمع أنني نيويوركي حقيقي من نيويورك ألفت منذ زمن طويل كل أكتاف مدينتي فقد حدث فيها من التغييرات في القطن المادي وفي السكان البشر خلال حوالي عشرين عاماً مالا أستطيع معه أن أتعرف على المدينة وكأنها مدينتي الخاصة ولا أن أشعر بهويتي كنيويوركي .

كان لدى تولستوي شعور بأن الغرفة المظلمة الغريبة التي استيقظ فيها بعيداً عن بيته كانت نعشاً . وكحلم الطفولة بالرحم كان يشعر بأنه

سابح في عدم مرهق . ولا سبيل إلى أن نجد صورة أفضل للتعبير عن حالة الإنسان الحديث . إن هذا النعش الجماعي هو اليوم غلاف كل «حضارتنا» : لا المتجسد فقط بل المرموز إليها بدقة بالملاجيء الجوفية ومراكز القيادة العسكرية : لحد اللحود التكنوقراطي .

لقد تخلى الإنسان الحديث بخضوعه غير المشروط لنظام القوة (بأتمتة أتمتته) عن بعض ثرواته الداخلية الضرورية للحفاظ على حياته : وخصوصاً الثقة الحيوانية بقدرته الخاصة على البقاء وعلى انجابه لنوعه بيولوجيا وتاريخياً وثقافياً . إنه باقدامه على نبذ الماضي أفسد ايمانه بالمستقبل . والواقع أنه لايستطيع الحفاظ على الإستمرارية عبر التغيير والإحاطة بالتغيير بدون أن يتخلى عن الإستمرارية إلا بفضل تلاقيهما في وعيه الحاضر . وهذا ولا شيء أقل منه يشكل « طريق الحياة ».

إن الطبيب النفساني فيكتور فرانكل الذي بقي حياً بعد الفظائع قبل الأخيرة في أحد معسكرات الإعتقال النازية قد أشار وهو يشرح الفراغ الوجودي في عصرنا أنه إذا لم تقل أية غريزة للانسان مايجب أن يعمل « وإذا لم يقل له أي تقليد ماقد يجب عمله فانه سوف يجهل وشيكاً مايريد أن يعمل » . ليست الغزارة الفارغة والفراغ الفارغ والإثارة الفارغة والوضع الجنسي الفارغ هي العلات أو العثرات العابرة لمجتمعنا المتجه نحو الآلة ولكنها المنتجات العظمى التي يباهي بها . وأي مبرر يمكن أن يطرح للبقاء على قيد الحياة عند تردي الحياة إلى هذه الحالة من العطالة العاجزة ؟ يمكن في مثل هذه الحالة أن يبرر الإنتحار إن لم نقل يوصى به بوصفه اثباتاً أخيراً يائساً للاستقلال الذاتي .

علينا إذاً أن نجابه حضارة مضخمة التنظيم مضخمة المكننة مضخمة

التوجيه مضخمة التوقع . وبدخول الكائنات البشرية في اللعب الإقتصادية والإجتماعية الفارغة التي تخدم هذه العملية الأوتوماتيكية تصبح هذه الكائنات « أشياء » أو « بيادق » معدة لتعامل بالطريقة نفسها التي يعامل بها أي نموذج عرضي من المواد الخام . وكلما اقترب النظام من الكمال يزيد استغراق العناصر البشرية الباقية في التيه : ولايبقى بذلك إلا اللاحياة التي لاتلبث أن تتحول مع طاقاتها الباقية إلى نفي للحياة عامر بالحقد . إن الإظهار المحسوس لهذا التطور هو في متناول تجربة كل واحد ؛ والواقع أن عبادة مضاد الحياة — مضاد النظام — مضاد العقل مضاد الشكل تسود اليوم كل الفنون .

وإذا لم يحدث رد فعل كاف يحث على اعادة بناء ايديولوجيتنا السائدة وبناها المؤسسية وشخصياتها المثالية فان مجرد الإعتزال لايكفي ولو كان على القياس الذي حققته المسيحية في القرن الرابع . وكما جرى في « بارتلبي » لهرمن ميلفيل فانه لاينجم عن الإعتزال السلبي الا الموت من الناحية الجماعية . غير أن من يتقون هذه الطريق يستطيعون أن يقولوا بحق مع بارتلبي : « انني أعلم أين أنا » . لقد تبين بارتلبي أن الحكم بأن يكون الإنسان مدى الحياة جندياً غازياً ليس بالفعل وبأي معنى حقيقي حياة . المتمردون المستعصون على الإستخدام اليوم الذين يرفضون المهن المملة والتعلم البيروقراطي والواجبات العسكرية المحطة هم من حزب الحياة .

انهم بقيامهم بمحاولة أخيرة لاعادة تنظيم هويتهم ومخطط حياتهم الأصلي ولو بواسطة التحدي بالشعر الطويل أو برفض السلع الرائجة والمكافآت المالية التي تمنح لمن يتكيفون يبدون أحياء أكثر من أولئك الذين لايقومون إلا بمحاولة (كسب أفضل نصيب) .

إن رد الفعل السلبي هذا على الآلة العملاقة كان مع الأسف معداً جزئياً اعداداً مشروطاً بواسطة القوى نفسها التي يقاومها كما أتى في حكمة أل (A.E) : « يصبح الإنسان صورة الشيء الذي يكرهه » . إلى درجة أن ذلك قد أصبح يهدد بأن يصبح نظام قوة سلبياً ليس أقل تعسفاً واستبداداً . وهكذا فان ردود الفعل الحالية المتزايدة العنف تبدي كثيراً من أعراض العدوانية المرضية والديناميكية المسعورة التي اتسمت بها انتصارات التكنولوجيا العملاقة . ومابدأ كحركة معارضة لمجمع القوة قد تحول إلى ترد وتخريب متعمد لا لبنية القوة فحسب بل لكل البنى المنظمة ولكل المعايير الموضوعية ولكل اتجاه معقول . وبكلمة إلى عبادة مضاد — الحياة . وبموجب شيء ما يمكن أن يكون أكثر من مجرد مصادفة ولو لم يكن ذلك إلا مثالاً صارخاً على فرضية بونج عن التزامن فان عبادة مضاد— الحياة هذه قد ظهرت في الفترة نفسها التي ظهر فيها عند الفيزيائيين مفهوم ضد — المادة : وهي قوة نظرية تلاشي المادة بمجرد الملامسة .

واعطاء ولو بيان موجز عن ردود الفعل والتفاعلات والتحويات الجماهيرية هذه التي عمت الآن جزءاً كبيراً من الكرة الأرضية قد يتجاوز قدرة أي عقل منفرد،غير أن أشكال عبادة ضد — الحياة قد سجلها رمزياً لحسن الحظ فن عصرنا ، وإذا قصرنا تحرينا على هذه الرموز محاولين أن نقوم لابتقدير جمالي بل باعتبار لمدلولها المختلف في الغالب جذرياً عن وصف الفنان الخاص فسيتوفر لدينا تفهم أفضل للاعقلانيات عصرنا السياسية والتقنية التي غالباً ماتكون معقولة جداً بالشكل ولكنها كالإبادة الشاملة النووية لاعقلانية بشكل مؤثر في مضمونها وفي هدفها الحقيقيين .

٦ : عبادة ضد ـ الحياة

لقد كانت اضطرابات الحضارة التقنية العملاقة الداخلية والخارجية على السواء حتى هذه الفترات الأخيرة يخفيها بنجاح الطابع الضخم لمنجزات هذه الحضارة البناءة . فعلى الرغم من قيام حربين عالميتين وعلى الرغم من التهديم الشامل عملياً لعشرات وعشرات من المدن الكبرى فان أدلة التدمير قد أصلحت حتى الآن بسرعة إلى درجة أنها سرعان ماأصبحت في أقل من نصف جيل غير ظاهرة ومنسية تقريباً مثل الحلم المزعج ولو بالنسبة لشهود عيان تأذوا منها بشكل خطير .

وهذه القدرة على البرء بمثل هذه السرعة من سلسلة من الضربات الرهيبة يبدو أنها تدل ، إذا نظرنا إليها من الخارج ، على حالة صحية اجتماعية زاهرة . غير أن عودة ظهور البنى المتينة والأنساق المألوفة التي تهدىء موقتاً القلق قد أسهمت فقط في متابعة الإنحلال على نطاق أوسع أيضاًلأنهاأخرت رد الفعلالعامعلىالتوسعالسريع العاتي لمجمع القوة الذي كانت طاقاته التدميرية تزيد بنسبة مباشرة مع ابداعيته التكنولوجية وربحيته المالية .

ولعل المحل الذي سجل فيه مثل هذا الإنحلال الجماعي بالوجه الأول هو في أعمق مستويات الروح . غير أن كل محاولة لاجراء تقدير كمي للتلف الذي حدث هنا بجمع الإحصاءات الحالية عن الجريمة والأمراض العقلية وادمان المخدرات وقتل الرجال والإنتحار لايمكن أن تبين إلا جزئياً وسطحياً مايحدث حقاً ولو على قياس تقدير غير محكم لحجمه . أمر واحد فقط أصبح واضحاً : إن ميدان العنف واللاعقلانية سواء ماكان منهما خاصاً أو نظامياً قد اتسع بطريقة منظمة خلال نصف

القرن الأخير . وواقعة أن هذه الأمور التي لاثقل لها ولايمكن وزنها لايعني أنه لا وزن لها .

من يستطيع وصف الصدمة الجماعية الهائلة للحربين العالميتين مع غلوها في الحقد والسادية والإبادة المجانية ؟ من يستطيع أن يقدر الذي أحدثته القنابل النووية ولا أقصد فقط تلك التي ألقيت فعلاً على اليابان أو التي تفجرت أثناء التجارب العسكرية بل أعني أيضاً تلك القنابل الأكثر عنفاً التي فجروها في العقل والتي قادت إلى تجارب مقررة شرعاً في الإبادة النووية والجرثومية والكيميائية تحميها من هجمات النقد السرية والإعلام المنظم السيء والتزييفات الرسمية الوقحة ؟

ومع ذلك فان ملايين نزلاء مشافي الأمراض العقلية والسجون يمثلون بالنسبة للانسانية تهديداً لايؤبه له بالمقارنة مع الإرهابيين الرسميين الذين لاتزال خططهم الباهظة بهدف الإبادة الجماعية الشاملة تمول بسخاء من قبل الحكومات الوطنية وتقبل بشكل انفعالي من قبل المواطنين بوصفها ضماناً للاستقرار و « السلام » . ولايقلل من وبال مشاريع الإبادة هذه أنها تحققت في ظل إدارة رسمية دقيقة ؛ ولايقلل من جنونها أنها أفلتت من عالم الأحلام واحتلت المخابر العلمية والقيادات العامة العسكرية والمكاتب الحكومية .

ولاسبيل أن تعالج هذه المعطيات المرضية بشكل واف بتعابير كمية إلا بالتقديرات غير الدقيقة لعدد الضحايا السابقين أو اللاحقين المحكوم عليهم بالعجز بسبب المرض أو الجرح أو الموت . وإذا رغبنا في أن نتفحص الإنحلالات والتقهقرات التي تهدد الآن بنسف الحياة الإنسانية دون التفات إلى تقدماتنا التكنولوجية الصحيحة . فيجب علينا بالحري أن

نفسر شواهد نوعية محضة يفضل أن نستعيرها من عالم الفن ، والواقع أن رعشات الروح البعيدة تسجل بشكل ضعيف أول ماتسجل في الفنون التصويرية والتشكيلية وفي الأدب والموسيقا كأنها تسجل على ميزان الزلازل قبل أن تصبح ظاهرة وملموسة بقرن كامل .

وبعد العلميين الروسيين صدرت أول دلالة واضحة عن عبادة ضد الحياة الحاضرة من المستقبليين الإيطاليين وعلى رأسهم مارينيتي وقد قاوموا بحماسة وليس بدون مبرر دفن ايطاليا تحت تقاليدها القديمة التي حولت سكانها إلى مجرد محافظي وحراس متاحف ، وكان هذا الرفض الشامل للماضي يقترن ، بطريقة متميزة كما جرى في قضية بطل تورغنيف العدمي ، برد فعل ساذج خلو من الروح الإنتقادية ومبالغ في حماسته للتكنولوجيا وقوتها وديناميكيتها كان مارينيتي يربطه بالعنف المادي بكل صوره : بالصراع وبالعدوانية . بالحرب وبالنظام العسكري وبالإبادة حرقاً « وبالضرب على الأذن وباللكم » كأنه يبغي بذلك أن يقرن أكثر مظاهر القوة بدائية بأكثرها تعقيداً .

وبطريقة معبرة . لم يكن بيان مارينيتي المستقبلي تمجيداً للقوى الميكانيكيه الجديدة فحسب بل كان نشيداً لتمجيد العنف بكل صوره وبدون تقييد . لقد تبين مارينيتي بالحدس مصير الآلة العملاقة العظيم .

لقد كان اعلان مارينيتي عام ١٩٠٩ بمثابة مقدمة لأكثر من نصف قرن من الحرب والفاشية والبربرية والإبادة التي تلت ذلك فعلاً . ومن المؤكد أنه كان لهذه الحركة ناحيتها الإيجابية كما أن للتكنولوجيا العملاقة نفسها ناحيتها . فقد كان المذهب المستقبلي جزءاً من حركة فكرية عامة مابين ١٨٩٠ و ١٩١٥ كانت تضم الفن الجديد وظواهر التكعيبية التالية

وكانت كلها تحيي الآلة بوصفها عنصراً فعالاً من الحضارة الحديثة وينبوعاً جديداً للأشكال .

وطبق الفنانون الحديثون خلال بعض الوقت وبنوع من الصرامة البوريتانية برنامجاً كان قد تجسد في أعمال مهندسين أمثال ريني وباكستون وايفل وتلقى تعبيره الثقافي فيما بعد في كتابات هوراسيو غرينف ولويس سوليفان . وكانت أعراس التكنولوجيا الجمالية هذه هي بالفعل مجهود لتوسيع مدى ردود الفعل الإنسانية . وإذا كان يخشى بعض الأحيان أن تستهوي الفنان المبالغة في وظائف العلم و « الآلة » أو في تحديد قيمة نهائية لمشتقاتهما المجردة فقد كان الهدف العام من ذلك رفع الطاقةالبشرية.

اسمحوا لي أن انبه إلى أنه ينبغي ألا نخلط مابين ردود الفعل الإيجابية إلى هذه الدرجة على التكنولوجيا وعنف وديناميكية مارينيتي العاطفيين وأن نتفادى أيضاً من خلطها مع سلسلة كاملة من الهجمات على الثقافة التاريخيه حتى في أكثر صورها يمناً وحيوية ، وهي هجمات بدأت مع الدادائية وتردت في هوة كبرى من البلاهة الجوفاء مع الفن الشعبي.

ان من يتفحص صور الدادائية الجديدة في سنوات ١٩٢٠ يكون وكأنه ألقى نظرة أولى على العالم اليوم . ولم تلبث هذه الحركة التي بدأت عند الدادائيين بالعبث بالفن أن أصبحت الطبقة المستبطنة لعبادة أعم لضد — الحياة .

وإذا سجل الملاحظ كذلك فحش جدار المغسلة وتمثال المبولة للدادائيين الأوائل فلن يكون أقل استعداداً لملاحظة شارات الصنع المميزة

من انتاج مرض الطفولة « الطليعي » ومما يدعو إلى السخرية إن هذه الحركة التي بدأت برفض شامل للماضي قد رضيت أن تعيش وسط قطاع من الماضي محدود بصرامة ،قطاعها الخاص ، قطاع نصف القرن الأخير . ولذا فهي تتشبث بطريقة مؤثرة بتجارب كانت « متقدمة » بالأمس وأصبحت بالحقيقة مخلفات بالية وأكاديمية تحتضر كالصور العاطفية التافهة التي قاومها أقوى فناني القرن التاسع عشر .

ولم تكن الدادائية تبدو في البدء بمفاجآتها المبدعة بعض الأحيان إلا سخرية مضحكة من قبل الناس الموجودين لتنفيس السفاهات المفخمة كالوطنية والمجد والخدمة التي غطت الغباوات العنيدة والضحايا الإنسانية غير المعقولة لحرب ١٩١٤ : هذه الحرب التي لم يتوفر لأية حكومة الذكاء لمنعها أو الشجاعة المعنوية لتجنبها أو المروءة لانهائها قبل آن تنزف كل المعسكرات بشكل موئس . وكالحبقة في صالون محتشم لفتت الدادائية انتباه معاصريها إلى الوضع الإنساني القذر . قبل الديكتاتوريات الفاشية الشيوعية ، وقبل الأزمة الإقتصادية للسنوات ٣٠ وقبل الحرب العالمية الثانية مع الإبادة الشاملة الجوية وقبل معسكرات الإبادة الستالينية والنازية كانت هذه الأحداث المقبلة مرسومة مسبقاً في المشاهد المفككة والصور المشوهة من صنع الدادائيين والسيرياليين . وانطلاقاً من عام ١٩٣٠ تناوب عالم الفن الداخلي وعالم التكنولوجيا والحكومة في تذبذبات العنف المتنامي والتدمير الإندفاعي . وكانت كل زيادة جديدة في النظام وفي التعبئة التقنية العملاقة تترافق مع انفجار مضاد ذاتي انفجار رفض وتمرد

واعطاء أي شيء يشبه وصفاً مفصلاً لهذا التشويه والتدمير الذاتيين يتطلب بحد ذاته مجلداً موسوعياً . ولذا فسانتقي انطلاقاً من عجاجة واسعة

من الأدلة عدداً قليلاً من العينات المعاصرة : مجرد ذكريات من كتلة أضخم من اللاعقلانية المقصودة ومن الورم الذهاني والبلاهة المتماة والتدمير العبثي . والترتيب الذي تقدم هذا الملف بموجبه هو مساوٍ بعدم تماسكه الاحداث .

العرض أ : حفلة أوركسترية اقيمت في صالة يعزفون فيها عادة الموسيقى يأخذ أعضاء الأوركسترا أماكنهم . يبدأ أحدهم بنشر كمان إلى قسمين ثم يتبع الآخرون بفئوس . وتصحب هذه التجلية ضجة عنيفة تحدث اليكترونياً . ولا يبقى في النهاية شيء . والحضور الذين تقبلوا هذه الإهانات قد شاركوا كما يزعمون « بالموسيقا الجديدة » بينما أن الذين تركوا الصالة غاضبين قد دلوا بغضبهم وازدرائهم المعللين على نجاح ضد — الموسيقيين .

العرض ب : مشهد من ٤ دقائق و ٣٣ ثانية . من تأليف جون كاج. يجلس مسخ بشري إلى البيانو على مسرح للموسيقا . ولايحدث أي صوت خلال أربع دقائق وثلاث وثلاثين ثانية . وينتهي المؤلف المفكك .

العرض ج : شرح لناقد موسيقي معاصر . « عندما كتب جون كاج ٤ دقائق و ٣٣ ثانية فتح باباً للموسيقا الجديدة . وقد نفذ هذا العمل لأول مرة عام ١٩٥٢ . وكانت الموسيقا هي عبارة عن السعال وصرير المقاعد الصادرين عن السامعين أثناء التنفيذ . وهكذا أعطى كاج للضجة غير المتعمدة صفة الموسيقى المحدثة عن قصد وقطع آخر صلة بالتعريفات التقليدية للبنية الموسيقية ويعتبر المؤلف هذه القطعة اليوم باطلة بسبب طولها المنظم مسبقاً أو المحدد .

العرض د : حدث : فريق من النساء يبني عشاً وفريق من الرجال يشيد برجاً ثم يهدم كل منهما عمل الآخر . وأخيراً يتحلق الممثلون حول سيارة مغطاةبمربب القريز ويلحسونه . لقد جرت هذه التمثيلية في إحدى الجامعات الأميركية .

العرض ه : نبذة صحفية تعطي بياناً عن حلقة دراسية جديدة في جامعة أوريغون « مؤسسة تربوية » : « دمر طلاب صف موريس ياروفسكي حديثاً كل ماوقع في أيديهم . وكان ذلك جزءاً من حلقة دراسية عن « التدمير كطريقة فنية » في أحد صفوف علم المعاني المرئي. .. طلت إحدى الفتيات نفسها بصابون أحمر ووضع رجل في كأس سمكة حمراء ثم صب ملح الطعام في الكأس . وصعد طالب على أحد المقاعد وقذف إلى الأرض بقطعة حلوى ؛ وقذفت مطرقة حداد على جهاز تلفزيون وقفز رجل يعتمر قبعة واقية على تمثال من الفخار .

العرض و : رأس أحد مساعدي محافظ نيويورك للفراغ والشئون الثقافية مناسبة (نحتية) . يحفر حفاران مأجوران وفقاً للأجر النقابي (خمسين دولاراً في اليوم «قبراً » في سنترال بارك . وبعد توقف للغذاء يردمون الحفرة .

وكليز أولد نبورغ الذي ابتدع هذه التمثيلية البلهاء معروف بمفاجآته وفنه الشعبي مثل همبورغر ضخم من الجبس وعصا ضخمة من أحمر الشفاه كالذكر . ويساند خبير النحت في المدينة بالأبهة المقتضاة هذه السخريات«كل شيء هو فن حالما ينتخبه الفنان ليكون فناً » .

أين الضحك غير المحتشم ؟ وأين الطلبات الغاضبة بأن تقدم السلطات

البلدية المعنية اعتذاراتها العلنية عن اهانة عقول المواطنين وسوء استعمال الأموال العامة ؟ لايتبع ذلك سوى صمت وقور . لقد أصبحت هذه التظاهرات المملة البديل بالجملة للابداعية الجمالية الصحيحة . لقد أصبح ضد الفن في الحقيقة النمطية الجديدة وأصبح يثير مدائح نقاد الفن المسفة وتعقيلات مؤرخي الفن الخطيرة ومساحات العروض الممتازة وجداول مدراء المتاحف الهامين المتشابكة . وأسباب هذا النجاح واضحة حتماً. فاللافن كضد الفن يطابقان مواصفات مجمع القوة الصحيحة :انتاجية بدون تقييد ، انجاز آني ، أرباح طائلة ، حظوة ضخمة للزي الرائج ، دعاوة ذاتية صارخة . وتحت مثل هذا العلم يصبح الإرتداد والتردي الأخلاقي من آيات « التقدم » الصحيحة .

اكتشف الأطباء النفسانيون منذ جيل أن الرسم قد كان احدى الحرف اليدوية العديدة التي يمكن بفضلها أن يشق المرضى طريق العودة إلى الواقع . ويقوم اليوم اللافن وضد الفن الرائجان بوظائف معاكسة تماماً : انهما وسيلتان لحث اعداد واسعة من الناس المثقفين على التراخي في صلتهم التي أصبحت ضعيفة مع الواقع وعلى الإستسلام بحرية للذاتية الجوفاء أو على الأقل على أن يؤثروا موقتاً « السير مع » قوى الإنحلال بالإنضمام إلى المجانين المرخصين في سعدناتهم .

وهذه العدمية الثقافية التي بدأت على شكل رد فعل ضد التعبئة قد أصبحت بدورها طرازاً من نقيض — التعبئة مع تدميره الطقسي ورفضه لكل التطورات الثقافية التي صعدت اندفاعات الإنسان اللاعقلانية وحررت طاقاته البناءة

ومن الناحية التاريخية تلقى برنامج ضد الفن من لويس أراغون في بدء السنوات ١٩٢٠ صياغة كلاسيكية في تصريح دادا الشهير :

لا رسامون ولا كتاب ولا موسيقيون
ولاخاتون ولارجال دين ولا جمهوريون
ولا ملكيون ولا امبراطوريون ولا فوضويون
ولا اشتراكيون ولا بلاشفة ولا متسيسون
ولا صعاليك ولا ديمقراطيون ولا برجوازيون
ولا أرستقراطيون ولا جيوش ولا شرطة ولا أوطان
لنوقف كل هذه الحماقات : لاشيء
لاشيء أبداً . لا شيء . لاشيء . لاشيء

شيء واحد كان ينقص بشكل غريب هذا الرفض الشامل : لادادا. لقد رفض دادا أن يطبع دستوره الخاص الأصلي : « كل الداداءات الحقيقية هي ضد – الدادا » . وحدث عكس ذلك تماماً : فدادا يزعم اليوم أنه كل شيء .

وفي كل البلدان يقبل اليوم قسم كبير من السكان المتعلمين أو أشباه المتعلمين ، تلامذة الإعلام الجماهيري ، المدعومين من أروج المحرضين في المدارس والكليات والمتاحف ، فن مستشفى المجانين هذا لا كتعبير صالح عن حياتنا المجردة من المدلول والهدف فحسب (وهذا هو إلى حد ما الواقع) بل باعتباره المقاربة الوحيدة الوجودية المقبولة للواقع . وكان أثر هذه الدعاوة وهذا التمذهب وياللأسف هو تقوية اللاعقلانية التحتية

لنظام القوة بحذف كل مايمكن أن يحيي تراكم التقاليد الإنسانية التي تبقى ضرورية لتغييره ان أعيدت تنميتها وأعيد تجديدها بقوة .

والعلامة الصحيحة للتجربة إذن هي الحذف المنظم للجيد والحقيقي والجميل سواء بالصورة القديمة أم بالصورة المقبلة المحتملة . ويصاحب ذلك هجمات عدائيه على كل ماهو سليم متزن مقبول معقول منضبط ومعلل . ويصبح الشر في عالم القيم المقلوبة هذا الخير الأعظم . أما القدرة على اجراء تمييزات أخلاقية وانتقاءات شخصية وعلى منع الإندفاعات الهدامة أو القاتلة والتطلع إلى غايات بعيدة لأسباب انسانية فتصبح كلها اهانة لاله فقدان النظام إله البلبلة الذي أعيد اعتباره . إنها أخلاقية مقلوبة .

إن ضد – الفن بكل انماطه إذن ، من نحت المنحوتات من النفايات إلى التخيلات العقيمة ، ومن صخب موسيقى الروك التي تحطم الآذان إلى الفراغ المفتعل للأصوات العارضة الصادرة عن قفص في صالة موسيقيه ، ومن الخواء المدروس للوحات الفارغة إلى بلبلات العقول التي لفها ضباب العقاقير ، يؤمن موارده المالية والتكنولوجية من العملاء أنفسهم الذين يعمل على تحديهم . والوسائل التي يستخدمها الذين يحاولون « الفرار » من التكنولوجيا العملاقة تدل على هذه التبعية الوثيقة : الهيروين والحامض المخدر ، والأضواء الباقية الأثر والمكبرات الإلكترونية ، و « السرعة » بشكلها الكيميائي والميكانيكي معاً هذه كلها مرتبطة بالكشف العلمي وبواعث الربح . لقد مهد مدمنو الماريهوانا المزمنون الطريق لتوسيع صناعة السجاير إلى صنع الحشيش مع تحقيق أرباح مالية أوفر أيضاً : والتغليفات المغرية والشعارات الدعائية قد أصبحت ، كما يروى ، جاهزة . إن مايبدو كانسحاب ليس سوى

شكل آخر من المشاركة النشطة والإستغراق في نظام القوة . باللسخرية ، حتّى ثياب الهيبيين قد فتحت سوقاً جديدة للانتاج بالجملة .

لعل مايفسر هذا الإنحياز الشره لضد— الفن انما هو بالضبط واقعة انه يقوم بدور مزدوج ولكن متناقض . إنه يفتخر بأنه تمرد ضد حضارتنا المضخمة المكننة والمغالية في التعبئة . ولكنه يتبين أن تسويغ المنتجات العظمى لنظام القوة تخدم أيضاً مصالح ضد— الفن : فضد الفن يجعل الإنسان الحديث يألف القطن الذي تمضي في اقامته التكنولوجيا العملاقة : محيط متّرد بفعل شحنات الأقذار ؛ مدافن العجلات وأكوام النفايات والبطاريات النووية والطرق المفرطة في الإتساع والتجمعات الكثيرة التعقيد ذلك كله معد لأن ينسجم من الناحية المعمارية في مدينة عملاقة عالمية .

وضد الفن إذ يجعل هدفه الخاص التلاشي الذاتي الذي تهددنا به الآلة العملاقة يستحوذ عليه الوهم في أن يتغلب على هذا المصير بعملية انتقاء شخصي . ويقبل ضد— الفن برضوخ النتيجة المبرمجة لمجمع القوةفي الوقت الذي يبدو فيه أنه يتحداه وينكر انتظام سياقاته .

لاحظوا مدلول النحت من النفايات . إن ماقد يقوله لنا صانعوه هو أنه يمكن للحياة بعد كارثة نووية أن تستمر على مستوى دون الإنساني عميق الغور وأن الفنانين وهم ينبشون الخرائب للتفتيش على مواد يمكن أن يكونوا لايزالون قادرين على محاكاة شيء مايعبر عن بقية لإرادة مبدعة مهما كان محزناً في تشويهه وذلك باستعمال آلات صدئة وطسوت مرحاض مكسرة وقساطل وأسلاك ملفوفة وخزف مكسر ومنبهات معوجة .

وإذا كان هذا هو الباعث اللاشعوري الذي يساند ضد الفن فيمكن فهمه مع تحفظات خطيرة ويمكن اكباره كتحذير تنبؤي من مستقبل علينا اتقاؤه .

إن المجتمع مدين في هذا التسليط للأضواء لضد – الفن في عصرنا لأنه كشف التحريضات اللاعقلانية والأهداف العقيمة التي تتسم بها الآن الحضارة الغربية قبل تكاثر وتصعيد وسائل التدمير العلمية . ولو فهمت الطبيعة التنبؤية لهذا الفن على نطاق واسع لكان من الممكن إذا أخذت بمقادير مخففة بما فيه الكفاية أن تستخدم ككفاح مناسب بغية اتقاء المرض الذي هو ماض في غزو الجسم الإجتماعي بكامله .

٧ : الذاتية الجوفاء

إن ضد – الفن في عصرنا لم يعرض فقط ، مع الأسف ـ لاعقلانيات مجتمعنا المستبطنة بل قواها مستخدماً وسائط شعبية كالفلم وشاشة التلفزيون لتقديم نماذج مكبرة من ضلالات التدمير الجماعية ! إنه يراكم مسخاً فوق مسخ وهولاً فوق هول وعنفاً فوق عنف فيعطل بذلك في العقل حتّى مجرد الثقة الحيوانية بالحياة . لقد انفجرت هذه الإندفاعات النفاسية في الماضي بطريقة متكررة داخل الطبقات الحاكمة وأفصحت عن نفسها بطقوس مخيفة من التعذيب ومن المذابح ؛ وكان باقي النوع الإنساني لحسن الحظ مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالحقائق اليومية للعمل والغذاء والتزاوج وتربية الصغار مما لايجعلهم منقطعين تماماً عن الواقع .

والآن وقد تراخت روابط العادة والعرف والشرعة الأخلاقية فإن

قسماً متزايداً من الجنس البشري هو في سبيله إلى أن يفقد صوابه . ويكفي أن نقرأ البيان الأسود المنشور عام ١٩٦٩ حتى نتبين أن قسماً متفقاً من سكان الولايات المتحدة الزنوج قد استسلم على الأقل موقتاً إلى نفس النوع من الهلوسات المشئومة التي كادت تمحو شعب الكسوزا من خريطة افريقيا في القرن التاسع عشر . الا أن هذه الضلالات ليست في أساسها أكثر جنوناً من التصريح الذي فاه به علناً أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي من جورجيا ذلك العضو الذي لم يكن ليتراجع أمام احتمال ابادة شاملة ذرية تكنس القسم الأعظم من النوع البشري شرط الإبقاء على آدم وحواء اميريكيين ، من البيض مؤكداً ، لاعادة أعمار الكرة الأرضية .

وعلي لتفسير واقعة انتشار الجنون بهذه السرعة أن أعود إلى تفسير جديد أساسي مسجل بشكل صريح في المجلد الأول من أسطورة الآلة .

ولقد تصدى لهذه الفكرة بطريقة غير مباشرة مفسرون آخرون قبل أن تتوفر المعطيات الكافية أخص بالذكر منهم الفريد روسل ولاس .

لقد نبه ولاس إلى أن دماغ الإنسان النامي بشكل مبالغ فيه ابتداء من النقطة التي خلف فيها الإنسان العالم وراءه اسلافه الرئيسات وأشباه الآدميين يتجاوز إلى حد بعيد حاجاته للبقاء الحيواني . وقد شكل هذا الأمر خلال حقبة طويلة من الزمن تهديداً لتوازن الإنسان الداخلي ولاستمرار تطوره . وكان عقله الناشط أبداً الذي يرد بحساسية بواسطة كل اعضائه على البيئة والذي تحرضه بشكل مفرط نشاطاته الجنسية المحررة (غير الموسمية) تحت رحمة لاشعوره في أغلب الأحيان بالنظر إلى أنه نبذ الثوابت الوراثية والرقابات الغريزية التي تقيد سلوك الأجسام الأخرى . لقد كان الإنسان قبل أن يبدع طبقة رفيعة من الثقافة بفضل

الطقس واللغة معرضاً بشكل خطر لاثارات لاشعوره الخاص المشوشة المدمرة والإنتحارية في الغالب . ولايزال هذا الخطر باقياً .

وهذه القوى الذاتية المنبجسة على شكل صور أحلام أو اندفاعات محركة قد بدا أن تمييزها عن الأهداف العامة لوعي الإنسان المستيقظ صعب في أغلب الأحيان ؛ رتزيد هذه الصعوبة عندما يعاني أفراد أخرون من الجماعة من الضلالات نفسها . وإذا تركنا جانباً التقهقرات والهزائم المتكررة التي لابد من أن تكون قد اودت بالعاجزين عجزاً مزمناًعن تمييز الخيال من الحدث الواقعي ، فيبدو أن هنالك قسمة خاصة قد انقذت الإنسان وهي لاتزال بادية عند الرضع والأطفال : انها الحاجة الأيجابية لتكرار التجارب مصحوبة بالإستمتاع الإيجابي كذلك بالحركات الجسدية والتعابير الصوتية التكرارية . وهكذا اعادت العادة والعرف والطقس النظام الذي عرضه للخطر تطور الإنسان العقلي الذي فصله عن غرائزه .

وإذا صحت هذه الفرضية فان مشكلة الإنسان الكبرى كانت منذ البدء استخدام الإمكانات البديعة المبدعة لدماغه الواسع وجهازه الحسي المعقد دون أن تخل من توازنه بشكل خطر الإندفاعات قبل العقليه واللاعقلانيه التي تنبجس من أعماق كيانه بشكل حر غالباً . وبالنظر إلى أن الموهبة الخاصة التي توفرت لدى الإنسان البدائي موهبة الإستمتاع بالتكرار الصحيح قائمة في أساس الحضارة الإنسانية فقد كان الإنسان قادراً أن يشيد بنية متينة داخلية من المعاني وأن يشيد كذلك نسق حياة حسن التنظيم ومتماسكاً داخلياً .

ومع أن العادة والعرف كانا ينزعان إلى كبح روح الإختراع

ومقاومة حتى التغييرات الخيرة فانهما قد عوضا عن ذلك بأكثر منه لكبحهما اثارات اللاشعور دون الإنسانية . غير أن اندفاعات الإنسان غير المهذبة وغير المنضبطة هي طفولية بشكل خطر إلى درجة أن أكثر الحضارات استقراراً نفسها لم تكن قادرة على منع انفجارات لاعقلانية مهددة للحياة : أي قضية معاناة « الجنون الجامح » في جنون القتل (١) وممارسة التعذيب المنظم والتضحية البشرية أو التورط في مذابحوتدميرات الحرب المجنونة بدعم عقلي زائف من الدين .

لقد عرفت مظاهر الطبيعة الإنسانية المشوشة هذه على نطاق واسع ، فقد توفر للعقول الشعرية من هوميروس وسوفوكل إلى شكسبير ودوستويفسكي ، في منابعها اللاشعورية الخاصة ، شعور حاد بتيار الجنون المزمن هذا أو على الأقل الجنون بالقوة قبل فرويد بزمن طويل . ولكن قدرة الإنسانية على العودة إلى توازنها بعد انفجارات ضخمة من اللاعقلانية قد حد في الماضي واليوم مرة أخرى الجهود الضرورية للوصول بشكل فعال أكثر إلى التنازع مع طبيعتها . فعدد من أكثر اللاعقلانيات تهديداً قد كيسها العرف واعتبرت بورع كأنها جزء من نظام أخلاقي واضح : « الإرادة الإلهية » . لقد ازداد هذا العامل المقلق خلال القرون الثلاثة الأخيرة بدلاً من أن يتضاءل . والواقع أن مجمع القوة لم يمزق فقط بطريقة متعمدة التيارات المنقذة وينسف القيم الأخلاقية التقليدية بل إنه ، وهذا أمر أشد خطورة ، قد نقل كل العمليات التكرارية المثبتة من الجسم إلى الآلة تاركاً الإنسان عرضة أكثر من أي وقت لذاتيته الخاصة المشوشة . لم يعد العمل اليومي والطقس الديني

١ــ جنون القتل طقس ماليزي .

يتطلبان هذه المشاركة النشطة التي تستخدم لإدخال العناصر المتنوعة الضرورية للتوازن إلى قلب الروح الإنسانية . الحصيلة : لقد استرد الآن اللاشعور هيمنته القديمة على الإنسان والأسوأ أن خصائص اللاشعور السابقة للانسانية تتحكم الآن في موارد تكنولوجية قوية لم تتح لها أبداً من قبل .

ان تحرر الإنسان في الحضارة التي تجسد فيها الآلة وحدها النظام المعقولية لايعني ازدياد الخيار إنه لايعني إلا تحرر لاشعوره وخضوعه للاندفاعات والغرائز الشيطانية . والإنسان بجمعه كل نظام في الآلة قد انقطع عن الأفعال والطقوس التكرارية نفسها التي تبين خلال زمن طويل انها مفيدة للحفاظ على درجة مامن التوازن الداخلي وعلى أمل ما في الإبداعية . لقد ضحي بالنظام الذي تجسد في الماضي في نماذج الثقافة وفي بنية الشخصية الإنسانية من أجل انجاز تكنولوجي بسيط . وينبغي أن يكون واضحاً منذ الآن أن ليس هنالك من حل تكنولوجي لهذه الحالة الخطرة .

ولن يكون من الممكن قلب هذا المسار ورد الوظائف المستقلة إلى الجسم البشري المحروم والتطورات النظامية والإتحادات التعاونية التي هجرها تقريباً إلا إذا حدث رد فعل بشري على قدر كاف من الحدة .

وقد قدم الدكتور س .ج . يونج في (ذكريات وأحلام وأفكار) شهادة شخصية ثمينة في هذا الموضوع .لقد اعترف بأنه قد مرت به لحظة خلال دراساته لدور الضلالات وجد فيها أن من الأمور الأساسية تماماً أن تتوفر له « نقطة استناد في هذا العالم » حتى يمنع اللاشعور من أن يفقده صوابه .

وواقعة أنه نال من احدى جامعات سويسرا ديبلوماً في الطب وأنه قد ترتبت عليه التزامات نحو مرضاه وأنه يعول عائلة وخمسة أطفال وأنه يسكن بيتاً معيناً في مكان معين ، « كانت هذه كلها حقائق لها متطلباتها مني وهي تبرهن أيضاً وأيضاً أنني موجود حقاً وانني لست صفحة بيضاء تلوم هنا وهنا في مهب رياح العقل » .

هذا الإمساك بحقائق متينة وباستمراريات يومية هو بالضبط ماينقص مؤكداً تكنولوجيتنا الحالية المستعرة حيث تترجم كل ضلالة تكنولوجية مقبولة إلى اعراض للبيع . والحضارة التي تباهي بديناميكيتها التي لايمكن التحكم فيها هي في حالة من الإنحلال الكابوسي.وطالما لم تقشع الإنسانية هذا الكابوس فيخشى على السرير الذي ننام عليه وعلى الأرض أن يختفيا على غرار أي وعاء آخر يمكن قذفه . وهكذا فان الشروط الأساسية للاستقرار العقلي (معايير القيمة المقبولة ، قواعد السلوك المألوفة ، الوجوه ، المباني ، نقاط الإستناد التي يمكن التعرف إليها ، الإلتزامات المهنية والطقوس الإسترجاعية) هي في سبيلها إلى أن تقوض باستمرار ؛ وينتج عن ذلك أن حضارتنا الآلية كلها تتحول إلى صفحة بيضاء ممزقة من الداخل قطعاً صغيرة بفعل العنف النفاسي .

يعرض هذا التحليل الطبيعة السطحية لعلاجات الذعر المقترحة اليوم للتغلب على الإنحلال والتقهقر الإجتماعي الحالي . إن نوع الزيغ العقلي الذي كشفت عنه من خلال منتجات ضد — الفن قد وجد نظيره المضخم لدى عدد متزايد من الأفراد والجماعات سواء داخل مستشفيات الأمراض النفسية أو خارجها . ولايمكن اصلاح هذه الحال بواسطة أية وسيلة مؤسسية متاحة . لقد زاد انتشار هذه الحالة عما يمكن معالجته سريرياً

حتى لو توجب علينا أن نبني المزيد من المصحات ، ولايمكن كذلك معالجة الضحايا « بعلاج الجماعة » أو بزيادة عدد الأطباء النفسانيين والأطباء ؛ فالواقع أن الأوضاع المرضية التي تصيب المرضى يمكن تبينها أيضاً عند كثير ممن يحوزون شهادات كفاءة مهنية ليستشاروا أو ليعالجوا .

والقضية المطروحة إذا أراد النوع الإنساني ألا يفقد تماماً اتصاله بالواقع هي مايشبه اعادة توجيه الحضارة الحديثة توجيهاً عميقاً وعالمياً في النهاية وعلى الأخص حضارة الإنسان (المتمدن) الحديثة . وكتابي « تحولات الإنسان » يحاول أن يرسم السياق التاريخي لمثل هذا التغيير .

٨ : تفاؤل علم الأمراض

إن المرض ، كما تعلم الأطباء أثناء دراسة الجسد ، لايدل في الغالب على تلف دائم بل على محاولة لاعادة اقامة توازن مضطرب واسترداد وظائف طبيعية كانت مهددة أو الغيت . ويمكن بدون الظهور المعاين للأعراض المرضية أن تنتج عنها أضرار دائمة قبل التمكن من اكتشاف المرض واتخاذ التدابير الملائمة للتغلب عليه .

من المؤكد أن رد الفعل هذا كان بطيئاً ؛ ولم يحن الوقت بعد لإعطاء تنبؤات تماماً بالإستناد إلى الإشارات الحالية ؛ والواقع أن بعض الخيارات الأخرى المقترحة تشكو من فقدان الأبعاد الإنسانية نفسها التي يشكو منها النظام الذي تحاول أن تحل محله . ولايقلل ذلك من مدلول وجود قلق مستبطن من ناحية سير « التقدم الميكانيكي منذ زمن طويل حتى بين أولئك الذين يعتبرون كأنبياء نشيطين للنظام التقني الجديد .

كتب . ه . ج . ولز في مقال في العالم الجديد منذ عام ١٩٠٩ :

« ومع كل ذلك فمن المحتمل ألا يتقدم القرن العشرون إلى الأمام بدون توقف ، وإن نمنى بتقهقر لنتعلم من جديد ، وفي ظل أوضاع أكثر بساطة ، بعض الدروس الأساسية الضرورية التي لم يحسن نوعنا حتى الآن تعلمها بما فيه الكفاية : الشرف والإخوة والجماعية الإجتماعية وحاجة العالم كله الضرورية لهيئة مشتركة ما لإنقاذ السلام » . وهذا القول كتبه ولز نفسه وإن كان بأسلوب مختلف كولز الذي كتب في العقد نفسه من قبل في كتابه المتفائل (الأمل في نتائج التقدم الميكانيكي).

وأكبر دليل محسوس على اليقظة هو الحركة الطلابية ؛ وما له أكبر دلالة من هذه الناحية هو واقعة أنها عالمية وإن البواعث والشكاوى والمقترحات العاجلة متنوعة جداً وأن الأسباب المستبطنة لقيامها ينبغي أن تكون مشتركة في كل البلدان مهما اختلفت تقاليدها أو قضاياهاالمباشرة . ومع أن هذه الفرضية غير قابلة للتدليل عليها ايجابياً فانني أشير بأن العلامة الوحيدة الشاملة بالفعل والتي تشمل مجموعة واسعة من الإختلافات هي نظام القوة نفسه بشكله التوسعي تكنولوجياً والإندفاعي الحالي . والخلاصة أن ذلك ليس أقل من تمرد على حضارة متمحورة على القوة . ويشكو هذا التمرد من تأخير كبير : مما يقارب خمسة آلاف سنة من التأخير .

وتحت هذا التمرد ذعر عميق ومبرر (وهذا لايحتاج إلى التشديد عليه) توجساً من أن تسبب المرحلة القادمة من التقدم التكنولوجي فناء الإنسان ، ويعتبر الشبان بحق أن الأساليب الوحشية المستخدمة في تسيير العمليات العسكرية الأميركية في فيتنام ليست تهديداً لحياتهم الخاصة فقط بل تمهيداً مهدداً للمستقبل الإنساني كله . وإذا كان الجيل بعد النووي

يرفض الماضي فربما كان ذلك لأن أفراده يعتقدون أن المستقبل قد رفضهم وينتج عن ذلك أن « الآن » الوجودية تبقى الواقع الوحيد .

يا للمفارقة ! لقد احتاج الأمر الى أدوات التكنولوجيا المتقدمة لانبثاق الوعي ولنشر التمرد نفسه بمثل هذه السرعة وهذا التوحيد المنهجي . انه الجيل الذي اتى الى هذا العالم بعد تجميع الآلة العملاقة المجددة ذات المحرك النووي ، الجيل الذي كان كثير من اسلافه المباشرين منفعلين مذعورين صامتين ، الجيل الذي استيقظ فجأة مطلقا صرخة هول وبلبلة . وان هذا الهول وهذه البلبلة مبرران وكذلك العنف الذي يستخدمه الشبان لمهاجمة تجمع القوى التي قوضت مستقبلهم .

نعم : ان شبان عصرنا على الأقل قد استيقظوا . انهم في حالة لأم الجراح يونج جودمان براون في اسطورة هاوتورن :لقد تبينوا ان متقدميهم قد اسهموا (برغم تصريحاتهم المرائية) بطقوس مجتمع الساحرة الفاحشة التي تنتهي بسلسلة دامية من الاضاحي الجماعية انها الاضاحي اللا عقلانية نفسها التي وسمت برتابة حوليات التاريخ الانساني ودنست ارفع منجزات الانسان .

وهنالك أقلية ناشطة من الشبان أشد في ردود فعلها من الجيل الأكبر سنا على ما يجري أمامها تتصرف وكأن كارثة نووية قد حدثت بالفعل .

يعيش هؤلاء الشبان اليوم بعقلهم بين الخرائب دون ادنى مأوى دائم ودون أقل مئونة نظامية من الأغذية ودون أقل عرف أو أقل عادة باستثناء تلك التي يرتجلونها يوماً فيوماً ، بدون كتب ، بدون شهادات اكاديمية ، بدون أقل مهنة أو سلك ثابتين وبدون أقل مصدر معرفة

ما عدا غرارة اقرانهم . والتمرد ليس موجهاً فقط ضد متقدميهم انه أصبح بالفعل تمرداً ضد كل حضارة تاريخيه انه ليس ضد تكنولوجيا بالغة القوة وعقل مفرط التخصص ميء التطبيق بل ضد كل مظاهر الفكر الأرفع .

يعيش الشبان في لا شعورهم وسط عالم ما بعد الكارثة ؟ وربما كان سلوكهم معقولا بدلالة هذا العالم . ولا يتولد لديهم شعور بالأمن والاستمرارية إلا اذا تكتلوا معاً ولامس كل منهم جسم الآخر . ويفر كثير منهم أيضا الى الأرياف فيشكلون ارهاطاً وجماعات ومخيمات موقتة غير عابئين بالبرد والمطر والوحل والمصاعب والشروط الصحية المنفرة راضين بالفقر والحرمانات . ولكنهم يستردون كتعويض عن ذلك ثتة حيوانية أولية ويقومون بأعمال مساعدة واستضافة ومحبة متبادلة ويقتسمون بحرية الغذاء أو الشراب اللذين يتمكنون من العثور عليهما ويسرون بمجرد الحضور المادي لبعضهم مع الاخرين ولرد الحياة الى أبسط الممارسات والتعبيرات الجسدية .

وبالنظر الى ان الخرائب لا تزال وهمية أو متخيلة فان هؤلاء الفارين المزعومين يستعيرون من النظام نفسه الذي يرفضونه ، انهم يجتازون مسافات طويلة بالسيارة بعشرات الألوف نحو مهرجاناتهم الجماعية مهرجانات الروك ممجدين اناهم بالاسهام بأحداث الراديو والتلفزيون مبطلين عن عمد الوعي بواسطة العقاقير أو بواسطة موسيقا شبيهة بالعقاقير مضخمة كهربائيا . وهكذا فان هؤلاء الشبان ، رغم حركات تمردهم ضد منتجات المدينة الرائجة ، قد سممتهم بالفعل احط فيوض انتاجها الجماهيري . والقضية هنا قضية بدائية تقنية

عملاقة محضة . انهم بتقليص عالمهم الى مجموعة من الأحداث الفارغة قد استدعوا الحدث الأعظم الذي يعتبرون انهم يعارضونه .

وليس هذا ، لحسن الحظ ، سوى جزء من اللوحة . لقد تلقيت في لحظة تأليف هذا المقطع تعميما وجهه ثلاثة من الطلاب الشبان الى حوالي مائتي مثقف يسعون الى كسب مساعدتهم ، لقد قرن هؤلاء الطلاب الذين بدءوا من حيث تخلى متقدموهم الخرق التقني العملاق النموذجي للعصر الحاضر بخرق مجمع القوة القديم ؛ واقترحوا، بأمل، لقاء مع متقدميهم ومرشديهم بغية صياغة معارضة أكثر فعالية وأكثر توحداً . ولكن أهم لقاء هو اللقاء الذي جمع ما بينهم ؛ لأنه جرى أثناء درس عن « الانسان اللاعقلاني ».لقد درسوا هنالك العدو الأعظم ؛ وليس هذا العدو هو أسلافنا من الحيوانات المخاتلة ، انه عدو متوار في النفس الانسانية ؛ انها ارادة القوة العمياء هذا المسخ الذي لا عيون له والذي يجب ان يرفع الى سطح الشعور قبل ان يتمكن الانسان من ان يوجه ضده كل موارده الاخرى الروحية والثقافية . وهذه المهمة تتقدم بشكل واضح على استمرار التقدمات التكنولوجية .

وبمقدار ما اتسع تمرد الشبيبة أصبح واضحاً ، مع الأسف ، ان ازدواجيات وتناقضات الحضارة قد نفذت اليه بالرضا أو بالقوة . فهنالك من ناحية مقترحات حيوية ترمي الى فصل الجامعة عن التزاماتها تجاه نظام القوة ، بهدف التغلب على بيروقراطية الدروس وبهدف تنفيس الاقتصاد التجاري اقتصاد النقاط والدرجات والألقاب الشكلية المحضة ـ اخطبوط الدكتوراه في الفلسفة الذي كان يحذر منه وليم جيمس؛

وكذلك من الناحية الايجابية بغية مشاركة فردية أنشط في حياة الجماعة اليومية وفي التفرغ الى غايات أخلاقية واجتماعية على خلاف مع متطلبات مجمع القوة . (لقد امتدح بتريك جلنز هذا التحول منذ نيف ونصف قرن تحت عنوان مناضل الجامعة) .

ولا تبقى الجامعة في ظل هذا النظام الجديد اذا اتبع حتى نهايته قاصرة على المتابعة الفاترة للدراسات العليا التي هي على طلاق مع الفنون والسياسة والدين بل ستستخدم كل مواردها الخاصة في تعاون ثقافي لرد الروح الى حياة الجماعة بكاملها .

وترك مجمع القوة من جهة اخرى سمته على أسلوب التمرد وشوه الأهداف المثالية للحركة الطلابية ؛ والشاهد على ذلك الاحتلال المادي للأبنية وايذاء الموظفين الجامعيين المسؤولين وتقديم مطالب قاسية « لا يجوز اهمالها » مدعمة بالأسلحة النارية وبالتهديدات بأعمال عنف أكثر اتساعاً و اعادة فصل الاقليات العرقية هذا ان لم نأت على ذكر تبني الأنماط الايديولوجية والاجتماعية الرجعية (المكلوهانية والقوة السوداء والسحر والفحش الاندفاعي ، والعرض الجنسي والرجم وادمان المخدرات) . وليس هذا إلا الصورة المقلوبة لبنتاغون القوة . أما فيما يختص بالمحاولة العلنية في بعض الأقسام محاولة تدمير الجامعة نفسها فهل هي إلا مجهود لتدمير العقول المتفوقة بمهاجمة القمة في تسلسل التعليم وهي احد المستودعات الرئيسة للحضارة الانسانية كما تجسدت وتشخصت ونشطت في رجال ونساء أحياء .

والاندفاع الحيوي الذي اكتشفه الشبان في ذواتهم هو سهولة

الاتحاد الانساني المباشر السريع . وباستخدامهم هذه القوة في أدنى مستويات شعور الجوار استطاعوا ان يجابهوا النظام وان يتحدوه ويقطعوا الصلة به ان لم تقل ان يقلبوه . وكان هذا البرهان مصدراً للثقة أهم من أي من النتائج الملموسة التي نجمت عنه. لقد دل على قدرة العقل البشري على أخذ المبادأة وعلى وضع شروط نجاته النهائية .

لقد كان ذلك تحريراً صحيحاً وصالحاً على الدوام ؛ والواقع انه حتى لو تعرض المجهود المباشر للمعاكسة فانه يوفر دعماً روحياً لأفعال التحدي والمقاومة المشابهة من قبل العديد من جماعات الجيران وقطنات المناطق التي كانت تبدو حتى ذلك الحين محكوماً عليها بأن يبتلعها توسع المدينة العملاقة المتصلب . وتفرض هذه الروح الشعور بها بعشرين صورة مختلفة .

وليس تمرد الجيل الشاب سوى أحدث وأبرز الهجمات الموجهة ضد مجمع القوة ؛ ومثل هذه التحديات موجودة منذ زمن بعيد وهي تهاجم البنى القديمة والحديثة على حد سواء . فالحركات الوطنية والأقليمية هي ، كما اشرت الى ذلك في كتاب (تكنولوجيا وحضارة) ، جهود مضادة ضرورية لاعادة تثبيت هويات واستقلالات ثقافية وذلك بالعودة الى آداب ولغات أهملت أو امحت عملياً ؛ وهيهات ان تتضاءل هذه الحركات بل انها قويت خلال النصف الأخير من القرن باعادة تثبيت اللهجة السلتية والعبرية كلغتين قوميتين إن لم نذكر التحديات واعادات الاعتبار المشابهة عند النروجيين وسكان بريتانيا والغاليين والباسك والتشيكيين والقشتاليين . ومع ذلك فان الأمر لم يكن واضحا كما كان في الانتفاضات العرقية في افريقيا وآسيا تلك الانتفاضات التي آلت الى

اعادة أستيلاء الشعوب التي غزيت بلادها وعطلت تقاليدها القبلية أو القومية على الممتلكات الاستعمارية الأوربية . وقد لعبت حركة حفظ البقاء دوراً مشابها في ميدان الطبيعة وقد دخلت هذه الحركة اليوم مرحلة ديناميكية : لا لصيانة الموارد الباقية فقط بل للحفاظ على التنوع البيئي والسلامة الأقليميه في كل قطنات الانسان .

وقد حدث الآن في ما كان يبدو قلعة منيعة في الكنيسة الكاثوليكية نفس النوع من الهجوم الموجه ضد عالمية التكنولوجيا العملاقة الوحيدة الجانب وضد الحكومات السياسية التي لا تستجيب لحاجات ومتطلبات العلاقة المتقابلة.ومما له دلالته ضعف الكاثوليكيه التقليدية وصرامة الرقابة التراتبية التي أصبحت أكثر دوغمائية وأكثر تسلطاً وأكثر اعتداداً بذاتها ازاء الهجمات العقلانية التي طرأت خلال القرن التاسع عشر الى درجة انها أكدت عصمة البابا في شؤون العقيدة والأخلاق . أليس في ذلك دليل اضافي على عدم ارتياح عميق لم تحسب له الآلة العملاقة ، حتى في أشد أشكالها اثيرية، أي حساب ولم تفعل شيئاً لتخفيفه . وقيام هذا التمرد في داخل الكنيسة الكاثوليكية التي كانت في الماضي ضد الحرية وقيامه بطريقة ادهش أيضا بين الاساقفة في الاسلاك الرهبانية يدل على تشدد يساوي في جذريته تشدد الحركة الطلابية.ان أفعال التفكك والانسحاب المتفرقة هذه هي اجدى من هجوم مادي منظم ضد هيكل القوة انها مقدمات التجديد واعادة التثبيت .

وهناك اشارات عديدة على ان رد فعل مشابها عفوياً الى حد ما قد حدث في نقاط عدة على السطح وتحت السطح . وتتوفر للقوى التي تتحدى مجمع القوة ميزة خاصة اليوم منشؤها تقدمات التكنولوجيا :

ومهما كان افرادها متفرقين مكانا فانهم مجتمعون زمانا بواسطة أجهزة المواصلات ومهما كانوا متفرقين زماناً فهم مجتمعون مكانا بواسطة الكتب والأسطوانات والأشرطة الممغنطة ومقابلات وجاهية تنظم بسرعة . ويستخلص من ذلك ان مقاومة الآلة العملاقة لم تعد مشتتة بشكل مؤثر وانها أصبحت متزايدة التنسيق بواسطة المقابلات وبواسطة الاتصالات المتبادلة المستمرة .

وكما ان شبكة الطرق الرومانية قد ساعدت بولس ، بدروبها المعدة للاستعمال الرسمي ، على توحيد مذاهب وممارسات المجامع كذلك أعطت أجهزة الاتصال والتسجيل الالكترونية ، حتى عندما تعمل في الغالب تحت رقابة مركزية ، الثقة والمساندة لجماعات تبقى بدونها متفرقة ومعزولة ظاهراً . والشاهد على ذلك الطريقة التي انتشرت بها حتى الحركة الهيبية الفوضوية أساساً في العالم كله حتى وراء الستار الحديدي بفضل صحف سرية مسحوبة على الآلة الناسخة وتسجيلات على أشرطة ممغنطة وظهور شخصي على شاشة التلفزة دون أي تنظيم آخر . لقد دلت هذه الادلة غير المنتظمة ان أقوى ذبل تقني عملاق هو غير كتيم . لقد بدأ اذن تفكيك مركزية السلطة بواسطة حركات واسعة الانتشار . وهدم الآلة العملاقة بكاملها هو مطروح بشكل ظاهر .

ومع ان علامات اليقظة على وضع الانسان الحديث الحقيقي لم تصبح بادية تماماً إلا منذ فترة قليلة فانها بالفعل تفجرت منذ قرن مضى صوراً وأساطير وأشكالاً مشوشة من السلوك كانت في البدء معماة كالحلم .

ومع ان (موبي ديك) قد يعني في لا شعور ميلفيل ان الحوت

الأبيض كان الله أو الشيطان ، كان المصير المكتوب الكالفيني أو الحتمية الكارتيزية أو الانا الأعلى المنكر للجسد أو ال (هو) المنكر الروح ، فان (موبي ديك) الرواية كانت ترمز بشكل عجيب الى هذا التلاحم لقوى مؤسسية وتكنولوجية جعلت عقل الانسان اعرج وهددت بحرمانه من تراثه الصحيح بوصفه كائناً كامل الجسد مع أعضاء سليمة كلهالم يضمر منها واحد أو يبتر . وقد عبر ميلفيل في غضب الكابتن الشاب الأعمى وفي عدائه العنيد وغطرسته الشيطانية عن الروح العامة للتحدي الفوضوي اليائس المستعد لتدمير العالم نفسه اذا اقتضى الأمر بغية الانتقام لروح الانسان المعذبة .

لقد عبر ميلفيل بآ شاب وبنموذجه الأصلي الرافض شبه المجرم جاكسون في رواية (ريد بورن) عن خانات التقنية العملاقة في البنتاغون العالمي كما عبر عن القوى المضادة التي أثاروها . وواقعة ان عذاب وحقد اشاب قد بلغا شأواً بعيداً الى حد انه فقد سيطرته على ذاته واستسلم بفعل تبعيته المجنونه للقوة استسلاماً كاملاً الى تسلط المخلوق الذي جعله عاجزاً عن العراك ليس من شأنها إلا ان تحول قصة ميلفيل الى رمز مركزي في تفسير مصير الانسان الحديث . وباشاب الذي رمى البوصلة وآلة السدس والصيد في ذروته أعلن ميلفيل عن نبذ وسائل العقل النظامية وهو نبذ مميز لمظاهر ضد — الثقافة وضد — الحياة الحالية .

وكذلك فان اشاب بتركيزه المجنون يرفض التغيير الداخلي الذي كان من الممكن ان ينقذ السفينة والملاحين عندما يصم اذنه عن الدفاع الذي نطق به الحكيم ستاربوك عن المحبة أو دفاع بيب الطفل الافريقي البدائي الذي يعذبه الخوف ، بواسطة الحركات الخرساء .

والظاهر ان الانسانية تستمر في تكريس نفسها للصيد المشئوم الذي وصفه ميلفيل تجتذبها روح المغامرة والأمل بالزيت والحيتان واثارات العجرفة وبوجه خاص الركض وراء القوة التي ترفض المحبة . انها بدأت تواجه أيضاً بوعي احتمال الابادة الشاملة التي سيسببها الربابنة الذين يقودون اليوم السفينة .

وضد هذا المصير الجنوني

فان كل عصيان وكل مظهر تحد جماعي وكل تثبيت لارادة الحياة وكل توسيع للاستقلال والادارة الذاتية يبطىء تقدم المركب المهدد بالهلاك ويؤخر اللحظة المشئومة التي يحطم فيها الحوت الأبيض الأخشاب ويغرق الملاحين .

ان كل تظاهرات الفنون الحالية الطفوليه والمجرمة والبلهاء كل ما ليس من شأنه الآن إلا التعبير عن الحقد القاتل والضياع لا يزال يحتمل ان تجد مسوغها ان أدت وظيفتها الوحيدة المعقولة والمفهومة : وظيفة تنبيه الانسان الحديث تنبيها كافياً الى مصيره الحقيقي حتى يمسك بالمقود ويوجه السفينة نحو شطآن حفية ترشده في مسيرته النجوم .

التناغم الجديد

١ : النباتات والثدييات والإ نسان

لقد اتبعنا في الصفحات الأولى من هذا الكتاب طريقي الاستكشاف المتوازيين اللذين اتيحا للانسان الحديث : استكشاف الأرض التي لم تتناول بكاملها حتى الآ ن ، واستكشاف السموات وكذلك كل الظواهر الطبيعية الكونية والمرتبطة بالأرض التي يمكن تفسيرها ومراقبتها بدون رجوع مباشر الى سابقات الانسان البيولوجية والثقافية الخاصة . ورأينا كيف أتاح عهد الاستكشاف والاستعمار لحيويات الانسان الغربي الأولية منصرفات جديدة في نفس اللحظة التي بدأ فيها النظام الميكانيكي الجديد يقمع هذه الحيويات ويحتويها بشكل أكمل من أي وقت مضى .

إنني انوي هنا ان انبه لا الى الدين الثقيل الذي ترتب على التكنولوجيا الحديثة منذ البدايات الأولية نحو الاستكشاف الأرضي فقط بل الى الكيفية التي ارسى فيها هذا الاستكشاف بدوره أسس تحول لم يبدأ إلا الآن: الانتقال من المرحلة الابتدائية مرحلة توليد الأفكار وربطها والتجسيد والصياغة المعقولة الى مرحلة تنظيم نمط جديد من الحياة واستيعابه بشكل أوسع ، نمط يختلف جذرياً عن نظام القوة . ان عدم الرضا الانساني عن هذا النظام تزايدت بشكل مطرد مباشرة مع فاعليته التقنية ، بينما تبين ان تهديده الحالي لكل حياة عضوية على كوكبنا هو مصدر السخرية العظمى من نجاحه المطلق في التحكم بكل

القوى الطبيعية ما عدا القوى الشيطانية واللا عقلانية الموجودة داخل الانسان والتي شوشت الفكر التكنولوجي .

من الثابت ان الاستكشاف الأرضي قد دشن ثورة ضخمة كمية وكيفية معا . لقد أقام اتصالات بين سكان الكرة الأرضية بكاملهم وسبب تزايداً في الموارد الطاقية كما سبب انتقال البضائع والنباتات والشعوب والأفكار على نطاق الكرة الأرضية مثيرا الاضطراب في التلاؤمات القديمة كتلاؤم العرق الزنجي مع افريقيا الاستوائية تلك التلاؤمات التي تطلب انجازها مئات الآلاف من السنين . ولم يكن انتقال السود للاستيطان خارج قارتهم التي الفوها تماماً والانتقال المعاكس للأوربيين الى البلدان الأميركية وافريقيا سوى الخطوتين الأوليين من سلسلة من الانتقالات الكيفية التي كان فيها ربح ورفاهة الفئات الحاكمة يتجاوزان المعارف البيولوجية والتبصر الاجتماعي . لم يخرب أبداً توازن الطبيعة البيئي وبالاضافة الى ذلك تكامل الثقافة بمثل العنف الذي تعرضا له خلال القرنين الاخيرين .

وقد وصل هذا الاستكشاف اليوم الى نهايته الطبيعية : فالحدود الاخيرة مغلقة . وهبوط ملاحي الفضاء الأولين على القمر لم يكن بدء عصر إستكشاف جديد بل نهايته . ان الثورة التكنولوجية التي بدأت في القرن السادس عشر قد بلغت بذلك وبطريقة ملائمة نهايتها العقيمة . انه سيارة تابعة غير صالحة للسكن مثلما ستصبح الأرض عما قريب ؛ إلا اذا تحدى مجمع القوة الضارب في القدم شعوب العالم ببذل ضخم لقوة الابداع وبجهود سياسية جريئة .

والانسانية ، بدون حركة مضادة لتبطيء أو قلب هذه التطورات الاوتوماتيكية ، تقترب من سنة الى سنة مما يشكل من أكثر من ناحية نقطة ميتة .

ومع ان مفعول الاستكشاف الأرضي فيما يتصل بمقابلة تقييدات الاختراع والتنظيم التقنيين لم يكن إلا موقتا فقد ارسى بالحقيقه أسس نظام عالمي جديد : نظام يفسد صورة العالم الميكانيكية الأصلية بأن يفرض زيادة عليها نموذجاً أكثر تعقيداً غير مشتق من المادة والطاقة في حالاتهما قبل العضوية بل من الجسم الحي . الحدود الجغرافية مغلقة الآن ولكن استكشافاً أقل سطحية هو في طور الحدوث . والمقصود بذلك استكشاف في الزمان والمكان على السواء وفي الظواهر الذاتية والموضوعية . ولا يعالج هذا الاستكشاف الجديد العلة والمعلول فحسب بل يعالج نماذج على درجة من التعقيد مستعصية وغير قابلة للوصف تقريباً تسيل عبر الزمن وتتفاعل فيما بينها باستمرار . لقد بدأت هذه الصورة العضوية للعالم تنتشر من مجال الى الآخر . لقد أشار جورج كايلورد سيمبسون في مقدمته (لاصل الأنواع لداروين) الى اقتراب هذا التغيير . لقد لاحظ ان الثورات الفلكية والفيزيائية كانت قد تقدمت كثيراً في بدء القرن التاسع عشر ولكن الثورة البيولوجية المعدة لتغيير العالم بشكل أعمق أيضاً لم تكن قد أتت بعد » .

وقد اقر الثورة البيولوجية وحياها بحماسة ، مع الأسف، الناطقون باسم نظام القوة باعتبارها المرحلة القادمة للتسلط التكنوقراطي الوحيد الجانب . ولن تؤدي هذه الثورة التي تمت وفق مقاييسهم الذاتية الخاصة الى تطور الانسان تطوراً أكمل بل الى تدرجه في نوع مختلف تماماً

من أنواع الجسد أو مجموعة الأجساد المحولة وراثيا الى مختبر أو المتبدلة في رحم صناعي . وسيلقى الانسان كشيء مهمل مهما كان المعنى التاريخي المعروف لكلمة الانسان . وقد تعطي هذه السلسلة من التحولات لنظام القوة ، وهو نتاج فعل العقل الانساني الموجز زمنا ، سلطانا أبى الانسان بفضل تركيبه ان يمنحه للطبيعة .

لأي هدف معقول ؟

لقد نطق أحد شعراء عصرنا بكلمات حكيمة وملائمة من هذه الناحية : انه تحذير قد يمكن توجيهه بشكل خاص الى كهنة الآلة العملاقة الماضيين في شحذ ابرهم المتناهية في الصغر ، كما يقال ، للتهيؤ لتغيير طبيعة الانسان بصفة دائمة .

لقد صرخ (الدكتور جيفاغو) لبوريس باسترناك بتعجب « اعادة صنع الحياة ! » .

« ان الناس الذين يمكن ان يقولوا ذلك لم يفهموا شيئا من الحياة ولم يشعروا بنفسها وخفقان قلبها مهما كانوا قد رأوا أو عملوا . انهم يعتبرونها قطعة من المادة الخامية تحتاج الى ان يعالجوها ويرفعوا من شأنها بملامستها . ولكن ، ليست الحياة عرضاً أو مادة للصنع . وإذا رغبتم في معرفتها فالحياة هي مبدأ تكرار التجدد الذاتي وهي أبداً سائرة في طريق تجديد واعادة صنع وتحويل وتغيير ذاتها بذاتها . »

يبدو ان فكر الانسان البدائي الخاص قد أثر به أيضاً تأثيراً أكبر من تأثير المحيط المادي وكان ذلك يمنا بالنسبة لتطوره ؛ لقد كان أكثر وعيا ،

حتى في قلب هذا المحيط ، لصفة النباتات الصالحة للأكل وكذلك لنشاطات الطيور والحيوانات الاخرى منه الى مظاهر الطبيعة المادية المحضة إلا عندما كانت تحدث هذه المظاهر بعنف كما في العواصف والفيضانات والثورات البركانية. كانت الطبيعة نفسها تخاطبه وكأنها كائن حي : باظهارها الشر والصداقة وكان من الممكن ان تشبه الحجارة الحياة ولكن الأجسام لم تكن لتتحجر . وقد بقي المحيط المستصلح ملكا للأجسام الحية بوجه خاص ، حتى بعد ان أدى الشحذ والصقل في العصر الحجري الأخير الى ان يألف البشر النشاط النظامي وبالرغم من ان هذا المحيط كانت تغزوه بغزارة آلهة وشياطين وأرواح أكثر حياة مما كان يجرؤ الانسان ان يكونه .

ومع ان النشاط المنظم والأعمال الشاقة قد ادخلتهما الحضارات البدائية فان القسم الأعظم من الجنس البشري كان يفلت الى حد بعيد من العبودية الكاملة لنظام القوة . وبقي قسم لابأس به من الناس ، في ظل الاقتصادين المهيمنين اقتصاد القنص واقتصاد الزراعة ، متفرقين في قرى خارجة عن مجال الآلة العملاقة لا يرقون أبداً الى القمم التي بلغتها في اعادة صنع القطن أو توسيع الفكر ولكنهم لا يهوون أبداً الى أغوارها إلا تحت الضغوط الخارجية النكبية للحرب « المتحضرة » .

لقد تطورت الحضارة الانسانية بكاملها حتى عصرنا هذا في محيط عضوي يتغير ذاتيا لا في اطار عقيم صنعته الآلة . وبطريقة مشوشة قليلة الوضوح كانت معايير الحياة تتغلب في كل مكان وحياة الانسان الخاصة تزدهر أو تفشل بمقدار ما يصان توازن مؤات للحياة بين كل

الأجسام . ولم يتصور ان الحياة البشرية ممكنة داخل محيط محروم من الحياة إلا في اسوأ تردي الرق القديم أي في أعمال المناجم الجوفية .

لقد عاش الانسان في مشاركة نشطة مع نباتات وحيوانات خلال عهود جيولوجية كاملة قبل ان يصنع الآت . وقد بدأت مشاركته العقلية في عالم الحياة مع وعيه لوجوده . انه يشترك في كثير من صفاته الأساسية مع حيوانات اخرى : التزاوج وتربية الصغار المتطاولة والرفاقة الاجتماعية ومتعة العشق وروح اللعب والمرح . وقد غذى حبه العميق للحياة وجوده في محيط غير مهيىء فقط للحفاظ على الحياة بواسطة القدر المطلوب من الغذاء المادي بل لدفع تحوله الذاتي المتواصل . وعن هذه المسائل نجد حتى لدى أبسط الأجسام شيئاً جوهريا تتعلمه يتجاوز مدى أعقد تكنولوجيا عندنا . ولو كنا في تعليمنا وتغذيتنا المادية تابعين للآلات وحدها لقضى الجنس البشري منذ وقت طويل بسبب سوء التغذيه والسأم واليأس الذي لا يمكن برؤه .

تذكروا ملاحظة لورين ايسيلي في « الرحلة العظيمة » عن هذا المنعطف في التطور العضوي عندما خلى عهد الزواحف مكانه لعصر الثدييات ، هذه الحيوانات ذات الدم الساخن التي ترضع صغارها . لقد لفت ايسيلي الانتباه الى ان عصر الثدييات قد صحبه انفجار في الازهار ؛ ان نظام تناسل النباتات ذات البذور المغلقة لم يكن مسؤولاً فقط عن تغطية الأرض كلها ببساط أخضر مؤلف من أنواع من الأعشاب عديدة مختلفة (أكثر من أربعة آلاف) بل عن تقوية النشاط الحيوي من كل نوع بالنظر الى ان رحيقها وطلعها وبذورها وثمارها وأوراقها اللحمية كانت تمدد الحواس وتثير الشهية وتنشط الفكر وتزيد بشكل هائل المثونة الكاملة بالغذاء .

ولم يكن انفجار الأزهار هذا وحده يشكل نظام تناسل ماكراً ولكن الأزهار نفسها كانت تتخذ أنواعاً من الأشكال والألوان لا يمكن في معظم الحالات ان تفسر بواقعة ان لها قيمة الاستمرار في الصراع لأجل الوجود . فقد يزيد من اغراء الزنبقة ان تكون أعضاؤها التناسلية منتشرة بين التويجيات المتفتحه بغنج ؛ ولكن النجاح الهائل لهذا العدد من المركبات كالاقحوان وعصا الذهب بزهيراتها التافهة يدل على ان الإزهار البيولوجي كان يمكن الفوز به بدون أقل غنى وأقل روح اختراع من هذا النوع .

ويمثل الإزهار مثلاً نموذجيا أصليا عن ابداعية الطبيعة بدون عائق ؛ وواقعة ان الجمال الزهري لا يمكن شرحه أو تبريره بأسباب نفعية محضة هي بالضبط ما يجعل هذا الانفجار عجيبا الى هذا الحد ونموذجيا بالنسبة للعمليات الحيوية الاخرى . فالابداعية البيولوجية والابداعية الجمالية التي كثيراً ما ترافقها موجودتان لذاتهما وهما تتجاوزان محدوديات الجسم السابقة . ولو كان البقاء هو المهم فقد كان من الممكن ان تبقى الحياة على مستوى الغرين البدائي أو الا تعرش الى أعلى من الاشن . وعلى الرغم من ان من الممكن ان نتصور بشكل مجرد عالماً ليس فيه الوان ولا أية ثروة من البنى الحية فليس هذا العالم الخفي هو عالم الحياة الحقيقي .

لقد كان الجمال بتنوع لا متناه من الأشكال في النباتات المزهرة قبل ان يصبح الانسان نفسه شاعرا بالجمال وراغباً في تنميته بزمن طويل ؛ وقد تغيرت طبيعة الانسان الخاصة رويداً رويداً مع حساسيته المتنامية في النظر واللمس والرائحة ومن خلال تعبيره الرمزي اللاحق عن الشكل

الجميل في تزييناته ومساحيق تبرجه ولباسه وصوره المرسومة أو المنحوتة : وهي كلها من مشتقات غنى حياته الاجتماعية والجنسية . ونحن كلنا من هذه الوجهة « أبناء الأزهار » .

لقد توقف وجود الانسان خلال اثني عشر ألف سنة على الأقل وربما أكثر بكثير على الاتحاد الوثيق التعايشي بين الانسان والنباتات المترسخ في الآف الجماعات القروية الصغيرة المبثوثة على الأرض بكاملها . وقد استندت كل منجزات الحضارة الارفع الى هذا الاتحاد ، انه اتحاد مكرس للاصلاح البناء للقطن وللحب والاهتمامات المستنيرة بالنباتات كذلك : اصطفاؤها ، تغذيتها ، تناسلها ، واستمتاعها في نسق من الحياة يعلم متع الجنس الانسانية ويحركها . وقد حققت هذه الحضارة ، كما أوحى بذلك ادجار اندرسن ، بعض أفضل اكتشافاتها في زراعة النباتات باهتمامها على السواء باللون والرائحة والطعم ونموذج الزهر والورقة وكذلك بصفات النباتات الغذائيه مهتمة بها لا لأسباب غذائية وطبية فقط بل للمتعة الجمالية .

وفي عالمنا الذي تسوده الآلة عدد كبير من الناس الذين يعملون اليوم في المختبرات العلمية والذين ، على الرغم من انهم يستطيعون ان يسموا أنفسهم بيولوجيين ليس لهم أي اتصال حميمي مع هذه الزراعة العضوية ولا أي احترام لمنجزاتها . انهم بدءوا بتنظيم التطور المبدع بشكل يتفق مع مطالب سوق مجمع القوة . وقد قام أحد احدث انتصارات اصطفاء النباتات مثلا على تطوير نوع من البندورة لا ينمو الى حجم معين موحد فقط بل ينضج بكميات وفي آن واحد بطريقة يمكن معها خزن الغلال بواسطة آلة اوتوماتيكية للقطاف والتعليب .

وتتولد مثل هذه التصميمات المسبقة عن أحلام اخرى بعالم منظم بشكل أدق تلغى منه كل الأنواع والتنوعات الأقدم وغير المفيدة على الرغم من ان الارومات القديمة تبقى أساسية بالنسبة للتهجين المبدع .

ان فضلة التوحش الباقية في الانسان نفسه والتي لا تزال تضطرب في حياته الحلمية هي وحدها التي يحتمل ان تنقذه من الرضوخ لنمطية قاتلة الى هذا الحد .

من المؤكد ان العلاقة بين الانسان والنباتات في مراحل التطور الانساني البدائية كانت علاقة وحيدة الجانب ولم تكن علاقة تساند متبادل فعال . وعلى الرغم من ان النباتات والطيور والحشرات كانت شريكة الانسان النشطة وكانت كذلك غذاءه الأساسي خلال القسم الأعظم من تاريخه فانه في البدء لم يفعل إلا القليل لتغيير النبات الطبيعي وفعل أقل من ذلك أيضا للاسهام في تنمية نباتاته المفضلة . لقد كان ارتباط الانسان بالحياة النباتية ارتباطاً طفيليا أكثر منه تعايشياً .

أولا . لقد أصبح الانسان قادراً . بواسطة الصيانة والاصطفاء ثم بواسطة الزراعة الناشطة . ان يجعل محيطه الخاص ، عندما انتهى اخر عهد جليدي . أصلح للسكن واوفر غذاء وان يجعله محرضاً ومحبباً أكثر وهذا ما لم يكن بأقل أهمية مما سبق . لقد ضرب الانسان بجذوره الى أعمق في الطبيعة ووفر لنفسه فراغاً جديداً وامنا جديداً كذلك بعملية اعطاء النباتات دوراً جديداً . ففي البستان والى حد كبير بفضل جهود المرأة شعر الانسان شعوراً تاماً بأنه في بيته : في حالة سلم مع العالم المحيط به ولو بطريقه خاطفة وهشة .

لقد بدأت زراعة النباتات المتطاولة بالأشجار المثمرة والأشجار

ذات الجوز كالمانغو والدوريان ، الزيتون والكستنا والبلح والبرتقال والتفاح ، وهو ليس بأقلها،ان صدقنا هنري بايلي ستيفن . وتراءت للرجل ربما لأول مرة الجنة هنا في الحديقة أو البستان ، هذا العالم الذي تزدهر فيه الحياة بدون جهد خارق أو مذبحة منظمة ؛ والواقع ان الجنة ليست إلا اسماً فارسي الأصل للدلالة على بستان محاط بالأسوار .

وبشكل معبر لقد حدث في بستان اخر هو بستان عدن . حسب الاسطورة ان فقد الانسان . باكله تفاحة . براءة الحيوانات وامتلاك وعي الخير والشر والحياة والموت . ان كل هذه التمييزات الاصطفائيه التي ترمي الى الارتقاء بالحياة وقهر او أبطال القوى التي قد تضائلها يجب ان تكون مستنفرة ازاء وجود الشر في أشكاله المتعددة من الجمود الى العنف والتدمير بلا داع . وعلى الرغم من ان والت ويتمان قد استطاع في (نشيد ذاتي) ان يمتدح براءة الحيوانات فقد كان واعياً بقدر كاف حقائق الحياة الانسانية حتى أعلن انه شاعر الشر كما انه شاعر الخير - وكان يعرف الاختلاف بينهما .

القدرة على النماء والفيض في التعبير وعلى التسامي المتمثلة جماليا وجنسياً على السواء في النباتات المزهرة تلكم هي موهبة الحياة المرئية ؛ وتتفتح هذا الموهبة عند الانسان أفضل تفتح بالحضور الدائم لمخلوقات حية ولرموز ليست أقل منها حياة لتحريض خياله وتشجيعه على أفعال اخرى تعبيرية سواء في فكره أو في أعماله اليومية المتعلقه بالعمل الغذائي والثقافة الانسانية.يلد الحب الحب كما تلد الحياةالحياة ؛ وفي النهاية ينبغي ان يكون كل جزء من المحيط مفتوحاً أمام هذا الجواب حتى اذا اتفق بعض الأحيان ، وبناء على أمر الحب ، ان تؤدى له خدمة أفضل بالانسحاب

وبافساح المجال أمامه يبقى هو هو كغاية السكوا أو كصرح قديم بلون أي شيء سوى اضأل دلالة على الحضور الانساني الحقيقي . ان يوماً تنقصه مثل هذه الاتصالات والمحرضات العاطفية (رد الفعل على اريج زهرة أو عشب على طيران أو تغريد طير على سني ابتسامة انسانية أو على حرارة ملامسة يد بشرية)أي ان يوماً كالذي يقضيه ملايين من الناس في المصانع وفي المكاتب وعلى الطرقات العريضه هو يوم فارغ من المضمون العضوي ومن المثوبات الانسانية .

ليس هنالك أي بديل ميكانيكي أو اليكتروني أو كيميائي للأجسام الحية الكاملة على الرغم من انها قد تحتاج في الغالب الى توسعات وتقويات رمزية للتجربة الحقيقيه . ان الحكم على الانسان بان يقيم ، خلال أي مدة موقته في قطن مديني مفرغ من الحياة لا تكون فيه الكائنات البشرية معزوله فيما بينها فقط بل عن كل الأجسام الحية الاخرى حتى انه يخشى ان يحظر عليها بحسب نظام السكن ان تربي كلباً أو هرة تؤنسها هو تناس ونبذ لكل الدروس التي تعلمتها الأجسام الحية متعاونة خلال حوالي ثلاثة مليارات من السنوات على الأرض ، والتي تعلمها الانسان بشكل خاص خلال السنوات المائة ألف الأخيرة . لقد كتب أحد الجنود من الجبهة : « ان تعاوننا هو الذي يبقينا على قيد الحياة » . وهذا ينطبق على كل المخلوقات وفي كل زمان ، ولا يصح هذا على الاستمرار أو البقاء فقط بل على متابعة التطور الانساني .

أما بالنسبة للانسان فان قصر فعالياته الاجتماعية وانجازاته الشخصيه على تلك التي تتوافق مع الحاجات الخارجية للتقنيه العملاقة سيكون شكلا من الانتحار الجماعي ، وهذا الانتحار أو بتعبير أصح هذا القتل

للحياة يوشك بالفعل ان يحدث أمام أعيننا . يمكن لجهازنا الميكانيكي المعقد ان يشكل ملحقا مفيداً للحياة العضوية ؛ ولكنه ليس بديلاً دائماً مقبولاً إلا في حالات اضطرارية خطيرة كما هي الحال في الكلية الميكانيكيه ، يجب ان تستخلص المواد المعدة للتطور المقبل من العالم العضوي بتمامه لا من جزء من الفكر الانساني مضخم فقط ولا من تقنيته لمعالجة الرموز المجردة . وعندما ستصبح صورة العالم العضوية الجديدة مفهومة ومقبولة سينتهي استمرار تسلط « اسطورة الآلة » على الانسان الحديث ، تلك الاسطورة التي نشأت عنها الى حد كبير ضلالاتنا الاندفاعية واخطاء التوجيه التكنوقراطية .

٢ : صورة العالم العضوية

ومع المجازفة في ان ابالغ بدفع المشابهة المصرية الصحيحة الى الأمام اسمحوا لي ان اشير الى ان عودة الآله الشمسي قد صحبه رمزياً بعث اوزيريس اله النبات الذي علم الانسان الفنون والصنائع والذي مر بشخصه كالناس بتجربة الولادة والموت خلافا للاله الشمسي . وبمقدار ما ترسخت ممارسات الالة العملاقة بشكل أعمق في المجتمع المصري « وهنا أيضا نستبق موازاة حديثة » حولت ديانة اوزيريس الانتباه من الحياة الى ما بعد الحياة متشبثة بمأساة الموت ونازعة بجهودها نحو حفظ الجسد بشكل محنط مع صيغ سحرية وصلوات يدفع اجرها كلها بالشكل المطلوب حسب المرتبة والدخول . وقد حول هذا التوقف اله الحياة التي تشمل الموت الى اله للموت يهيىء لحياة زائفة ، حياة خلو من مواصفاتها الأرضيه المميزة : هشاشتها ، عدم استقرارها ، تحولها الذاتي المستمر . طاقاتها على التصعيد الذاتي .

لقد حدثت في العلوم البيولوجية ضلالة مشابهة كانت تكاد لا تلحظ في القرن السادس عشر ولكنها اليوم باهرة . لقد اتخذ اندره فيزال الخطوة الكبرى في اقامة البيولوجيا على أساس علمي مثلما فعل كوبرنيك، وذلك بوصفها المنظم للجسم البشري كما كشف عنه التشريح بعد الموت. لقد أعطى هذا الأسلوب عدداً من الحقائق الحيوية فيما يختص ببنية وتركيب الأعضاء الحية وحتّى بعلاقاتها الوظيفية وقد تدعم ذلك وتقدم أكثر بواسطة الفحص المجهري والكيميائي للانساج الميتة أيضا . وكان الأطباء نهمين في هذا النوع من المعارف حتّى ان الجثث، عندما يتدخل القانون ، كانت تنتزع من اللحد بغية تشريحها . ولقد كان فيزال شخصياتهما الى المعلومات الجديدة كما يعلمنا كاتب سيرته حتّى انه كان يحضر سحل وتمزيق المجرم لكي يستطيع ان ينتزع من الجسد المفتوح القلب الذي لا يزال يخفق ليكمل وصفه . اذن لقد حلت الجثة فكريا محل الجسم الحي لانها تتيح وصفا موضوعيا أدق . والذي كان يبقى عصيا على الوصف بواسطة هذا الأسلوب هو الجسم الحي الديناميكي المتعدد الوظائف .

ان ادراك واقعة ان الأشكال العضوية قد انتجت نموذجا لتطور الانسان الخاص ، نموذجا أغنى بقدر كبير من أي نموذج تقدمه صورة العالم الميكانيكيه ، قد يكون أعظم هدية قدمها العلم : أعظم من أتي من اكتشافات الفيزياء من ارخميدس الى نيوتن والى اينشتين على الرغم من ان هذه الاكتشافات قد جعلت هذا الاهداء ممكنا جزئياً . وكان التأخير في تطور العلوم البيولوجية.ولم يطلق على دراسة الأجسام نفسها اسم بيولوجيا قبل عام ١٨١٣ . يعتبر في نظر اوغست كونت من بين التأخيرات

الاخرى ناجماً عن ان العلوم ظهرت وفق ترتيب منطقي ، بدءاً (بالعلوم التمهيدية) الأكثر تجريداً ، المنطق والرياضيات مع مواصلة الظهور من خلال الفيزياء الى الكيمياء ثم الى البيولوجيا والى علم النفس وعلم الاجتماع مع تنام في التعقيد والغنى في كل درجة من درجات السلم .

هذه الصورة واضحة منطقيا ومقبولة ولكن التاريخ يروي ان المعارف البيولوجية الضرورية للتدجين النباتي والحيواني قد سبقت القياس الفلكي والروزنامة اللذين استخدمتها فيما بعد ؛ والشيء نفسه صحيح بالنسبة للطب .

والواقع ان النماذج العضوية قد تخلت للنماذج الميكانيكيه في تفسير الظواهر الحية لسببين رئيسيين : لم يكن من الممكن ان ترتبط الأجسام الحية بمجمع القوة قبل ان ترد ، فكريا أيضا أكثر منه عملياً ، الى وضع وحدات ميكانيكيه محضة . ولم تزدهر العلوم الفيزيائية بدءا من القرن السادس عشر إلا بفضل ارتباطها بنظام القوة الذي برز على المسرح . كما لاحظ كونت . مع استخدام المهندسين كأشخاص أساسيين في الصناعات الطليعية .

سيكتبون يوماً كتاباً يعرض التأثيرات المتناقضة للنزعة الميكانيكيه والنزعة الحياتية بوصفهما اثرين دينيين عميقين بدءاً من القرن السادس عشر ، وسيدل هذا الكتاب على ان المجمع الميكانيكي ، حتى عندما كان في طور تدعيم هيمنته . قد تغير . طوعا أو كرها ، بسبب التقدير المتنامي للطبيعة العضوية بكل أشكالها : يشهد بذلك أفضل نظام لرعاية الطفولة والصحة والتغذية ادخلته الحركة الرومانطيقيه وخصوصا بفضل

كتابات روسو ان لم يكن بفضل ممارسته ؛ ويشهد أيضا الاهتمام المتزايد باللعب والرياضة الذي غير الموقف المتشدد ازاء مثل هذا التفريج الذي ادخلته الكالفينيه والمذهب النفعي وتشهد بذلك الممارسات التعليميه العطوف التي ادخلتها روضة الأطفال عند فروبيل : انها النقيض الصحيح للمدرسة – الكتبيه مدرسة كومينيوس المنظمة بالجملة ؛ بينما كان حب الطبيعة المتعاظم يتجلى في الوقت نفسه في حماسة البستاني – الهاوي وفي رسم المناظر الطبيعيه وفي الرياضات الريفية وفي التدريبات في الهواء الطلق : القنص ، صيد الأسماك ، رحلات على الأقدام ، تسلق الجبال . لقد اضعفت هذه النشاطات الى حد ما صدمة المكننة وفتحت الطريق منذ أكثر من قرن الى حضارة عضوية أكثر .

عندما سيكتب هذا الكتاب سيدل بزيادة كيف ولد هذا التقدير المتعاظم لكل ما يميز عالم الأجسام الحية من عالم الآلات . رؤية جديدة لكل التطور الكوني في مرحلة محددة من القرن التاسع عشر . وكانت هذه الرؤية تختلف بعمق عن تلك التي يقترحها أولئك الذين تركوا خارج صورتهم للعالم خاصة الحياة النوعية الأساسية : تربصها ، وانطلاقتها الداخليه ، وروح التمرد فيها . وابداعيتها ، وقدرتها ، في نقاط خاصة ، على تجاوز التحديدات الطبيعية أو العضوية .

والأسم الذي أعطي لهذه الرؤية الجديدة للحياة قد أطلق عليها متأخراً عندما بدءوا يتبعونها بشكل منظم فقط ؛ انها معروفة الآن باسم علم البيئة . ولكنها كانت في البدء تقرن فقط بمبدأ التطور العضوي وتقتصر على وجه فقط من أوجه هذا التطور : التكيف والبقاء بواسطة الاصطفاء

الطبيعي . وقد اقترن هذا التحول بحق بأعمال شارل داروين مع اننا يمكن ان نعرف بالاستناد الى طبيعة التغيير العضوي نفسه بدون دليل اخر ان داروين لم يكن وحده .

لقد بقي مدلول هذه الرؤية الجديدة وطبيعة اسهام داروين غائمة زمنا طويلا بسبب سوء تفسيره لدوره ؛ لقد كان داروين يعتبر ، بالواقع ، ان أساس ادعائه الأصالة والاسبقية هو انه اثبت احتمال التطور العضوي . وعندما صدر (أصل الأنواع) ساء داروين ان يذكره ليل بسلفه لامارك ؛ ومع ذلك فقد كان لجده اراسموس داروين أفكار تطورية مشابهة ؛ ولم يقم باضافة فصل عن سابقيه العديدين إلا عن كره .

واذا كان داروين قد استحق مكانة الشرف التي منحه اياها اجماع اقرانه بجانب كوبرنيك ونيوتن فلم يكن ذلك لانه اكتشف مبدأ التطور أو الاصطفاء الطبيعي أيضا . لقد اشتق داروين هذه الفكرة الأخيرة كما اشتقها الفريد والاس مباشرة من نظرية مالتوس التي تنص على ان السكان ينمون هندسيا بينما تزداد الموارد الغذائيه حسابيا ؛ بشكل ان ذلك سيحدث ، اذا لم يفرض أي تقييد ، صراعاً وحشيا على البقاء ينتهي بالقضاء المادي على اضعف العروق . كان داروين ينسب بالفعل الى الطبيعة خصائص الرأسمالية والاستعمار الفيكتوريين السيئه .

لم يكن من شأن هذا المذهب البعيد جداً عن ان يعوض عن تأثيرات صورة العالم الميكانيكيه سوى ان يضيف لمسة لاحقة من الشراسة الباردة ؛ لانه كان يسوغ حسب تعابير داروين نفسها : « ابادة العروق العليا

الاذكى للعروق الدنيا الأقل ذكاء » (انظر وسالته الى ليل . ١١ تشرين الأول ١٨٥٩) .

وكان ما أعطى في النهاية لاصل الأنواع ولذراري الانسان بعده هذا الاعتبار الهائل شيئا أكثر من ذلك دلالة بكثير . فقد جمع داروين بالاستناد الى خبرته الشخصية أثناء رحلة بيجل كمية كبيرة من المعطيات المتفرقة التي تدل على تغير الأنواع المستمر انطلاقا من أبسط المتعضيات . وداروين ، الذي لم يكتف بالانطباع الذاتي عن التحولات التطورية الواسعة ، قد نذر نفسه للجمع الصابر لكل الشذرات الممكنة للادلة المحسوسة أو للمعلومات الملهمة أيضا . لقد كانت هذه الفكرة الرئيسة ، فكرة الوحدة العضوية في الجو منذ نيف وقرن في أذهان بيغون وديدرو ولا مارك وغوته وسانتيلير وشامبير وهربرت سبنسر وقد جسم داروين حدوس الملاحظة كلها بان جسد في شخصه كل أنواع أنماط المعرفة المتاحة الضرورية لشرح الوجود العضوي والتحول العضوي والتطور العضوي ، ما عدا الرياضيات والعلوم الرياضية .

وأثناء التأهب لهذا الاسهام العظيم البيئي لم يبتعد داروين فقط عن صورة العالم الميكانيكيه يساعده بلطافة في ذلك قصوره في الرياضيات : انه أفلت من هذا الاختصاص المهني الوحيد الجانب الذي يضر بالتفهم الكامل للظواهر العضوية . وقد بدت هواية داروين في التحضير لهذا الدور الجديد مدهشة . ومع انه كان على ظهر (بيجل) بصفة عالم طبيعة فانه لم يكن قد تلقى أي تكوين جامعي اختصاصي : انه لم يتلق أي تعليم سابق حتى كبيولوجي ما عدا انه كان صياداً متحمساً للحيوانات وجماعاً للحشرات مغمدات الأجنحة . وبالنظر لانعدام الجمودات

والتحريمات المدرسية فلم يكن هنالك من شيء يمنع تنبه داروين لكل مظهر من مظاهر المحيطة الحية : التشكلات الجيولوجية والطبقات المرجانية والبحار الزاخرة بالحياة وتنوع الأجناس من أصغر ذبول السلاحف الى الطيور والقرود .

وهذا العلم الذي كان يتسع بشكل دائم قد شغل حياة داروين كلها ليل نهار وهزها بأفكار لم يكن من الممكن وضعها جانبا ولو طلبا للنوم .

وباتباعه حتى النهاية كل مؤشر جديد انى كان مصدره أصبح داروين بشخصه عالماً من نوع جديد : واسم « العالم البيولوجي » نفسه هو أضيق بكثير من ان يصفه الا كما عرفه قاموس المفردات الذي ابدعه هو نفسه . لقد كان عالما بالحشرات ، وجيولوجيا وعالم نبات ومربي مواشي عملياً وكان أيضا عالما نفسانيا وانثروبولوجيا أولياً . وكانت صفاته الخاصة ككائن بشري بوصفه زوجاً واباً لعشرة أولاد وصديقا مرتبطة ارتباطاً لا ينفصم بافكاره الجديدة ؛ ولم يقو على حذف نفسه تماماً من المعادلة حتى عندما كان يحاول كما حدث عندما شعر بعبثه أو غيرته .

لقد كان داروين حاضراً بشخصه في كل أفكاره : لا كذهن مجرد بكل ككائن بشري حساس عطوف . لم يكن داروين يدرس الأجسام الحية فقط انه كان يحب المخلوقات الحية بحرارة كحرارة القديس فرانسوا ، الى حد انه اغتم من ترويض الكلاب العالمة القاسي وعارض بشده عادة تشريح الحيوانات الحية الرائجه . لقد كان داروين بتحالفه

مع كل أشكال الحياة من السلالة الشريفه لمجموعة متتاليه من علماء الطبيعة المشابهين بدءاً من جيلبير هوايت ولينه الى همبولت واوديبون .

لقد قدم داروين بالذات وبصفته الشخصية لصورة العالم العضوية اسهاماً أهم أيضاً من اسهام الداروينية ، وهو هذه الفرضية بان الصراع في سبيل البقاء والاصطفاء الطبيعي للاصلح يفسران تغيير الأنواع .

لم تقم عظمته على محاولته النظرية بغية شرح المسار التطوري فقط : ان المهم أكثر من ذلك هو مثاله الحي بوصفه أول علماء البيئة وربما أعظمهم . لم يصف أي عالم اخر بهذا القدر من الكمال التفاعل المتبادل الدائم الملازم بين الجسم والوظيفة والمحيط . لقد تجسدت بقوة في شخص شارل داروين وبطريقة رمزية صورة العالم بعد الميكانيكيه القائمه على طبيعة الأجسام الحية الملاحظة ؛ ومن هنا اتي بها الى عالم الشعور بهدف صياغة وتنشيط حاسمين أكثر .

ليس من قبيل المصادفة ، حسب هذا المنظور ، ان ينعدم تماما اهتمام داروين بالميكانيك وأكثر من ذلك ان يأبى استخدام الميسرات الميكانيكيه المتوفرة . انه لم يرفض شراء مجهر مركب ويواصل استعمال عدسته البسيطة الباطلة بسبب عدم توفر المال . انه كان يضحك من سوء تصرفه الأول بصنع شرائح للفحص المجهري قبل ان يحوز في وقت متأخر على مقص الشرائح . وكان داروين كذلك يتراجع أمام قضية ذبح وتشريح الحمائم التي كان يربيها ؛ وربما كان يتراجع أكثر أيضا ازاء دروس البيولوجيا في المدارس الثانوية المعاصرة التي يمت الدرس الأول فيها الى طريقه ذبح ضفدع . ولما شعر انه يفقد تذوقه القديم للشعر والرسم شكا من ذلك مثل الشكوى من فقدان السعادة ولاحظ

انه « يخشى ان يكون ذلك مؤذياً للعقل وبطريقة مرجحة أكثر للطبيعة الأخلاقية باضعاف الجزء العاطفي من طبيعتنا » .

وهكذا كان داروين مستعداً ان يحسب حساب الانعكاسات الحيوية التي تميز السلوك العضوي عن التغيرات السابقة للعضوية التي يحدثها الطقس أو الضغط أو انعكاسات كيميائيه وكهربائية محضة .

وقد اعاد داروين ، في بحثه عن التعبير العاطفي عند الحيوانات ، أثناء وصفه العلمي للأجسام تثبيت الانعكاسات الذاتية التي كان قد أبعدها غاليليو وبعض العلماء اللاحقون باعتبارها تتجاوز امكانات الوصف « الموضوعي » . لقد بقي داروين شخصيا ، داروين المتقطع الى الدراسات الذهنية المنظمة ، محبا للحياة الى درجة ان معلمه بتريك جلدز نقل بانه كان يرقص سروراً أمام صفيحة من صفائح مجهره تسبح فيها (البرزويات) ربما لشعوره ، كما فعل فيما بعد هيربرت سبتسر جينينفز : انه ليس هنالك الحياة البادئة فقط بل العقل البادىء . وكان داروين ، في تفسيره للشكل واللون والنواحي التزيينية بوصفها عوامل في الاصطفاء الجنسي ، يعترف بالتعبير الجمالي مهما كان مدلوله كسمة عضوية . وقد شاطر والاس خصم داروين وصديقه داروين جذله وهو يلاحق طيور الفردوس وفراشات استوائيه براقة في جزر بحر المرجان .

لقد تأرجح مفهوم التطور العضوي عبر العديد من المفكرين قبل داروين . ولم تكن نظرياته الخاصة عن تكون الأنواع وتغيرها هي التي جعلت اسهامه مقنعا الى هذه الدرجة بل قدرته الفريدة على جمع كتلة كبيرة من الملاحظات المتعلقه بأشد حوادث الطبيعة الخاصة تنوعاً .

وعلى الرغم من عدم كفاية أية مجموعة وجيدة من الملاحظات لشرح تطور الحياة فان الكتلة الاجمالية كانت تكشف ، عندما كان يجمعها داروين ، عن نموذج حسي على أعلى درجات التعقيد يكون فيه كل وجه من المجموع في المكان والزمان ضرورياً نظرياً لشرح أصغر جزء أو أسرع الحوادث زوالاً .

ولأول مرة أمكن تأمل الطبيعة بطريقه عقلانية لا كتلاقي ذرات عارض بل كمنظومة تنظم ذاتها بذاتها برز منها الانسان شخصيا بفعل تطور عصبي فذ وفر لتفهمه الواعي صوراً ورموزاً .

كان الكل ، في الفكر العلمي القديم ، يجب ان يفسر بالاستناد الى الجزء المعزول عن عمد والملاحظ بعناية والمقيس بدقة . أما في مقاربة داروين البيئية المكملة فالكل هو الذي يكشف عن طبيعة ووظيفة وهدف الجزء . وعلى الرغم من انه يخشى ان يتوجب ابدال خيوط من التفصيلة وتغيير بعض أجزاء هذه التفصيلة أو اعادة رسمها بكاملها من جديد كلما تراكمت أدلة حديدة فمن المهم ان نفهم المجمل ولو بتضحية ، ذرابة التعريف قليلا وان نمر بهذا المجمل عبر الزمن بالنظر الى ان بعض التحولات التي تتم بواسطة الزمن لا يمكن إلا ان تجرب لا ان تقاس .

ان المأثرة القائمة على تجميع خطوط هذا النموذج البيئي المعقد هي اسهام داروين البديع . وذلك لأنه كان مستعدا ان يحسب حساب كل الخيوط الجديدة أو كل الألوان الجديدة التي يخشى ان تكشف عن استقصاءات أوسع . وبالمناسبة ، فقد أدى به الأمر هو نفسه ، في طبعات لاحقة لاصل الأنواع ، الى تبني التفسير اللاماركي الذي رفضه أولاً مما صدم الى حد بعيد أكثر الداروينيين استقامة .

وهكذا فان غياب العقل المنظم تنظيما صارما (هندسياً) قد أتاح لداروين ان يقر أدلة تناقض أو على الأقل تعدل فكرته الأصليه الخاصة بالدور المبدع للحذف أو للاصطفاء الطبيعي .

وبفضل مفهوم التطور بدأ الانسان الغربي أخيراً يعرف ذاته بانه أعلى شفنة هشة من شجرة نسب متفرعة عضاه أكثر منه كائناً مخطئا تلقى لقب نبالة الهي منذ حوالي ستة الآف سنة عندما برأه هو والمخلوقات الاخرى « فعل الهي » واحد . وقد أصبح من الثابت ان هذه الرواية الجديدة للتكوين لم تكن فقط متوافقة أكثر مع الحياة بل تبين انها عجائبيه بقدر أي فعل خلق وحيد . لقد كان درس التاريخ نفسه هو أعظم درس في التاريخ الطبيعي الجديد : درس الهيمنه التراكمية للحياة على اللاحي .

واذا كان الاستكشاف الفلكي والأرضي قد كشف عن عوالم جديدة في الفضاء فان الاستكشاف التطوري قد كشف عن عالم جديد له مدلول أكبر في الزمان . لقد أكمل تحليل لورنس . ج . هندرسن ، في كتاب ملاءمة المحيط هذا التفسير التطوري اذ برهن ان الطبيعة المادية البعيدة جداً عن ان تكون ضد الحياة بطريقة ملازمة ، كانت معدة مسبقا لصالح الحياة بموجب خصائصها الكيميائيه والفيزيائيه التي نصادفها على الأرض .

وقد كان هذا المنظور الزمني الجديد يشكل تناقضا مع فترة التاريخ التوارتي القصيرة الالفية وكذلك مع الأزلية الفارغة الساكنة التي نسبها اللاهوت المسيحي الى العالم الاخر الى درجة ان قبوله كان يرهق حتى اجرأ مفكري القرن التاسع عشر . وهكذا أيد هيجل الذي ينسبون اليه

في الغالب اراء تطورية ان التغير هو من خواص الروح وحدها وان عالم الطبيعه لم يكن سوى دورة تكرر نفسها حتى ان « تلاعب ظواهرها المتعدد الأشكال حتى الآن قد ولد شعوراً بالسأم » سأم ، حقا ! الحقيقه عكس ذلك تماما : فبفضل حدس التطوريين الجديد يمكن الكشف في جماع عالم الحياة عن الحرية والجدة ، التكيف الهادف والهدف المنبثق لا كحصيلة خطة الهية أصليه واحدة بل كنتاج تتابع لا متناه من الجهود والارتجالات المحدودة التي يدعم بعضها بعضا على مر الزمن لتصبح أكثر تماسكا وأكثر تبصراً . ومع ان المسار التطوري عرضة للعراقيل والانحرافات والارتدادات والتقلصات فهو ينطوي على الوعد بهيمنة خبرة أكثر يمارسها عقل الانسان لا بفضل ذكائه فقط بل بفضل حساسية ردوده العاطفيه وقدرته المتزايدة على توحيد تجاربه الموضوعية والذاتيه رمزيا وعلميا على السواء دون ان يضحي بهذه في سبيل تلك . ولا بد لمثل هذا التوحيد من ان يصحح بعض الضلالات المتعبة والعثرات المخيبة التي صحبت حركة الحياة الصاعدة .

وكان الزمان في صورة العالم العضوية هذه يحتمل مدلولاً جديداً لأنه يرتبط الآن لا بالحركة والتتابع فقط بل بالتطور العضوي عند الأنواع وعند الفرد معاً . والماضي ، البعيد عن ان يترك في الخلف ، يبقى حيا وحاضراً في الذاكرة الفردية في الارث التناسلي وفي البنية الحقيقيه للجسم بكامله ؛ بينما تتبدى للعيان أيضا في الوقت نفسه انطلاقة الى أمام سباقة وموجهة ، انطلاقة متأصلة في كل وظيفة عضوية تحمل الأنواع القادرة على تطور أوسع الى مواقع جديدة تتطلب استراتيجيات جديدة وتفتح وظائف جديدة وخطوط نماء جديدة . وتبين بذلك ان الفكرة المركزية

العقل « التقدمي » أو « الطليعي » — يجب ان يدمر الماضي — وهم شرير ولده الجهل أو اللامبالاة بظاهرة الحياة . « ترك الماضي وراء » يعدل ترك الحياة وراء ومعها كل مستقبل مرغوب فيه أو ثابت .

ربما كان أعظم معوق للتطور الانساني هو نفي الماضي الى اللاشعور بدون أي جهد يهدف الى اعادة التقدير والاصطفاء الضروريين لتكوين المستقبل . وهذا الكبت بالجملة للماضي يفسر واقعة ان الاختلالات التي حرفت تطوير الحضارة بدءاً من الألف الرابع ان لم يكن قبل ذلك قد استمرت من قرن الى قرن ومن حضارة الى حضارة : حرب ، استعباد ، تدمير وابادة جماعيان منظمان .

ان تصور الزمن كتسيال للاستمرارية العضوية نشعر به كديمومة وذاكرة واثار تاريخيه وطاقات ومشروع انجاز ، هذا التصور ينتصب معارضا معارضة قاطعة فكرة الزمن الميكانيكيه التي يعتبر بموجبها ببساطة كوظيفة من وظائف حركة الأجسام وسط الفضاء شأنه شأن مطلبه الالزامي الخداع بـ (كسب الوقت) بتسريع الحركة وجعل مثل هذا التسريع في كل المجالات الممكنة ارفع انتصار لمجمع القوة .

يجب الا نترك الأوهام الميكانيكيه الباقية تخدعنا . ان لكل الوظائف الحية وقتها المحدد من الحبل والحمل الى الموت : والعمليات الهدامة وحدها هي السريعة ؛ القصور الحراري وحده يحدث بسهولة . أما من ناحية هذه القراءة الثانية الزمن بالاستناد الى التجربة العضوية فان كتابات س . لويد مورغان وبرغسون وجلنز وهوايتهيد تبقى أساسية بالنسبة للثورة البيولوجية كما كانت كتابات كوبرنيك وغاليليو ونيوتن بالنسبة للثورة الميكانيكية .

وداروين شخصيا رغم كل شروحه المثالية يحتمل إلا يكون قد تبين تماماً ان تأليفه الخاص للمنظور التطوري والمنهج البيئي ينطوي على تطبيقات هامة في كل مجالات الحياة اليومية ولو لم يكن ذلك إلا لأ نه كان ينسف الهيكل (المفهومي) لنظام القوة السائد.لم يهدم داروين فقط الصور الساكنة لفعل خلق وحيد مع أنواع ثابتة وحدود ثابتة تهدف الى غاية نهائية ثابتة محددة بالشكل المطلوب أصلاً . لقد كشف عن شيء أعجب من ذلك بكثير : كشف ان عملية الخلق لم تنته بل انها تتتابع باستمرار وتعود الى تطور كوني بدأ حسب تفسير علماء الفيزياء الحاليين بتمايز العناصر انطلاقا من جوهر هيدروجين أولي . ولم يكن طراز التطور مجانيا ولا مقصوداً ؛ غير ان نزوعاً ما أساسياً للتنظيم الذاتي لم يكن التعرف اليه ممكناً قبل انقضاء مليارات من السنوات قد أعطى بشكل متزايد اتجاهاً لهذا التطور .

وبمقدار ما حقق الجسم الشروط المسبقة الضرورية للاستقرار والاستمرارية والتوازن الديناميكي واعادة التمون الذاتي ضُمِن مزيد من الابداعية وأصبحت القدرة على تجاوز هذه الأوضاع في فترات نادرة ندرة قصوى ممكنة .

هذهاللحظات وبالشخصيات التي أصبحت من خلالهامثل هذهالاشراقات الألهية متجلية يبلغ الوجودالعضوي أوجه القصير والمرضي تماما مع ذلك .

أما عندما تجري الأمور ، على عكس ذلك ، فتتزايد الحوادث العرضية ولا تترك التعبئة الاجتماعية المجردة من الانسانية أي مكان لرد

الفعل العضوي فسيكون للانحلال والتدمير الأعمى اليد العليا كما هي الحال اليوم .

لقد تغلبت الداروينية كما بسطها توماس هنري هكسلي بولس الداروينيه مع صورة « الطبيعة ذات الناب والظفر الاحمرين » على رؤيا الحياة الأعمق التي كانت لدى داروين وشوهت خلال زمن طويل صورة العالم العضويه الوليدة . وقد اتخذ فكر داروين منذ أول بدايته، ولأسباباعقد من ان تحلل هنا ، لون قطنه الفيكتوري الذي كانت تسوده أنماط الاستقلال الصناعي والامبريالي . والعنوان الفرعي نفسه « لأصل الأنواع » ، « الحفاظ على العروق المفضلة في الصراع للبقاء » يبرز هذه الحالة الفكرية .

ولم تكن الداروينية بمعناها السمج هذا تستبعد قيمة وقصد التطور العضوي فقط : بل كانت تسحب من الناطقين باسمها أفضل مزايا داروين : حساسيته وحنانه ، ورده العاطفي المباشر على كل مظهر نشاط عضوي .

لقد أمن اسهام داروين في المذهب التطوري والحدس البيئي دفعة هائله لمتابعة البيولوجيا وزاد من ذلك ان تصورات الكيمياء المعاصرة قد أتاحت الكشف عن التآلف الخاص للعناصر - وخصوصا الفحم والهيدروجين والأوكسيجين والآزوت — التي تتشكل منها البروتوبلازما (الوذفة) بمعظمها .

ما السبب اذن في ان صورة العالم العضوية قد تأخر بروزها الى هذا الحد وانها لم تسد بعد ؟ يبدو ان ذلك يعود لسببين وان التطور

العضوي وهو ليس بأية حال موحداً أو اتوماتيكيا أو مستمراً قد اعتبر خطأ مماثلا للتقدم الميكانيكي . واعتبار التماثل الخاطىء هذا جعل من اليسير تحويل « الصراع للبقاء » الى مساعد لا انساني لا سطورة الآلة .

واعتبرت العمليات الميكانيكية بدورها وكأنها « موضوعية » أكثر من السلوك العضوي بطريقة بقي معها النموذج الميكانيكي معياراً للدقة والملاءمة العلميتين حتى في معالجة الأجسام المعدة ذاتياً اعداداً مشروطاً .

ولهذه الأسباب كلها بقي الاعتقاد المتفائل باستمرارية التقدم التطوري نفسه راسخاً جداً الى زمن متأخر منذ نصف قرن . لقد حيا جون ديوي وودرو ويلسن على السواء الفكر الداروني باعتبار انه يتفوق على النمط النيوتوني اللا تاريخي . لقد اخرت السنوات الخمسون التي تلت تطور صورة عضوية للعالم . فالصراعات القومية لاجل البقاء التي كانت بارزة جداً والتي تمثلت بشكل محزن بحربين عالميتين وعدد من المذابح « المتمدنة » هدمت رسالة التطور العامرة بالأمل ؛ وفقدت فكرة التطور رصيدها العام كفكرة باطلة ان لم تقل خاطئة إلا لدى الاخصائيين في تكوين الفصائل الحيوانية والنباتيه وتطورها وبعض الفلاسفة أمثال هنري برغسون وليونارد هوبهاوس. ومع ان مبادىء علم البيئة قد نقلت في هذه الأثناء الى عدة مجالات فان بتريك جدز قد حاول في دراسته عن المدن ان يطبقها حتى على حياة الروح العليا .

وتوقف الأغفال الذي أصاب التطور مع الاحتفال المئوي بـ« أصل الأنواع » ؛ وهنالك الآن من جديد لوحة أكمل لمجمل العملية في طور التطور . لقد كان جوليان هكسلي حفيد حليف داروين القديم أحد الذين انضموا الى القوى المعارضة للنزعة الانسانية البيولوجية .

وليس من قبيل المصادفة ان يوجه اصبع الاتهام الى مبدأ الانعزال ومبدأ التقليص في العلم التقليدي اللذين اتبعا بحرص الشروط التي وضعها نظام القوة بغية تسريع كل أشكال القوة وذلك بسبب النتائج النكبية لتطبيق مفاهيم مضادة للعضوية الى هذا الحد على استغلال الأنواع الحية ومراقبتها . ان كل فكر يستحق هذا الاسم يجب ان يكون اليوم بيئيا بمعنى ان يقدر ويستخدم التعقيد العضوي والا يلائم كل نوع من التغيير مع الانسان فقط أو أي جيل منفرد فقط بل مع كل رفاق الانسان العضويين وكل أجزاء قطنه .

واذا كان بالامكان التحكم خلال المرحلة المقبلة بقوى العلم الهدامة المتسارعة قبل ان تضر بالكرة الأرضية اضراراً دائماً فسيحدث ذلك لان النموذج الجديد العضوي للاتحاد والتنظيم الذاتي البيئي (الاستقلال الغائية) التي جمعها داروين لأول مرة قد بدأ يتغلب أخيراً .

٣ : من القوة الى الكمال

لقد أصبح جليا بالاستناد الى المعارف التي نمتلكها فيما يتعلق بالتطور العضوي وبارتقاء الانسان وبتطور الحضارة والشخصية مهما تكن هذه الحدوس الجديدة غير كافية وغير مكتملة ، ان كلا من صورة العالم الميكانيكية وعناصرها التكنولوجية متأخرة بشكل موئس عن التزاماتها الانسانية.وكلما ازدادت قوة تمسكنا بنظام القوة يزداد ضياعنا للمصادر الحيوية الأساسية في متابعة التطور الانساني .

ان الفشل الجماعي في التعرف الى آثار الجراح القديمة هذه و في تصحيح ضلالاتها قد قاد الحضارة تلو الاخرى الى تكرار الاخطاء

المرتكبة في الأصل حتى الانهاك . غير انه بمقدار ما يتسع ساح عمل نظام القوة يقل احتمال امكانية القيام بانطلاقة جديدة في مكان آخر ومن خلال شعب آخر في حضارة مختلفة تلك الامكانية التي كانت فيما مضى اكيدة .

والواقع ان نجاح الانتاج بالجملة ووسائل الأعلام الجماهيرية قد عمم ودعم اخطاء الحضارة القديمة .

والثورة الكبرى الضرورية لانقاذ الانسانية من الهجمات ضد الحياة التي يخطط لها سادة الآلة العملاقة تتطلب قبل كل شيء ابدال صورة العالم الميكانيكية بصورة عضوية للعالم يقف في مركزها (وسطها) الانسان نفسه شخصيا — « مطمئنا وسيد نفسه » ، كما قال ويتمان ، « أمام مليون من العوالم » . وبأخذنا لنموذج عضوي ينبغي التخلي عن الادعاءات الذهانية وعن آمال مجمع القوة الخرقاء والقبول بالغائية والمحدودية وعدم الأكتمال والتشكك والموت النهائي كخواص ضرورية من خواص الحياة ؛ وأكثر من ذلك كشرط لتحقيق الكمال والاستقلال والابداعية.وربما كان من الممكن ان تكون مقتضيات هذا الانتقال من نموذج كوني — ميكانيكي الى نموذج مركزه الأرض عضوي وانساني متبعة باوضح أشكالها في التكنولوجيا نفسها .

ومهما يكن النموذج العضوي بعيداً عن أن يكون مكتملاً وعن أن يعم استخدامه فهو قد قام جزئياً بشكل موطد إلى درجة أنه يعمل منذ مايقرب من قرن حتى في ميدان التكنولوجيا . ومع ذلك فان النموذج الثابت الميكانيكي ملحاح إلى درجة أن أحد كتب تاريخ التكنولوجيا البارعة إلى حد بعيد قد وصف اختراع الهاتف دون أي رجوع إلى واقعة

أن أصل هذا الأختراع كان في محاولة لخلق مسخ آلي ناطق وإن اللاقطة قد صنعها الكسندر غراهام بل عمداً على شكل تركيب الأذن البشرية .

ولكن هذا الإختراع ليس سوى الإختراع الأول الصارخ القائم على نموذج عضوي بغية محاكاة الحياة ؛ إنه ليس كبطة فوكانسون والنافخ بالنار بحركاتهما النواسية ، القائمين على صنع معادلات ميكانيكية بدائية وإنه يستند إلى حل بيولوجي موجود سابقاً . وإن دراسة طيران الطيور اليقظة من بوريللي وبيتيغرو إلى الأخوين رايت قد افسحت المجال للتقليد الميكانيكي للمخلوقات الطائرة . وفي صنف أرفع من الآلة ، الحاسبة الإلكترونية ، لم يتحقق أي تقدم جدي طالما لم تستبدل العناصر الميكانيكيه بشحنات كهربائية كما يجري في نقل المعلومات بواسطة الجملةالعصبية: إنه تغيير متصور مسبقاً لأول مرة في تجربة كالفاني عن انعكاسات الضفدع . وقد أصبح منذ الآن الدين للظواهر العضوية ملموساً إلى درجة أن الأبحاث الطليعية عن الآلة الحاسبة تستخدم فيزيولوجيين واختصاصيين في الدماغ وعلماء لسانيين بقدر لايقل عن استخدام الرياضيين والكهرفيزيائيين والمهندسين .

لقد أدلى هيلمولتز فيما سبق بملاحظات مكدرة عن العين البشرية واقترح اصلاحات ميكانيكية نوعية ؛ ولكن أية آلة قائمة ليست سوى نتاج حيلة غير بارعة ، وليست أكثر حياة من المومياء بالمقارنة مع أي فقري حي باستثناء الحركة . والأمر صحيح بطريقة أخص بالنسبة للوظائف الإنسانية العليا حيث توفر الحساسية والخيال ورد الفعل العاطفي والشعور والشهوة الجنسية والحب مع كل مايرافقها من رموز غنى لايمكن بلوغه بغيرها ولاسبيل لأية آلة إلى استخدامه أو تقليده ولو بشكل

هزيل . إن الأجسام القادرة على الخلق والتجدد وحدها تحملت تجربة الزمن بالحفاظ على الإستمرارية وباعطاء الدليل على الإبداعية وبقلب القصور الحراري موقتاً . أما فيما يتعلق بالأتمتة والسيبرنيطيق التي يباهي بها التكنولوجيون الحاليون مباهاتهم بأرفع نتاج فنهم ، فماهي ؟ هل هي غير أقدم المخترعات العضوية أكثر مما هي أحدثها : إنها تعدل الإنعكاسات لا قشرة الدماغ . وإذا اعتبرت الأتمتة كهدف للتطور الإنساني فانها تشكل بهذا المعنى خطوة إلى الوراء كما أصبحت في بعض الميادين .

لاشيء في هذه الملاحظات جديد بشكل أساسي ؛ ولكن يبقى علينا أن نتفهم سبب وجودها . وليست أدوات الإنسانية السمجة الأصلية وحدها هي التي كان مصدرها أعضاء الجسم : المطرقة قبضة ، المجرفة أظفار ، العصا التي تنفض الأثمار ذراع ممدودة ؛ ولكن وبطريقة أعجب أيضاً فان أعقد أداة للانسان البدائي ، الأداة التي تفوق كثيراً بتعقيدها ومرونتها أي تنظيم ميكانيكي انما كانت البنية الرمزية للغة التي بنيت فقط انطلاقاً من حركات وأصوات وصور توفر لعناصرها في وقت واحد الإستقرار كوحدات وقدرات لامتناهية عملياً على اعادة التجمع في بنى فريدة لكن مفهومة.واللغة باستمراريتها الديناميكية وانتاجيتها معاً هي بالواقع نموذج أصلي أكمل بكثير لإقتصاد الرخاء من أية منظومة مصنوعة وفق نموذج رياضي وذلك لسبب بسيط هو أنها تختزن تنوعاً من التجارب البشرية التي ليس لها أي مقابل رياضي أو منطقي .

وبقدر ماكان نموذج عضوي يحرك ضمناً كل الفعاليات الإنسانية ومالم يستبدل لأسباب عملية بجهاز أبسط وأكثر محدودية ، فهو ينقذ المكننة من كثير من الإرتباكات . تماماً كما غيرت في الغالب السمة

الإنسانية للعادات والتقاليد الفردية وحتى أقدم الولاءات الحيوانية قسوة النصوص التشريعية التي لاتترك أي مخرج رحيم . وبمقدار ماستصبح التكنولوجيا في المستقبل أكثر انفتاحاً على المعايير العضوية ستخلي فكرة الإنتاجية الكمية مكانها لهدف مختلف : الهدف الذي سيزيد التنويع وسيوطد الكمال .

ونعود الآن إلى الفكرة الأساسية التي يرتكز عليها هذا الكتاب . إذا أردنا أن نمنع التكنولوجيا العملاقة من أن تسيطر أكثر على كل وجوه الحضارة الإنسانية وتشوهها فلن نكون بقادرين على أن نفعل ذلك إلا بمساعدة نموذج مختلف جذرياً مشتق مباشرة لامن الآلات بل من الأجسام الحية ومن المجمعات العضوية (الأحزمة الحياتية البيئية) . ومالايمكن معرفته إلا من خلال التطور المتماسك من أجل الحياة والذي يشكل اذن جزءاً من تجربة أدنى العضويات نفسها يجب أن يضاف إلى الوجوه الأخرى كلها الوجوه التي يمكن أن تكون ملحوظة ، ومجردة ومقيسة .

سيبدل هذا النموذج الجديد على مر الزمن بالبيوتكنولوجياالتكنولوجيا العملاقة : وهذه هي المرحلة الأولى نحو الإنتقال من القوة إلى الكمال . وعندما تنقلب صورة العالم العضوية فلن يكون الهدف العملي لاقتصاد الكمال هو نقل عدد أكبر من الفعاليات الإنسانية إلى الآلة بل زيادة تنمية امكانات الإنسان التي لا تحصى فيما يختص بالتحيين الذاتي بالإستحضار الذاتي والتسامي الذاتي مستأنفين عملاً بحضوره كثيراً من الفعاليات التي تخلى عنها بكثير من الخنوع لصالح النظام الميكانيكي .

لقد استخدم المفهوم الكمي المحض للرخاء غير المحدود ، لا الرخاء المادي فحسب بل الرمزي كمبدأ موجه في ظل سيادة مجمع القوة . وعلى نقيض ذلك فان النظام العضوي يتجه نحو الغنى والسعة والإمتداد النوعي المتحرر من الضغط والتكلس الكميين بالنظر إلى أن التنظيم الذاتي والإصلاح الذاتي والدفع الذاتي هي من خواص الأجسام المتممة كالتغذية والإنجاب والنمو والإصلاح . إن توازن وغزارة وكمال واستمرارية التفاعل المتبادل بين أوجه الحياة الداخلية والخارجية ، الذاتية والموضوعية تشكل سمات مميزة للنموذج العضوي ؛ والمصطلح العام للدلالة على الإقتصاد القائم على مثل هذا النموذج هو اقتصاد الكمال. ومثل هذا الكمال متميز عن الغنى البسيط الكمي أو الغزارة البسيطة الخالية من النوعية .

ومنذ ما يرجح هذا المعيار العضوي فقد يتبين أن ماهو صغير لايؤبه له كمياً أو لايمكن تكراره رفيع الدلالة ثمين تماماً يخشى أن يكون الفاصل بين الصحة والمرض كالأثر الغذائي التافه على الأرض أو النظام الغذائي عندما يترك خارج موائد الطعام القائمة على الحروريات . وان المثل الشعبي « الكفاية هي الغنى » هو الحكمة عينها في هذا الموضوع . وتدعمه أيضاً حكمة بلاك الخصبة : « المزيد ! المزيد ! انها صرخة نفس مخلوعة ؛ فالإنسان لايشبعه أقل من أن يكون الكل » . (ولكن الكل تعني كياناً ولاتعني كل شيء) .

بيد أن فكرة الكمال كشرط ضروري لتلبية حاجة التطور العضوي وخصوصاً كشرط لاغنى عنه للعيش الهانيء كانت شائعة قبل أن تتناولها الصياغة العلمية بفضل استقصاء التطور العضوي والتوازن البيئي بزمن

طويل . وهنالك كما برهن عن ذلك ارتور لوفجوا في « سلسلة الوجود الكبرى » كثير من الروايات التقليدية لمبدأ الكمال نطق بها لأول مرة كما يبدو مفكرون دينيون وهم يتأملون باعجاب غزارة الطبيعة الكثة وابداعية الله المتواصلة . حتّى عندما كان ينظر إلى الأنواع على أنها ساكنة ونهائية وحصيلة كن فيكون واحد محكم فقط فان غزارة الأنواع أو تدرجها من أدنى المتعضيات إلى الإنسان شخصياً لم تكن تعتبر الدليل الأقوى على التنظيم الذكي والإلهي لكل وجود . فالكمال كان يدل أكثر من ذلك على أن الغزارة هي شرط التنوع والإختلاف والإصطفائية العضوية وبكلمة شرط الحرية التي بلغت في الإنسان أوجها .

ومع أن قسماً من المبدأ البيولوجي للكمال الطبيعي قد تجسد في مذهب الإصطفاء الطبيعي فان ايديولوجيا القوة الفيكتورية السائدة قد أعطت للتطورات السلبية دوراً ملتبساً خلط الإبادة بالإصطفائية والبقاء بالتطور موارياً بذلك عن الأنظار مبدأ الكمال كشرط أساسي للفعالية المستقلة وللتحول الموجه ذاتياً .

ولحسن حظ بحثنا الحاضر فان مذهب الكمال العضوي قد أعاد الدكتور ولتر كانون شرحه في كتابه عن « حكمة الجسد » . وقد نشأت استخلاصاته من تفحص تجريبي يقظ لأعضاء ووظائف الجسم البشري وخصوصاً من العمليات المستقلة التي تمت إلى المشاعر والإنفعالات سائراً بالتحريات الأصلية لكلود برنار وجون سكوت هالدان وشارل سيرنغتون إن لم نذكر داروين شخصياً إلى أبعد مما ساروا .

لقد تركزت دراسة الجسم عند كانون على الجهاز العجيب الذي

طورته المتعضيات الحيوانية لحفظ توازنها الديناميكي : وخصوصاً على المبادلات المتقابلة والمنسقة للمعلومات وردود الفعل وهي تجري بحساسية وسرعة قصويين في موضوعات كالحفاظ على التوازن الضروري الحمضي — القلوي في الدم . « والتوازن الحراري » نفسه هو الذي يحمي الجسم من أي تلف في سلامته سواء بالزيادة أو بالنقصان ، والواقع أن هذه السلامة هي بالضبط مايشكل تقريباً تعريفاً بالكفاءة والصحة العضويين .

ورد الفعل السريع هذا دون أي تدخل وأية توجيهات واعية في انفعالات الخوف والغضب البدائية التي يشترك فيها أقدم أجزاء الدماغ هو أحد شروط البقاء ؛ غير أن شيئاً أكثر من البقاء ينتج عنه ؛ والواقع أن هذه الأوتوماتيكية بالذات حررت الدماغ الذي كان يتطور والجملة العصبية التي كانت تتشعب لصالح خدمات أهم يقوم بها الدماغ الجديد منفصلة عن الضغوط المباشرة في سبيل البقاء . وهنا وبتأثير فعالياته الرمزية الواعية خلق الإنسان مجالاً جديداً توافق بشكل أوثق مع حاجاته الشخصية والإجتماعية الأرفع .

إن انقاذ السلامة وسط تغيير مستمر وافساح المجال لقدر عال من عدم الإستقرار وقابلية التحول والجهد المغامر والذهاب إلى أبعد من الحاجات والتحريضات المباشرة مع الحفاظ على بنية على درجة كافية من الثبات وعلى نموذج ديناميكي من السلامة هذا كله يحدد طبيعة الأجسام الحية خلافاً للعينات العارضة للذرات . وهذا يصف أيضاً بطريقة أكثر دلالة الإختلاف بين الأجسام العليا والدنيا . وعلى الرغم من أن كل الأجسام تخضع لتحولات متواصلة فان هذه التحولات تحدث ضمن

حدود محددة نوعاً ما في الزمن والمكان ؛ فالواقع أن الإمتدادات اللامتناهية في الزمن تقيدها كلها مدة حياة الجسم الوراثية والمجمع البيئي الذي يكون هذا الجسم جزءاً لايتجزأ منه أراد أم لم يرد .

وعلى هذا فان الخصائص الأساسية لاقتصاد القوة (زيادة القوة وحدها والمبالغة في توسعها ونقص النوعيات والحدود والتخوم)شديدة التناقض مع خصائص الجملة العضوية . فالقوة في الأجسام الحية مرتبطة دائماً بالوظيفة بالهدف . والحياة لاتزدهر في ظل نظام من الديناميكية الإندفاعية يقضي فيه التغيير غير الموجه ، التغيير لصالح تغيير أكبر فقط ، كالتغيير الذي تفرضه اليوم التكنولوجيا العملاقة ، على امكانية الحفاظ على توازن ديناميكي وعلى مواصلة التطور المستقل .

ومايصلح بوجه عام لأي جسم يصلح بطريقة معبرة أكثر أيضاً للانسان إن كل انجازاته الماضية مااتصل منها بالعقل أو بالثقافة الجماعية انما تصبح ذات دلالة بالاستناد إلى مستقبل يتجاوز أناه الحاضر ويبقى بعده : وإذا انقطع عن هذا المستقبل طاش صوابه كما يحدث لو قطع عن وجبته الضرورية من الماء والهواء . يرتكز ازدهار الإنسان الحيوي على اقامة توازن بين المحافظة الذاتية والتطور بين الطروحات الخارجية وردود الفعل الداخلية بين الفعالية والتعويض ؛ مع الحاجة دائماً إلى علاوة كافية لتخفيف الإنهاك ومواجهة الحاجات المفاجئة واتاحة المجال لممارسة الإختيار . إن حفاظ الإنسان على هويته كعضو من نوع أو من جماعة وكفرد وحيد كذلك وبقاءه « وفياً لشخصيته » ، واقامة الحد

الأدنى من الشروط الضرورية لاجتياز الدورة الحياتية كلها : تلك هي الشروط الأساسية بالنسبة للاجسام وللجماعات وللحضارات ؛ وخصوصاً بالنسبة للانسان .

لقد كان اسهام ولتر كانون الخاص هو أنه أعطى أساساً فيزيولوجياً تجريبياً لمذهب التربية اليوناني الأساسي : فكرة التوازن أو الوسط الصحيح . لقد برهن كانون على أن التنظيم الأتوماتيكي الموازن الذاتي للجسم البشري (لاحظوا أنني لم اسمه « الآلية ») هو مايجعل توجهه الذاتي الهادف ممكناً ومنعتقاً أكثر فأكثر من الضواغط الخارجية. وليس هذا التوازن مجرد قضية كم : انه لايقتضي فقط القياس الصحيح بل الخلط الصحيح للصفات ونموذج التنظيم الصحيح .

وكما أشار كانون فاننا « بمقدار الحفاظ على ثبات محيطنا الداخلي نكون متحررين من المحدوديات التي تفرضها على حد سواء العوامل والأوضاع الداخلية والخارجية والتي يمكن أن تكون مزعجة » لِمَ الحرية ؟ ويجيب كانون على السؤال : « الحرية من أجل نشاطات الجملة العصبية العليا والعضلات التي تتحكم فيها . . . وبالإختصار اذن أننا نجد الجسم متحرراً في سبيل مهماته الأكثر تعقيداً والأهم اجتماعياً لأنه يعيش في رحم مائعة ، باقية أوتوماتيكياً في حالة ثابتة » . سنعود بعد لحظة إلى تفحص هذه المهمات الهامة .

وقد دل كانون زيادة على كشفه لضرورة التوازن الداخلي الديناميكي على مميز آخر جوهري للعمل الكامل للجسم : إنه تنظيم التافل فالجسم يمتلك مئونة من الطاقة وعدداً من الأعضاء أكثر بكثير مما يحتاج في

الحقيقة للاستمرار في أوضاع عادية . إن الكثير من الأعضاء الرئيسة ، العيون والآذان والرئات والكلى والأذرع والسيقان والأيدي والخصى هي مزدوجة . فاذا عطب أحد هذه الأعضاء أو تلف بقي الآخر يعمل وبقي قادراً على الحفاظ على الجسم بكامله مع احتمال أن يكون ذلك بدرجة أدنى من أرفع مستوياته . وهو يمتلك أيضاً نمطاً هاماً من التنظيم لمواجهة الحالات الإضطرارية المفاجئة التي تتطلب جهداً عقلياً كبيراً . إنه مختزن السكر الذي تحرره الكظر بتحريض من الخوف أو الغضب عندما يكون المزيد من الطاقة ضرورياً للهرب أو للمهاجمة . وهذه السعة على تضاد مع مبدأ الإقتصاد الخاص بتصميم وتشغيل الآلة على الرغم من أن المهندسين البصيرين قد تعلموا أن يعطوا مزيداً من الطاقة ومن القوة البنيوية وهو مايسمى عامل الأمان بغية سد الضرورات غير العادية ؛ وقد سقط أكثر من جسر ومن صرح ومن طائرة مزقاً عندما أغفل هذا المبدأ العضوي .

من المؤكد أن شرح كانون لحكمة الجسم ليس نهائياً بالنسبة لكل الوظائف العضوية . فمبدأ ذاتية الضبط له علاقة بوجه خاص بالحفظ الذاتي وبكل التطورات العملية التابعة له ؛ إلا أنه لايتضمن حاجات التطور الجسدي التي تقلب في الغالب موقتاً التوازن العام ؛ كما أنه لايقيم وزناً لكل الفعاليات « النافلة » فعاليات اللعب والعمل والفكر التي تبقى الحياة الحيوانية بدونها في مستوى عطالي . إن ماقامت به دراسة كانون بوجه خاص هو أنها برهنت على أن الطبيعة قد انتجت ، قبل تجمع تكنولوجيتنا الحياتية بملايين السنين اقتصاد الرخاء ونظام الأتمتة الخاصين بها . غير أن كانون قد تبين تماماً أن المدلول الأعظم لأبحاثه

انما كان انها بيئث بأية طريقة كان توازن الجسم الداخلي يجعل من الممكن للانسان أن يطور وظائفه العليا .

إن وصف كانون لذاتية الضبط العضوي يكشف في الوقت نفسه عن الحدودية الملازمة لكل نظام أوتوماتيكي كلما اقترب من الكمال . وهذه حجة أوضحتها بمعزل عن سواها عندما عالجت الإنتاج بالجملة والأتمتة : وهي أن الشيء ينزع إلى أن يصبح صلباً وثابتاً إلا إذا افسح المجال لعوامل خارجة عن النظام ووفرت طريقة للنمو بالإستعارة من بيئة أوسع ومن احتياطي من الخبرة اغنى من الذي برمج في النظام الأوتوماتيكي نفسه .

وقد تبين كانون أن الأتمتة موجودة في أصل لا في نهاية التطور الإنساني وهذا مايفعله التكنوقراطيون المعاصرون ، إن ضرورة التخلص من هذا المستوى المتدني من الكمال العضوي قد عبر عنه التطور العصبي الممتاز عند أجناس الرئيسات وخصوصاً تطور الدماغ المتواصل، بمعزل عن نسبة المقتضيات المباشرة ، هذا التطور الذي طبع صعود الإنسان انطلاقاً من الفئات شبه الأدمية الأخرى السالفة .

وعلى الرغم من أن دراسة كانون تستخدم لاقرار مبدأ الأتمتة لأسباب بيولوجية فانها تشرح أيضاً محدودية الإقتصاد الذي يحاول أن يترجم أعلى وظائف الإنسان إلى نظام أوتوماتيكي ينتهي إلى أن يكون قادراً على اتخاذ القرارات ووضع خطط العمل دون اللجوء إلى عمليات عقلية مسبقة أو إلى تذكارات ماعدا تلك التي يمكن أن تبرمج على الحاسبة الإلكترونية. وطريق التقدم البشري لايقود نحو مثل هذه الأتمتة الجماعية بل نحو

تزايد الإستقلال الشخصي والجمعي ؛ وكل نظام يعكس هذه الإتجاه لايحول فقط عضو الإنسان الأرفع تطوراً أي دماغه إلى لاكيان مضمر بل ينقطع عن أثمن منتجات الفكر الإنساني : هذا الخزان الواسع ، هذا المركز الواسع المولد للصور والأشكال والأفكار والمؤسسات والبنى التي يرتفع الإنسان بفضلها فوق أوضاع محيطه المباشر . وتقليص هذه التراث أو تهديمه هو بمثابة الحاق اضرار عقليه بالنوع البشري .

يجب علينا إذن بدلاً من قبول الأتمتة الشاملة كنهاية وحيدة ممكنة لاقتصاد يافع أن نحل الكمال النوعي محل القوة الكمية ؛ ويجب علينا لكي نقوم بذلك أن نبدأ بأعلى وظائف الإنسان : وبوجه خاص تلك التي تتيح له أن ينفصل عن الجمودات البيولوجية والمؤسسية .

وبالاحتراس الطبيعي للعالم الذي يقتحم غير ميدانه ختم الدكتور كانون دراسته عن حكمة الجسم ملمحاً إلى أن نموذج الجسم الحي يمكن أن يطبق بفائدة على أوسع جماعة بشرية . وبالنظر إلى أن التكنولوجيات والنظم الإقتصادية هي نفسها من منتجات الحياة فليس بمستغرب أن تضم ، مادامت تعمل بفاعلية ، عدداً من الوسائل العضوية التي لاتتوافق مع مقدماتها الخاصة التجريدية أو الأيديولوجية أو المؤسسية . ولكن بما أن الفيزيولوجيا العقلية واستكشاف الأحلام والتحليل اللساني هي كلها خارجة عن مجال كفاءاته الرفيعة فان الدكتور كانون لايجابه المشكلة الأساسية التي يلوح لي أنها طرحت في نقطة مبكرة جداً عندما أتاح تزايد الوظائف العصبية للانسان أن ينعتق من أوتوماتيكية انعكاساته وهرموناته . ماالسبيل في هذه الشروط إلى منع العقل من أن ينوء بنشاطه الخاص المضخم المشوش عندما يتحرر من الوظائف الجسدية وتماسات المحيط

والضغوط الإجتماعية الضرورية لحياته ؟ ليست ضرورة التعرف إلى هذا المصدر الخاص لعدم الإستقرار الناشيء عن قدرات العقل الخارقة واتخاذ التدابير للتغلب عليه هي الدرس الأدنى الذي يجب استخلاصه من تطور الإنسان التاريخي .

وبمقدار ماتصبح المنظومات الأوتوماتيكية أكثر شبهاً بالحياة وأقوى أيضاً فانها تنطوي على التهديد بدفع اللاعقلانية الإنسانية إلى مستويات أعلى . فلكي تتوافق المنظومة بمجملها مع منظومة عضوية فان الأمر لايقتضي فقط أن تكون ماثلة في الذهن بل أن يكون كل عنصر فردي في حالة يقظة مستعداً للتدخل في أية نقطة من العملية وأن يحل محل عنصر آخر .

٤ : دعوة الى الكمال

إن نزعة نظام القوة الحاضر تتجه مباشرة ضد المثل الأعلى للكمال . فهو يحاول مع اكتمال الأتمتة والسيبرنيطيقة أن يجتذب إلى داخل النظام الأوتوماتيكي المزيد من وظائف الإنسان العليا وأن يحرم الإنسان إذن من القدرات على ممارسة الرقابة على الأوتوماتيكية التي منحه اياها تطور جملته العصبية البالغة الغزارة . إن عدداً متزايد الكبر من الوظائف الأوتوماتيكية سيردفي ظل الإقتصاد العضوي الذي ينشد ميزات الكمال . إلى الرقابة الواعية واللامركزية ويعاد في الغالب لأول مرة إلى الخضوع للسيطرة التامة للشخصية الكاملة تدعمها ثقافة تكف عن أن تقتصر على ماضي متحجر أو على الآنية المتميعة .

لقد استكشفت ميزات الكمال الانسانية حتّى الآن قلة ممتازة مارست

نزع الملكية الالزامي للفوائض الاقتصادية ولكنها استكشفتها بطريقة متفرقة وانانية فقط . لقد أوضحت الحرية الشخصية والمحرضات الثقافية التي هي في متناول مثل هذه الجماعات خلال القسم الأعظم من التاريخ ميزات الكمال وامكانات الفساد التي ينطوي عليها اقتصاد الرخاء المشروط بالربح والذي يخلط في الغالب مع الكمال . لقد كانت حسنات مثل هذه الحياة في الغالب مما لا يمكن انكاره : فقد تولدت من الفائض شخصيات واثقة موارة بالدم حسنة التغذية تطفح بالحيوية مستعدة ان تصمم وتنفذ مشاريع بديعة سواء في العمارة أو في الحكم أو في الدين مشاريع كان يبقى انجازها مستحيلا وحتّى غير معقول مع المرفهات الهزيلة والآفاق المحددة للجماعة الصغيرة .

وباستثناء الثروة المتحققة بواسطة مثل هذا القهر فان أفضل أمثلة الكمال هي القائمة داخل جماعات بدائية تماماً . ففي كثير من المناطق وقبل ان تخضع البستنة والزراعة في العصر الحجري الأخير لمركزية قهرية فرضت الضرائب والعمل الشاق ، كان قد تحقق بالفعل مستوى متواضع من الكمال دون نزع ملكية ملح . ولم تكن الجماعات البسيطة من هذا النوع تحمل سمات الصراع المالتوسي لاجل البقاء ولا الصراع الطبقي الماركسي . هذا ما كانت عليه بوجه خاص الحال في القطنات الاستوائية المحظوظة التي كانت في الغالب لا تزال قائمة عندما زارها المستكشفون في القرن التاسع عشر .

ان هشاشة فعل هذا الاقتصاد ثابتة ! فاعطيات الطبيعة متقلبة الى حد كبير والهامش شديد الضيق والتوازن بالغ الدقة . وينتج عن ذلك ان الحضارات البدائية تنزع لكي تؤمن استمرارها الى ان تكون تقنينية

ومقترة قليلة الاستعداد لتقبل التجديدات أو للقيام بمجاذفات بل انها تتأبى حتى من الافادة من تجربة جيرانها . لقد لخص لاوتسي هذا الضعف في مقطع معد لاطراء ميزات مثل هذا الاقتصاد . « وقد تكون هنالك أيضا سفن وعجلات . . . لا يستعملها احد . . . ولا فائدة من ان يكون البلد المجاور قريباً الى درجة سماع الديكة وهي تصيح فيه والكلاب وهي تنبح فالرجال يهرمون ويموتون بدون أن يؤموه » .

اننا مدينون لمجمع القوة بمقدار تغلبه على هذا النوع من التحجر . فالكمال على أساس معزول الى هذا الحد وهزيل وقليل المغامرة يهوي ببالغ السهولة الى الخمود والعوز والخبل . قد عانى تورد بنفسه تجربة هذا الاحتمال خلال اقامته سنتين في والدن : لقد تبين ان ذلك لا يصلح لحياة كاملة وانه ليس بجذاب إلا بصفة اجازة من اقتصاد ملحاح ينكر عليه الفراغ الذي كان يحتاجه لحياته الحقيقية كمراقب يشعر ويفكر ويتأمل .

ان على الأجيال القادمة إلا تضع مخططات للعودة الى كمال على هذا المستوى من البدائية بل ان تسير الى الأمام نحو نظام أكثر سماحة بل أكثر سماحة بكثير مما تبيحه أغنى المجتمعات اليوم . ان كثيراً من أحب صفات اقتصاد الكمال بما في ذلك ترف الانصراف عن نفائس ثمنية يفتقر اليها نظام القوة من أساسه تقريبا . واذا تجرأنا على الحيلولة دون المستقبل السيء الذي تنبأ به أنبياء التكنولوجيا العملاقة واذا رفضنا طوبائياتهم العقيمة البيروقراطية فلأننا ننوي ان نقيم خيارنا الاخر في الاقتصاد وفق نموذج أكثر ملاءمة صادر لا عن المنظومة الشمسية أو عن مشتقاتها الميكانيكية بل عن الطبيعة عن نتاجها الذي لا يزال حتى الآن

الأعظم . عن الحياة نفسها كما تجسدت في الأجسام الحية وكما انعكست وتمجدت وتمت في فكر الانسان . يقوم المثل الأعلى للنظام العضوي الذي ينشد الكمال، لا الرخاء المادي أو الرمزي فقط ، على تحرير الحيويات البشرية وعلى ترك طابع ندي من المدلول والقيمة على كل وهلة من وهلات الحياة الماضية والحاضرة والمحتملة .

لا حظوا الفارق بين المثل الأعلى للتنامي الكمي (انتاج المخترعات والسلع والمال والمعرفة والرسائل والمتع بالجملة) والمثل الأعلى للكمال العضوي . وليس الاختلاف الأقل هو ان النظام الذي يسعى لبناء الكمال يجب ان يهتم بتقليص اهتمامه بالتوسع والانضباط التقييدي اهتمامه بالتحرير وبالتحريم اهتمامه بالتصريح وبالاستمرارية اهتمامه بالتغيير . فلا يمكن تعريف الكمال العضوي اذن أبداً بانه مجرد رخاء كمي وأقل من ذلك ان يعرف بأنه انتاجية بلا توقف وانفاق بلا قيد واستهلاك عشوائي .

الرخاء مسموح في نظام الكمال وليس الزامياً : انه يحسب حساب النفقات الباهظة لتلبية حاجات الانسان العليا من المعرفة والجمال أو الحب (كما جاء في رمز الزيت الذي مشح به المسيح) مع استطاعته ان يتطلب اقتصاداً شديد الصرامة في مجالات اخرى أقل رفعة . ونصيحة اميرسون اقتصدوا في المستويات الدنيا وانفقوا في المستويات العليا هي في القلب من هذا المفهوم . ومع ذلك ومن المفارقة اننا لن نكون قادرين على مد بركات الكمال لا الى اقليات مبعثرة وقطعات محظوظة فحسب بل الى كل النوع الانساني الذي لا يزال مليارات من افراده على شفا المجاعة . الا بفضل نظام القوة كما قام خلال القرون الثلاثة الأخيرة .

ولا يمكن لهذا التحول الميمون ان يحدث إلا بشرط واحد وعسير : وهو ان نتخلى عن المثل والأساليب المتنكرة للحياة في نظام القوة وان يبذل جهد واع على جميع المستويات وفي كل انواع التجمعات للعيش لا بهدف تمجيد القوة بل بغية رد الحياة لهذا الكوكب بفضل التعاون والمشاركة الحبية والثقافة البيوتقنية . لا « تقدم المعرفة » أو تقدم القوة بل تقدم الحياة والروح : هذا هو الهدف .

لقد ضرب هذا المثل الأعلى العضوي بجذوره في العديد من الحضارات ولكن ليهزأ به تكراراً ويزدرى وينبذ من طرف التاريخ « المتحضر » الى طرفه الاخر الذي بقيت آثاره ، وليس هنالك أي ضمان في ان لا يزجر من جديد وينبذ . ولذا فليس البر بوعد الكمال سهلاً : وقد يكون اضمن بكثير التنبؤ بان القوى الهدامة التي تعمل اليوم ستتواصل بخط مستقيم حتى تصل الى تدميرها الذاتي المحتوم . غير ان رحمة منقذة يمكن أيضا ان تبذل لصالح الانسانية : والواقع ان قوى الحياة اللاشعورية قد استنفرت تكراراً تحت تهديد الانطفاء الشامل محولة الهزيمة المطلقة الى نصر جزئي . ولا يزال هذا الامر ممكن الحدوث .

ومن الثابت ان امكانية بلوغ الكمال . الهدية الاقتصادية الرئيسة لمجمع القوة لا يمكن ان يتحقق بالاستناد الى المبادىء التي تحكم هذا النظام . فلن يكون أي تحول عضوي ممكنا ما بقيت المثل العليا للقوة بدون تحفظ سائدة تتحكم بفعاليات الذين يحاولون تغيير النظام كما تتحكم بفعاليات الذين ينضمون اليه بزهو . الا ان من الخطأ الاعتقاد بان الانطلاقة المستبطنة للنظام منيعة لأنها تمثل قوة كونية لا يمكن تحديها أو السيطرة عليها .

أي ناموس من نواميس الطبيعة اختار كشرعة للحياة العضوية التطبيق المتزايد للطاقة ؟ الجواب : ليس هنالك من شرعة كهذه .

من المؤكد ان الطاقة بكل أشكالها هي ، في التفاعلات المعقدة التي جعلت الحياة على الأرض ممكنة ، عنصر ضروري ولكنها ليست العامل الوحيد . ويمكن تحديد الأجسام تقريبا كما تحدد المخترعات المختلفة بهدف تنظيم الطاقة وقلب ميلها الى التبدد والحفاظ عليها ضمن الحدود الملائمة لحاجات الجسم وأهدافه الخاصة .

وقد بدأت عملية الحجب هذه قبل ان تتمكن الأجسام من الظهور في الطبقة الجوية التي تعدل حرارة الشمس المباشرة وتمنع نفاذ الأشعة القاتلة .

الاسراف في الطاقة شؤم على الحياة مثل الاسراف في الاقلال منها ، ويستخلص من ذلك ان تنظيم الربح والانفاق في الطاقة لا توسعها غير المحدود يؤلف بالفعل احد نواميس الحياة الرئيسة . وعلى العكس فان كل تكثف مفرط للطاقة حتى اذا كان لا هداف صالحة ظاهراً يجب ان يفحص عن كثب وان ينبذ في الغالب بصفته تهديداً للتوازن البيئي .

لقد ولدت فكرة ان الآلة العملاقة هي بالفعل كلية القدرة ومنيعة مع عبادة الملكية الألهية ، كما رأينا ، : انها اسطورة الآلة الأولى . كان ينتصب على مدخل القصور الكبرى التي كان يدار منها النظام القديم في العراق ومصر تماثيل ضخمة لأسود وثيران كان الهدف الرئيسي منها ان يملئوا قلوب الذين يقتربون من الحضرة الملكية بشعور ساحق بصغارهم وعجزهم ؛ كما روى عن مقاصد رع الاله الشمسي

نص على الضريح يرجع الى ما بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد : « انني سأفضلهم كملك وسأخضعهم » وبطريقه رمزية وأكثر التواء فان هذه المخلوقات التي توحي بالرعب المقدس لا تزال اليوم تنصب على أبواب بنتاغون القوة على الرغم من ان الاله الذي تمثله والذي لا سبيل الى تحدي علمه السري ولا سبيل الى وضع اوامره الألهية موضع الجدل يتبين عندما يزاح الستار . انه ليس في الحقيقة سوى النموذج الأخير للحاسبة الالكترونية التي برمجها بحماسة الدكتور سترانجيلوف ومساعدوه .

وهنالك خطأ آخر لن يكون ارتكابه أقل شؤما وهو عكس المبالغة في دور القوة : انه خطأ يغري اليوم بشكل مؤذ الجيل الشاب وهو التفكير بانه يجب . لتحاشي النكبات المتوقعة التي يعمل مجمع القوة على اثارتها . تبديد كل نسيج المدنية التاريخية والبدء من جديد من البداية على أساس جديد تماماً . وهذا الأساس « الجديد » كما تتصوره مثل هذه الجماعات الثورية يقم . مع الأسف . أشكال الاتصال الجماهيري والتقل الجماهيري والمذهبية الجماهيرية التي يشجعها العنف مما لا يمهد للتحرر الانساني بل لديكتاتورية الجماهير التي ربما تكون أكثر تجرداً من الانسانية من نظام الغزارة الحالي بالنظر الى أنها تكفر بكل تراكماتنا الثقافية الماثلة بوصفها بلا قيمة وغير ملائمة . حتى لكأن الجهل والعجز هما حلان صالحان للحياة ! أو كأن المؤسسات الانسانية يمكن ان ترتجل بين يوم وآخر .

ان ما ينطبق على المدنيات القديمة مدنيات عصر البرونز ويعوض جزئيا عن سوء استعمالها للقوة ينطبق كذلك على معادلاتها الحديثة .

« فالمؤسسات السلبية . . . . لم تكن لتبقى طويلا الى هذا الحد لو لم تكن مغانمها الايجابية ، حتى لو خصصت لاستعمال الاقلية المهيمنة ، تنفع في النهاية مجمل الجماعة وتنزع الى احداث مجتمع شامل له طاقات ارفع بسبب حجمه وتنوعه . » واذا كانت هذه الملاحظة صحيحة في الأصل فهي تبقى اليوم صحيحة أكثر بعدما انتشرت هذه التكنولوجيا الممتازة في الكرة الأرضية كلها . الطريقة الوحيدة الناجعة للتغلب على نظام القوة هي نقل احد عملائه الى مجمع عضوي . ان الدعوة الى الكمال إنما تبدأ وتنتهي في الشخصية الانسانية ومن خلالها .

٥ : آفاق ثقافية وليدة

ان حل المقتضيات الاقتصادية والاجتماعية لنظام الكمال بالتفصيل يتجاوز الى حد بعيد ميدان عمل هذا الكتاب أو ميدان عمل كل فكر منعزل . غير انه بالنظر الى ان مبدأ الكمال بوصفه متميزاً عن الغزارة والبحبوحة وحتى عن الكمية غير مفهوم بوجه عام فانني سأحاول ان ارسم بعض نتائجه العديدة الممكنة : وهي نتائج قد تُعدها الأجيال المقبلة على طريقتها اذا تغلبت يوماً صورة العالم العضوية .

لقد استشف بعض أفضل مفكري القرن التاسع عشر بشكل خاطف بعضاً من هذه التطورات : انهم مفكرون مختلفون من النواحي الاخرى مثل كونت وماركس وميل وتورو وكروبوتكين ووليم موريس وبتريك جدز .

وقد ادخل بعض زعماء المدارس هؤلاء في ممارستهم الشخصية بعض أكثر التحولات أهمية وقد سبق ان لامستها في تقديري لليونار دي

فنسي وهي عدم المبالاة بالمحرضات المالية ، التحرر من انتفاخ الانا بواسطة الدعاوة، تنويع الفعاليات المهنية : التبطيء المتعمد لوتيرة الانتاج الصناعي والفكري على السواء . تجديد التركيز على الوظائف الانسانية والقيم الحضارية العليا وبوجه خاص الالغاء الناشط للحكومة .

واحدى نسب نتائج الكمال التي أصبحت ممكنة بسبب فائض متوقع من الطاقة والسلع هي الانصراف عن التركيز مدى الحياة على عمل أو مهمة فقط حتى اذا كان مثل هذا التركيز ينتج ساعاً قيمة ومتينة كالسجادة الفارسية التي ذكرتها ، لان هذا النوع من التحديد يمثل بالفعل حياة عبودية لا تليق بكائن بشري مكتمل التطور . وتعاطي أكثر من فعالية مهنية لا يعني مع ذلك انه يجب عدم استخدام أو اهمال الكفاءات الخاصة : ان الأمر على عكس ذلك تماماً . وما يعنيه ذلك بالحقيقة هو ان في متابعة النسق اليومي وأكثر من ذلك أيضا دورة الحياة بكاملها لن يعتبر أي اهتمام منفرد قد نمي بما فيه الكفاية إلا اذا صحبته معرفة للاهتمامات والفعاليات الاخرى الضرورية للحفاظ على التوازن السيكولوجي والبيئي .

لقد تنبأ كارل ماركس بهذه النتيجة كتحول انساني جذري لا بد من ان تحدثه الاشتراكية : وهو ان الرجل نفسه يمكن ان يصيد بدون ان يصبح صياداً ويكتب نقداً أدبيا بدون ان يصبح « ناقداً أدبياً » : : وبايجاز ان التصنيفات المهنية تصبح أكثر فأكثر خالية من المعنى كلما أصبح «الاهتمام بالانسان» مركز كل فعالية. لقد كانت حياة وليم موريس من هذه الناحية ، نموذجية مثل حياة ليونارد . وليست مهمة كل الحياة سوى

ان يصبح المرء كائنا انسانيا كامل المواصفات . وخلافا لبعض آراء ماركس الاخرى . فليس في هذا أمل شباب رومانطيقي خافه وراءه .

لقد تصور ماركس ، في وقت متأخر عام ١٨٧٥ في نقده لبرنامج غوتا . هدف الشيوعية المنشود كـ (نهاية تبعية الأفراد لتوزيع العمل ومع ذلك نهاية التناقض بين العمل الذهني والعمل اليدوي) وبذلك لا يصبح العمل وسيلة للعيش فقط بل ضرورة رئيسية من ضرورات الحياة . وهكذا فانه سيكون من المتعذر التمييز بين الهاوي الذي يعمل عن حب وبدون أي محرض محسوس والحرفي المتحمس في أي مجال والذي يرى في العمل أكثر المشاغل الممكنة سحراً . وانني بالاستناد الى تجربة حياتي الخاصة اشهد بصحة هذا النقد ؛ انني في الواقع يصعب علي ان أقول أيها يسبب لي متعة أكبر : الساعات التي اقضيها في الكتابة أو في العمل في الحديقة . ولولا توفر عمل على هذا المستوى من الفعالية والتنوع لشعرت بانني يائس مثل وليم موريس .

لقد اشار أكثر من مراقب حديث الى ان توقع تحقيق الفراغ عالميا مع نهار الساعات الست وأسبوع الأيام الخمسة يحمل في طياته تهديداً بفراغ وسأم لا يحتملان . والأمل الذي عبر عنه جوليان هكسلي بين من عبر بان هذا الفراغ سيملأ بشكل مفيد بمتابعة الدراسات المدرسية والجامعية باستخدام الوقت الذي كان فيما مضى مشغولا بالعمل في المكتب أو المصنع يبالغ في تقدير جاذبية مثل هذا النظام وقيمته الغذائية على السواء ولا يحسب حساباً للتمرد المقلق ضده الذي يبديه

الطلاب الذين لايجدون أية متعة في ترويض أفكارهم والذين قد يفضلون تعميتها بالعقاقير أو بقصفها بالأصوات العنيفة .

ليس هنالك من بديل للعمل إلا عمل جدي آخر . وما من دليل على ذلك أفضل من ان « العمل » في حضارة ما ، الصيد في العصر الحجري الأول مثلا ، يصبح بوجه عام الرياضة المفضلة في الحضارة التي تليها .

ان اقتصاد الكمال الذي يومىء الينا اليوم يقترح طريقا مختلفة تماماً عن مقاربة توزيع العمل على النمط القديم ولا تقل اختلافاً عن طريق حرية الطبقة العليا في تجنب العمل . وقد رسم مخطط هذه الامكانية الجديدة منذ نيف وقرن هذا العبقري الفذ رغم جنونه شارل فوريه . وكان ذلك ما سماه فوريه « مبدأ الفراشة » . فبدلا من العمل نهاراً كاملاً في مهمة وحيدة بله حياة كاملة اقترح فوريه ان ينعش نهار العمل بالانتقال على فترات من مهمة الى اخرى . وكما يحدث غالبا لفوريه فهو يضعف الفكرة الجيدة بالسير بها الى حد الخرق : فقد حدث ذلك في هذه الحالة بالمبالغة باختصار فترات العمل . واستطيع من جديد ان اشهد بالاستناد الى تجربتي الخاصة ويسرني هنا ان يدعمني خصم سلوكي هو الأستاذ ب . ف . سكينر ، ان فترة من العمل من أربع ساعات أو أقل بقليل في الكتابة يعطي أفضل النتائج ؛ وتناوب النشاط الذهني مع أشكال اخرى من العمل كالبستنة والتحطيب والخزن وتعاطي التجارة أو ممارسة حرف مختلفة ينعش ويرفع الى مستوى ارفع كل أجزاء النهار الأخرى وعلى مستوى متواضع ، فان مبدأ الفراشة هو الذي جعل حياة المزارعين مجزية زمنا طويلاً إلا عندما كانوا مستغلين أو كانوا يفتقرون بسبب قلة خصب البيئة ، الى درجة ان انساق هذه الحياة النموذجية واحتفالاتها

الموسمية لم يطرأ عليها أي تغيير جذري طوال الاف السنين . ان العمل في المزرعة ، بوصفه ضد الفصل بين الفعاليات وضد التعبئة الانضباطية ومحيط المصنع الحزين ، كان ييسر عدداً من التنويعات من ساعة لأخرى ومن يوم لاخر ومن فصل لاخر . ولم يكن باطلا تباهي العالم النفساني ستانلي هال في سيرته الذاتية بانه بوصفه من أبناء المزرعة في انكلترا الجديدة في منتصف القرن التاسع عشر كان دربا في عشرين عملا مختلفاً ومعلما في الكثير منها . قد يتيح اقتصاد الكمال بالحصول على فترات عمل أقصر احياء المبادأة على أساس طوعي في أشكال عديدة من العمل ينكرها اليوم المتفعون بالغزارة المقيدون بضرورات الاستهلاك القسري .

لقد أصبح توزيع العمل على مدى الحياة غير ملائم بالضبط بسبب الطبيعة المنتجة للتقدمات التقنية التي تحققت خلال القرنين الاخيرين . لقد أصبح البحث الكلاسيكي الذي كتبه اميل دوركهايم لشرح ميزات توزيع العمل وخصوصا ميزاته الذهنية مجموعة من التعليمات عما يهم تجنبه ازاء الدعوة الحاضرة للكمال . ربمقدار ما كان دوركهايم ينظر الى توزيع العمل كسمة أساسية من سمات « المدنية » أي مجمع القوة فقد كانت نظرته صحيحة ؛ لم تكن نظرته صحيحة فحسب بل كان له رفاق طيبون من افلاطون الى آدم سميث . ومع ذلك ، وبطريقة غريبة فان احداً من هؤلاء المفكرين لم يتبين ان الجدوى الميكانيكية لا تمثل أية علاقة حتمية مع جدوى الحياة دون التعرض الى متممات الحياة .

لقد ضاعفت الآلات ذات المحرك عدد (العبدان) الميكانيكيين حتى بات من الخرق الاحتفاظ بتوزيع العمل القديم على مدى الحياة أو بتوزيعات المهن الحالية التي عفى عليها الزمن وكذلك بالمراقبات

البيروقراطية والبوليسية التي صحبتها . والفراغ المتوفر اليوم لا يتوقع اشغاله بالرياضة والتلفزيون والسباحة فحسب . فالخيار الاخر السعيد المتاح لنا يرمي الى اشكال من العمل الخاص والعام أكثر تنوعاً . وسيكون مثل هذا العمل طوعياً ومجانيا أكثر فأكثر بدون محرضات المال والدعاوة المفتعلة .

ان كثيراً من المشكلات الاجتماعية كالعناية بالمرضى والأشخاص المسنين ستستمر ، بالنظر الى ان تساوي الدخول في القمة يجعل مثل هذه الخدمات باهظة الثمن ، في ان تصبح ارهب ما دام لم ينتج قدر متزايد من الخدمات الانسانية والسلع المصنوعة سواء بصفة واجب عام أو بصفة هبة فردية كما يجري بين الجيران والأصدقاء . ان القليل من الروح الكامنة التي حركها اقتصاد الكمال مع علم اكتراثه بالمحرضات المالية قد تجلى في توزيع السلع العفوي بين الجيل الشاب وان كان هذا التوزيع على شيء من الميوعة .

والغريب ان احد أفضل الأمثلة الحديثة عن طبيعة المشاغل المتعددة الممكن تحققها والحياة المتنوعة بدلا من ان تكون متخصصة مصدره القطيعة مع انساق زمن السلم النمطية وهي قطيعة سببتها الى حد بعيد الحرب العالمية الأولى وبرزت من جديد في الثانية . وأثناء هذه الأزمات وفي غضون أقصر وقت لاتمام التغيير لم يغير بعض الناس عملهم فقط بل ذهبوا الى حد تغيير طبيعتهم الخاصة . لقد جابه اناس اختاروا فيما سبق أعمالاً هادئة الخطر والتعذيب في المقاومة السرية ، وأصبحت فتيات شابات غريرات ، لم يسبق لهن حتى ان يدرن آلة خياطة ، ماهرات في استعمال المخارط والمثاقب ؛ كما أصبحت ربات منزل ، لم يسبق

ان عملن خارج منزلهن ، ممرضات أو مساعدات في المستشفيات وواجهن القصريات والأمراض المنفرة والجراح الجسدية الخطرة ؛ بينما أصبح رجال كهول ، التزموا دائماً الابتعاد عن الخطر ، زعماء فرق مقاومة أو سائقي سيارة اسعاف مشددين عزائم الخائفين منتشلين من الخرائب لمشوهين والموتى .

لا شيء كان يمكن ان يكشف القناع عن الخرق العقيم للاختصاص مدى الحياة أفضل من هذه التكيفات السريعة . واذا كان يمكن ان احكم بالاستناد الى الاتصالات اللاحقة مع أمثال هؤلاء الأشخاص فان تغيير الدور هذا قد ضاعف في حالات عديدة ثقتهم بأنفسهم وقدراتهم ولم تكن المكافأة قوة ولا ربحا ولا مجداً بل تقوية للحياة . ان هذه التجربة الجماعية تسفه كل تصنيفات وجمودات الطائفة (القبيلة) . انها تدل ان هنالك مستودعا للثروات الانسانية لم يمتح نظام القوة منه إلا في فترات الأزمة .

ولا تكمن العقبة ضد تحقيق مثل هذا التنويع المهني وهذه الكفاءات العامة في الطبيعة الانسانية كما هي بل بالاحرى في كتلة التضييقات التأهيلية والتربوية والمهنية التي يفرضها كل فريق صاحب امتياز للحفاظ على مكانته ومداخيله وامتيازاته الخاصة . وعلى الرغم من ان الهدف المزعوم لهذه التنظيمات ممدوح في الغالب بوصفها تدابير لضمان الكفاءة وحماية الأفراد من خصوم غير ماهرين فان الهدف الكامن هو منع الفعاليات والتنظيمات الجديدة من منافسة نظام القوة . وينتج عن ذلك ان يصبح مدى المبادأة الانسانية بواسطة العمل المباشر محدوداً . واليوم

لا بد لأقل تدبير جديد من ان يتحمل النار الدائمة نار الاجازات والتشريعات المهنية والنظم النقابية وجداول الأجور وأفضليات الترقي والتضييقات والتفتيشات البيروقراطية . ان مقتضيات الحرب نفسها لم تستطع إلا جزئيا ان تهدم هذه السدود أو تدور حولها ؛ وأين تعتصم هذه السدود بعمق إلا في الآلة العسكرية نفسها ؟

وهذا ما قد يفسر لماذا يضعف الأمل الى هذا الحد في التغلب على نقائص نظام القوة بواسطة أية مهاجمة تستخدم التنظيمات الجماهيرية وجهود الاقناع الجماهيرية : والواقع ان هذه الطرائق الجماهيرية تدعم النظام نفسه الذي تهاجمه . ان التغييرات التي كانت حتى الآن ناجعة والتي تعد بنجاحات اوسع مردها الى مبادأة مفكرين افراد وفرق صغيرة وجماعات محلية يقظين جميعا وقاضمين احراف بنية القوة بكسر الانساف المطردة وتحدي النظم . ولا تسعى مثل هذه المهاجمة الى الاستيلاء على قلعة القوة بل الى الانسحاب منها والى شلها بدون ضجيج . وعندما ستنتشر مثل هذه المبادآت انتشاراً واسعاً كما يتراءى ذلك فسيعود الحكم والسلطة المطمئنة الى منبعهما الخاص: الى الشخصية الانسانية والى الجماعة الصغيرة المتقابلة .

ولن تجد منظمة عالمية كالأمم المتحدة يعاد تأسيسها بشكل مجد الدعم الإنساني الجماعي الضروري لإبعاد كل أسلحة الإبادة الشاملة والقتل البيولوجي ولضمان العدالة والوفاق الحميد بين أفرادها إلا بتشجيع لامركزية الوكالات المحلية . إن تجميع قوة قامعة داخل سلطة عالمية بدون اعادة الحياة لأصغر الوحدات المستقلة القادرة على أن تمارس مبادآت محلية واقليمية يعني تجميع الآلة العملاقة العظمى .

قبل أن يجعل نظام القوة الكمال ممكناً كان الإعتراض الأكبر على التنويع المهني انه يقلل من التمون الضروري بالسلع ويخفض الأرباح ويبطيء وتيرة الإنتاج . ولكن هذا التبطيء سوف يطبق بوجه خاص على منتجات سطحية ومصطنعة ؛ وهذا بالضبط مايطلبه اقتصاد الكمال إذا أراد أن يشجع الإستخدام الإصطفائي للحسنات والنبذ العادل (للشرور).

لقد أصبح التبطيء أمراً لازماً في العديد من ميادين الإنتاج بشكل أن يقلل فرط تحريض مراكز المتعة — الربح . غير أن التبطيء وبعض الأحيان التوقف ليس بأقل ضرورة بغية توفير الفراغ الضروري لتشجيع العلاقات الإنسانية الصميمة .

اسمحوا لي أن اعبر عن هذا التناقض بمثال واحد ملموس . إن الطبيب الذي يجد لديه متسعاً من الوقت ليولي مرضاه انتباهه الشخصي وليصغي إليهم سابراً بعناية الحالات الداخلية التي يخشى أن تكون أكثر دلالة من أي تقرير مخبري هذا الطبيب أصبح نادراً . لاتقاس زيارة الطبيب حيث يسود مجمع القوة بما يوافق حاجات المريض بل بما يتطلبه القيام بسلسلة من الروائز المادية التي يبنى عليها التشخيص . غير أنه لو توفر عدد كاف من الأطباء الأكفياء الذين تكون مواردهم وفيرة مثل مساعديهم في المخبر لكان من الممكن اجراء تشخيص أدق ولكان من الممكن في العديد من الحالات أن يرفد رد فعل المريض الذاتي العلاج بشكل فعال . وقد عبر تورو عن هذا الأمر تعبيراً وافياً عندما لاحظ في يومياته أن « العامل الفعال حقاً لاتجده يزحم يومه بالعمل بل يقبل على مهمته دون استعجال تحيط به هالة من اليسر والفراغ » .

ولن يكون تذوق ميزات الكمال الإيجابية بشكل كاف بدون هذا التبطيء لوتيرة كل الفعاليات ، والواقع أن احتقان الزمن يهدد لذة الحياة مثل احتقان المكان أو الناس وينتج تقييدات وتوترات تنسف كذلك العلاقات الإنسانية . والإستقرار الداخلي الذي يولده مثل هذا التبطيء ضروري لأرفع استخدامات الفكر بفتحه الطريق إلى هذا الحياة الثانية التي يعيشها المرء بالتفكير والتأمل والإستبطان . والوسيلة للتخلص « من تكدس الأشياء والحروب الصاخب مهما كانت لخدمة الإله » كانت تشكل احد القرابين الحيوية للديانات التقليدية ؛ ويستخلص من ذلك انها لم تكن تركز على الإنتاجية التكنولوجية بل على التوازن الشخصي .وشعار حراس المترو النيويوركيين القديم إزاء ازدحام الركاب لايزال ينطبق بقوة أكبر على وتيرة مجتمع التقنية العملاقة « لماذا تستعجلون ؟ . . . انتبهوا إلى مشيتكم ! » .

٦ : اذا النيام استيقظوا

إن التوقفات والأعطال التي حدثت لها بالقوة قيمة تربوية لأنها تكشف عن هشاشة كل النظام إزاء التدخل الإنساني ولو كان من نوع سلبي .

العصيان هو خطوة الطفل الأولى نحو الإستقلال ويمكن حتى للتدمير الطفولي أن يوقظ موقتاً الثقة في قدرة الفرد على تغيير بيئته . إن تخريبات الحرب العالمية المعروفة تماماً أو التهديد بكوارث نووية أكبر لم تؤلم جراحها الإنسانية إلى حد أن تحملها على اتخاذ تدابير كافية للحماية : والشاهد على ذلك البديل الحالي الرديء لمنظمة عالمية مسؤولة ، الأمم المتحدة التي شلتها الدول العظمى عن قصد مسبقاً .

والإدراك بأن النظام بكامله ينهار ربما كان حدث بأسرع من ذلك لو أن الهيئات المهنية التي كان عليها أن تراقب تكنولوجيتنا « المهندسين وعلماء البيولوجيا والأطباء » لم يندمجوا تماماً مع أهداف نظام القوة .

انهم ، حتى هذه الفترات الأخيرة ، مهملون اهمالاً مجرماً استشفاف أو حتى نقل ماحدث حقاً وقد كانوا في حال الإسقاطات الشعاعية النووية والنفايات النووية يقللون غالباً من اخطارها عن عمد للتلاؤم مع « السياسة الوطنية » .

وليس سبب ذلك أن الأصوات المنذرة بهذه المناسبة لم تنطلق حتى في زمن مبكر ؛ وقد رويت امثلة كهنري أدامز وفريدريك سودي دون أن أذكر هـ .ج . ولز . ولكن عندما اقترح مهندس بريطاني بارز هو السيد الفرد اوينغ عام ١٩٣٣ بأنه يمكن أن نرجيء الإختراع إلى حين لنتمثل ونتمم الكتلة المتوفرة من الإختراعات ونقوم مقترحات أوسع استهجن كمجنون يطلب تضحية مستحيلة وغير معقولة .

لقد تبين قليل من معاصري أوينغ آنذاك أن نظاماً ميكانيكياً صرفاً لايمكن أن تؤخر عملياته أو يعاد توجيهها إذا اوقفت ولايمتلك أي جهاز داخلي للتنبيه على الشوائب أو تصحيحها (التغذيه الإرتجاعية) ولامجال فيه إلا للتسريع ،يشكل تهديداً للانسانية وهذا ما لم نتحقق منه إلا مؤخراً جداً.

ومع ذلك فان كل شخص ألف تاريخ الإختراعات يعرف أن الهيئات الصناعية الكبرى غالباً مااستأثرت ببراءات ، كالبراءة المبكرة لجهاز هاتف أوتوماتيكي بغية حذفها أو حولت البحث عن الميادين التي يخشى أن تهدد فيها الإختراعات الجديدة توظيفات رءوس الأموال

أو أن تضائل الأرباح الخارقة . (لاحظوا اللامبالاة الموسوسة ازاء تطور راكمات أكثر فعالية ضرورية للسيارة الكهربائية واستخدام قوة الريح). لم يكن في اقتراح أوينغ شيء غير واقعي إلا الأمل في احتمال تطبيقه من قبل الذين لاتزال تفتنهم اسطورة الألة . ولو أخذ بالإعتبار بوجه عام تحذير أوينغ لكان العالم الآن مكاناً أسلم وآمن .

لقد أصبحت اخفاقات نظام القوة الإضطرارية خلال العقود الثلاثة الأخيرة قاتلة أكثر فأكثر وحدثت بتواتر وقوة متناسبتين مع ديناميكية العناصر الفردية . وبمقدار مايستمر حدوث هذهالتعقيمات الجزئية والتعتيمات الكاملة والأعطال مع نتائجها المخربة سواء للقطن أو للشعوب البشرية يمكن أن يحدث تغيير كالذي لوحظ في لندن خلال القصف الجوي ، أو محنة مشابهة . لقد لاحظ الأطباء النفسانيون في تلك الفترة أن مرضاهم القلقين المصابين عندما كانوا يواجهون خطراً حقيقياً لايستطيعون الهروب منه لا بالخيال ولا بالواقع كانوا يسلكون ككائنات بشرية كفوءة قادرة أخيراً على مجابهة صعابها .

إن الموقف الذي تجابهه اليوم الإنسانية بطريقة جماعية يكشف عن بعض الشبه بالموقف الذي يجابهه الفرد في ذروة العصاب . لقد شقت الطريق لمرضه قبل أن تنفجر اضطراباته احداث متنوعة لايعرفهاالمريض . ولكنه يخشى أن يكون قليل الإستعداد لاستشارة طبيب أو بالأحرى لإعادة تفحص حياته طالما كان قادراً على أن يخفي عن ذاته حالته وأن يقوم بمهماته اليومية دون أن يبدي انهياراً انتحارياً أو عداءً لمن يحيط به لايمكن التحكم فيه . وأول خطوة نحو الإعتراف بحالته ونشدان المساعدة تبدأ بانهيار ملحوظ جسدي أو عقلي أو الإثنين في الغالب.

إن منهج التحليل النفسي يقدم في هذا المجال مؤشراً قد تكون له قيمته في معالجة الإنهيار الجماعي الحالي : وهذا يقوم على الجهد في رد الأعراض الحالية إلى حوادث سيئة أو آلام جراح سابقة دفينة في النفس عميقاً صعبة الإكتشاف حرفت الجسم عن طريق التطور الطبيعية .

وباعادة مثل الام الجراح هذه إلى ميدان الشعور يوشك المريض أن يتفهم بشكل أفضل طبيعته الخاصة وأن يكون لنفسه رأياً في الشروط التي يستطيع ضمنها ، وبفضل جهوده الخاص ، أن يستخلص أفضل النتائج من الإمكانات التي توفرها له حياته الشخصية وثقافته .

وكشف ماضي الإنسان التاريخي خلال القرنين الأخيرين يمكن أن يتبدى اسهاماً أهم لبقاء الإنسان من كل معارفه العلمية الأخرى .

ان استرداد التاريخ الإنساني يقتضي ، كما شدد على ذلك اريك نيمان ، أن تندمج في حياة الإنسان الواعية الأمراض التي إن بقيت غير معروفة وغير معترف بها ستستمر في معاكسته . لقد تبين أن حضارتنا التقنية العملاقة القائمة ، كما هي الأن ، على الإفتراض الغريب بأن الشر الذاتي ليس واقعياً أبداً ، وأن العلل لاوجود لها إلا بمعنى الشوائب الميكانيكية القابلة للاصلاح ، عاجزة عن الإضطلاع بمثل هذه المسئوليات.

إن الإدراك بأن الإنهيارات المادية والترديات الأخلاقية الذاتية في الحضارة الغربية سببها الثغرات الأيديولوجية نفسها قد بدأ الآن أخيراً يترسخ . ويجب ، كرد فعل ديناميكي على هذا الموقف ، أن يحدث شيء ما كيقظة عالمية كافية لتوليد استعداد داخلي لتحول أعمق . ويجب أن تتوفر لدينا الأمانة لنعترف بأن مثل رد الفعل هذا لم يحدث قط عبر

التاريخ كمجرد حصيلة للتفكير العقلاني والمذهبة التربوية ؛ وليس حدوثه بهذه الطريقة اليوم معقولاً على الأقل في الحدود من الزمن الذي يجب أن يسمح به ان أردنا أن نتجنب انهيارات وترديات أخلاقياهم .

منذ نصف قرن لاحظ هـ . ج . ولز بطريقة صحيحة أن أمام الإنسانية سباقاً بين التربية والنكبة . ولكن مالم يتوصل ولز إلى اكتشافه هو أن شيئاً ما كالنكبة قد أصبح شرط التربية المجدية . هذا ماكان يخشى أن يبدو خاتمة حزينة ومؤيسة لو لم يتبين أن نظام القوة ، بالإستناد إلى منجزاته الساحقة خبير في ابداع انهيارات ونكبات .

وليست الأعطال التكنولوجية اليوم عامل تهديد أقل من مقاومة جهاز العاملين المتزايدة القيام بالجهد الكريه الضروري للحفاظ على بقاء النظام دائراً ؛ إلا أنها يمكن أن تولد ردود فعل تعويضية لأنها تتيح للشخص البشري الفرصة في أن يعمل . وقد حدث ذلك بطريقة مدهشة خلال العطل الطاقي في تشرين الثاني ١٩٦٥ في الشمال الشرقي . لقد « وقفت الآلة » فجأة كما أتى في قصة إ . م . فورستر الخرافية . وشرع ملايين من الأشخاص الذين فاجأهم انقطاع الطاقة والنور وتجمدوا في القطارات والمترو ومصاعد ناطحات السحاب يعملون دون أن ينتظروا أن يعود الجهاز إلى الدوران أو أن تأتي الأوامر من فوق . « وروت النيويوركر انه بينما كانت مدنية القرميد والإسمنت ميتة كان الناس أشد حيوية من أي وقت » .

ولقد تكشف للكثيرين أن هذا التوقف تجربة منشطة : فالسيارات القادرة على العمل بطاقتها وانوارها الخاصة استمرت تتحرك وانضم

مواطنون بسطاء إلى رجال البوليس لتوجيه السير . وحملت السيارات الكبيرة المسافرين وتعاون أناس لم يكن بينهم تعارف ؛ وأدرك الناس أن سيقانهم تشكل وسيلة نقل ناجحة عندما تفتقد العجلات ، وشكل رهط من الشبان والشابات موكباً مرحاً حاملين الشموع ومرتلين بشكل احتفالي هزلي : « اصغوا إلى غناء ملائكة البشارة ! » . لقد بدأت تعمل من جديد كل القوى الإنسانية الكامنة التي يلغيها تنظيم ميكانيكي كامل حسن الصيانة . وما كان يبدو ككارثة تحول إلى فرحة : عندما وقفت الآلة انبعثت الحياة . إن نوع الثقة بالذات والتبعية لهذه الذات اللتين تولدهما مثل هذه التجربة هي ما نحتاجه لرد مجمع القوة إلى الحجم الإنساني واخضاعه . « ليحل الإنسان محله ! » .

ومن الثابت أن هزائم الحرب الجزئية على الرغم من أنها لم تعد محدودة محلياً أصبحت عبر الأجيال مألوفة جداً لايمكن أن تستجر رد فعل كافياً . لقد حدث خلال العقد الأخير لحسن الحظ تنبه مفاجىء غير متوقع أبداً إلى احتمالات كارثة شاملة . إن تزايد السكان غير المحدود والإستغلال المفرط للاختراعات التقنية العملاقة والنفايات الهائلة للاستهلاك الإلزامي وتخريب البيئة الذي تلاه بواسطة التلوث والتسمم والجرافات على نطاق واسع مع عدم ذكر نفايات الطاقة الذرية التي لاعلاج لها قد بدأت أخيراً تخلق رد الفعل الضروري للتغلب على هذه الحال .

لقد عم هذا التنبه الكرة الأرضية . وتجارب الإحتقان وتخريب البيئة والتردي الأخلاقي الإنساني تتردد أو تخطر اليوم في حدود الحياة اليومية لكل فرد .

تضطر الآن جماعات صغيرة ، ولو كان ذلك في قلب الريف ، أن تباشر عملاً سياسياً ضد المتعهدين الماكرين الذين يحاولون أن يفرغوا نفايات مدن قصية في مناطق ريفية تعاني مافيه الكفاية من المصاعب لتتدبر أمر اقذارها الخاصة ومياه كهاريزها الخاصة . ان اتساع الكارثة الوشيكة وقربها الملحوظ وطبيعتها الحتمية القاسية ، إلا إذا اتخذت بسرعة تدابير مضادة ، قد أثرت أكثر بكثير من التوقعات الصارخة للفناء النووي المفاجيء في استجرار رد فعل سيكولوجي كاف . وكلما ازدادت سرعة التردي من هذه الناحية يزداد احتمال السعي إلى اتخاذ تدابير ناجعة ضده .

وعلى كل ، فحتى لو اتفق على أن تدابير سياسية غير مقبولة حتى الآن يمكن أن تقترح في الصدمة الأولى لإدراك مصير الإنسانية فان القضية التي تبقى هي أن نعرف إذا كانت المشاركة الجماعية الإنسانية الضرورية ستحدث بالفعل . إن كل برنامج كاف لقلب نجاح الغزارة التكنولوجية الهدام لايتطلب فقط تضييقات قاسية ؛ إنه يتطلب تحولات اقتصادية واجتماعية موجهة نحو انتاج سلع وخدمات وأنماط عمل وتربية وترفيه مختلفة اختلافاً عميقاً عما يقدمه مجمع القوة .

إن المصلحين الذين قد يريدون أن يعالجوا الحملة ضد تخريب البيئة والإنسان بالإستناد فقط إلى تحسين الرفاهات التكنولوجية كتقليل نفايات البترين في السيارات لايرون إلا جانباً ضئيلاً من المشكلة . ولاشيء يقي كوكبنا من أن يصبح صحراء بلاحياة أقل من اعادة توجيه أسلوب حياتنا التكنولوجية بعمق . وبدون مثل هذا التغيير الآلي البعيد المدى لرغباتنا وعاداتنا ومثلنا الشخصية لايمكن للتدابير المادية الضرورية لحماية الإنسانية بدون التعرض لتطورها المقبل أن تطبق تطبيقاً معقولاً .

ولايجوز من هذه الناحية أن نبدو مفرطين في التفاؤل حتى إذا بدا ان الحركات الأولى لليقظة الإنسانية قد حدثت فعلاً . إن نفور الملايين من مدخني السجاير من التخلص من جنة التبغ رغم الأدلة الدامغة على النتائج المحتملة فيما يتعلق بسرطان الرئة يعطي فكرة عن المصاعب التي سنجابهها في تخليص الكرة الأرضية وتخليص ذواتنا لصالح الحياة .

وجنتنا الحالية في التنقل الشخصي بالسيارة يوشك التغلب عليها ألا يبدو أقل صعوبة قبل انسداد كل شريان للمرور بشكل دائم وقبل أن تخرب كل مدينة .

يجب على الإنسانية ، طلباً لنجاتها الحقيقية ، أن تمر بشيء ما كالتوبة الدينية العفوية : توبة تحل صورة العالم العضوية محل صورة العالم الميكانيكية وتعطي الشخص الإنساني بصفته أعلى مظهر معروف من مظاهر الحياة الصدارة التي تمنحها اليوم لآلاته وحاسباته الإلكترونية . والتغيير من هذا النوع يصعب فهمه بالنسبة لمعظم الناس مثل فهم الإنتقال من مجمع القوة التقليدي في روما الإمبراطورية إلى المسيحية أو من المسيحية الوسيطية الغيبية فيما بعد إلى ايديولوجيا القرن السابع عشر المصممة وفق متطلبات الآلة . لقد حدثت مثل هذه التغييرات تكراراً عبر التاريخ كله ؛ ولايزال من الممكن أن تحدث بتأثير ضغوط نكبية . إننا نستطيع أن نكون متأكدين من شيء واحد . إذا كان لابد للانسانية من أن تتخلص من فنائها الذاتي المبرمج فلن يترل الإله الذي سيخلصها من الآلة بل سينبجس من جديد في النفس البشرية .

خاتمة

تقدم الحياة

ان القوة وحدها والمعرفة وحدها ينشطان الطبيعة الانسانية ولكنهما ليستا يمنا بالنسبة لها . يجب علينا ان نجتني من تراكم الأشياء كله ما هو أكثر نفعاً لمتطلبات الحياة .

فرنسيس بيكون (تقدم المعرفة)

لقد حاولت في كتب سابقة ان اصف التطورات التشكيلية للطبيعة وللحضارة تلك التطورات التي برز من خلالها الانسان حتى الآن كقمة التطور العضوي . « ان الحياة الانسانية في تعددها وفي غائيتها التاريخية هي نقطة انطلاقنا . لا يستطيع أي كائن منفرد ان يحيط بهذه الحياة ولا تستوعبها أية فترة وجود منفردة ولا تستطيع أية ثقافة منفردة ان تشمل كل طاقاتها . ولا سبيل الى فهم طبيعة الانسان ولو جزئيا إلا اذا علم بأن جذوره دفينة في بقايا حيوات غير منظورة لا تحصى وان على أعلى فروعه بهشاشتها ان تتحدى اجرأ متسلق . يعيش الانسان في التاريخ ، يعيش عبر التاريخ ويعيش على نحو ما للتاريخ بالنظر الى ان شطراً غير ضئيل من فعالياته موجهة نحو التمهيد لمستقبل لم يكشف عنه » (سلوك الحياة) .

ان حياة الانسان في كل أبعادها قد تفهم بشكل أفضل باللغة المسرحية كدراما تتتابع في التمثيل . واذا كنت قد كررت هذه الاستعارة غير مرة فلأنني لا أعرف أي تحليل علمي ينصف كل وجوه التطور الانساني : والانسان في مسرحه الأرضي هو على التوالي مهندس معمار ومزخرف ومخرج وميكانيكي ومؤلف درامي ومشاهد ؛ انه بوجه خاص ممثل حياته كلها من « القماش الذي تصنع منه الأحلام » . ومع ذلك فقد كونته وصنعته طبيعة المسرح والادوار التي يضطلع بها والعقد التي يفرضها على نفسه الى درجة ان كل مشهد من الدراما له كنهه وانه يتلبس شيئا من المدلول .

وعلى الرغم من ان السيناريو في بدايات ظهور الانسان الغامضة كان يرتجل من لحظة الى لحظة ومن مشهد الى مشهد فقد أصبح الانسان نفسه واعياً بشكل متزايد لأدواره الخاصة وهو يحتل الآن قلب المسرح بواسطة ما يفوق صيغ بروسبيرو السحرية . في مناسبات عديدة يساء توجيه عقدة الرواية ويبدو ان المسرحية ليست أعلى من مهزلة متصنعة من الاخطاء وهي ترتفع في لحظات اخرى الى ذروة قصيرة تنبش لك نفسك ولا تبقى ضمنها المعدات الثانوية والألبسة أشياء تافهة بل تدعم الدراما بشكل فعال وغايتها فقط ان تعود فتسقط في بلبلة محزنة كما جرى في الفصل الأخير من الملك لير .

تمثل هذه الدراما في اطار كوني ؛ ويجب ان تبقى بدايتها ونهايتها ابداً خارج حدود التجربة الانسانية الواقعية . ومهما كانت معايب هذه الاستعارة فيمكننا ان نكون متأكدين من شيء واحد وهو ان البناء الفارغ ومعدات المسرح والآلات المعدة لمعالجة الزخارف والأنوار

لا تشكل على أية حال الدراما ولا تسوغ المجهود الجماعي الضخم الضروري لجمع ومراجعة الادوار . فليس لأي من العناصر المادية المكونة ولا للأجسام البشرية أية أهمية . فالدراما سواء كانت كونية أم انسانية انما يكون لها معنى بفضل اثارتها بواسطة روح الانسان .

وبمقدار ما كان للديانات العالمية ولأكثر من واحدة من العبادات والأساطير الاكثر بدائية معنى ما من معاني التطور الكوني الشامل كل شيء بوصفه أكثر دلالة من كل ما هو منظور ومفهوم على المسرح كان لها على الواقع سلطان أقوى من الوصف المحدد والحدثي الذي يبقى غير واع لأعجوبة وسر التمثيل الكامل .

ان الدراما الكونية والدراما الحياتية والدراما التقنية والدراما التعددية والدراما الذاتية تقدم سيناريو واطار الحياة الانسانية . واذا كنت قد ركزت في هذه الدراسة لاسطورة الآلة على الدراما التقنية فليس ذلك لأني قبلت الرأي التكنوقراطي الذي يعتبر اخضاع الطبيعة أهم مهمات الانسان بل لأني اعتبر التكنولوجيا كجزء مكون من الحضارة الانسانية بمجملها . والتكنولوجيا بصفتها هذه قد تغيرت تغيراً عميقا في كل مرحلة من تطورها بتأثير احلام واماني واندفاعات ودواعي دينية منبجسة مباشرة لا من الضرورات العملية للحياة اليومية بل من خبايا لا شعور الانسان . تتكون هذه الدرامات في الفكر الانساني ؛ وتبلغ هناك ذروتها من وقت لاخر بومضات تضيء فجأة مشهد الحياة الانسانية .

جبال الانقاض والاحجار والنفايات والعظام والغبار والروث التي تشهد على أعمال وأيام كل جيل يمضي استخرجت عبر التاريخ

بعد الميليغرامات من الطاقة الروحية المشعة وقد حفظ منها جزء فقط . وخاصة هذا الجزء ان يشع أثناء انتقاله من روح الى اخرى بقية الحياة بالمدلول والقيمة . وخواص الروح الديناميكية والمكونة هذه هي انها قوية الى أقصى حد ولكنها تتلاشى تدريجيا ؛ ومع ذلك فان وجودها الجزئي يمكن ان يدوم الأف السنين كما جرى في التنظيم المصري القديم للآلة العملاقة .

غير ان هذه البوادر المنشطة للروح هي الآيات النهائيه للكون نفسه تلك الآيات التي بقيت قدراتها خافية لا يمكن كشفها طوال مليارات السنين الى ان احرز الانسان نفسه بفضله تطور دماغه الهائل أكبر انتصاراته التكنولوجية : اختراع الرموز والبنى الرمزية المعقدة التي تقوي الوعي . والواقع ان الانسان قد تعلم في البدء بفضل مصنوعات الروح ، بفضل الحلم والرمز لا بفضل مهارة اليد فقط ان يتحكم بأعضاء جسمه الخاصة وان يتصل بقريبه ويتعاون معه وان يخضع البيئة الطبيعية بقدر ما يخدم ذلك حاجاته الواقعية وأهدافه المثالية .

والتعاريف الناقصة المبشرة للحياة الانسانية تعتبر فعاليات الانسان الذاتية كتحصيل حاصل (كامور بديهية) . انها تعكس اهتمام الورشة فيما يتعلق بالمواد والأدوات واهتمام البائع بالنسبة للشراء والبيع والاهتمام بالقياسات الكمية الضرورية لكل نوع من التنظيم على نطاق واسع . كل هذه الاهتمامات النزائعية ترجع الى حياة يكاد دور الفكر المبدع فيها ان يستهان به لأسباب عملية ورغم حضوره الدائم . وكما قال غاليليو ووافقه على ذلك دعاة مجمع القوة : الحساب والقياس هما خاصتا الفكر اللتان تمتلكان حقيقة موضوعية ؛ وكل مالا يمكن شرحه رياضيا

أو وصفه كميا يمكن ان يغفل بوصفه مجرداً من الأهمية العقلانية وغير موجود عمليا .

وطالما وفرت أقدم مظاهر الفكر المتجسدة بطريقة متنوعة في الديانة والفن والطقس والعرف الاجتماعي تنظيما رمزيا متماسكاً لدعم وجوه اخرى من الحياة لم يسبب الاعتقاد بان الأشياء المادية موجودة أو انها تعمل بذاتها ، ضرراً مباشراً . وكل ما كان يترك عن قصد خارج صورة العالم الميكانيكي كان يستمر حاضراً ناشطاً يتيح تفاعل أجزاء اخرى من الطبيعة الانسانية بجانب تلك التي استرقتها التكنولوجيا . ان كل ما حذفه بيكون وغاليليو من شرحهما للطبيعة ابقاه شكسبير وباسكال على قيد الحياة بشكل رائع ، حتى بيكون مع انه لم يكن كشكسبير كان عنده احساس حاد بالمجالات الفارغة التي تركت بدون توضيح مهما كان مستوى السداد الذي يمكن ان يحدد فيه هذا الجزء أو ذاك من الصورة « الموضوعية » أو ان يوضع تحت الرقابة التكنولوجية .

ان الذين كانوا يرون الحقيقة شبيهة بأنماط من الأفكار (الموضوعية) الميكانيكية القابلة للقياس في النظام الكمي لم يغفلوا فقط ابداعية الفكر الانساني في ميادين اخرى بل بقوا لا مبالين بأعجوبة الصورة الكونية كلها . لقد كان نيوتن ، المنغمس انغماساً عميقاً في الثقافة الدينية ، متواضعاً تجاه السر الذي لم يكن من شأن مأثرته الثقافية الخاصة العجيبة الا تضخيمه وقد استمر يطرح أسئلة لا يستطيع الاجابة عنها بالنسبة الى طبيعة الجمال والنظام الذي كان فكره يكتشفه في القوى الطبيعية البعيدة عن الأهواء الانسانية . ولكن الفلاسفة الماديين الذين ، كما افترضوا ، قد خلفوا وراءهم الفن والدين والقيم والأهداف والذين أعطوا حق

الصدارة للمادة المجردة من الروح إنما كانوا ينكرون مصدر ابداعيتهم الخاصة ؛ والواقع ان فكرة القياس الكمي نفسها أو التفسير الرياضي هي فكرة ذاتيه يعرفها الانسان وحده . وبمقدار ما كانت التكنولوجيا الحديثة تعمل وفق مبادئها المحدودة المناقضة الى حد بعيد للمبادىء التي ابدعت كل أشكال التكنولوجيا المتعددة الجوانب السابقة فانها لم تكن تستطيع إلا اخفاء أو عزل الحضور الانساني بوصفه مصدراً للعدوى .

ان ترجمة التجربة الفجة الخاصة الى أشكال ثقافية ذات دلالة بشكل ان تحمل كل وجوه الحياة في النهاية طابعاً فكريا ما تشكل ، مؤكداً ، الحدث المركزي للتطور الانساني . وهذا ما يميز الثقافة العليا من الثقافة الدنيا والحياة الفارغة من الحياة الهادفة والكائن الانساني المتفوق الناشط عقليا والمكتمل التطور من كائن انساني لم يرتفع ابداً فوق كتامة مرحلة الحياة الحيوانية . وعبر جهود الانسان المتطاولة فيما يختص بالتنبه والعمل، اضطلع هذا الانسان الذي كان في الأصل بلا لغة ولا عمل ولا مأوى ولا فن بمهمته العليا : مهمة ان يصبح انسانيا . وقد استخدم لهذه الغاية وظائفه الجسدية الخاصة لأهداف غير التي تخدم التناسل والبقاء .

لقد حقق الانسان شيئا أهم من « الاستيلاء على الطبيعة » بتنظيم وتوجيه اعضائه الخاصة بدءاً من التحكم بأمعائه ومثانته وبتحريمه أو تسامحه المتعمد وبتقليل أو زيادة كل الوظائف الاخرى العضوية وبتعلم فن من أصعب الفنون فن ترتيب فعالياته العقلية التي كانت مشوشة ترتيبا مجدياً . لأنه على مر الزمن اعاد تنظيم كل جزء من الطبيعة ، جسده الخاص وقطنه لأسباب تتجاوز الحياة الحيوانية . وقد كان

للتكنولوجيا في هذا التغيير الذاتي دور تؤديه منذ البدء ؛ ولكنها لم تؤسس بذاتها هذه الفعاليات كما انها لم تحاول الى عصرنا هذا ان ترد قدرات الانسان الى تلك التي يمكن ان تقتصر على منفذ تكنولوجي .

الانسان هو صنيعة ذاته العليا . لم يكن هذا الانتقال من الحيوان الى الانسان سهلا ؛ وهو بعيد عن ان يكون قد انتهى : لايزال أمامنا كثير من التطورات الاخرى . لقد كانت هنالك طوال المرحلة التاريخية جمودات وتقهقرات وترديات وتكرارات دورية رتيبة واخطاء وفظائع نظامية وانحلالات نهائية . وتقدم دراسة التاريخ ل أ . ج . توينبي شواهد ضخمة عن كل هذه الوجوه السلبية . ومع ذلك ورغم هذه الانسدادات كانت هنالك أدلة متواترة ان لم تكن متواصلة على وجود ابداعية رفيعة وتطور أصيل يبلغ ذروته في شخصيات رمزية اسطورية وطبيعية ، بشرية أو الهية تواصل تعيين معيار لمتابعة التطور الانساني .

ولولا امكانات التصعيد الذاتية هذه الأساسية في تطور الانسان كله لأمكن ان نشك في ان يكون جسم مفرط الحساسية كجسم الانسان قد استطاع ان يتجاوز الأهوال والمحن التي ازدادت بشكل مضن بتأثير وعمق وعيه الخاص : المرض والجراح الجسدية والطوارىء الخرقاء والخبث الانساني وفساد الأنظمة . ان عهداً كعهدنا ، لا يثق إلا بقناة واحدة هي قناة العلم والتكنولوجيا ، مهيأ تهيئة سيئة لمجابهة حقائق الحياة القاسية .

حتى الذين لا يزالون يتشبثون بتراث الدين والفن القديم مهما استمر غنيا ومغذيا ، قد أصبحوا متكيفين حسب مسلمات التكنولوجيا المجردة

من الانسانية التي تجرأت حفنة من النفوس المؤمنة فقط ان تتحدى ولو اسمج مفاسدها .

ان وجود عالم داخلي ديناميكي في الانسان لا يمكن سبر طبيعته الجوهرية بأية اداة ولا يمكن التعرف اليه إلا اذا أفصح عن نفسه بحركات ورموز وفعاليات بناءة سر عميق كالقوى التي تربط معا مكونات الذرة وتفسر طبيعة وسلوك العناصر . ويمكن ان نشعر بهذا السر عند الانسان ولكن لا يمكن وصفه ومن المستبعد أكثر شرحه ؛ والواقع ان الروح لا يمكن ان تنعكس من الداخل . انها لا تصبح شاعرة بباطنيتها إلا عندما تخرج من ذاتها .

والجهد المبذول لا لغاء دور الروح المكون يجعل الصنيع أهم من الصانع يضائل السر الى مرتبة العبثية ؛ ويشكل هذا الاثبات للعبثية هرطقة الجيل الحاضر ضد الحياة . وتتحول هذه المضاءلة في النهاية الى الخواء الماذي في « بانتظار غودوت والشريط الأخير » مع تقديمهما السأم وانعدام الأهتمام كالندرة الحتمية للحياة الانسانية . وهذا يشكل بحد ذاته شرحا نهائيا وتهكميا لصورة العالم الميكانيكية ونظام القوة واللاقيم الذاتية التي تتفرع عنها لأن التكنولوجيا التي تنكر على الحياة الذاتية وجودها الحقيقي لا يمكن ان تطمح الى أقل قيمة انسانية ولو في ارفع منتجاتها الخاصة .

ولا يمكن لصورة العالم العضوية مع ذلك ، ان تنكر القصور الحراري. بل ينبغي لها ان تقبل كمسلمة عمليات التدمير التي تصاحب كل الفعاليات الحيوية ؛ وان تقبل حتى ان هذه العمليات ليست بدرجة أقل من وظائف

النظام والبناء والتشييد جزءاً لا يتجزأ من الحياة واسهاماً في ابداعيتها . والواقع انه لا يمكن فصل المسارين لا يمكن ان ينفصلا أكثر مما ينفصل الجسد عن الروح والدماغ عن الفكر قبل ان يتوقفا بالموت . ان في الفكر طاقة كامنة تتجاوز في احيان نادرة هذه التحديدات العضوية وتفضل أو تتحدى شرط الموت : ويتجلى ذلك بالإندفاع نحو التسامي . ان الاعتراف بواقعة ان الانسان ، كنوع ، يمتلك رغبة حادة في تجاوز محدودياته العضوية وان هذا الطموح يمكن ان تكون له دلالته حتى في احط لحظات الحياة قد شكل هبة الديانة الميمونة وهو يفسر . بالتأكيد ، الأثر الذي مارسته على الجماهير البشرية . ومما يزيد من فذاذة هذه المساعدة هو استهانتها في الغالب بضرورات الحفظ والتناسل والبقاء العضوية ; فلا سبيل اذن الى اعتبارها متفرعة من الضرورات الحيوانية كما هي الحال بالنسبة لكثير من الوظائف الانسانية الاخرى وليست التكنولوجيا أقلها .

ورغم الغاء الذاتية من صورة العالم الميكانيكية فان الرغبة في الكمال والحاجة الى تحدي المصير والتحايل عليه والاندفاع الى التسامي يمكن ان نلاحظها في التكنولوجيا نفسها أيضا كما نلاحظ في الوقت نفسه مظاهر اخرى تشترك فيها مع الديانة كالاستعداد لقبول التضحية والموت المبكر .

لاحظوا الحلم القديم في القيام بتحويل اردأ المعادن الى ذهب .

يمكن بسهولة ان نرفض الأمر بازدراء على اعتبار انه جهد طفولي بهدف الاثراء السريع ; ولكن اذا كان الاثراء وحده قد شكل الهدف فقد كانت مئات من الوسائل التي يمكن البرهان على انها أفضل متوفرة .

ان الرغبة في التغلب على المحدوديات المادية بمعالجات سحرية مدبنة

للفكر بقدر مديونية الكيمياء لكور السيميائي : لقد كانت هذه الرغبة عارمة وملحة الى درجة ان السيميائيين قد تعرضوا لاغراء تزييف النتائج باخفاء ذرة من الذهب في الرماد ، وقد تبين ان هذا الاندفاع الذاتي لتجاوز محدوديات (المادة) اقرب الى الحقيقة من التحريمات الناهضة التي كانت تعارضه : لقد كان حلم السيميائيين ، كما تبينا الآ ن ، مبشراً بالاعجوبة العظمى اعجوبة الانشطار النووي .

وعلى الرغم من ان مناطق واسعة من الحضارة الانسانية قد انطفأت أو دمرت عبر التاريخ وخصوصاً خلال القرون الأربعة الأخيرة فان « تجليات » الفكر المشوهة والمشوشة قد بقي لها ما كان لها من أثر أو بالاحرى قويت بسبب دخولها قناة العلم والتكنولوجيا . والغرابة ان وجود مصادر التكنولوجيا هذه السابقة للوعي قد اغفل بالاستناد الى الافتراض بان ليس للعلم والتكنولوجيا وشائج ذاتية . ولا يمكن ان يكون هنالك ما هو أبعد عن الحقيقة من هذا .

لقد دعمت صورة العالم الميكانيكية بالأصل هذا التبسيط المفرط الكبير وهذا الخداع الذاتي ؛ ولا يزال أثره باقيا على الرغم من ان صورة العالم هذه لا تؤثر اليوم إلا بأكثر ميادين العلم تخلفاً . ان فكرة الزمن هي ، كما برهنت على ذلك من قبل ، أهم من أية مادية اخترعت لتسجيل الزمن ؛ لقد قامت هذه الفكرة في الفكر الانساني دون أية اداة سوى العين الانسانية المجردة التي تلاحظ حركات الكواكب وتحسبها بواسطة رموز رياضية مجردة هي نفسها لا وجود لها إلا في الفكر الانساني لم تنبثق فكرة الزمن لا عن الساعة الشمسية ولا عن الساعة الرملية

كما ان أي تحسين مباشر لهذه الأدوات بواسطة اليد البشرية لم يكن لينتج الساعة الميكانيكية .

وكما لاحظ نيوتن بحصافة في كتابه (علم البصريات) أننا إنما نتوصل الى السبب الأول باعادة رسم أسباب الظواهر بدءاً من آثارها المادية ؛ واضاف وليس هذا السبب الأول « بالتأكيد ميكانيكيا ». واذا تجرأت على ان اعدل هذا التأكيد لأطبقه لا على العالم المادي بل على القضايا الانسانية فسيتم ذلك باكتشاف السبب الأول لا عند اله نيوتن المنظم الحاضر في كل شيء بل في الفكر الانساني .

التأكيد على ان من المناسب منح اندفاعات وتخيلات الانسان الذاتية بوصفها تأثيرات مكونة في الحضارة وكذلك بوصفها مصادر طاقة من الوزن بقدر ما تمنح التأثيرات التي يحدثها على حواسنا « العالم المادي » أو الأدوات والآلات المتنوعة التي اخترعت لتغيير هذا العالم يخشى ان يبدو للكثيرين ولو في هذا اليوم ، فرضية جريئة قليلاً . لقد أصبح الرجل ذاته في صورتنا الوحيدة الجانب الشخص المستبعد : خارجاً عن الرؤية وخارجا اذن عن الفكر ؛ منفيا . سجينا يموت جوعا في معسكر اعتقال اقامه هو نفسه .

ان الحضارة الغربية قد ذهبت الى النقيض الأقصى بمقاومتها للصبغة الذاتية الطليقة لصور العالم السابقة . لقد كان الناس فيما مضى يمنحون ضلالاتهم غير المصححة والتي لا يمكن تصحيحها سلطاناً مبالغا فيه كثيراً وكانوا يجهلون ان الناس لا يمكنهم البقاء والتناسل بالتركيز الحصري على حياتهم الداخلية ان لم نقل بواسطة احسان وفضل الأشخاص الاخرين الذين ليسوا من ضحايا مثل هذه الأوهام : انها حقيقة سيكتشفها

الهيبيون مع الزمن . ان الفشل في خلق صورة للعالم متماسكة متسامية تنصف الى حد كاف الوقائع الوجودية غير القابلة ذاتياً للفساد من التجربة الانسانية قد شكل موطن الضعف المشئوم لكل الديانات . لقد صححت الآن هذه الخطيئة الذاتية ولكن باسراف واحدثت بدورها فكرة ليست أقل خطأ : وهي ان تنظيم الفعاليات المادية والجسدية قادر على ان يزدهر في عالم محروم من الروح .

يستند التحليل الحاضر للتكنولوجيا والتطور الانساني على الاعتقاد بالضرورة الملحة للتوفيق ما بين وجهي التجربة الانسانية الذاتي والموضوعي ومزجهما معا بفضل منهجية تشمل في النهاية الاثنين . ويمكن ان يتم ذلك لا بنبذ الديانة والعلم بل بفصلهما أولاً عن الرحم الايديولوجية الباطلة التي خطأت تطويرهما الخاصين وحدت من ميدان تفاعلهما . ان انجازات الانسان الرائعة باسقاط اندفاعاته الذاتية في أشكال منظمة ورموز جمالية وتنظيمات ميكانيكية وبنى معمارية قد ازدادت الى حد كبير بواسطة أساليب النظام والتعاون التي أعطى العلم نموذجها وعممها .

ورد الذاتية المعترف بها في الوقت نفسه الى مستوى الالة الحاسبة المثالي ليس من شأنه إلا ان يفصل العقلانية والنظام عن أعمق مصادرهما الخاصة في داخل الجسم . اذا أردنا انقاذ التكنولوجيا نفسها من ضلالات عمائها والهتها الوهميين الحاليين يجب علينا سواء في تفكيرنا أو في عملنا ان نرجع الى المركز الانساني . فهنالك بالواقع تبدأ وتنتهي كل التحولات الهامة .

ان طبيعة هذا التفاعل المتبادل وهذا الاتحاد بين وجهي الحياة الذاتي والموضوعي تتحدى كل وصف مفصل بالنظر الى انها لا تنطوي على

أقل من تاريخ الانسانية بكامله . وقد خص احد الشعراء بتلخيص هذه الحقيقة الباطنة ببضع كلمات . ان ما كان يقوله غوته عن الطبيعة ينطبق أيضا على كل مظاهر الحضارة والشخصية . « ليس للطبيعة قلب ولا أدمة : انها في الوقت نفسه في الخارج وفي الداخل . » وبموجب هذه المسلمة أعطيت وأنا اصف تقدمات الانسان التكنولوجية وزنا متساوياً لكل أجزاء جسمه لا لليد فقط أو للأدوات التي تفرعت عنها . وهذا هو السبب أيضاً في أنني شددت على الدور الذي تلعبه الرغبات والنوايا والرموز والضلالات حتى في تطبيقات التكنولوجيا الأكثر عملية . والواقع أن القطيعات الجذرية مع الممارسات العرفية انما تمت في التكنولوجيا نفسها بفضل كل فعاليات الروح لافعاليات العقل ولا وسائل العقل الديناميكية فقط .

إذا كانت هذه المقاربة صحيحة فانها تنطوي على خاتمة فيها نحد لأولئك الذين يتصورون ان القوى والمؤسسات القائمة الآن ستستمر الى ما لا نهاية وتصبح أكبر واقوى حتى لو هدد كبرها وقوتها بالذات بالقضاء على المغانم المنشودة أصلاً . واذا كانت الحضارة الانسانية تولد حقيقة وتنمو وتتجدد بفضل فعاليات جديدة داخل الفكر فانه يخشى ان تتغير وتتحول بواسطة العمليات نفسها .

ان الفكر البشري يمكنه ان يدمر ما ابدعه . والاهمال وتراجع الاهتمام يعملان بفاعلية بقدر ما تعمل الهجمات المادية . ان في هذا درساً يجب ان يتمثله بسرعة عالمنا الموجه نحو الآلة ان كان يحرص على صيانة ونمو ابتكاراته الخاصة الناجحة .

ولكي اصف بايجاز الدور الفعال الذي قام به الانسان في تطوره

التقني – خلافا للرأي القائل بانه الضحية المنكودة للقوى الخارجية والمؤسسات الخارجية التي له عليها سلطان قليل أو ليس له من سلطان – انوي ان اتتبع التفاعل المتبادل لحياة الانسان الذاتية والموضوعية في حركتين متكاملتين : التحول الى مادة أو الى أثير .

وبطريقة متناقضة فان عملية التحول الى مادة تبدأ داخل الفكر بينما تسير عملية التحول الى أثير من العالم المرئي والخارجي الى الشخص الداخلي وتتكون أخيراً في الفكر كرؤيا للعالم متماسكة الى حد ما . بفضل الكلمات والرموز الاخرى .

يجب الا يخلط ، بسبب التشابه اللفظي ، ما بين البيان التالي لأنماط التطور الانساني وبين المثالية الهيجلية والمادية الماركسية ، على الرغم من ان في هاتين الفلسفتين جزءاً قليلا من الحقيقة المجردة لاعترافهما بالتطورات الديناميكية والمتناقضة ، هذه الحقيقه التي احاول ان اوفق مابينها وبين الحقائق التاريخية المحسوسة . يجب ان يعتبر المفهوم العضوي للتحول الثقافي والشخصي الوجهين الداخلي والخارجي متعاصرين لا متنافيين .

لقد اقترب اميرسون في (بحثه عن الحرب) من التعبير عن رأيي عندما أعلن : « لاحظوا كيف تتلبس كل حقيقة وكل خطيئة بما ان كلامنهما فكرة في عقل انسان ما شكل مجتمعات وبيوت ومدن ولغة واحتفالات وصحف . » انني اشكر اميرسون لأنه ادرك خلافا لهيجل وماركس على السواء ان الخط وكذلك الحقيقة . ان الشر كالخير يمكن ان يكون لهما دور لأن « الشر سيبارك والجليد سيحرق » كما ذكر في « اوربيل » .

يمر التحول الى أثير كما يمر التحول الى مادة بسلسلة من المراحل المتمايزة ولكن غير المتتابعة دائماً . واذا حدثت في وقت واحد فهي تذهب في اتجاهات متعارضة غير انها تتبع المسيرة نفسها دائماً ويكون لها الأثر نفسه في مختلف ميادين الحضارة الواحدة . واذا كان التحول الى أثير يبدأ في الأصل من الانطباع المباشر الذي يحدثه القطن وساكنوه في الفكر الانساني فان التحول الى مادة يبدأ بالحري في الفكر الانساني نفسه : في مرحلة سابقة للتجريد والترميز : مرحلة الأحلام والنشاطات السابقة للشعور وبوجه خاص تلك المرتبطة بالجنس والجوع والخوف، التي ينشأ محرضها خصوصاً من الداخل عبر الهرمونات والغدد الصماء .

ان الوهلة الأولى من التحول الى مادة يتولد من الفعاليات العصبية التي لا يمكن بعد ان تلصق بها لفظ (فكر) : وما يظهر فيما بعد « كفكرة » يمكن على وجه اصح ان يسمى « رؤيا » وهو أكثر بعداً عن المحسوس من الشبح التقليدي . وهذه « الرؤيا » هي بوجه التحديد تجربة شخصية تماماً . بدون شكل ولا كلام غير قابلة للنقل ولذا فادراكها اصعب حتى من الحلم الليلي . ومن الثابت تماماً ان عملية حدسية الى هذا الحد لا يمكن ان تكون موضوع استقصاء علمي : فوجودها لا يمكن استنتاجه بواسطة حل الرموز العكسي لتطوراتها اللاحقة .

ان تيار التحريض المستمر الآتي من أعضاء الجسد الداخلية بما فيها الدماغ نفسه والذي يبدي نشاطا حتى أثناء النوم يجب ان يعتبر كنقطة الانطلاق لكل حياة عقلية مقعدة ومنظمة .

وقد كان من المحتمل ان يبقى وجود هذه النشاطات الذاتية غير المتشكلة موضع ريبة لولا انها تنزع ان أوليناها اهتمامنا ، وخصوصا ان تكررت كثيراً ، الى ان تتلبس سمة مستقرة .

وهكذا فإن فكرة الشجاعة الوليدة يمكن ان تتخذ صورة الأسد الكثيرة التردد في الذاكرة قبل ان تمكن تسميتها فكرة . ان الانتقال مما هو داخلي لا شعوري وشخصي الى عالم عام يمكن ان يشارك فيه اناس آخرون يشكل المرحلة التالية في التحول الى مادة .

وفي هذه النقطة فان الفكرة الوليدة قبل ان تستطيع العثور على كلمات لتفصح عن نفسها تفعل ذلك اولاً بلغة الجسد . وبواسطة هذه الطريقة فان بعض الأفكار المكونة التي يمكن ان تسود في النهاية مجتمعا بكامله تستأثر بشخص حي ثم تصبح على مر الزمن بادية لا ناس اخرين . الأفكار – القوى ذلك هو تعبير الفريد فوييه الموفق للدلالة على مثل هذه الأفكار الديناميكية والمكونة .

ان معظم « الأفكار » السباعية تموت عند الولادة : انها لا تتجاوز مرحلة الظهور . حتى الفكرة الصالحة للحياة بالقدر الكافي والمحظوظة لا بد لكي تبقى من ان تمر بفترة حضانة طويلة وباختبار تجريبي قبل ان تصبح واضحة وضوحا كافيا كفكر لتستقر كحبة ذرتها الريح في قطن ملائم لنموها .

يجب ان يكون هذا القطن انساناحيا على الرغم من ان هذا الانسان لا يكون دائما المسبب والمكون الوحيد . انها وهلة « التجسد » .

ان الفكرة ، حتى قبل ان يمكن نقلها الى اللغة ، تصبح ، اذا جاز استعمال الوصف الكلاسيكي للعهد الجديد ، متجسدة في الجسد وتدل على نفسها بتغييرات جسدية ملائمة . لا تتوهموا بان وهلات الحلس

وتكوين الأفكار الأولية هي صوفية من أية ناحية من نواحيها : انها مصادر عامة للتجربة اليومية . ولا تتصوروا أيضا ان مفهوم التجسد يرجع بالضرورة الى التجلي اللاهوتي الخاص الذي أخذنا عنه اللفظة. لقد أوضحت في المجلد الأول من « اسطورة الآلة » كيف ولدت فكرة « الملكية » على شكل صور متسامية من القوة والسلطان تأتت من دمج التجربة التسلطية لزعيم صيد قوي بعبادة الاله الشمسي . اتوم – رع أو مع اله الزوابع الذي لا يقل عنه قوة في سومر وأكاد حيث كان يتمتع بالصدارة .

ولكننا لسنا بحاجة للتفتيش في العراق ومصر وفلسطين القديمة عن أمثلة عن التجسيد . ان الرغبة العارمة في ثقافة مضادة بدائية تتحدى الأشكال الصارمة التنظيم والمجردة من الشخصية في الحضارة الغربية قد بدأت تطفو في الفكر الغربي في تعابير فئة من الرومانطيقيه داخل الطبقات المثقفة . لقد اتخذت هذه الرغبة في الرجوع الى حالة أكثر بدائية شكلاً شعبيا منذ أكثر من نصف قرن في ايقاعات الجاز الابتدائية على الرغم من انها أقل ترابطاً منها .

والذي فجر فجأة هذه الفكرة من جديد في المجتمع الغربي بقوة بركانية تقريباً إنما كان تجسدها في « البيتلز » . ولم يكن نجاح تسجيلات البيتلز الموسيقية وحده هوالذي دل على ان تحولاً عميقا في سبيله الى ان يحدث في عقلية الشباب : بل شخصيتهم الجديدة كما كانت تفصح عن ذاتها في شعرهم الطويل النيو - وسيطي وفي حساسيتهم الراسخة وفي موقفهم اللا مبالي وفي عفويتهم الحالمة التي فتحت للجيل بعد النووي

امكانية الهروب السريع خارج المجتمع التقني العملاق . ففي شخص البيتلز تحررت كل كبوتات الشبان وكل غيظهم من هذه الكبوت : لقد توضحت وانجلت في الوقت نفسه بواسطة ترتيب الشعر واللباس والطقس والأغاني وكلها تغييرات تابعة لخيار شخصي محض ، الأفكار المعارضة الجديدة التي تصل ما بين الجيل الشاب . وقد انتشرت اندفاعات لا يزال الاحساس بها اضعف من ان يعبر عنه بكلمات ، انتشرت كرشقة من البارود بفضل التجسيد والمحاكاة .

ان انتشار جيل جديد بين شخصيات ماثلة للعيان يميز (في الغالب ظهور عهد حضاري جديد . لقد قام العديد من الهداة وأرباب الفضيلة الزائفين والأصيلين سواء قبل ولادة المسيح أو بعدها .

ولكن لاحظوا بان الشخصية المتجسدة مجدداً سواء أكانت بوذية أو ديونيسية من ليفربول لا تستطيع ان تؤمن البقاء وحدها بالتأمل النرجسي لصورتها الذاتية . وعلى غرار المحول البيولوجي المنعزل فانه سيقضى على الفكرة ان لم تكن هنالك اندفاعات مشابهة في سبيلها الى ان تبدأ تشكلها الجسدي في الآف من الأشخاص الآخرين : ولا تترسخ الفكرة المكونة بالفعل إلا بفضل هذا الاستعداد العام،تترسخ بالاتصال والتباري المباشرين ضمن فريق من التلاميذ والأنصار كاف قبل ان يصبح من الممكن فهم الفكرة نفسها بصورتها اللفظية الخالصة .

لقد نصب ويتمان نفسه ترجمانا عن كل المشتركين بهذه العملية عندما أعلن : « انني وجماعتي لا تقنع بالحجج بل تقنع بحضورنا . »

وبطريقة نموذجية : فان الناس إنما يعرفون المذهب بمعاناتهم الحياة . والفكرة عندما تأخذ أولا شكلاً جسدياً تبدأ بالانتشار عبر كل الجماعة بالمحاكاة الجسدية قبل ان يمكن تحديدها بشكل مجد أكثر بكلمات منطوقة وبصيغ ذهنية .

إنما تم ردم الهوة بين « التجليات والحدوس » الأصلية وحقائق الحياة الاجتماعية التي يشارك فيها اناس آخرون بفضل نضج الأفكار من خلال التجربة اليومية . هذا النوع من الصياغة والتكوين الفكري والأعداد يمكن ان يشبه بتعاليم كبار المعلمين الشفهية بترسيخ كلماتهم في الذاكرة بواسطة التلاميذ كما جرى في مختارات من كونفوشيوس ومحاورات افلاطون والاناجيل المسيحية واثباتها أخيراً في كتب . وفي هذه النقطة ، تصبح حدوس التجسد الوحيدة مدعمة بكثير من الأفكار الاخرى التي هي جزء من تقليد مستقر أو حتى من نظام تربية أو التي لا تزال غير ثابتة . وعلى غرار التجسد فان الأفكار المكونة يجب ، لكي تبقى حية ، ان تراجع من جيل الى جيل وتوضع من جديد على المحك بواسطة تجربة جديدة .

والمرحلة التالية نحو انتشار أوسع للفكرة في المجتمع يمكن ان تسمى « الضم » .

وأخيراً يدعم الاندفاع المكون الأصلي بجهد عقلاني واع عبر الجماعة كلها يتجلى في عادات الحياة العائلية واعراف القرية وأنساق المدينة وممارسات الورشة وطقوس المعبد والأصول الشرعية في المحكمة .

وبدون هذا التبني والتغيير الاجتماعي العام قد تفقد الفكرة المكونة ،

حتّى اذا كانت متجسدة على نطاق واسع ، سلطانها وفاعليتها ، ومن المؤكد ان ضعف المسيحية في مذ مبادئها الأخلاقيه الى الحكومة المنظمة وامتناعها عن مقاومة الرق والحرب والاستغلال الطبقي هما المسؤولان ، رغم الطاقات الهائلة التي حررتها في ميادين اخرى ، عن فقدان اندفاعتها وتآكلها الداخلي وفشلها في تحقيق المجتمع الاخوي الشامل الذي نادت به .

لقد اعترف كارل ماركس بحق بالدور الفعال الذي يلعبه تنظيم مواد الانتاج (التكنولوجيا) في صنع الشخص الانساني . ولكنه ارتكب خطأ خطيراً باعتباره التنظيم الاقتصادي عاملا مستقلا يتطور بذاته ويستعصي على أي تدخل انساني ناشط ؟ بينما ان هذا الشكل من التفكير المادي ليس إلا واحدة من الطرق العديدة التي تصبح أفكارها المخمرة للحضارة مقبولة ومنظمة وموضوعة موضع التطبيق اليومي والعام . ومن هذه الناحية فمن المحتمل ان يكون أوج المنجزات الاجتماعية المسيحية قد تم متأخراً نسبياً في العصر الوسيط عندما أصبحت اديرتها وملاجئها ومياتمها ومشافيها تشاهد في كل المدن على نطاق غير معروف حتّى ذلك الحين .

وبالاتساع المؤسسي تكف الاندفاعات الذاتية عن ان تكون شخصية وطوعية ومتناقضة وغير مجدية وتصبح بذلك قادرة على ان تحدث تغييرات اجتماعية واسعة . هذا التحول يحرر في الوقت نفسه طاقات جديدة ويخشى ، اذا فشل في ان يتخذ شكلا جماعيا ، من ان يكشف عن نقائص غير متوقعة. فالامومة في عهدها والملكية في العهد الآخر والفداء والخلاص الالهيان في العهد الثالث يجب ان تندمج في كل المؤسسات وان تؤثر بكل الأعمال الجماعية اذا أريد للأفكار المكونة المستبطنة في حضارة

ما ان تزدهر بما فيه الكفاية وان تحافظ على أوضاعها ضد كتلة الرواسب وضد تأصل البقايا المادية التي لا تزال متينة وقوية في الغالب . وبالنظر الى ان للمؤسسات القائمة ماضياً سابقا للفكرة الجديدة ومتضمنا قيما وأهدافاً من طبيعة مختلفة فان كثيراً من التغييرات الاخرى ستتم في هذه الوهلة الثالثة جالبة معها عناصر كانت تنقص المشروعات الأصلية . وعلى كل وفي الوقت نفسه فان موالاة ومساندة عدد أوسع من السكان لا يمكن ان تؤمن بواسطة فعل الضم أو الدمج هذا .

وفي هذه النقطة من الضم يفقد الشكل الحضاري الجديد ، ان للأفضل أو للأسوأ ، جزءاً من وضوحه الأول . والذين اذعنوا لسحر الرؤيا الجديدة أو الذين حاولوا ان يلبسوا سريعا قناع شخصية جديدة يتراجعون في الغالب أمام القبول بهذا الطراز اللاحق من التجسيم : ويبدو ذلك ، في أفضل الحالات . تسوية وفي اسوئها خيانة كاملة . من المؤكد ان الفكرة عندما تندمج في مؤسسات قائمة تفقد جزءاً من صفاتها الأصلي ان لم تتحول بالحقيقة الى نقيضها عبر فعل التجسيم نفسه .

وهكذا فعندما اعتنقت الدولة الرومانية المسيحية في عهد قسطنطين لوحظ أيضاً ان المسيحية قد اعتنقت الى حد ما الوثنية وانها لم تتسامح فقط ازاء الكثير من الممارسات الرومانية بل ذهبت الى حد نقل طقوس حلبة الصراع الرومانية السادية الى التصور المسيحي لجهنم على انها شرعة سميا للعدالة الآلهية جاعلة من مشهد التعذيب الأبدي للخطاة الهالكين أحد أعظم متع الأبرار في الفردوس .

والتجسيم النهائي للفكرة المكونة انطلاقاً من بدايتها السابقة للشعور في عقول فردية عديدة حتى الوصول الى حالة ظاهرة تماماً ومجمعنة

يشترك فيها كل الناس يقوم على تغيير البيئة المادية سواء بوسائل عملية أو بتعبيرات رمزية . ويمكن ان تسمى هذه الوهلة « التشخيص » . توضع عقدة الرواية أولا ثم ينتخب الممثلون ، وبعد ذلك يخضع الممثلون للتمويه ويلبسون ثيابهم ؟ وحينئذ يكون السيناريو قد تم وضعه والعقدة قد توسعت ، وتقام اخيراً بنى مادية جديدة للتعبير عن الفكرة ودعمها .

ومع ذلك فان امكانات جديدة لم تكن إلا في حالة كمون في التصور الأصلي تتكشف في هذه البنى المادية المعاد تشييدها — انها غير قابلة أبداً للترجمة الى رموز لفظية أو مرسومة أو موسيقيه صياغتها أسهل .

هل كان يمكن ليسوع المسيح وهو أكثر الشخصيات عفوية وأقلها تعلقا بالرسميات ان يحزر بان التعبير الأسمى عن المسيحية سيتحقق في تنظيم تراتبي مقعد يعمل بطريقة واحدة عبر القارة الأوربية بكاملها وان ذروة هذه الحركة العالمية سيكون الانتشار الواسع لقيام كاتدرائيات وكنائس وأديرة لا مكان لجرأتها التقنية وحيويتها الجمالية في حدوس يسوع ؟ يا للمفارقة ! فبدون الفكرة المسيحية لما كان مع ذلك دورهام ولا شارتر ولا بامبرغ ولا التفتيش المقدس ! . أي كشف أفضل لطبيعة المستقبل التي لا تستشف يمكن ان يقترح ضد المنهج الحالي القائم على مد النزعات الماثلة القائمة ؟

وعلى الرغم من اني استخدمت حدثا خاصاً من احداث التاريخ الغربي هو صعود الكنيسة الكاثوليكية بوصفه مثالاً ملائما فان التطور الموجز هو تطور عام يمكن تطبيقه مع متغيرات عديدة على كل الحضارات وخصوصاً على اختصار اسطورة الآلة .

انني اغفلت ، وأنا اجمع وهلات التجسد على شكل مسلسل في الزمن ، الظواهر المتزامنة وعالجت الاحداث والمؤسسات والأشخاص والأفكار التي كانت بالفعل في سيال وتفاعل مستمرين خاضعة لتحولات داخلية وخارجية معا ، عالجتها وكأنها منفصلة ومتمايزة بشكل حاسم .

وهكذا فان تجسد يسوع لم يحدث مرة فقط ، فالفكرة المسيحية كانت بالواقع تحتاج لتبقى حية لتجسدات جديدة لاحقة تصحبها دائما تغييرات جديدة تجسدات في بولس واوغسطينوس وفرنسوا داسيز ونفوس مسيحية اخرى عديدة . وقد فقدت الرسالة الأصلية المنيرة في هذه التغييرات بدون شك جزءاً من قوتها لأن الأفكار التي تناسب حضارة في طريقها الى الغروب لم تكن مناسبة لبعث الحيوية في العهود اللاحقة . وعلى الرغم من ان تنظيم الكنيسة المؤسسي وغناها بالبنى المادية قد خنقا على السواء الشعلة الأصلية فان هذه الشعلة استمرت كامنة بطريقة عجيبة وسطعت من جديد في عهدنا المتأخر بشخص البابا يوحنا الثالث والعشرين .

ويبقى ان نلاحظ وجها أخيراً من التجسيم : المفارقة . وهو ان التعبيرات الذاتية تبقى حية في الفكر زمناً أطول بكثير من التنظيمات الجماعية والأبنية المادية التي تبدو للعين الخارجية قوية جداً وصامدة جداً . حتى عندما تنحل احدى الحضارات فان الخسارة لا تكون أبداً كاملة تماماً أو نهائية .

يبقى الكثير من الانجاز الاجمالي ويترك طابعه على العقول التي تأتي بعد ذلك على شكل رياضة أو لعب أو لغة أو فن أو اعراف . وعلى الرغم

من ان قلة من الغربيين رأوا معبداً هندوسياً فان الجذر السنسكريتي لتسمية الاب والأم يستمر صامداً أكثر من أي صرح عندما يخاطبون الوالدين ؛ وتشكل هذه البقايا الرمزية للحضارات الماضية بالنسبة للفكر سماداً غنياً تصبح بدونه البيئة الحضارية عقيمة كبيئة القمر . لقد برهن اندره فارانياك ان حضارة ضاربة في القدم انتقلت بالمشافهة ، قسم كبير منها من العصر الحجري الأخير ومن المحتمل ان يكون من العصر الذي سبقه في الأصل ، قد نقلت معتقداتها السحرية وعاداتها الجنسية وطقوس الزواج فيها وفولكلورها وقصص الجنيات الى الأجيال التالية في العالم كله .

ولا تزال هذه الحضارة المغرقة في القدم تشكل الطبقة التحتية المستبطنة للمجتمع المعاصر . ان ألعاب الكرة التي تقام في كل مكان هي من بقايا المعابد التي كانت الكرة فيها تمثل الشمس واللاعبون المتجابهون يمثلون صور النور والظلمات . وان عودة التنجيم والسحر المعروفة اليوم ليست لااحدث مثال عن هذا الاستمرار الذاتي . حتى عندما تختفي كل القطع المادية الضرورية للدراما المهترئة فلا ينفي ذلك استمرار أثر ما من المسرحية نفسها في الأمثال المأثورة والقصائد الاسطورية والجمل الموسيقية والألحان التي يتردد صداها من جيل الى جيل : وهي تصمد على شكل كلمة منطوقة أكثر مما لو حفرت على الحجر . واذا كانت اهرامات مصر الكبرى تبدو استثناء فيجب ان نذكر انها برغم كل متانتها كانت رموزا لجيل الخلق ، للتطلع الى الخلود للرغبة في تجاوز الزمن والفساد العضوي .

لقد اخترت تسمية « التأثير » للعملية المضادة للتجسيم ؟ ولكن .

كان ارنولد توينبي قد استعمل هذا اللفظ الأخير بمعنى أكثر محدودية فقد يتوجب علي ان أوضح بعض الاختلاف . لقد اشار توينبي في « دراسة التاريخ » الى نزعة في التطور البيولوجي والاجتماعي على السواء الى مضاءلة الحجم والتبسيط المتزايد تصحب درجة ارفع من التنظيم الداخلي ومن الرهافة . والشاهد الانتقال خلال التطور من الزواحف العملاقة ذات الرؤوس الجوفاء الى الثدييات الصغيرة ذات الدماغ أو من ساعات الكاتدرائية المربكة في القرن الخامس عشر الى ساعات القرن العشرين المكثفة والدقيقة . وهذا التعميم صالح اجمالاً ؛ وعلى كل فان توينبي يغفل العملية المضادة التي وصفتها والتي لا تقل عنها دلالة ، هي تسير بالاتجاه المعاكس . انني أفضل بالنسبة لجزء العملية الذي اشار اليه توينبي ان استعمل كلمة (ازالة التجسيم) .

ان العالم المرئي والملموس يترجم تدريجيا ، وفقا لنمط التأثير ، الى رموز ويعاد تنظيمه في الفكر . لقد حاولت في « التكنولوجيا والتطور الانساني ان ارسم الخطوط العريضه للتاريخ الطبيعي لهذه العملية ؛ ولذا انوي هنا ان اصف فقط الطريقة التي تتجرد بها من تجسدها حضارة كانت فيما مضى مكتملة التجسد وتفتح بذلك الطريق الى منظومة جديدة من الأفكار المكونة التي تولدت هي نفسها جزئيا من رد الفعل ضد الحضارة السائدة إلا انها مع ذلك مكيفة باستمرار حتى ان الاعراف والمؤسسات نفسها التي تحاول ابدالها تساندها موقتاً .

عندما يستنفد استكشاف الفكرة المنظمة لاحدى الحضارات وتمثل مسرحيتها حتى نهايتها ويكون كل ما تبقى من الاندفاع المبدع ليس إلا طقساً وتدريباً الزامياً قاتلين للنفس تكون الساعة قد دقت لقيام فكرة

مكونة جديدة . غير ان معسكر المؤسسات المتحصن كله يشكل سوراً متينا ضد مثل هذا التغيير » .

وهل المؤسسة في الواقع سوى مجتمع مغلق معد لاتقاء التغيير ؟ ويستخلص من ذلك ان طريق « التأثير » ؛ البعيد جداً عن ان يبدأ بفكرة جديدة ، يستهل عمله بالضبط في الطرف المقابل بمهاجمة البنى والتنظيمات المرئيه التي لا تفسح أي مجال لتأصل فكرة جديدة ما دامت منتظمة السير

ان طريق « التأثير اذن يفتحه في الغالب عطل يحرض على هذه المهاجمة . والمقصود أولا وبشكل خاص عطل مادي يكشف العجز والنقص الانساني في مجتمع زاهر ظاهراً ؛ الحروب ، الافتقار والتدمير الماديان اللذان تولدهما الحروب كما تخلف في الوقت نفسه نضوب الحياة . الأمراض والأوبئة وتردي البيئة وتآكل التربة والتلوث ونقص الغلال وانفجارات العنفالاجرامي والعدوانية النفاسية ؛ هذه هي اعراض مثل هذا الانحلال التي تحدث اوسع الانهيارات الاجتماعية ؛ لأن الشعب المصاب اذ يشعر بانه مخدوع مضطهد يرفض ان يؤدي واجباته القديمة أو ان يبذل الجهود والتضحيات اليومية الضرورية دائما للحفاظ على آلية المجتمع في حالة دوران .

ويتكشف ان ما سبب هذه الأعطال بوجه عام متأت من ثغرة جذرية في التغذية الارتجاعية : عجز في الكشف عن الأخطاء ، عدم الاستعداد لتصحيحها ، مقاومةادخال أفكار وطرق جديدة قد توفر وسائل تغيير انساني بناء . واذا اتفق ان اكتشفت فمن الممكن ان صحح العديد من الشوائب التي تؤول الى افساد المجتمع شريطة ان تتخذ تدابير

سريعة بالاستعانة بالوسائل المتاحة ؛ والا فستحدث حالة مرضية أقسى تتطلب قبل النظام الجراحة .

ولهذه الأسباب فان أول بوادر « التأثير » ، مع انها تتولد من زوال الوهم والسحر الذاتيين ، لا تحدث على مستوى الأفكار : انها تبدأ بالحري بمهاجمة الصروح المرئيه بواسطة أفعال الكفر بعبادة الايقونات وبواسطة التدمير . ويتخذ ذلك بعض الأحيان شكل هجوم مادي منظم ؛ كما يتبدى بعض الأحيان ، كما حدث في نبذ المسيحيين للصروح والانصاب الرومانية الكبرى ، وهجر البنى القديمة كما هجر المسيحيون حلبات الصراع والحمامات العامة واقاموا في صروح اخرى ومواقع اخرى . ومن المسلم به ان التعرف الى الأشكال المرئيه في مجتمع ما وتخريبها أسهل من التعرف الى الأفكار والمذاهب المستبطنه التي يمكن ان تبقى في الأذهان بالطريقه التي حافظ فيها اليهود سراً على طقوسهم القديمة حتى في اسبانيا الكاثوليكية . غير ان احراق الكتب وتهديم الصروح السلمية ينسفان الثقة بالاستمرارية . تذكروا الباستيل ؛ .

ومع ان التجسيم هو بالضرورة عملية بطيئة فان « ازالة التجسيم » تسير بسرعة : حتى انقطاع العمل في البنى الجديدة أو اعادة بنائها وفق طراز جديد ، بالطريقه التي حلت فيها الأبنية الغوطية الجرئية محل الأشكال الرومانية الثقيلة ، يشكل عملا ينطق ، كما جاء في المثل ، بصوت أعلى بكثير من الكلمات .

عندما اندفعوا في التهديم الى بعد كاف أصبحت الطريق مفتوحة أمام قوى « التأثير » الأيجابية ، لأ ن الساحة اخليت بما فيه الكفاية . وقد بدأ اثاث المجتمع وفرشه يظهران ، رغم كل جدتهما المتألقة ، باطلين ؛

كما اخذت المساكن التي كانت فيما مضى مخصصة للنخبةتعرض، بالسخرية القدر ! على مستأجرين جدد يشيدون في أماكن اخرى مساكن مختلفة أو يستولون على بنى اقدم أيضا ويحولونها وفق اهدافهم الجديدة بالطريقة التي حولت فيها مساكن الارستقراطية في لندن وباريس وروما الى مكاتب عمل وفنادق ومحلات مخصصة للبيروقراطية العليا .

لا حاجة بنا لتقديم أمثلة اخرى تاريخيه خاصة « بالتأثير » . ان عمليات الدمج والانحلال تجريان من جديد جنبا الى جنب ، كما يجري التأثير على الأجسام ، ليس بدون ان تتأثر الواحدة منهما بالاخرى . ويكفي لتتبع سير « التأثير ان نقرأ عكسياً التحليل المتسلسل للتجسيم بدءاً من التدمير والهدم وانتهاء بالعودة الى المرحلة الأولية التي يصبح فيها التغيير في طبيعة وطراز الحياة ظاهراً لنبلغ النقطة التي تبرز فيها من جديد فكرة مكونة . والواقع انه عندما تقطع مرحلة « التأثير » السلبية بعداً كافيا تستولي على الحضارة بكاملها منظومة جديدة من الأفكار وصورة للعالم جديدة ورؤية جديدة للامكانات الانسانية ويحتل وسط المسرح توزيع مختلف للممثلين وتمثل دراما جديدة .

واذا ، على العكس ، سارت عمليات زوال الوهم والاستلاب والتهديم والتدمير الى الأمام أكثر واذا لم يباشر العمل أي نمط « تأثير » معوض فيبدو من المحتمل ان يتتابع الانحلال بسرعة متزايدة حتى يصبح أي تدبير للتعافي غير ممكن . وفي هذه الحال تتغلب قوى ضد ـ الحياة ويكون الممثلون ، الذين يحتلون وسط المسرح ويباهون بأنهم يمثلون المسرح الحي ، تجسيدات للخرق والسادية والقسوة والذهانية مهمتها موافقة سفاهتها الخاصة على ازالة الانسانية التي حققها مجمع القوة .

لقد أصبح هنالك لحسن الحظ كثير من المؤشرات التي تدل ؛ على الرغم من انها متفرقة وضعيفه ومتناقضة في الغالب ، على ان تحولاً حضارياً جديداً هو في طريقه نحو التشكل : انه تحول يسلم بان اقتصاد المال قد افلس وان مجمع القوة قد أصبح عاجزاً بسبب افراطه ومبالغاته نفسها . أما ان يكون هذا التغيير قد أصبح كافيا ليضع حداً للانحلال الأوسع ، أو أكثر من ذلك ان يكون قادراً على ان ينجح في تهديم الآلة النووية العملاقة قبل ان تسبب كارثة انسانية شاملة فهذا ن سؤالان يخشى ان يبقيا زمنا طويلاً موضع ريبة . اذا توصلت البشرية الى التغلب على اسطورة الآلة فهنالك شيء يمكن التنبؤ به بامان : ستصبح مكونات حضارتنا المحتبسة العناصر المهيمنة في الحضارة الجديدة وكذلك فان المؤسسات والبنى الحالية التقنية العملاقة سترد الى قياسات انسانية وتعاد تحت سلطان المراقبة الانسانية المباشرة . واذا تكشفت صحة هذا الأمر فانه لا بد للوحة الحاضرة للمجتمع القائم ، ضلالاته التكنولوجية والانحرافات في السلوك الانساني ، من ان توفر عن طريق المناقضة توجيهات ايجابية ملائمة لاقامة اقتصاد حيوي .

واذا كان هذا الرسم البدائي للتجسيم و « التأثير » صحيحاً فيجب أيضاً ان يطبق مؤكداً على الأفكار المكونة في العلم والتكنولوجيا وكذلك على ترجمتها التالية في مجمع القوة الحالي .

ان مالم يكن سوى حدوس عابرة في فكر معاصري روجيه بيكون في القرن الثالث عشر عن الاختراعات الميكانيكيه الجديدة قد أصبح مجموعة محددة تماماً من الأفكار في أعمال منظومة من مفكري القرن

السابع عشر من كامبانيلا وفرنسيس بيكون الى جيلبرت وغاليليو وديكارت .

ففي شكل اسحق نيوتن النموذجي الأول الذي كانت لغته الرياضية جديدة وصعبة الى درجة انه لم يكن يفهمها إلا المؤهلون ، ظهرت صورة العالم الميكانيكيه الجديدة بشكلها الاوضح والاجد . وقد تقلصت وتضاءلت على هذا الأساس الايديولوجي الجديد اغنى تكنولوجيا متعددة الجوانب في العصر الوسيط ، تلك التكنولوجيا التي كانت تحفظ دائما مكاناً للتعبيرات الذاتيه . لقد كانت أحلام كبلر والأسقف ويلكنز وجون غلانفيل التي كانت تستبعد هذا العامل الانساني ، اسقاطات مبكرة لاستيلاء الانسان على الزمان والمكان .

واذا كان « التجسيد» لم يقم الا بدور صغير في تغيير العلم ، والتكنولوجيا فربما كان ذلك لان فكرة الشخصية نفسها كانت مستبعدة في المسوخ الآلية التي استخدمت كنماذج لرؤية العالم الجديدة . وكانت الشخصية الانسانية في مملكة الميكانيك هذه مربكة لفكرة « الموضوعية » الجديدة : وكان الغاء هذا العامل الانساني « اللا عقلاني » الهدف المشترك للعلم النظري والتكنولوجيا المتقدمة .

وتعويضا عن ذلك انتقلت التكنولوجيا بسرعة الى مراحل « التجسيم » اللاحقة : بالعديد من المخترعات وأنماط التنظيم الجديدة وأصبحت الأفكار المكونة الجديدة لنظام القوة بادية وناشطة . ودخل انطلاقا من القرن الثامن عشر ، المثل الأعلى للانتظام الميكانيكي والكمال الميكانيكي. كل الفعاليات الانسانية من مراقبة السموات الى اعادة تركيب الساعات

ومن تنظيم الجنود في صفوف الى تنظيم بذور الحقول في صفوف .أيضا ومن المحاسبة التجارية الى وضع نسق الدراسة في المدارس .

لقد ثبتت هذه العادات في كل الميادين المرابح الكمية الماثلة في الانتاجية شرط ان تعتبر النتائج النوعية من تحصيل الحاصل . لقد بلغت صورة العالم الميكانيكيه أخيراً في عصرنا حالة الاندماج الكامل في عدد وافر من الآلات والمختبرات والمصانع والأبنية البيروقراطية وقواعد الصواريخ والملاجىء السراديب ومراكز المراقبة. ولكننا اليوم وقد تم دمج الفكرة فانه يمكننا ان نكشف انها لم تترك أي مكان للانسان انه رد الى مرتبة جهاز ضبط موحد : الى عنصر مرفوض مصدره عالم عضوي أكثر .

واذا كان كتابا (التكنولوجيا والحضارة) و (اسطورة الآلة) لا يمكن ان يدعيا بأقل قدر من الأصالة في أي ميدان اخر فانهما على الأقل قد عارضا بشكل جذري ان لم نقل نجحا في نسف الفكرة القائلة ان مجمع القوة قد تطور بذاته بفضل قوى خارجية لم يكن للانسان عليها أي سلطان ولم تكن حياته الذاتيه تستطيع التأثير عليها .

اذا كانت الآلات وحدها تكفي لانتاج الات واذا كانت المنظومات التكنولوجية تتكاثر بطريقة اوتوتيكية بسبب القوة الملازمة لها طبيعيا شبيهة بذلك بالقوى التي تفسر نمو وتطور الأجسام الحية فان المنظور الذي تقدمه للانسانية في المستقبل القريب سيكون قاتما أكثر من المنظور الموصوف سواء في رسالة صموئيل بتلر التي ذكرناها أو في احدث تحليل لهنري ادامز . واذا كان نظام القوة نفسه في الأصل من انتاج الفكر الانساني – (لان لتجسيم الأفكار جذوراً عضوية وانسانية) –

فسينطوي المستقبل حينئذ على كثير من الامكانات المفتوحة بعضها موجود خارج متناول مؤسساتنا القائمة تماما . واذا كانت الأوامر التكنوقراطيه الراثجه الهادفة الى ان يمتد نظام المراقبة الحالي الى كل العالم العضوي غير مقبولة بالنسبة لاناس رشيدين فلا داعي لقبولها . ليست المهمة الانسانية الملحة اليوم هي معاناة سوء تطبيقات اوسع لنظام القوة بل الافلات منها وتنمية ثرواتنا الذاتيه كما كان الأمر سابقا .

واذا بدا ان هذا مطلب متعذر تقريبا لان الفرص مواتية الى حد كبير لنظام القوة ولانها ضد الشخصية الانسانية فيكفي ان نتذكر الى أي حد بدا مثل هذا الانسحاب ومثل هذا الرفض ومثل هذا التحدي غير معقول لا ذكى الرومانيين قبل ان توفر المسيحية امكانية خيار اخر .

لقد بلغ نظام القوة الروماني الذي تدعمه وتوسعه كتلة تكنولوجيته والاته العسكرية اوج سلطانه وتأثيره في عهد أول امبراطور روماني أوغست (٦٣ قم — ١٤ بم) . من كان يحزر آنذاك ان شرعة ونظام السلام الروماني لم يكونا قائمين على قدر كاف من المتانة تجعلهما تقديريا حصينين ؟ وعلى الرغم من تحذيرات المؤرخ بوليب السابقة ، وهو هنري ادامز زمانه ، فان الرومانيين كانوا يتوقعون ان يدوم نمط حياتهم الى مالا نهاية . لقد كان اقتصادهم مدعما الى درجة ان الرومانيين المثقفين كانوا ينظرون بازدراء الى الأقلية المسيحية التافهة التي كانت تنسحب من هذا النظام عمدا وكانت ترفض خيراته وتحقر منجزاته الضخمة في بناء الطرق وتصريف المياه المستعملة تحقيرا لا يقل عن تكريسها للجشع والفجور .

أي روماني مثقف كان يمكن ان يتكهن في عهد مارك اوريل ان أحد

أوفع مفكريهم ثقافة المحاضر المشهور والملم بحضارة الماضي سيكتب بعد قرنين فقط « مدينة الله » ليعرض مظالم النظام الروماني كله ويهاجم بشدة حتى فضائله ؟ ومن كان يمكن ان يتكهن في أكثر تخيلاته جنونا ان أحد الاشراف المولود ليكون قنصلا رومانيا وهو أعلى منصب سياسي متاح هو بولان نورا سيعتكف بعد ذلك بقليل وهو في قمة عمله في دير اسباني بعيد لينمي ايمانه بالنظام الألهي والحياة الأبدية التي وعد بها يسوع ، وبناء على هذا الأيمان ينتهي الى ان يبيع نفسه كعبد ليكون فدية لاسر الولد الوحيد لأم ارمل ؟ ومع ذلك فان هذا التحول الايديولوجي الذي لا يمكن تصوره قد تم وهذه الأفعال التي لا يمكن تصورها قد حدثت فعلاً .

واذ كان مثل هذا الزهد ومثل هذا التخلي قد أمكن ان يبدأ في الامبراطورية الرومانية المتعجرفة فمن الممكن حدوثه في أي مكان حتى هنا والآن ، وبالمزيد من السهولة اليوم بعد ان حول أكثر من نصف قرن من الأزمات الاقتصادية والحروب العالمية والثورات وبرامج الابادة المنظمة أسس الحضارة الحديثه الأخلاقية الى اطلال وغبار . واذا كان نظام القوة نفسه لم يبد ابداً هائلا كما هو الآن اذ تتتابع مآثره التكنولوجيه الرائعة فان وجهه المعاكس السلبي المشوه للحياة لم يكن أبداً مهدداً الى هذا الحد ، والواقع ان العنف والأجرام بلا حدود على على طراز نماذج بنتاغون القوة المجردة من الانسانية قد غزت ما كان يشكل فيما مضى أضمن الفعاليات الانسانية وامنعها .

ليست القضية قضية نبوءة : بل المقصود وصف واقعي لما أصبح يحدث تحت أبصارنا حيث تحل المجابهات القاتلة ومبالغات الغضب

الطفولية محل المطالب المعقولة والجهود التعاونية . نعم ان البنية المادية لنظام القوة لم تكن أبداً مترابطة ترابطاً أوثق ، غير ان دعاماتها الانسانيه لم تكن ابداً أكثر هشاشة وأكثر تذبذباً أخلاقيا وأكثر تعرضا للعطب عند الهجوم.ولا بد من ان يتساءل الذين أصبحوا الآن متنبهين كم من الوقت يمكن ان تبقى مجمعة البنية المادية لتكنولوجيا متقدمة عندما تكون أسسها الانسانية في مرحلة الانهيار ؟ لقد حدث كل ذلك بشكل مفاجىء الى درجة ان كثيراً من الناس لم يشعروا بعد بواقعة ان ذلك قد حدث ؛ ومع ذلك فان الأرض نفسها قد انسحبت خلال الجيل الأخير من تحت حياتنا ؛ والمؤسسات الانسانية والقناعات الأخلاقية التي اقتضت الآف السنين لتبلغ ولو درجة دنيا من الفاعلية قد اختفت عن عيوننا بشكل كامل الى درجة ان الجيل المقبل لن يصدق إلا بعد لأي بانها كانت موجودة .

لنأخذ مثالاً مسرحياً عن هذا الانهيار . ماذا كان يقول كبار ولاة الامبراطورية البريطانية أمثال كيرزون وكرومر لو اعلموهم ان امبراطوريتهم ، رغم كل التقارير الاحصائية الموجودة في الادلة السنوية ، ستسقط مزقاً في أقل من جيل واحد — مع ان السير أدوارد لوتيين كان في هذه اللحظة بالذات منهمكا في رسم أبنية العاصمة الجديدة المهيبة في دلهي ورسم مقر واسع لنائب الملك كما لو كانت الامبراطورية ستبقى ملتئمة الشمل طوال قرون لا تحصى . ان كبلنغ وحده ، مع انه كان شاعر الامبريالية ، قد تنبأ بهذه الامكانية المهددة في « نشيده » .

هل كان بناة الامبراطورية هؤلاء يمكنهم ان يتنبؤا ، وهذا ما هو ثابت جدا الآن ، بان أبقى تأثير للامبريالية البريطانية بأكثر أشكالها

انسانية « رابطة الشعوب البريطانية » سيكون بمثابة فتح الطريق أمام استعمار مضاد وغزو مضاد لانكلترا من قبل شعوب كانت بالأمس من رعاياها ؟ ومع ذلك ، فقد حدث ذلك كله مع انقلابات .واذ لالات موازية كانت بادية في كل الأمكنة الاخرى وخصوصاً في الولايات المتحدة . اذا تم الاستيلاء على قلاع بنتاغون القوة الخارجية هذه فما هو الوقت اللازم حتى يستسلم المركز نفسه أو ينسف .

لقد ربحت الامبراطورية الرومانية الشرقية عقد ايجار لألف سنة من الحياة بتوصلها الى اتفاق مع المسيحية. واذا اراد نظام القوة ان يستمر في الوجود بصفة شريك فعال داخل مجموع عضوي أكثر مكرس لتجديد الحياة فلن يتحقق له ذلك إلا اذا خضع زعماؤه الديناميكيون وأوسع الجماعات التي يؤثرون فيها لتغيير عميق في القلب وفي الفكر في المثل الأعلى وفي الهدف بكبر التغيير الذي اوقف زمناً طويلاً انحدار الامبراطورية الشرقية القائمة في بيزنطه . غير اننا يجب ان نتذكر ان هذا الخلط المتبادل المؤسسات الرومانية والمسيحية قد تحقق على حساب الابداعية . ولذا فلدينا من الأسباب ما يدفعنا الى التفتيش عن حل أقوى لصالح الحياة قبل ان يواصل انحدار مجتمعنا سيره الى الأمام أكثر . وتتوقف امكانية رد فعل كهذا على عامل مجهول : الى أي حد تصلح الأفكار المكونة التي تلوح اليوم في الجو للحياة وما مدى استعداد معاصرينا للقيام بجهود وتضحيات أساسية لتجديد الانسانية ؟ ليس هنالك أي جواب تكنولوجي صرف .

هل بلغت الحضارة الغربية درجة « التأثير » التي يؤدي فيها التجرد والاعتكاف الى التئام صورة عضوية للعالم يكون للشخص الانساني

فيها بكل أبعاده الأولوية على حاجاته البيولوجية وضغوطه التكنولوجية ؟ لا سبيل الى ان يجد هذا السؤال جوابا إلا في العمل . لقد أبرزنا مؤشرات مثل هذا التغيير .

ووصف العدد الوافر من التغييرات الضرورية لتحويل مجمع القوة الى مجمع عضوي واقتصاد المال الى اقتصاد حياة يفوق قدرات أي مفكر منفرد ولو كان بأكثر الطرق ايجازاً : وكل محاولة وصف تفصيلي ستكون محاولة تخمينيه . وذلك لسببين : الجدة الحقيقية لا يمكن تشوفها إلا في الصفات المعروفة بشكل آخر في الحضارات السابقة . ولكن هنالك ما يضاف الى ذلك أيضا لأن تجسيم الايديولوجيا العضوية ، على الرغم من انه قد بدأ ، لا بد من ان يستغرق زمنا طويلا للحلول محل النظام القائم مثلما اقتضى الأمر بالنسبة لنظام القوة نفسه كي يقوم مقام اقتصاد العصر الوسيط الاقطاعي والبلدي والاكليركي . وتتبدى الادلة الأولى لمثل هذا التغيير على شكل تغيير داخلي : والتغييرات الداخلية تضرب في الغالب فجأة وتعمل بسرعة . ويستطيع كل منا ما دام فيه نفس يتراوح ، ان يقوم بدور ما التخلص من نظام القوة بفضل التأكيد على أولويته كشخص بأفعال انعزال عقلي أو مادي صامتة وبحركات غير نمطية وباستنكافات ، وتضييقات وتحريمات تنقذه من هيمنة بنتاغون القوة .

لقد أصبحت علامة مثل هذه الازالة للتجسيم ومثل هذا « التأثير » واضحة في مائة مكان مختلف أكثر بكثير مما ظننت ان من الضروري ان أعدد .

واذا كنت اجرؤ على التنبؤ بمستقبل واعد غير المستقبل الذي مدده التكنوقراطيون (نخبة القوة) بتفاؤل فذلك لاني لاحظت بالتجربة الشخصية بان الانفصال عن النظام والاستخدام الاصطفائي لمرفهاته أسهل بكثير مما يريد دعاة مجتمع الغزارة ان يدخلوه في روح رعاياهم الطيعين .

وعلى الرغم من ان أي هروب خارج نظام القوة القائم غير ممكن وخصوصا بواسطة العنف الجماعي فان التغييرات التي ستعيد الاستقلال الذاتي والمبادأة الى الشخص الانساني هي كلها من نطاق كل نفس فردية عندما تستقر . لا شيء يمكن ان يكون أشد اضراراً باسطورة الآلة وكذلك بالنظام الاجتماعي المجرد من الانسانية الذي انجبته إلا تراجع الاهتمام وتباطؤ الوتيرة ووقف الانسان الخالية من المعنى والأعمال العمياء .

الم يبدأ بالفعل حدوث كل ذلك ؟

عندما تحين لحظة ابدال القوة بالكمال والطقرس الخارجية الاندفاعية بنظام داخلي يفرض ذاتيا والتجريد من الشخصية بالتمايز الفردي والأتمتة بالاستقلال سنكتشف ان التغيير الضروري في الموقف والهدف قد تتابع تحت السطح خلال القرن الأخير وان البذور الدفينة منذ وقت طويل بذور حضارة انسانية اغنى قد أصبحت الآن جاهزة لان تنبت وتنمو حالما ينكسر الجليد وتصل الشمس اليها . ويأخذ هذا النمو بحرية من السماد العضوي المتأتي من عدد من الحضارات السابقة ليزدهر . وعندما سيصبح مجمع القوة نفسه اثيرياً بدرجة كافية تعود أفكاره المكونة العامة

فتصبح مفيدة بنقلها قوته الذهنيه وانضباطه اللذين كانا يطبقان فيما مضى على معالجة الأشياء الى معالجة واغناء كل حياة الانسان الذاتية .

طالما توالى ازدهار حياة الانسان فلن يكون هنالك حد لامكاناته ولا نهاية لابداعيته ؛ لان تجاوز حدود طبيعته البيولوجية والاستعداد اذا اقتضى الأمر الى الموت لجعل مثل هذا التجاوز ممكنا هما جزء من طبيعة الانسان الأساسية .

ان وراء لوحة الامكانات الانسانية الجديدة التي رسمتها طوال كتاب اسطورة الآلة ، حقيقة عميقة عبر عنها وليم جيمس منذ حوالي قرن قال : « عندما ننظر ، انطلاقا من وجهة نظرنا المتقدمة الى الوراء الى مراحل الفكر الانساني الماضية ندهش من ان العالم الذي يظهر لنا على هذا المستوى من التعقيد الواسع والخفي أمكن ان يبدو لأي انسان شيئا صغيراً جداً وتافها . . . ليس في روح ومبادىء العلم ما يوجب منعه من الاهتمام بنجاح بعالم تكون فيه القوى الشخصية نقطة انطلاق تأثيرات جديدة . فصورة الأشياء الوحيدة التي نلقاها مباشرة والتجربة الوحيدة التي تتوفر لنا بطريقه محسوسة هي حياتنا الشخصية الخاصة ومقولة فكرنا الوحيدة الكاملة ، كما يقول اساتذتنا في الفلسفة ، هي عناصر هذه الحياة المجردة . ان هذا الانكار المنظم من قبل العلم للشخص كشرط للاحداث والاعتقاد الصارم بان عالمنا بطبيعته الخاصة الجوهرية والأكثر عمقا هو عالم ، بوجه الدقة ، لا شخصي ، من المعقول ان نتبين كلما دار دولاب الزمن ان تلك هي الشائبة التي ستذهل أكثر من أي شيء اخر ذرارينا فيما يتعلق بالعلم الذي افاضوا في مدحه انها الاغفال الذي ينزع في نظرهم أكثر ما ينزع الى اظهار العلم قصيراً وضيق الأفق .

لقد دار دولاب الزمن ؛ وما طبقه جيمس على العلم يطبق أيضا على تكنولوجيتنا الاندفاعية المجردة من الشخصية التي تحركها القوة . أمامنا الآن منظور تاريخي كاف لتبين ان هذا الجهاز المؤتمت ذاتيا في الظاهر فيه ، كلاعب الشطرنج « الاوتوماتيكي » القديم ، انسان مختبيء في مجموعة الاته ؛ اننا نعلم الآن ان النظام لم ينبثق مباشرة من الطبيعة كما نراها على الأرض أو في السماء ولكن له صفات تحمل في كل نقاطها خاتم الفكر البشري العاقل في جزء فيه والغبي في جزئه الثاني والشيطاني في الجزء الثالث . ولن يصلح أي ترميم خارجي هذه الحضارة المفرطة القوة التي أصبحت الآن بشكل واضح في المرحلة النهائيه والمتحجرة من تجسيمها : لا شيء يحدث تغييراً مجدياً ما عدا التغيير الجديد الذي بدأ في الفكر الانساني .

ان الذين يعجزون عن قبول ما أدركه وليم جيمس من ان الشخص الانساني كان دائما « منطاق التأثيرات الجديدة » وان أقوى البنى والمؤسسات ظاهراً لا بد لها من ان تنهار حالما تبدأ الأفكار المكونة التي ولدتها بالانحلال ، هم أنبياء جهنم الحقيقيون . ليس هنالك من أمل للانسانية حسب المبادىء التي فرضها المجتمع التكنوقراطي إلا ان تكرس نفسها لمخططات تسارع التقدم التكنولوجي حتى اذا اقتضى الأمر ان تفترس كل أعضاء الانسان الحيوية لتطيل وجود الآلة العملاقة المجرد من المدلول غير ان علينا ان نتصرف ، نحن الذين نبذنا اسطورة الآلة ، والواقع ان أبواب السجن التكنوقراطي ستتفتح اوتوماتيكيا عندما نختار بان نخرج منه على الرغم من مفاصلها القديمة الصدئة .

الفهرس

٣٠٠٠ / ٤ / ١٩٨٢